مُصْطَلَحَاتٌ ومَفَاهِيمٌ شَرْعِيَّةٌ

عَلاهَا غُبَارُ تَأوِيلاتِ وَتَحْرِيفَاتِ المُبْطِلِين، يَجِبُ تَصْحِيْحُهَا

عبد المنعم مصطفى حليمة

" أبو بصير الطرطوسي "

. مقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمدَ لله نحمدُه ونستعينُه ونستغفِرُه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسنا ومن سيئاتِ أعمالنا، من يهدهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضلِل فلا هادِيَ له.

وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾آل عمران: ١٠٢.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾النساء: ١.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾الأحزاب: ٧١-٧٢.

أما بعد: فإنَّ أصدقَ الحديث كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ محدثاتها، وكلَّ محدثةٍ بدعة، وكُلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النار.

اللهمَّ ربَّ جبريلَ وميكائيل وإسرافيلَ، فاطِرَ السماواتِ والأرض، عالِمَ الغيبِ والشَّهادةِ أنت تحكمُ بين عبادِكَ فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنا لما اختُلِفَ فيه من الحقِّ بإذنك، إنَّك تهدي مَن تَشاءُ إلى صراطٍ مُستقيم.

لمَّا كانت الخطوة الأولى والأساس لانحراف السلوك الإنساني عن جادة الحق والصواب تكمن في تشويه وتحريف المفاهيم والمصطلحات الشرعية الهامة . ذات العلاقة بمعاش وسلوك وتصورات الإنسان، وبحياته الدينية والدنيوية . عن معناها ودلالاتها الشرعية الصحيحة كما أرادها الله تعالى وكما أنزلها على رسوله ﷺ .. قَصَدَ أهلُ الباطل وخبراء التحريف والتأويل والتشويه . بكل أطيافهم ومذاهبهم وأحزابهم، لأغراض متباينة في الخبث والمكر والدهاء تختلف من فريق لآخر . إلى تلك المفاهيم والمصطلحات لينفذوا فيها سموم جهلهم وتحريفاتهم وتأويلاتهم الباطلة بُغية إضلال الناس، وصدهم عن الحق ومتابعته!

وقد نجحوا إلى حدٍّ كبير فيما سعوا ولا يزالون يسعون إليه .. وهذا العزوف الكبير لكثير من الناس عن الإسلام .. وعن العمل بتعاليم الإسلام .. وهذا التمدد والتوسع في الاختلاف والتفرُّقِ والتدابر والتناحر بين أبناء الأمة .. والذي أنهَكَ جسدَ الأمَّة .. ما هو إلا ثمرة من ثمار تلك الجهود الكبيرة لمسيرة التحريف والتشويه الطويلة لمقاصد ودلالات تلك المفاهيم والمصطلحات الشرعية!

لذا فإنه يتعين علينا وعلى غيرنا من أهل العلم الصادقين، أن يتفحصوا ـ بين الفينة والأخرى ـ المفاهيم والمصطلحات الشرعية .. وينظروا المفاهيم منها التي علاها غبار تأويلات وتحريفات المبطلين الضالين .. ليزيلوا عنها تلك الغبار والأدران .. والجهالات .. والتحريفات .. ويجددوا لها نصاعتها .. وصفاءها .. ووضوحها .. وعطاءها .. كما كانت .. وكما أُنزلت .. وكما فهمها السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم بإحسان .. عسى أن يعود إليها دورها الهام في إعادة الناس إلى رشدهم .. وإلى دينهم .. وإلى ربهم .. وما ذلك على الله بعزيز.

هذا هو السبب الذي حملني على خط هذا البحث الهام .. وهذا هو الهدف من كتابتي له .. راجياً من الله تعالى العون، والتوفيق، والقبول .. وأن يجعل من عملي هذا مفتاح خير، مغلاق شر .. إنه تعالى سميع قريب مجيب.

وصلى الله على محمد النبي الأمي، وعلى آله وصحبه وسلم.

عبد المنعم مصطفى حليمة

" أبو بصير الطرطوسي "

١٤٢٨/٨/٢٩ هـ. ٢٠٠٧/٩/١١م.

١ – لا إله إلا الله.

أشرف وأجل وأعظم كلمة أوحاها الله تعالى إلى أنبيائه ورسله من لدن آدم عليه السلام إلى نبينا محمد ﷺ هي كلمة التوحيد .. لا إله إلا الله.

أعظم كلمة نطق بها الإنسان منذ أن خلق الله تعالى آدم عليه السلام وإلى يومنا هذا، وإلى أن تقوم الساعة هي كلمة التوحيد .. لا إله إلا الله.

أفضل الذكر .. لا إله إلا الله.

لأجلها خلق الله الخلق، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب ..!

لأجلها تزيَّنت الجنان .. واحمرت واسودَّت النيران ..!

لأجلها شرع الله تعالى الجهاد والقتل والقتال، والسلم والحرب، والولاء والبراء .. وفي سبيلها تُسيَّر كتائب الجهاد والتحرير، ويرخص كل غالٍ ونفيس ..!

هي غاية الغايات وأعظمها .. لا توازيها ـ فضلاً عن أن تعلوها ـ غاية أو مصلحة .. ترخص في سبيلها أشرف الغايات، وأعظم المصالح والمقاصد!

هي أول منازل المرء عندما يخطو نحو الإسلام .. فلا يُقبل منه إسلام ولا عمل من دونها .. وآخر منازل الفراق والخروج من الدنيا .. إذ لو فارق الدنيا على غير التوحيد .. فلا يُقبل منه عمل .. وقد خاب وخسر.

أول ما كان الأنبياء والرسل يبتدئون به أقوامهم .. شهادة التوحيد .. فلا يقدمون على مطلب التوحيد مطلباً .. ولا على مصلحة التوحيد مصلحة مهما عظمت وكبرت!

عُرضت الدنيا كلها على نبينا صلوات الله وسلامه عليه .. مقابل أن يتخلى أو يسكت عن التوحيد .. فأبى إلا أن يأطر الناس أولاً إلى التوحيد.

كلمة بها تُعصَمُ الدماء عند حصول العثرات، ومورد الشبهات ..!

كلمة بها وعلى أساسها يدخل الناس الجنة أو النار؛ فمن وفَّاها حقها وأدى شروطها بصدق وإخلاص دخل الجنة مهما كان منه من عملٍ طالح، ومن أعرض عنها ولم يوفها حقها، ولم يُؤدِّ شروطها .. حقت عليه كلمة العذاب أبداً، مهما كان منه من عملٍ صالح!

قال تعالى:﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾النساء: ٤٨.

وقال تعالى:﴿ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾الأنعام:٨٨.

هي كلمة لو وزِنت بالسماوات والأرض لرجحت عليهن، ولقسمتهن لا إله إلا الله .. كما في وصية نوحٍ عليه السلام ـ لما حضرته الوفاة ـ لابنه:" آمرك بلا إله إلا الله؛ فإن السماوات السبع

والأرضين السبع لو وضعت في كفة، ووضعت لا إله إلا الله في كفة لرجحت بهنَّ، ولو أن السماوات السبع والأراضين السبع كنَّ حلقة مبهمةً لقصمتهنَّ لا إله إلا الله .."[١].

ومع ذلك لم تتعرض كلمة ـ عبر التاريخ وإلى يومنا هذا ـ إلى التشويه والتحريف والتأويل الفاسد كما تعرضت له كلمة التوحيد .. لا إله إلا الله!!

فقد تسلَّطت عليها فِرَق الضلال والأهواء .. ابتداءً بالزنادقة العلمانيين الكافرين، مروراً بالصوفية المنحرفة .. إلى أهل الإرجاء والتجهم .. إلى بعض جيوب السلفية المعاصرة الذين جندوا أنفسهم وعلمهم وأقلامهم للذود عن طواغيت الحكم المجرمين ..!!

فقد أفرغوها ـ بكيدهم ومكرهم وتأويلاتهم الفاسدة الباطلة ـ من دلالاتها ومعانيها ومقاصدها .. وتعاملوا معها مجرد أحرف باردة تُردَّد على الألسن، مع طقطقة حبات السُّبحة، في زوايا المساجد .. من دون أن تلامس حرارة القلوب، أو أن يكون لها أثراً فاعلاً في واقع حياة الناس وعملهم ..!

لم يتعاملوا معها كما أُريد لها أن تكون .. منهج حياة .. منهجاً متكاملاً في التغيير؛ تغيير الأنفس والمجتمعات من أوحال الشرك إلى نور التوحيد، ومن ظلم الجاهلية إلى عدل الإسلام، ومن العبودية للمخلوق ـ أياً كان هذا المخلوق ـ إلى عبادة الله تعالى وحده.

أفرغوها من حقيقتها ومعناها ومن الغاية التي أنزلت لأجلها .. وصوروها للناس على أنها مجرد أحرف باردة يتبرك بها عند الذكر أو التلاوة، لا مساس لها بواقعهم وحياتهم وأعمالهم .. وسلوكياتهم .. وعلاقة بعضهم ببعض!

يكفي ـ على مذهب هؤلاء المحرِّفين الضالين ـ أن تقولها ـ يا عبد الله ـ ولو باللسان مرة واحدة .. وليكن منك بعدها ما يكون من عمل .. وليكن منك بعدها ما يكون من تفريط بما يجب عليك من طاعات وواجبات!

قلها مرةً في العمر .. تكن ـ على مذهب هؤلاء المحرِّفين الضالين ـ من أهل النجاة والإيمان ـ في الدنيا والآخرة ـ وإن لم تعمل بها ولا بشيء من شروطها وواجباتها ومتطلباتها!!

قلها مرةً في العمر .. واعبد بعدها ما تشاء من الآلهة، والأصنام، والطواغيت الآثمين .. فذلك لا يُضيرك ولا يُعيبك في شيء!

وما دمت قد قلتها ـ ولو مرة في العمر ـ فأنت ـ على مذهب هؤلاء المحرِّفين الضالين ـ في حصنٍ منيع من التكفير أو المساءلة، ومن دخول النار .. لك كامل الحقوق .. وأنت فوق الشبهات أو أن يُشك بك وبدينك وإيمانك مهما كان منك من عمل طالح!

---

[١] صحيح الأدب المفرد: ٤٢٦.

هكذا قالوا، وهكذا يقولون للناس، ووُجِد لقولهم هذا كامل القبول والترويج والخدمة من قبل طواغيت الكفر والظلم .. فانعكس ذلك بالدمار والهلاك على العباد، وعلى دينهم وحياتهم .. فالناس في وادٍ وحقيقة هذا الدين في وادٍ آخر، ومع ذلك فإن كثيراً منهم ـ بحكم تلبيس هؤلاء المحرِّفين الضالين ـ يحسبون أنهم ممن يُحسنون صنعاً!

فحظهم من الدين والتوحيد أنهم يتلفظون ـ مجرد تلفظ ـ بشهادة التوحيد في المناسبات وكلما طُلِب منهم ذلك .. ومن دون أن يدروا شيئاً عن معانيها أو شروطها ولوازمها، أو يُلزَموا العمل بها وبمقتضياتها في واقع حياتهم ..!

ولما أصبح الأمر بهذه السهولة؛ وبهذا التسيب والهزل واللامبالاة .. واقتصرت المطالبة على مجرد التلفظ بها من دون أي التزامات أو تبعات أو عمل .. هان على الجميع التلفظ والتستر بها، والإتيان بها كلما طُلبت منهم: فطواغيت الحكم والظلم يتلفظون بها .. والزنادقة الباطنيين يتلفظون بها .. والعلمانيون يتلفظون بها .. وأهل الشرك من عبدة الأوثان يتلفظون بها .. حتى الشيوعيين الملحدين فإنهم يتلفظون بها .. بل ما من كافر وفاجر إلا ووجدناه يتلفظ بها .. وإذا تخاصم اثنان من أهل الفسق والفجور .. تشاتما وتهاترا بها[٢] .. ومن دون أن يجدوا أي تناقض أو تعارض بين واقعهم المنحرف هذا وبين شهادة التوحيد!

أترون أن شهادة التوحيد التي كان يُطالب بها النبيُّ ﷺ الناسَ .. وقاتل عليها العرب والعجم .. وسيَّر لأجلها السرايا والجيوش .. هي شهادة التوحيد بهذا المعنى المنحرف كما يريدها ويُصورها ويُطالب بها أربابُ التحريف والتأويل والتزوير؟!

أترون مشركي قريش ـ وغيرهم من المشركين ـ كانوا سيرفضون التلفظ بشهادة التوحيد .. لو كانوا سيفهمون منها ما فهمه أرباب التحريف والتزوير هؤلاء .. أو كان النبي ﷺ ـ حاشاه! ـ يُطالبهم بها .. ويعني منها ما يروج له أرباب التحريف والتزوير هؤلاء؟!

لكن لما كان الأمر خلاف ذلك كله .. وكان الإقرار بشهادة التوحيد يعني تحطيم الأصنام والأوثان والعجول والبعول .. يعني الكفر بالطاغوت والإيمان بالله .. يعني التحرر والانخلاع من العبودية للعبيد والدخول كلياً في عبادة الله وحده .. يعني الانسلاخ والتخلي والبراء من ظلم وظلام الجاهلية وعاداتها والدخول في نور وعدل وسلم الإسلام .. يعني ميلاداً جديداً .. وعهداً جديداً مع

---

[٢] مما درج عليه كثير من الناس إذا تخاصم أو اختلف الواحد منهم مع الآخر، قال أحدهما للآخر على وجه الإسكات والتوبيخ والتبكيت: وحد الله يا رجل؛ أي اسكت وكفَّ أذاك .. ونحو ذلك ما يفعلونه في مسلسلاتهم ومسرحياتهم الكوميدية المضحكة؛ لغرض إضحاك الناس، عندما يقول الممثل المهرج: وحدوه .. وحدوه .. هكذا يتناولون التوحيد، وهكذا يتعاملون معه!!

نور الإيمان والإسلام .. يعني فقدان الزعماء وطواغيت الحكم لخصائصهم وامتيازاتهم الجائرة التي منحتها لهم شرائع الكفر والظلم والطغيان .. يعني الدخول في الطاعة والانقياد لله تعالى ولرسوله ﷺ .. يعني القيام بواجبات وأركان الدين .. يعني بذلك المهج الأرواح، وكل غالٍ ونفيس في سبيل إعلاء كلمة التوحيد .. يعني فقدان الفوارق والطبقات، والامتيازات التي تُمنح على أساس الفوارق الطبقية .. وغيرها من الفوارق الأرضية .. ومساواة الشريف القوي مع الوضيع الضعيف أمام حكم وشرع الله تعالى .. لما كان الإقرار بشهادة التوحيد يعني ذلك كله .. أبى المشركون إلا الكفر والإعراض والمناجزة والقتال .. ونفروا ونخروا وأدبروا .. وقاموا وهم ينفضون ثياب الكبر والخيلاء، وقالوا:﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ ص:٥. و ﴿ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾الصافات: ٣٥.

فإذا عرفنا ذلك، بقي أن نشير إلى معنى مفهوم شهادة التوحيد " لا إله إلا الله "، كما هو في دين الله تعالى .. وكما يريده الله ورسوله ﷺ .. ليكون الناس على بينة من أمر دينهم وأين هم من الحق .. ومن شهادة أن لا إله إلا الله.

لا إله إلا الله تعني: أن لا مألوه ولا معبود بحق إلا الله تعالى .. فالإله الحق الذي يستحق أن تُصرف له كامل العبادة ـ بمعناها العام والشامل لجميع أنواع العبادة الظاهرة منها والباطنة ـ هو الله تعالى وحده لا شريك له؛ لكمال أسمائه وصفاته .. وأفضاله على خلقه .. ولانتفاء المثيل أو الشبيه أو الند أو الكفء .. الذي يُشابه أو يُشارك الله تعالى في شيء من صفاته وخصائصه ﷻ.

وشهادة التوحيد تقوم على ركنين أساسيين؛ ينتفي التوحيد بانتفائهما أو انتفاء أحدهما:

الركن الأول: المعني من الشطر الأول من شهادة التوحيد " لا إله "؛ وهو يتضمن جانب النفي والبراء والانخلاع من الشرك والمشركين .. والكفر بالطواغيت .. والآلهة المزيفة الكاذبة .. واعتزالهم والبراء منهم وممن يعبدونهم من دون الله ﷻ.

هذا النفي .. وهذا البراء من الشرك والمشركين .. والطواغيت التي تُعبد من دون الله .. يجب أن يكون بالقلب والاعتقاد، واللسان، والعمل معاً .. لا تُجزِئ إحداها عن الأخرى؛ فمن أتي بالنفي والبراء من الشرك والمشركين في القلب والاعتقاد من دون قول اللسان والعمل .. أو أتى بالاعتقاد والقول باللسان .. من دون العمل .. لا يكون قد أتى بالنفي المطلوب والكامل .. ولا يكون ممن حقق في نفسه شهادة التوحيد .. ولا يتم له ذلك إلا بعد أن يأتي بجانب النفي في الاعتقاد، وقول اللسان، والعمل معاً.

كما قال تعالى:﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾الممتحنة: ٤.

ولما سألَ السائلُ النبيَّ ﷺ عن علامات وآيات الإسلام؟ قال ﷺ:" أن تقولَ: أسلمتُ وجهي إلى الله، وتخلَّيتُ، وتُقيم الصلاةَ، وتؤتي الزكاةَ "[٣].

وقوله ﷺ:" وتخلَّيتُ "؛ أي قل ـ ظاهراً وباطناً ـ تخليت وتبرأت من الشرك والمشركين .. والطواغيت التي تُعبد من دون أو مع الله .. وكل ماضٍ لك في جاهليتك يتنافى ويتعارض مع تعاليم الإسلام.

" إلا "؛ أداة استثناء جاءت بعد نفي تُفيد غاية الحصر والقصر .. ولتستثني من الآلهة التي تُعبد، والتي يجب الكفر بها والبراء منها، " الله "؛ فالله تعالى وحده هو المستثنى من هذا الكفر، وهذا البراء والاعتزال .. الذي تضمنه الركن الأول من شهادة التوحيد .. وهو معنى الركن الثاني من ركني التوحيد الذي يُفيد الإثبات بأن الله تعالى وحده المستحق للعبادة .. والذي يجب أن تُصرف إليه وحده عبادة العباد.

هذا الإثبات بأن الله تعالى هو المعبود بحق يكون بالاعتقاد، وقول اللسان، والعمل .. لا تُجزئ إحداها عن الأخرى؛ فمن أتي بالإثبات بالقلب أو بالقلب وقول اللسان من دون عمل الجوارح .. لا يكون قد أتى بالتوحيد المطلوب .. كما أنه لا يستفيد من توحيده الناقص هذا .. ولا يتحقق له التوحيد الكامل والمطلوب إلا إذا أتى بجميع الخصال معاً: اعتقاد القلب، وقول اللسان، وعمل الجوارح.

والحكمة من تقديم جانب النفي على جانب الإثبات في شهادة التوحيد؛ أن الإثبات لو جاء قبل النفي فإن صاحبه لا ينتفع من عبادته لربه ﷻ؛ لأنه يكون بذلك قد خالط التوحيد بالشرك، وقبل أن يتبرأ من الشرك، بخلاف لو أنه قدم جانب النفي على جانب الإثبات فإنه ينتفع من توحيده، ويكون توحيده كاملاً لا شائبة فيه.

هذا المعنى اللطيف والهام لشهادة التوحيد قد دلت عليه جملة من الآيات القرآنية، كما في قوله تعالى:﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ ﴾؛ جانب النفي والكفر والبراء من الطاغوت وعبادته ﴿وَيُؤْمِن بِاللهِ ﴾؛ جانب الإثبات بأن الله تعالى هو المعبود بحق .. فهذا الذي يُحقق في نفسه ركني التوحيد هاذين، ويأتي بالجانبين معاً: جانب النفي والإثبات ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ ﴾؛ أي فقد استمسك بشهادة التوحيد لا إله إلا الله التي ﴿ لاَ انفِصَامَ لها ﴾البقرة:٢٥٦. ولا انقطاع!

---

[٣] صحيح سنن النسائي: ٢٢٨٥.

مفهوم المخالفة أن من لم يحقق في نفسه ركني التوحيد الآنفي الذكر: النفي والإثبات، لا يكون قد استمسك بالعروة الوثقى؛ أي بشهادة التوحيد.

ونحو ذلك قوله تعالى:﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ ﴾؛ جانب الاعتزال والبراء من الشرك والمشركين، وما يعبدون من طواغيت وآلهة مزيفة كاذبة ﴿ إِلَّا اللَّهَ ﴾الكهف:١٦. فإنهم لم يعتزلوا عبادته؛ لأنه الإله الحق الذي يستحق أن يُفرَد بالعبادة.

وكذلك قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾؛ جانب البراء من الطواغيت ومن عبادتهم، وهو الركن الأول من التوحيد، ﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾الزخرف:٢٦-٢٧. جانب الإثبات، وهو الركن الثاني من التوحيد؛ أي إلا الله الذي خلقني فإني لا أتبرأ من عبادته؛ بل أعبده وأخصه بالعبادة وحده لا شريك له.

ونحوه قوله تعالى:﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي ﴾؛ جانب الكفر والبراء من الطواغيت المعبودين من دون الله، وإعلان العداوة والبغضاء لهم، وهذا من تمام البراء والكفر بهم، وهو يمثل الركن الأول من شهادة التوحيد، ﴿ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾الشعراء:٧٥-٧٧. فهو ﷻ مستثنى من تلك العداوة؛ لأنه ربي ورب العالمين المستحق وحده للعبادة، وهذا الاستثناء الذي تبعه إثبات وإقرار، يمثل الركن الثاني من شهادة التوحيد.

هذه الآيات وغيرها تفيد أن المشركين كانوا مقرين بجانب من توحيد الربوبية، وكانوا يعبدون الله تعالى من جهة توحيد الربوبية، كما قال تعالى:﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾يوسف:١٠٦. فهم آمنوا بالربوبية وأشركوا بالألوهية، ونحو ذلك قوله تعالى:﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾العنكبوت:٦١. وقوله تعالى:﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾لقمان:٢٥. فهم كانوا مقرين بأن الله تعالى هو الخالق لهذا الكون ومن فيه، المتصرف بخلقه وفق مشيئته وحكمته، لكنهم كانوا يُشركون معه آلهة أخرى من جهة توحيد الألوهية والعبادة .. فيعبدون معه آلهة أخرى؛ لذا لو جاء البراء مطلقاً مما يعبدون من دون استثناء الخالق ﷻ المستحق للعبادة لعم البراء من جميع ما يعبدون: الله تعالى .. والآلهة الأخرى .. وهذا لا يجوز.

كما ندرك فساد تفسير شهادة التوحيد بتوحيد الربوبية وحسب؛ كقول القائل عن معنى " لا إله إلا الله "؛ أي لا خالق ولا ضار ولا نافع ولا متصرف في هذا الكون إلا الله .. فهذا التفسير خاطئ وقاصر .. بل كثير من المشركين يقولون به .. ومع ذلك كثير ممن يُنسب للقبلة وأهلها في زماننا يفسر التوحيد بهذا المعنى الآنف الذكر .. ثم يحسب نفسه أنه على حق، وأنه ممن

يُحسنون صنعاً![٤].

وفي الحديث فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" من قال لا إله إلا الله، وكفرَ بما يُعبد من دون الله حَرُمَ مالُه ودمُه، وحسابُه على الله " مسلم.

وقوله ﷺ " وكفرَ بما يُعبد من دون الله "؛ ليس هو مطلب آخر مع شهادة التوحيد خارج عنها وعن معناها وشروطها، بل هو توكيد لشرطها وشطرها وركنها الأول المتضمن لجانب النفي " لا إله " المتضمن لمعنى البراء والكفر بكل ما يُعبد من دون الله.

واعلم أن لشهادة التوحيد شروطاً، تنتفي ـ وينتفي الانتفاع بها ـ بانتفائها أو انتفاء شرط واحد منها، وهي: النطق والإقرار، والكفر بالطاغوت، والعلم، والصدق والإخلاص، وانتفاء الشك وحصول اليقين، والعمل بها، ومحبتها ومحبة أهلها محبة تنافي الكره والبغض، والرضى بها والانقياد والتسليم لها، والموافاة عليها[٥].

كما أن لشهادة التوحيد حقوقاً وواجبات ينتقص التوحيد ويضعف على قدر الانتقاص من تلك الحقوق والواجبات، ويقوى ويزداد على قدر تحققها والقيام بها؛ وهي جميع ما فرض الله تعالى على عباده من الفرائض والطاعات، كالصلاة، والزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً، والجهاد في سبيل الله وغيرها من الأعمال الواجبة[٦].

قال رسول الله ﷺ:" أُمِرتُ أن أقاتلَ الناسَ حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسولُ الله، ويُقيموا الصلاةَ، ويُؤتوا الزكاةَ، فإذا فعلوا ذلك عَصَمُوا مني دماءَهُم وأموالَهم إلا بحقِّ الإسلام، وحسابُهم على الله " متفق عليه.

وقال ﷺ:" أُمرتُ أن أقاتلَ الناسَ حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بِي وبما جِئتُ به، فإذا فعلوا ذلك عَصَمُوا مني دماءَهم وأموالَهُم إلا بحقها، وحسابُهم على الله " مسلم.

وعن ابن الخصَاصية السَّدوسي قال: أتيت رسولَ الله ﷺ أبايعه فاشترط عليَّ أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، وتصلي الخمسَ، وتصومَ رمضانَ، وتؤدِّي الزكاةَ، وتحجَّ البيتَ، وتجاهدَ في سبيلِ الله، فقلت: يا رسولَ الله أما اثنتان فلا أطيقهما: الزكاة؛ فوالله مالي إلا عَشر ذَودٍ ـ أي من الإبل ـ هنَّ رسلُ أهلي وحمولتهم، وأما الجهادُ فيزعمون أنه من ولى الدُّبرَ فقد باءَ بغضبٍ من

---

[٤] شهادة التوحيد شاملة لأقسام التوحيد الثلاثة معاً: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الله تعالى في أسمائه وصفاته، كما بينا ذلك في كتابنا " شروط لا إله إلا الله "، فراجعه إن شئت.

[٥] قد تناولنا شرح هذه الشروط وأدلتها بشيء من التفصيل في كتابنا " شروط لا إله إلا الله "، فراجعه إن شئت.

[٦] باستثناء فريضة الصلاة؛ فإنها شرط لصحة التوحيد، ينتفي التوحيد بانتفائها .. كما بينا ذلك في كتابنا " حكم تارك الصلاة "، وكتاب " أعمال تُخرج صاحبها من الملة "، فراجعهما إن شئت.

الله، فأخافُ إذا حضرني قتالٌ خشَعَت نفسي فكرهتُ الموتَ! فقبض رسولُ الله ﷺ يدَه وحرَّكَها، وقال:" لا صَدَقَة ولا جِهادَ فبِمَ تَدخلُ الجنَّةَ ؟!"، فبايعته عليهنَّ كلَّهن[٧].

وقال ﷺ:" لا إله إلا الله تمنع من سَخَطِ الله ما لم يُؤثِروا سَفعةَ دنياهم على دينهم، فإذا فعلوا ذلك، ثم قالوا لا إله إلا الله، قال الله: كذبتم "[٨].

هذه هي شهادة التوحيد .. فانظر ـ يا عبد الله ـ أين أنت منها .. ولكي تعرف مدى قربك أو بعدك عنها، سَلْ نفسكَ الأسئلة التالية، ثم اصدق نفسك في الإجابة عنها: هل شهادة التوحيد هي التي توجهك وتسيرك .. وتحدد مواقفك في هذه الحياة .. أم لك موجهات ومؤثرات أخرى غيرها ..؟!

هل تعيش مع شهادة التوحيد .. وشهادة التوحيد تعيش معك .. في جميع تقلباتك وأطوارك .. وسكناتك وأحوالك .. وأنفاسِك .. وتعاملك مع نفسك والآخرين .. أم أنك تعيش مع غيرها؟!

عند مورد النزاع والاختلاف تحتكم إليها أم أنك تحتكم إلى غيرها ..؟!

على أي أساس تفسر الأشياء .. وتفهم الأشياء .. وتحدد موقفك منها سلباً وإيجاباً .. سلماً وحرباً .. حباً وجفاءً .. على أساسها أم على أسس أخرى غيرها؟!

هل تحبها .. وتحب أهلها .. أم أنك ممن يحبون أعداءها .. ثم بعد ذلك تزعم ـ زوراً ـ أنك من أوليائها وممن يحبونها؟!

هل تنتفع منها ومن ثمارها وعطائها كل حين .. أم أنك عنها وعن عطائها وثمارها من الغافلين الزاهدين؟!

فللتوحيد عطاء مستمر لا ينضب ولا يتوقف، مهما غرف منه الغارفون، وتفقه فيه المتفقهون، كما قال تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء . تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾إبراهيم: ٢٤-٢٥.

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾؛ ببصرك وبصيرتك .. وبقلبك وفكرك؛ فالنظر في الأشياء لا يكتمل إلا إذا جمع بين نظر البصر والبصيرة معاً .. وهذا لا يجتمع إلا للمؤمن، أما الكافر فتقتصر رؤيته للأشياء على رؤية البصر وحسب .. ﴿ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً ﴾؛ للتأمل والاعتبار والتدبر .. لتتضح المقاصد .. ويظهر المخبوء من المعاني ﴿ كَلِمَةً ﴾؛ وهي شهادة التوحيد؛ لا إله إلا الله التي لو وزنت

---

٧ قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط، واللفظ للطبراني، ورجال أحمد موثقون.

٨ قال الهيثمي في الزوائد ٢٧٧/٧ : رواه البزار، وإسناده حسن. وقوله " سفعة دنياهم "؛ أي عطاء دنياهم.

بالسماوات والأرض لرجحت عليهن لا إله إلا الله .. ولو كن حلقةً مبهمة لقصمتهنَّ لا إله إلا الله ﴿ طَيِّبَةً ﴾؛ طيبةً في أحرفها وكلماتها وذكرها .. طيبة في معناها .. طيبة في عطائها وثمارها وآثارها .. طيبة في نتائجها لمن يُختم له بها .. طيبتها ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾؛ طيبة في شموخها .. وقوتها .. ومتانتها .. وظلها .. وثمارها .. وطعمها .. ونفعها للناس .. ﴿ أَصْلُهَا ﴾؛ أي جذورها متينة وممتدة .. وضاربة في أطناب الأرض وأعماقها .. ترشف من التربة صفوة الغذاء وأنقى الماء .. مما يجعلها ﴿ ثَابِتٌ ﴾؛ ثابتة قوية تستعصي على الرياح والمخاطر .. وتقلبات الطقس .. ﴿ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء ﴾؛ ممتد على قدر امتداد جذورها في الأرض .. يستمد غذاءه وقوته ونضارته وخضرته .. من الجذور الممتدة في الأرض .. وكذلك الجذور تستمد كثيراً من غذائها وقوتها من الفروع والغصون الممتدة في السماء .. فكل منهما الجذور والفروع يؤثِّر ويتأثَّر بالآخر .. وهكذا شهادة التوحيد " لا إله إلا الله "؛ فهي ضاربة بجذورها في قلب الإنسان المؤمن ـ لا تضرها فتنة ولا شبهة ولا شهوة .. فلا يقوى مع التوحيد شيء .. فالتوحيد يحرق الشبهات ويهذِّب الشهوات ـ تستمد من أعمال القلب الإيمانية غذاءها ورحيقها وماءها .. ليثمر هذا الغذاء .. فروعاً صالحة معطاءة تظهر على الجوارح والبدن .. فالقلب إذا عُمِرَ بالتوحيد أينعت ثماره على الجوارح الظاهرة .. ولا بد .. وكما أن التوحيد في القلب يؤثر في عطاء الجوار قوة وضعفاً بحسب قوة وضعف التوحيد في القلب .. كذلك فإن التوحيد في القلب يتأثر سلباً أو إيجاباً مما يعتري الجوارح الظاهرة من قوة أو ضعف .. بحسب نوع الأعمال .. كالشجرة تماماً .. التي تتأثر جذورها بفروعها وفروعها بجذورها .. يصدق ذلك قوله ﷺ:" ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت " بالتوحيد " صلح الجسد كله، وإذا فسدت " بالشرك " فسد الجسد كله " البخاري. فكل من الظاهر والباطن يؤثر ويتأثر بالآخر، ويدل عليه.

هذه الشجرة الطيبة المباركة ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا ﴾؛ أي ثمارها وعطاءها وخيرها ﴿ كُلَّ حِينٍ ﴾؛ أي كل وقت من غير انقطاع ولا توقف .. فهي ليست موسمية العطاء .. بل عطاؤها ممتد طيلة المواسم والفصول .. وكذلك كلمة التوحيد فعطاؤها مستمر في كل حين ووقت من غير توقف ولا انقطاع .. فخيرها لا ينضب .. وهو ممتد ومستمر على مدار الفصول والشهور والأيام والساعات .. واللحظات .. لا غنى للمرء عنه ولو لبرهة واحدة.

هذا الخير العظيم وهذا العطاء المبارك للشجرة المباركة .. لا يتحصل صدفة .. أو من تلقاء نفسها .. أو لمجرد العوامل الطبيعية المحيطة بها .. كما يظن الجاحدون الكافرون .. كلا ليس شيئاً من ذلك .. بل هو يحصل ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾؛ الذي خلقها، وخلق كل ما تحتاج إليه من عوامل وعناصر وغذاء .. ليستوي عطاؤها وجمالها .. وتستوي ثمارها .. كذلك شهادة التوحيد .. فهي تُخرج الناس

من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد .. ومن ظلم وظلام الشرك .. إلى عدل ونور التوحيد .. وتنفع صاحبها يوم القيامة .. لكن هذا كله يتم بإذن الله تعالى ومشيئته، فالله تعالى هو الهادي؛ يهدي من يشاء ويُضل من يشاء .. ومن يهده الله فهو المهتد .. ومن يُضلل فلا هادي له .. ﴿ يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاءُ ﴾إبراهيم:٢٧. والقول الثابت هو شهادة التوحيد؛ لا إله إلا الله .. ﴿ وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾، أي يعتبرون ويتفكرون .. ويتذكرون جميع المعاني الآنفة الذكر .. فينتفعون من تلك الأمثال التي يضربها الله للناس[٩].

هذه الأسئلة ـ الآنفة الذكر أعلاه ـ إن صدقت نفسك في الإجابة عنها عرفت أين أنت من شهادة التوحيد .. وأين موقعك منها ومن أهلها .. وعلمت هل أنت ممن ينتمون إليها وإلى أهلها حقّاً .. أم ممن ينتسبون إليها وإلى أهلها اسماً وزوراً!

* * * * *

٢ – مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

[٩] أصارحكم القول: أنني كلما ضربت في فلاةٍ ورأيتُ شجرة ضخمة ضاربة الجذور في الأرض والتاريخ، شامخة الامتداد في السماء، وافرة العطاء والثمر .. تذكرت شهادة التوحيد؛ لا إله إلا الله.

كثيرٌ هؤلاء الذين يتعاملون مع شخص الحبيب المصطفى ﷺ على أنه مجرد رمز لدين وأمة .. يُتبرّك باسمه وذكره .. حقه عليهم أن يحتفلوا بميلاده وذكره مرة في العام .. ثم ينسونه طيلة أيام العام!

كثيرٌ هؤلاء الذين يشهدون أن محمداً رسولُ الله .. وأنه نبي مُرسل .. وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين .. لكن لا تتعدى شهادتهم هذه ساحة التصديق القلبي، واللفظ باللسان إن طُلب منهم ذلك .. بينما في العمل وواقع حياتهم .. يعصونه ولا يُطيعونه .. ولا يتبعونه .. ولا يوقرونه .. ولا يُحلون حلاله ولا يُحرمون حرامه .. يُعقبون عليه وعلى حكمه .. يُقدمون حكم وشرع الطاغوت .. وأذواقهم وأهواءهم التي يسمونها بالعقليات والسياسات .. على حكمه وسنته وشرعه المنزَّل .. يوالون أعداءه عليه وعلى دينه وأتباعه .. ثم هم ـ مع هذا الإثم العظيم ـ يزعمون أنهم ممن يشهدون أن محمداً رسولُ الله .. وأنهم من أتباعه .. وأنهم ممن يُحسنون صنعاً .. وأن شهادتهم هذه نافعتهم يوم الدين!

يشهدون أن محمداً رسولُ الله .. ثم في المقابل يأبون أن يحتكموا إليه .. أو يرجعوا إليه فيما قد تنازعوا فيه .. ولو احتكموا إليه لا يرضون بحكمه .. ولا يسلموا له تسليماً!

يشهدون أن محمداً رسولُ الله .. ثم في المقابل يُعلنون الحرب تلو الحرب عليه .. وعلى دينه .. وشرعه .. وأتباعه المؤمنين الموحدين المجاهدين!

يشهدون أن محمداً رسولُ الله .. بينما أسوتهم .. ومثلهم الأعلى غير محمد ﷺ!

يشهدون أن محمداً رسولُ الله .. ثم في المقابل يحبون أشياء وأشياء أكثر من محمدٍ رسول الله ﷺ .. ولو خيروا بينها وبين النبي المصطفى ﷺ .. لقدموها عليه .. ولشحوا بها عليه وعلى دينه وسنته!

ومن هؤلاء من يتبع محمداً ﷺ فيما يُلامس هواه ويميل إليه .. أو فيما لا يترتب عليه تبعات في حياته ومعاشه .. فإن جاء حكم محمد ﷺ أو اتباع سنته ﷺ بخلاف ما يهوى ويريد .. أو كان اتباعه سيترتب عليه تبعات .. ومواقف .. ومفاصلة .. وولاء وبراء .. وبذل وتضحية وعطاء .. أعرض واعترض ونأى بجانبه .. كأنه لا يعرف هذا النبي العظيم .. وليس من أتباعه!

ولهؤلاء جميعاً نصارحهم القول، وبكل وضوح: أنكم لستم على شيء .. لم تؤمنوا بعد .. ولم تشهدوا بعد أن محمداً رسولُ الله .. ولم تعرفوا بعد معنى أن محمداً رسول الله .. مهما كررتموها على ألسنتكم .. وحبات سُبحتكم .. أو تسميتم باسمه الشريف .. ما دمتم على هذا الوصف الشنيع الآنف الذكر أعلاه!

لا يغرنكم ما تسمعونه من مشايخ التجهم والإرجاء الخبثاء .. الذين يزينون واقعكم الباطل هذا .. ويصورون لكم أنكم قد جئتم بالمطلوب .. وبما يحقق لكم النجاة .. فهؤلاء يكذبونكم الحديث ولا يصدقون!

شهادة أن محمداً رسولُ الله ﷺ .. تعني أن تُطيعه فلا تُقدم على طاعته طاعة مخلوق، كما قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾النساء:٥٩.

وقال تعالى:﴿ قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ ﴾؛ أمر يُفيد الوجوب ﴿ فإِن تَوَلَّوْاْ ﴾؛ وأبوا وأعرضوا عن طاعة الله والرسول ﷺ ﴿ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾آل عمران:٣٢.

وقال تعالى:﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ إلى أمر غيره ﴿ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أي شرك، فتحبط أعمالهم ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾النور:٦٣. في الدنيا قبل الآخرة.

قال ابن تيمية في الصارم ص٥٦: قال الإمام أحمد:" نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول ﷺ في ثلاثة وثلاثين موضعاً، ثم جعل يتلو:﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾. وجعل يكررها، ويقول: وما الفتنة؟ الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيزيغ قلبه فيهلكه.

وقيل له: إن قوماً يدعون الحديث، ويذهبون إلى رأي سفيان! فقال: أعجب لقوم سمعوا الحديث وعرفوا الإسناد وصحته يدعونه ويذهبون إلى رأي سفيان وغيره! قال الله تعالى:﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ وتدري ما الفتنة ؟ الكفر. قال الله تعالى:﴿ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾البقرة:٢١٧. فيدعون الحديث عن رسول الله ﷺ، وتغلبهم أهواؤهم إلى الرأي ..؟!" ا– هـ.

هذا فيمن يدع قول النبي ﷺ ويذهب إلى رأي عالم مجتهد كسفيان الثوري .. فما يكون القول فيمن يدع قول النبي ﷺ ويذهب إلى آراء وأقوال وأحكام الطواغيت الكافرين .. لا شك أنه أولى بأن تصيبه فتنة، وأن يقع في الشرك.

وقال تعالى:﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا ﴾الأحزاب:٦٦.

وفي الحديث فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" كلُّ أمتي يَدخلون الجنة إلا من أبى "، قيل: ومن يأبى يا رسولَ الله؟ قال:" من أطاعني دخلَ الجنَّةَ، ومن عصاني فقد أبى " البخاري.

وعن أبي سلمة أن أبا هريرة، قال لرجل:" يا ابن أخي، إذا حدثتُكَ عن رسول الله ﷺ حديثاً فلا تضرب له الأمثال[١٠]". كأن تقول: كما قال فلان وفلان .. أو ولكن قال فلان

---

[١٠] صحيح سنن ابن ماجه:٢٠.

وفلان .. فهذا يتنافى مع الأدب .. وكمال الطاعة والانقياد.

وكان ابن عباس يقول: يوشك أن تنزلَ عليكم حجارةٌ من السماء؛ أقول: قال رسول الله، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟!

شهادة أن محمداً رسولُ الله ﷺ .. تعني أن تحتكم إلى محمد ﷺ وإلى سنته .. وترضى بحكمه من غير حرج، ولا ممانعة أو مدافعة، وتُسلم له تسليماً، كما قال تعالى:﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾النساء:٦٥.

قال ابن تيمية في الفتاوى ٤٧١/٢٨: فكل من خرج عن سنة رسول الله ﷺ وشريعته، فقد أقسم الله بنفسه المقدسة أنه لا يؤمن حتى يرضى بحكم رسول الله ﷺ في جميع ما شجر بينهم من أمور الدين والدنيا، وحتى لا يبقى في قلوبهم حرج من حكمه، ودلائل القرآن على هذا الأصل كثيرة ا– هـ.

وقال ابن القيم:" أقسم سبحانه بنفسه المقدسة قسماً مؤكداً النفي قبله، عدم إيمان الخلق حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم من الأصول والفروع، وأحكام الشرع، وأحكام المعاد وسائر الصفات وغيرها، ولم يثبت لهم الإيمان بمجرد هذا التحكيم حتى ينتفي عنهم الحرج؛ وهو ضيق الصدر، وتنشرح صدورهم لحكمه كل الانشراح وتنفسح له كل الانفساح، وتقبله كل القبول، ولم يثبت لهم الإيمان بذلك أيضاً حتى ينضاف إليه مقابلة حكمه بالرضى والتسليم وعدم المنازعة، وانتفاء المعارضة والاعتراض "ا– هـ.

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً ﴾الأحزاب : ٣٦. فليس لهم إلا التسلم والرضى .. أما إن أبوا إلا الاختيار .. وأن يُعرِضوا قضاء وحكم الله ورسوله إلى الاختيار .. ورفع الأيدي وخفضها؛ من يريده ومن لا يُريده .. ثم يكون الاختيار موافقاً لرغبة الأكثرية وإن جاء اختيارها مخالفاً ومعارضاً لقضاء الله ورسوله . على طريقة الديمقراطيين الكافرين . فهؤلاء بنص القرآن الكريم .. ليسوا بمؤمنين!

وقال تعالى:﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ﴾؛ هذا بلسانهم .. لكن في واقع عملهم وحياتهم ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾ عن الطاعة والتحاكم إلى الله والرسول ﷺ ﴿ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ ﴾؛ أي من بعد أن صرحوا بلسانهم أنهم آمنوا وأطاعوا .. لكن لما كان واقعهم وعملهم يكذب ادعاءهم وزعمهم هذا حكم عليهم الرب ﷻ بالكفر والنفاق ﴿ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾النور:٤٧.

هذا قول المنافقين وصنيعهم .. أما قول المؤمنين وصنيعهم .. فهو كما قال تعالى:﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾؛ من دون أن

يُتبعوا قولهم هذا إعراض أو اعتراض أو تولي وإدبار .. وهم لأجل ذلك استحقوا ثناء الخالق ﷻ عليهم ﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾النور: ٥١. الفائزون.

شهادةُ أن محمداً رسولُ الله ﷺ .. تعني أن تُرد إلى محمد ﷺ وإلى سنته النزاعات وما اختُلِفَ فيه .. وليس إلى الشعب .. أو الأكثرية .. أو الأحزاب .. أو غيرهم من الناس، كما قال تعالى:﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ ﴾؛ صيغة نكرة تفيد العموم والشمول؛ أيّ شيء ﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾النساء: ٥٩. أي ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾؛ فردوا ما تنازعتم فيه ﴿ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾، فإن انتفى الرد إلى الله وإلى الرسول ﷺ انتفى الإيمان بالله واليوم الآخر، ودل أنكم لا تؤمنون بالله واليوم الآخر؛ فالإيمان بالله شرطه ولازمه حصول الرد إلى الله والرسول ﷺ، والرد إلى الله ورسوله بعد وفاة النبي ﷺ يكون بالرد إلى الكتاب والسنة.

شهادةُ أن محمداً رسولُ الله ﷺ .. تعني أن لا تُقدم ولا ترفع قولاً أو حكماً أو شخصاً على قول وحكم وشخص الرسول ﷺ، كما قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾الحجرات: ١-٢.

هذا فيمن يرفع مجرد صوته فوق صوت النبي ﷺ .. يُخشى عليه أن يحبط عمله . ولا يُحبط العمل إلا الشرك . وهو لا يشعر ولا يدري .. فكيف بمن يرفع قوله وحكمه أو قول وحكم غيره من البشر على قول وحكم الرسول ﷺ .. لا شك أنه أولى بأن يحبط عمله، وأن يكون من الخاسرين.

قال ابن تيمية في الصارم، ص٥٥:" أي حذَر أن تحبط أعمالكم، أو خشية أن تحبط أعمالكم، أو كراهة أن تحبط أعمالكم، ولا يحبط الأعمال غير الكفر؛ لأن من مات على الإيمان فإنه لا بد أن يدخل الجنة ويخرج من النار إن دخلها، ولو حبط عمله كله لم يدخل الجنة قط، ولأن الأعمال إنما يحبطها ما ينافيها، ولا ينافي الأعمال مطلقاً إلا الكفر ... فإذا ثبت أن رفع الصوت فوق صوت النبي والجهر له بالقول يُخافُ منه أن يكفر صاحبه وهو لا يشعر، ويحبَط عمله بذلك، وأنه مظنة لذلك وسبب فيه، فمن المعلوم أن ذلك لما ينبغي له من التعزير والتوقير والتشريف والتعظيم والإكرام والإجلال، ولِما أن رفع الصوت قد يشتمل على أذى له واستخفاف به، وإن لم يقصد الرافع ذلك، فإن كان الأذى والاستخفاف الذي يحصل في سوء الأدب من غير قصد صاحبه، يكون كفراً، فالأذى والاستخفاف المقصود المتعمد، كفر بطريق الأولى "ا- هـ.

وقال ابن القيم في الأعلام ١/٥١: فإذا كان رفع أصواتهم فوق صوته سبباً لحبوط أعمالهم فكيف تقديم آرائهم وعقولهم وأذواقهم وسياساتهم ومعارفهم على ما جاء به ورفعها عليه؟! أليس هذا أولى أن يكون مُحبطاً لأعمالهم ا– هـ.

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: مَن رفعَ رجلاً في رتبة النبيِّ ﷺ كفرَ وحلَّ مالُه ودمه، ولم تنفعه الشهادتان ولا الصلاة [١١]ا– هـ.

هذا فيمن يرفع رجلاً إلى رتبة النبي ﷺ .. فكيف بمن يرفع رجلاً فوق رتبة النبي ﷺ .. فما حكمه .. وما يكون القول فيه؟!

شهادة أن محمداً رسولُ الله ﷺ .. تعني أن تُفرد محمداً ﷺ في المتابعة والانقياد فلا تتبع إلا إياه .. وما سواه تتبعه ـ على بينة وبصيرة ـ من أجل متابعته لرسول الله ﷺ .. وفيما تابع فيه رسولَ الله ﷺ، فإن عصى أو خالف أبا القاسم ﷺ فلا طاعة له، كما قال تعالى:﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾آل عمران:٣١. فمن علامات حب الله تعالى لعبده، وحب العبد لربه ﷻ .. متابعة النبي ﷺ .. فعلى قدر المتابعة تكون المحبة .. وعلى قدر المحبة تكون المتابعة .. فكل منهما لازم وملزوم للآخر .. ومن ينتفي عنه مطلق المتابعة للرسول ﷺ .. كان ذلك دليلاً ظاهراً على انتفاء مطلق محبته لخالقه ﷻ .. ومحبة الخالق ﷻ له .. ومن تنتفي عنه مطلق المحبة لخالقه ﷻ لا يكون مؤمناً.

وفي الحديث عن جابر، أن عمر بن الخطاب، أتى رسولَ الله ﷺ بنسخةٍ من التوراة، فقال: يا رسولَ الله! هذه نسخة من التوراة، فسكت، فجعل يقرأ ووجه النبي ﷺ يتغير، فقال أبو بكر: ثكلتك الثواكل! ما ترى ما بوجه رسول الله ﷺ ـ أي من الغضب ـ؟! فنظر عمر إلى وجهِ رسولِ الله ﷺ، فقال: أعوذُ بالله من غضب اللهِ وغضب رسولِه، رضينا بالله رباً، وبالإسلامِ ديناً، وبمحمدٍ نبياً. فقال رسول الله ﷺ:" والذي نفسُ محمدٍ بيده، لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم عن سواء السبيل، ولو كان حياً وأدركَ نبوتي لا تبعني " [١٢].

قلت: هذا فيمن يتبع نبي الله موسى عليه السلام ويترك محمداً صلوات ربي وسلامه عليه، فكيف بمن يترك النبي ﷺ وتعاليمه .. ويتبع حزب البعث وطواغيته .. أو الحزب الشيوعي وطواغيته .. أو غيرها من الأحزاب الاشتراكية والقومية والديمقراطية والليبرالية والعلمانية السائدة في بلاد المسلمين .. فهذا لا شك أنه أولى بالضلال .. وأنه لا حظَّ له في الإسلام، مهما زعم بلسانه أنه من المسلمين .. وأنه يشهد أن محمداً رسول الله؟!

---

[١١] عن مجموعة التوحيد، ص ٨٢.

[١٢] رواه الدارمي، مشكاة المصابيح:١٩٤، وانظر صحيح الجامع الصغير: ٥٣٠٨.

شهادة أن محمداً رسولُ الله ﷺ .. تعني أن تحب محمداً ﷺ .. وتُحب طاعته ومتابعته .. أكثر من النفس، والمال، والوالد، والولد، والزوجة، والعشيرة .. والدنيا كلها، كما قال تعالى:﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾التوبة: ٢٤.

وفي الحديث، فقد صح عنه ﷺ أنه قال:" لا يؤمنُ أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من والدهِ وولده، والناسِ أجمعين " متفق عليه.

وفي رواية عند مسلم، قال ﷺ:" لا يؤمنُ عبدٌ حتى أكونَ أحبَّ إليه من أهله ومالِه والناسِ أجمعين ".

وعن عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ:" لا والذي نفسي بيده حتى أكونَ أحبَّ إليكَ من نفسِك "، فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحبُّ إليَّ من نفسي، فقال النبي ﷺ:" الآن يا عمر " البخاري. أي الآن عرفت الحق فنطقت به يا عمر.

هذا الذي تعنيه شهادة أن محمداً رسولُ الله .. فانظر أين أنت منها ومن أهلها .. وحاسب نفسك قبل أن تُحاسَب .. فتندم، ولات حين مَندم.

* * * * *

٣- العِبَادَة.

اعلم يا عبد الله أن الله تعالى لم يخلق العبادَ عبثاً من غير غاية ولا منهاج ينتهجونه في هذه الحياة .. يُحدد لهم معالم الطريق .. ويبين لهم الحق من الباطل .. والخير من الشر .. يوصلهم إلى مرضاة ربهم ﷻ .. وإلى ما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة .. فهذا يتنافى مع كمال أسمائه الحسنى وصفاته العليا؛ فالله تعالى الذي له الأسماء الحسنى والصفات العليا منزه عن العبث أو أن يخلق عباده عبثاً من غير غاية، ولا متابعة ولا مُحاسبة، كما قال تعالى:﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾المؤمنون:١١٥-١١٦.

واعلم أن الله تعالى لم يخلق العباد لغاية أو لشيء إلا لغاية واحدة فقط؛ ألا وهي عبادته ﷻ وتوحيده .. فالغاية من خلق الإنسان ووجوده في هذه الحياة أن يعبد الله تعالى وحده لا شريك له .. فلا يخص بالعبادة أحداً سواه.

فعبادة الله تعالى وحده هي غاية الغايات .. التي ترخص وتهون في سبيلها الوسائل والغايات .. لا يجوز أن يُقدَّم عليها غاية .. أو يُشغل عنها بغاية أخرى مهما عظمت أو علا شأنها.

قال تعالى:﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ ﴾؛ لشيء أو لغاية ﴿ إِلَّا ﴾؛ أداة استثناء أتت بعد نفي لتستثني من النفي غاية واحدة فقط؛ وهي ﴿ لِيَعْبُدُونِ ﴾الذاريات:٥٦. أي ليخصوا الله تعالى وحده بالعبادة .. وإفراد الله تعالى وحده بالعبادة، هو الغاية من خلق الله تعالى للجن والإنس .. بل ومن خلق الخلق كله.

ونحو ذلك قوله تعالى:﴿ وَمَا أُمِرُوا ﴾؛ أي لم يُؤمروا بشيء ﴿ إِلَّا ﴾؛ أداة استثناء أتت بعد نفي لتستثني من نفي مطلق الأمر أمراً واحداً فقط، وهو ﴿ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾التوبة:٣١.

وكذلك قوله تعالى:﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾البينة:٥.

وقوله تعالى:﴿ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ﴾؛ ليس أمراً آخر غير الأمر بعبادة لله تعالى وحده، فالصلاة والزكاة تدخلان دخولاً كلياً في معنى ومسمى العبادة التي يجب أن تُصرف لله تعالى وحده .. وإنما هو من قبيل ذكر الخاص من العام، للتأكيد على هذا الخاص، وبيان أهميته ومكانته بين الطاعات والأعمال التي تدخل في معنى ومسمى العبادة.

وقال تعالى:﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً ﴾؛ لماذا .. وما هي المهمة والغاية التي أرسلوا لأجلها؟

﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾؛ أن يأمروا الأمم والشعوب التي أرسلوا إليها بأن يخصوا الله تعالى وحده بالعبادة .. وأن يصرفوا إليه جميع ما يدخل في معنى ومسمى العبادة .. ﴿ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾النحل:٣٦. أي اعتزلوه، واعتزلوا عبادته؛ فلا تخصوه بشيء ـ مهما دقَّ ـ مما يدخل في معنى ومسمى العبادة.

ونحو ذلك قوله تعالى:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾الأنبياء:٢٥. فالدعوة إلى عبادة الله تعالى وتوحيده .. هي مهمة ودعوة جميع الأنبياء والرسل من لدن أبينا آدم عليه السلام إلى نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه .. وهي الغاية من إرسالهم .. وبالتالي فإن من يخرج من العباد عن عقيدة التوحيد .. وعبادة الخالق ﷻ .. إلى عقائد الشرك والتنديد .. وعبادة المخلوق .. لا يُمكن أن يُصنَّف على أنه من أتباع الرسل أو أحدٍ منهم!

وفي الحديث القدسي:" إنَّ الله عز وجل قال: إنا أنزلنا المالَ لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة "[١٣]. فالمال وسيلة أُنزل لتسهيل وتحقيق غاية عبادة العباد لربهم ﷻ .. وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة .. فاحذر ـ يا عبد الله ـ أن تجعل الغاية وسيلةً والوسيلة غاية .. أو أن تنشغل بالوسيلة عن الغاية .. وما أكثر الذين يجعلون الوسائل غايات على حساب الغايات والمقاصد الكبرى!

واعلم ـ يا عبد الله ـ أن لله عليك حقاً لا يجوز أن تُقدِّم عليه حقاً .. ولا أن تنشغل بحقٍّ من حقوقك أو حقوق العباد عن حقه عليك .. فإن تزاحمت الحقوق عليك .. فحق الله تعالى يعلو ولا يُعلى عليه .. ويُقدَّم ولا يُقدَّم عليه .. وحقُّه عليك أن تعبده ولا تُشرك به شيئاً.

كما في الحديث، عن معاذ بن جبل، قال: قال النبي ﷺ :" يا معاذ أتدري ما حقُّ الله على العباد؟" قال: الله ورسوله أعلم. قال:" أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، أتدري ما حقهم عليه؟" قال: الله ورسوله أعلم. قال:" أن لا يعذبهم " متفق عليه. أي إن أدوا حقه عليهم .. ومن لا يُعذَّب دخل الجنة.

هذا في الآخرة أما في الدنيا؛ فإن من ثمرات تحقيق التوحيد، وإفراد الله تعالى بالعبادة .. وقيام العباد بحقه عليهم .. تحقيق الاستخلاف والتمكين في الأرض لعباد الله الموحدين .. واستبدال خوفهم بالأمن والأمان، كما قال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ﴾ هذا العطاء والفضل والخير كله مقابل ﴿ يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ﴾النور:٥٥.

---

[١٣] أخرجه أحمد، والطبراني في الكبير، السلسلة الصحيحة: ١٦٣٩.

فمن ينشد ـ من المسلمين ـ الاستخلاف والتمكين في الأرض بعيداً عن تحقيق هذا القيد والشرط ﴿ يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ﴾، فهو واهم .. وكمن يسير نحو سرابٍ يحسبه الظمآنُ ماءً[١٤]!

لا ينبغي للدعاة العاملين في حقل الدعوة إلى الله ـ وهم في حركتهم ودعوتهم إلى الله ـ أن يغفلوا عن هذه الغاية الأساس أو أن ينشغلوا عنها بشواغل لا تقدم ولا تؤخر .. في ميزان الحق .. وميزان التغيير!

الطاغوت قد يقبل منك أن تطرح أي موضوع .. وتتكلم في أي موضوع .. وتناقش أي موضوع فرعي .. وتدعو إلى أي فكرة إيجابية تخدم سلطانه وملكه ـ وتكون له من المقربين إن فعلت ـ لكن لا يمكن أن يقبل منك أن تناقش بصدق: مَن المعبود بحق في الأرض .. الله أم الطاغوت؟!

لمن الحكم .. والتشريع .. والتحسين والتقبيح، والتحليل والتحريم .. لله أم للطاغوت؟!

من المُطاع لذاته .. الله أم الطاغوت .. قانون من ينفذ في الأرض وبين الناس قانون الله أم قانون الطاغوت؟!

من المحبوب لذاته .. فيمن يُعقد الولاء والبراء .. وتُقسم الحقوق والواجبات .. الله أم الطاغوت؟!

هذا الذي لا يقبله الطغاة الآثمون منك .. وهم على استعداد أن يرتكبوا جميع المحظورات والموبقات والجرائم .. من أجل حظر وإيقاف من يدعو إلى التوحيد الخالص .. أو يطرح المسائل الآنفة الذكر أعلاه .. وسجونهم المليئة بالدعاة إلى التوحيد أكبر دليل على ذلك!

لكن الدعاة إلى الله ليس لهم خيار ـ اتباعاً لمنهج الأنبياء في الدعوة إلى الله ـ أن يتجاوزوا هذه القضية الهامة .. إلى قضايا أخرى ثانوية .. قد لا تعني شيئاً أو كثيراً في ميزان الحق والعدل .. وعملية التغيير .. بل قد لا يُمكن تمريرها بصورة حسنة وسليمة .. إن لم تُحسم القضية الأولى والأساس أولاً .. من المعبود بحق في الوجود .. الله أم الطاغوت؟!

هذه هي القضية الأساس والأهم التي يجب على الدعاة أن يقفوا عندها طويلاً ولو استغرق ذلك منهم الدهر كله .. ولا يتجاوزوها إلى غيرها .. إلا بعد أن يُعطوا أولاً الإجابة الكافية الوافية عنها!

---

[١٤] فما يكون القول فيمن ينشد التمكين والاستخلاف للإسلام والمسلمين في الأرض من خلال الطرق الشركية الباطلة التي أفرزتها الديمقراطيات المعاصرة التي تجعل سيادة وحكم المخلوق فوق سيادة وحكم الخالق سبحانه وتعالى .. لا شك أن هؤلاء أشد ضلالاً وجهلاً وانحرافاً!

قال تعالى:﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾آل عمران: ٦٤.

هذا هو أمر وتوجيه الله للمؤمنين .. بأن يُحاوروا أهل الكتاب ـ من اليهود والنصارى ـ ويقولوا لهم أولاً:﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾؛ نستوي أمامها جميعاً .. ونلتزم بها جميعاً .. لا فضل لأحدٍ منا ـ أمام هذه الكلمة ـ على الآخر .. ما هي هذه الكلمة ﴿ أَلاَّ نَعْبُدَ ﴾ أحداً ولا شيئاً من الأشياء ﴿ إِلاَّ اللّهَ ﴾ فنخصه ونفرده بالعبادة وحده ﴿ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئا ﴾، ومن تمام ولوازم تحقيق هذا التوحيد أن ﴿ لاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ ﴾ نشرّع ونقنن لبعضنا البعض .. ونحلل ونحرم .. ونحسن ونقبح لبعضنا البعض من تلقاء أنفسنا .. ومن دون سلطان ولا علم من الله تعالى، كما هو سائد الآن في غالب الأمصار والأوطان .. وفي ظل الأنظمة الديكتاتورية والديمقراطية سواء ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾؛ أعرضوا وكفروا .. وأبوا إلا أن يُشركوا بالله .. ويتخذوا بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ﴿ فَقُولُواْ ﴾ يا مسلمون ويا مؤمنون ـ من غير خجل ولا وجل ولا تردد ـ وبكل ثبات ووضوح ﴿ اشْهَدُواْ ﴾ يا أهلَ الكتاب ﴿ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾؛ موحدون مستسلمون لحكم وأمر ربنا .. لا نشرك بالله شيئاً .. ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله .. ونحن برآء منكم ومما تشركون وتعبدون من دون الله .. لكم دينكم ولنا دين!

رغم وضوح هذا التوجيه الرباني للمؤمنين في كيفية محاورة أهل الكتاب .. وتحديد الأولويات في الحوار .. إلا أن من المسلمين من أبناء جلدتنا ـ كما في مجالس ومؤتمرات حوار الأديان[١٥] ـ يغضون الطرف عن هذا المنهج الرباني .. لا يأتون إلى ذكره ولا حتى مجرد الإشارة إليه .. ويتناولون في حواراتهم مسائل ومواضيع أخرى مكررة ومشتركة لا يختلف عليها ـ في الأساس ـ أطراف الحوار .. محددة لهم مسبقاً من قبل الساسة والطواغيت!

ونحو ذلك ما يفعله بعض الدعاة والشيوخ .. عندما يهدرون طاقاتهم وأوقاتهم .. في محاورة أهل الكتاب حول مسائل فرعية لا طائل منها يُذكر؛ كمسألة تعدد الزوجات في الإسلام .. أو لماذا يحرم الإسلام اقتناء الكلاب في البيوت .. وموقف الإسلام من المرأة .. ومن حقوق الإنسان والحيوانات .. وغيرها من المسائل التي لا يُمكن أن تُفهم أو يستجيب إليها الطرف الآخر .. إلا بعد أن يفهم ويستجيب أولاً إلى التوحيد الخالص .. ويفقه معنى ودلالات " لا معبود بحق في الوجود إلا الله ".

---

١٥ قد صدق من سماها مؤتمرات حوار الطرشان .. التي لا تُغني ولا تُسمن من جوع!

وبعد، هذه هي الغاية من الوجود .. وهذه هي أهميتها ومكانتها في دين الله .. وهذا هو حق الله تعالى على العباد .. فأين أكثر الناس من هذه الغاية .. ومن هذا الحق؟!

كثير من الناس .. لو سألتهم عن الغاية من وجودهم .. وعن هدفهم الذي يعملون لأجله في هذه الحياة .. لجاءت أجوبتهم متباينة مختلفة .. كل جواب منها يسير في وادٍ مختلف .. لكن كلها تصب حول الدنيا ومتاعها وزخرفها: فهذا الذي يريد أن يشيد قصراً .. وهذا الذي يخطط ليصبح عنده وادٍ من ذهب .. فإن أصبح عنده وادٍ خطط لوادٍ آخر، ولا يُملئ جوفه إلا التراب .. وهذا الذي يخطط لمنصب دنيوي يبتغيه ويسعى إليه منذ نعومة أظافره .. ليشار إليه بالبنان .. وهذا الذي يسعى لإشباع شهواته وغرائزه بالحرام .. وغيرها من الطموحات الدنيوية .. التي تُبعد الإنسان عن الغاية التي خُلق لأجلها!

والقليل الذي يُحسن الإجابة ـ من هذا الكم الكثير من الناس ـ فيقول: الغاية من وجودنا في هذه الحياة أن نعبد الله .. يُقال له: أحسنت، لكن ما هو مفهوم العبادة .. التي تعنيها .. والتي خُلقت لأجلها .. وتحرص على أدائها؟!

لأجابك من فوره: هي عبادة الصلاة، والصوم، والحج، والزكاة .. عبادة النذر والنسك .. عبادة الذكر والاعتكاف في زوايا المساجد وحسب .. حتى بات الناس يفهمون من الأمر الإلهي ﴿ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾الأعراف:٥٩. أي صلوا وصوموا وحجوا فقط .. وهذه الفرائض لا شك أنها تدخل في معنى ومسمى العبادة دخولاً كلياً وأساسياً .. لكن ليست هي كل المراد من العبادة التي يريدها الله تعالى من عباده .. كما لا يجوز حصر معنى العبادة في هذه الشعائر والفرائض الهامة.

هذا الفهم الخاطئ لمعنى العبادة لم يأتِ من فراغ .. أو صدفة .. وإنما هو نتاج تراكمات وممارسات فكرية دخيلة خاطئة .. ونتاج مكر كبير، كما قال تعالى:﴿ وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً ﴾نوح:٢٢. وقال تعالى:﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً ﴾سبأ:٣٣. أي شركاء نخصهم ـ مع الله تعالى ـ بالعبادة .. هذا المكر المتواصل تواصل الليل مع النهار استغرق عقوداً وربما قروناً .. ليوصل مستوى تعامل الناس مع مفهوم العبادة إلى ما وصلوا إليه .. عمل لأجله العدو الكافر، والمسلم الجاهل الضال المنحرف وهو يدري أو لا يدري[١٦].

---

١٦ ممن شارك ويُشارك في جرم تحريف معنى العبادة عن مراد الله تعالى، ثلاثة فرقاء: الزنادقة العلمانيون الذين فصلوا العبادة عن الدولة والحكم وشؤون الحياة، وحصروا دورها في المعابد وزوايا المساجد .. وبعض الممارسات الشخصية الفردية. والصوفيون ـ ونحوهم جماعة التبليغ ـ الذين حصروا العبادة في بعض الطقوس والأذكار

هذا الفهم الخاطئ القاصر لمعنى العبادة .. أوقع كثيراً من الناس في عبادة غير الله ﷻ من أوجه عدة .. ظناً منهم أنها لا تدخل في معنى ومسمى العبادة؛ فالذي يعبد الله تعالى في الصلاة فقط، ويقصر معنى العبادة على الصلاة فقط، التي لا تستغرق من يومه كله أكثر من ساعة واحدة .. فبقية ساعات يومه الثلاث والعشرين .. يصرفها لمن .. ويعبد فيها مَن .. ويتوجه فيها إلى مَن؟! .. فالإنسان خُلِق عابداً، وفُطر على العبادة .. فمن لا يعبد الله تعالى لا شك أنه عابد لسواه سواء علم أم لم يعلم، وسواء أقر بذلك أم لم يقر.

فالوقت الذي تخرج فيه ـ يا عبد الله ـ من عبادة الله تعالى .. تدخل في عبادة غيره ولا بد سواء علمت أم لم تعلم .. وسواء اعترفت أم لم تعترف!

هنا يأتي السؤال الهام .. وضرورة الجواب عنه: إذا كان الأمر بهذا الجد .. وهذه الأهمية والخطورة .. فما هو مفهوم العبادة كما هو في الإسلام .. وكما يجب على العباد أن يعتقدوه ويُمارسوه؟!

أقول: العبادة لغة: تعني التذلل، والخضوع، والانقياد، ومنه يُقال الطريق المُعبَّد؛ إذا كان مذللاً بكثرة الوطءِ. واصطلاحاً وشرعاً، فهي:" اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة "[١٧]. وهي بهذا التعريف الجامع المانع تشمل جميع المساحة الزمانية والمكانية، والأنشطة الاعتقادية والعملية التي يعيشها الإنسان في هذه الحياة .. فالعبادة تستغرق من الإنسان جميع أنفاسه وحركاته وسكناته .. من المهد إلى اللحد.

العبادة لا تشمل الطاعات الواجبة والمستحبة وحسب .. بل هي تشمل أيضاً جميع الأعمال المُباحة إن تقدمتها نية صالحة .. فبالنية الصالحة يتحول كل عمل مباح إلى عبادة خالصة يُؤجر عليها المرء .. دراسة الطالب وطلبه للعلم عبادة .. وهذا الذي يأكل وينام .. إن كان يأكل وينام على نية التقوّي على الطاعة .. وإنصاف حق النفس عليه .. فهذه عبادة وله بذلك أجر .. والذي يتريض ويُمارس المهارات الرياضية على نية الإعداد وبناء جسد قوي يقوى على تنفيذ الطاعات .. والقيام بما يجب عليه في هذه الحياة .. فهذه عبادة وله بذلك أجر .. فالمؤمن القوي

والحركات التعبدية الفردية بعيداً عن ممارسة السياسة الشرعية وواقع الشعوب وميادين الحياة الأخرى. وأهل التجهم والإرجاء الخبثاء الذين قللوا من قيمة العمل وأخرجوه من مسمى ومعنى وشروط صحة الإيمان .. مما حمل الناس على الزهد بالعبادة .. والشرود عن الطاعة، والتفريط بالعمل، والاكتفاء بالتصديق أو القول في العمر مرة بشهادة التوحيد .. هذه الفِرَق والطوائف كلها شريكة في وزر تحريف معنى العبادة .. وصد الناس عن عبادة الله ﷻ حق العبادة!

[١٧] يُنقل هذا التعريف الجامع الشامل عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف .. والذي يعمل لينفق على نفسه .. وأبنائه .. وزوجته .. ليعفهم عن السؤال .. فهذه عبادة وله بذلك أجر .. كما في الحديث:" ما أطعمتَ زوجتَكَ فهو لك صدقةٌ، وما أطعمتَ ولدَك فهو لك صدقةٌ، وما أطعمتَ خادمَك فهو لك صدقة، وما أطعمتَ نفسكَ فهو لك صدقة "[١٨].

حتى اللهو مع الأهل، وأن يأتي الرجل زوجته .. على نية التكاثر والتناسل .. وأن يحصن المرء نفسه وأهله من الوقوع في الحرام .. يدخل في العبادة ولصاحبه في ذلك أجر، كما في الحديث: قالوا يا رسولَ الله أيأتي أحدُنا شهوتَه ويكون له فيها أجرٌ؟ قال ﷺ:" أرأيتم لو وضعَها في حرامٍ أكان عليه فيها وِزرٌ؟ فكذلك إذا وضعَها في الحلالِ كان له أجراً " مسلم. وهكذا ما من عمل مباح إلا ويتحول بالنية الصالحة إلى عبادة!

أداء المرء لحقوق الناس عليه .. كل الناس .. حتى أداء حقوق الحيوانات والبيئة التي يعيش فيها .. كل ذلك يدخل في معنى ومسمى العبادة.

الحفاظ على مقاصد الإسلام الخمس:" الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال "؛ كل ذلك يدخل في معنى ومسمى العبادة.

الإيمان الذي يحبه الله تعالى ليس شعبة الصلاة أو الصوم أو الحج أو الزكاة وحسب .. بل هو بضعٌ وسبعون شُعبة: أدناها إماطة الأذى عن الطريق وأعلاها وأعظمها شهادة التوحيد: لا إله إلا الله، كما في الحديث فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" الإيمانُ بضعٌ وسبعون شُعبة: أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان ". والعبادةُ شاملة لشعبِ الإيمان هذه كلها.

قال تعالى:﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾الأنعام:١٦٢-١٦٣.

لا ينبغي ولا يجوز أن تصرف لله ﷻ الصلاةَ والنُّسك وحسب .. بل حياتك كلها . بساعاتها ودقائقها وثوانيها . وما يتخللها من نشاطات وأعمال كلها كذلك يجب أن تُصرف لله ﷻ وحده لا شريك له .. لا يكفي ذلك أيضاً حتى تكون خاتمتك ويكون موتك في سبيل الله .. وعلى التوحيد .. ولو مت على غير التوحيد .. وفي سبيل غير الله ﷻ .. مت على الشرك .. مفارقاً للملة .. فالعبرة بالخواتيم وبما يُختم به على المرء .. وبالتالي لم تعد تنتفع من جميع عبادتك التي كنت تقوم بها في حياتك .. لذا يجب أن تحرص على حسن وسلامة الخاتمة وأن يكون مماتك

---

[١٨] رواه أحمد، والطبراني، صحيح الجامع: ٥٥٣٥.

لله رب العالمين لا شريك له .. نسأل الله تعالى الثبات وحسن الختام[١٩]!

وبالتالي فإن شيوع هذه المقولة:" ساعة لربك وساعة لنفسك " على ألسنة كثير من الناس .. خطأ .. فهي مقولة شركية؛ مفادها صرف جزء من الحياة والأوقات والأعمال لغير الله ﷻ .. والتعبير الصحيح الذي باركه النبيُّ ﷺ أن يُقال:" إنَّ لربِّكَ عليك حقًّاً، وإنَّ لنفسِكَ عليكَ حقًّاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقه "، من غير إفراط ولا تفريط .. لكن هذه الحقوق كلها تُؤدَّى كعبادة وطاعة لله ﷻ.

ولكي يستكمل البحث فائدته لا بد من أن نشير إلى بعض المعاني والأعمال ـ التي تدخل في معنى ومسمى العبادة ـ على وجه التفصيل .. لأهميتها .. ولإشكالها على كثير من الناس .. ولسعة الوقوع في الخطأ من جهتها!

من هذه المعاني والأعمال:

١ – الدعاء والاستغاثة: كثير من الناس يظنون أن التوجه بالدعاء والاستغاثة وطلب العون والمدد من المخلوق لا يدخل في معنى ومسمى العبادة، وبالتالي لا حرج عليهم لو توجهوا إلى المخلوق .. إلى قبور من يعتقدون أنهم من الأولياء والصالحين .. بالدعاء والاستغاثة .. وطلب العون والمدد .. وسؤالهم أن يجلبوا لهم النفع أو يدفعوا عنهم الضرَّ .. فهؤلاء ـ في اعتقادهم ـ لهم كرامة عند الله .. وهم واسطتهم إلى الله؛ فعن طريقهم تُرفع الحوائج والمسائل .. يفعلون ذلك وهم يظنون أنهم لا يزالون على عقيدة التوحيد .. وأنهم ممن يُفردون ويوحدون الله في العبادة!

ابتداءً نقول: الدعاء، والذي منه الاستغاثة وطلب العون والمدد هو عبادة ومن أخص ما يدخل في معنى ومسمى العبادة .. فمن صرف الدعاء لله ﷻ .. وتوجه به لله تعالى وحده فهو داخل في عبادة الله تعالى .. ومن صرف الدعاء أو صرف شيئاً منه لغير الله تعالى أيَّاً كان هذا الغير، فهو داخل في عبادة هذا الغير .. وقد أشركه مع الله تعالى في العبادة.

قال ﷺ:" الدعَاءُ هو العبادَةُ، قال ربكم:﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾غافر:٦٠ "[٢٠].

وفي رواية عند ابن ماجه، قال ﷺ:" إن الدعاءَ هو العبادةُ "، ثم قرأ:﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ

---

[١٩] وبالتالي فإن هؤلاء الذين يموتون في سبيل الطاغوت وأطماعه .. وسلامة عرشه وحكمه ونظامه .. أو في سبيل الوطن .. أو الإنسانية .. أو القومية .. أو غير ذلك من الرايات والمعاني والشعارات الجاهلية التي يموت عليها كثير من الناس في هذا الزمان .. فهؤلاء ليسوا على شيء .. ومماتهم ليس لله رب العالمين .. فليحذر ويحتاط كل امرئٍ لنفسه ودينه وآخرته .. وهذا معنى سنعود إليه ثانية ـ إن شاء الله ـ عند الحديث عن مفهوم ومصطلح " الشهادة ".

[٢٠] صحيح سنن أبي داود: ١٣١٢.

ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾غافر:٦٠[٢١]. فسمى الدعاء عبادة، وجعل الدعاء كأنه هو العبادة كلها تعظيماً لشأن الدعاء .. وبالتالي فمن صرف الدعاء لله تعالى فقد صرف العبادة لله تعالى وحده .. وهو عبد لله .. ومن صرف الدعاء لغير الله فقد صرف لهذا الغير العبادة .. ودخل في عبادته من دون الله ﷻ .. وجعل منه نداً وشريكاً لله ﷻ في العبادة.

وفي حديث آخر، قال ﷺ:" أفضلُ العبادةِ الدعاءُ "[٢٢]. فجعل الدعاء أفضل ما يدخل في معنى ومسمى العبادة.

وأن تخص وتفرد الله تعالى وحده بالعبادة والدعاء والاستعانة، هو المعنى من قوله تعالى في سورة الفاتحة:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾الفاتحة:٥. أي نخصك إيَّاك وحدك يا ربنا بالعبادة والاستعانة، فلا نعبد ولا ندعو ولا نستعين بأحدٍ سواك .. وإن عجبي ليشتد من أناس يقرؤون سورة الفاتحة عشرات المرات في صلاتهم في اليوم الواحد .. يقرؤون قوله تعالى:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، ثم هم مع ذلك يعبدون ويدعون غير الله .. ويستعينون بهذا الغير من دون الله .. وعندما يُنكر عليهم صنيعهم الباطل هذا، يُطالبونك بالدليل الدال على بطلان عملهم؟!

وفي الحديث عن ابن عباس قال: كنت خلف النبي ﷺ، فقال:" يا فتى ألا أهب لك، ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنه قد جف القلم بما هو كائن، واعلم بأن الخلائق لو أرادوك بشيء لم يردك الله به لم يقدروا عليه .." [٢٣]. وإذا كان الأمر بهذا الحسم وهذا الجد والوضوح فمن العبث والضياع والجنون والكفر أن يذر الإنسان خالقه؛ المالك الغني القادر على كل شيء الذي إذا أراد لشيء أن يقول له كن فيكون .. ليعلق قلبه بمن لا يملك له نفعاً ولا ضراً؛ فيدعوه ويرجوه ويخافه ويستعين به!

قال ﷺ:" من لم يدعُ اللهَ سُبحانَهُ، غَضِبَ عليه "[٢٤]. هذا فيمن لا يدعو الله سبحانه .. فكيف بمن لا يدعو الخالق القادر على كل شيء المالك لكل شيء .. وينصرف عنه ﷻ إلى دعاء غيره .. إلى المخلوق الضعيف الذي لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا دفع ضرٍّ إلا ما شاء الله؟!

قال تعالى:﴿ وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾يونس:١٠٦. أي من المشركين .. فإن الشرك ظلم عظيم.

---

٢١ صحيح سنن ابن ماجه: ٣٠٨٦.

٢٢ أخرجه الحاكم، السلسلة الصحيحة: ١٥٧٩.

٢٣ رواه ابن أبي عاصم في السنة، وصححه الشيخ ناصر في التخريج .

٢٤ صحيح سنن ابن ماجه: ٣٠٨٥.

وقال تعالى:﴿ فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾ الشعراء:٢١٣.

وقال تعالى:﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾يونس:١٠٧.

وقال تعالى:﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾الأحقاف:٥.

وقال تعالى:﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾النمل:٦٢.

وقال تعالى:﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ . إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾فاطر:١٣-١٤.

فإن قالوا: نحن إذ ندعوهم لا نعبدهم .. وإنما ندعوهم لأنهم واسطتنا إلى الله .. يتوسطون ويشفعون لنا عند الله تعالى .. ليقربونا إليه زُلفى ومنزلة .. لما لهم عند الله من الكرامة والمنزلة!

نقول لهم: هذه هو عين الشرك الذي وقع به مشركو العرب وقاتلهم عليه النبي ﷺ ومن معه من أصحابه الكرام.

كماقال تعالى:﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ ﴾؛ أي إن اعتزلوا عبادتهم ودعاءهم ﴿ وَلا يَنْفَعُهُمْ ﴾؛ في شيء إن عبدوهم، وقصدوهم في حوائجهم ﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾؛ أي هم واسطتنا يتوسطون ويتشفعون لنا عند الله لما لهم من الكرامة والمنزلة ﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ ﴾؛ أي بما لا يعلم له وجود في السماوات ولا في الأرض؛ فهذه الآلهة مزيفة ومكذوبة موجودة في خيالكم المريض .. بينما على الحقيقة لا وجود في الوجود كله؛ لا في السماوات ولا في الأرض ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾يونس:١٨.

وقال تعالى:﴿ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾الزمر:٣.

قال ابن كثير في التفسير: أي إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم، فعبدوا تلك الصور تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة ليشفعوا لهم عند الله تعالى في نصرهم ورزقهم وما ينوب من أمور الدنيا.

قال قتادة، والسدي، ومالك عن زيد بن أسلم، وابن زيد:﴿ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾أي ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة ا- هـ.

وعند البغوي في تفسيره ٤/٧١: قال قتادة: وذلك أنهم كانوا إذا قيل لهم: من ربكم، ومن خلقكم، ومن خلق السماوات والأرض ؟ قالوا: الله، فيقال لهم: فما معنى عبادتكم الأوثان؟ قالوا: ليقربونا إلى الله زُلفى؛ أي قُربى ا– هـ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى: فهذه الأنواع من خطاب الملائكة والأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم وفي مغيبهم وخطاب تماثيلهم هو من أعظم أنواع الشرك الموجود في المشركين من غير أهل الكتاب وفي مبتدعة أهل الكتاب والمسلمين الذين أحدثوا من الشرك والعبادات ما لم يأذن به الله تعالى، قال الله تعالى:﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾.

وإن أراد بالواسطة: أنه لا بد من واسطة في جلب المنافع، ودفع المضار، مثل أن يكون واسطة في رزق العباد، ونصرهم، وهداهم يسألونه ذلك ويرجون إليه فيه، فهذا من أعظم الشرك الذي كفر الله به المشركين؛ حيث اتخذوا من دون الله أولياء وشفعاء يجتلبون بهم المنافع ويجتنبون المضار.

قال تعالى:﴿ وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾آل عمران: ٨٠. فبين سبحانه أن اتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً كفر.

فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم، ويتوكل عليهم، ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار، مثل أن يسألهم غفران الذنب، وهداية القلوب، وتفريج الكروب، وسد الفاقات فهو كافر بإجماع المسلمين.

ومن أثبت وسائط بين الله وبين خلقه ـ كالحجاب الذين بين الملك ورعيته ـ بحيث يكونون هم يرفعون إلى الله حوائج خلقه؛ فالله إنما يهدي عباده ويرزقهم بتوسطهم؛ فالخلق يسألونهم وهم يسألون الله، كما أن الوسائط عند الملوك يسألون الملوك الحوائج للناس؛ لقربهم منهم، والناس يسألونهم أدباً منهم أن يباشروا سؤال الملك، أو لأن طلبهم من الوسائط أنفع لهم من طلبهم من الملك؛ لكونهم أقرب إلى الملك من الطالب للحوائج .. فمن أثبت وسائط على هذا الوجه: فهو كافر مشرك، يجب أن يُستتاب، فإن تاب وإلا قتل ا– هـ.

وقال رحمه الله في الفتاوى ١/٣١١: الدعاء من جملة العبادات، فمن دعا المخلوقين من الموتى والغائبين واستغاث بهم ـ مع أن هذا أمرٌ لم يأمر به الله ولا رسولُه أمر إيجاب ولا استحباب ـ كان مبتدعاً في الدين، مشركاً برب العالمين، متبعاً غير سبيل المؤمنين ا– هـ.

وقال تلميذه ابن القيم رحمه الله: من أنواع الشرك طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالَم، فإن الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه ضراً

ولا نفعاً، فضلاً لمن استغاث به أو سأله أن يشفع إلى الله، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده، فإن الله سبحانه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، والله سبحانه لم يجعل سؤال غيره سبباً لأذنه، وإنما السبب لإذنه كمال التوحيد، فجاء هذا المشرك بسببٍ يمنع الإذن، والميت محتاج إلى من يدعو له كما أمرنا النبي ﷺ إذا زرنا قبور المسلمين أن نترحم عليهم، وندعو لهم، ونسأل لهم العافية والمغفرة، فعكس المشركون هذا وزاروهم زيارة العبادة، وجعلوا قبورهم أوثاناً تعبد، فجمعوا بين الشرك بالمعبود وتغيير دينه، ومعاداة أهل التوحيد، ونسبتهم إلى التنقص بالأموات، وهم تنقصوا الخالق سبحانه بالشرك، وأولياءه الموحدين بذمهم ومعاداتهم، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص، إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا، وأنهم أمروهم به، وهؤلاء هم أعداء الرسل في كل زمان ومكان، وما أكثر المستجيبين لهم[٢٥] ا– هـ.

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: فمن عبد الله ليلاً ونهاراً ثم دعا نبياً أو ولياً عند قبره فقد اتخذ إلهين اثنين، ولم يشهد أن لا إله إلا الله؛ لأن الإله هو المدعو، كما يفعل المشركون اليوم عند قبر الزبير أو عبد القادر أو غيرهم.

وقال: فكل من غلا في نبيٍّ أو رجل صالح، وجعل فيه نوعاً من الإلهية؛ مثل أن يدعوه من دون الله بأن يقول: يا سيدي أغثني أو أجرني، أو أنت حسبي، وأنا في حسبك، فكل هذا شرك وضلال، يستتاب صاحبه فإن تاب وإلا قُتِل[٢٦]ا– هـ.

٢– الطاعة: كثير هم الذين لا يفرقون بين الطاعة التي يستحقها الربُّ ﷻ والطاعة التي يستحقها المخلوق؛ فيخلطون بين ما هو لله وبين ما هو لعبد الله .. فيصرفون من الطاعة ما هو حق خالص لله تعالى إلى ما سواه .. فيقعون بسبب ذلك في الشرك وعبادة المخلوق من دون الله تعالى .. وهم يدرون أو لا يدرون!

لذا فإنه يتعين علينا أن نجيب عن هذا السؤال: ما هي الطاعة التي يستحقها الخالق ﷻ .. وما هي الطاعة التي يستحقها المخلوق .. وما الفرق بينهما؟

اعلم ـ يا عبد الله ـ أن الله ﷻ هو المطاع لذاته، ومعنى أنه المطاع لذاته؛ أي أنه ﷻ يُطاع لأنه الرب الخالق والمالك لهذا الكون وما فيه ومن فيه .. المتصرف به وفق مشيئته وحكمته لا راد لحكمه وقضائه .. ولأنه الإله المعبود بحق، الذي له الأسماء الحسنى والصفات العليا، والتي من مقتضاها أن لا يصدر عنه إلا الحق المطلق، والعدل المطلق، والحكمة المطلقة .. لذا فهو يُطاع في

---

[٢٥] عن كتاب تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد:ص٢٣٠.

[٢٦] الرسائل الشخصية، القسم الخامس، ص ١٦٦ و ١٧٧.

كل ما يصدر عنه من أمر أو نهي .. أو تحليل أو تحريم .. أو تحسين أو تقبيح .. من غير تعقيب .. ولا مدافعة ولا ممانعة .. ومن دون أن يُسأل عما يفعل، أو عما يأمر به أو ينهى عنه.

وما استحسنه ﷻ فهو الحسن على الإطلاق .. وما استقبحه فهو القبيح على الإطلاق، وذلك ليس لأحدٍ سواه. قال ابن تيمية في الفتاوى ١٦٤/٢٨: فإن الله تعالى هو الذي حمده زين، وذمه شين، دون غيره، ولهذا لما قال القائل من بني تميم للنبي ﷺ: إن حمدي زينٌ، وذمي شينٌ! قال له:" ذاك الله " ا– هـ.

وهذا النوع من الطاعة عبادة وتوحيد لا يجوز أن يُصرف شيءٌ منها لغير الله تعالى .. فإن استشرف عبد هذه الخاصية .. وطلب لنفسه مطلق الطاعة .. فقال أنا المطاع لذاتي؛ لأني أنا فلان .. وكل ما يصدر عني من أمر أو نهي أو تحليل أو تحريم .. يجب إنفاذه وطاعتي فيه لأنه صادر عني .. وهذا حقي على من أحكمهم ومن هم تحت حكمي وسلطاني .. فقد استشرف الألوهية والربوبية وزعمها لنفسه من دون الله كفرعون وأمثاله من الطغاة المجرمين .. وجعل من نفسه نداً لله ﷻ في حقه على عباده .. وخصائصه وصفاته .. وأيما إنسان يعترف لهذا الطاغية بهذا الحق .. ويُطيعه في ذلك .. فقد أقر له بالربوبية والألوهية وأشركه مع الله تعالى في العبادة .. واتخذه نداً لله ﷻ في خصائصه وصفاته.

قال تعالى:﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾يّس:٦٠. وعبادة الشيطان هنا تكمن من جهتين: من جهة طاعته في الكفر والشرك .. ومن ذلك طاعته ومتابعته في تحليل الحرام وتحريم الحلال .. وتحسين ما قبحه الله تعالى، وتقبيح ما حسَّنه الله تعالى .. وصده للعباد عن متابعة الأنبياء والرسل.

ومن جهة تقديسه ورجائه والخشية منه .. والاستعانة به .. مما يحمل بعض الجهلة المشركين على عبادته بصورة مباشرة .. وتقديم القرابين والنذور إليه[٢٧].

ونحو ذلك قوله تعالى:﴿ وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾كالميتة وما يُذبح لغير الله ﴿ وَإِنَّهُ ﴾؛ أي إن أكلتم الميتة شهوة وشحاً بإلقائها ورميها ﴿ لَفِسْقٌ ﴾؛ وليس كفراً؛ لأن مجرد أكل الميتة من غير استحلال لأكلها ليس كفراً وإنما هو فسق وذنب كبير ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ ﴾؛ من مشركي قريش ﴿ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾؛ في سبب تحريمكم لأكل الميتة، فالميتة أماتها وقتلها الله .. فعلام لا تأكلون ما أماته وذبحه الله بيده .. وتأكلون ما ذبحتم بأيديكم .. هكذا كان الجدال .. وهكذا ألقيت الشبهة الخبيثة على المسلمين من أصحاب رسول الله ﷺ .. فحصل لبعض

---

[٢٧] تذكر إحدى الإحصائيات القديمة أن عبدة الشيطان في العالم الذين يعبدون الشيطان بصورة مباشرة .. والذين يُسمون بالأرواحية .. قد بلغ تعدادهم " ٢٧٠ " مائتين وسبعين مليون نسمة .. فتأمل!!

الأنفس نوع إصغاء لهذه الشبهة وتشوش منها .. فأنزل الله تعالى حكمه القاطع الفاصل ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ ﴾؛ أي في استحلال أكل الميتة التي حرمها الله عليكم .. وإن لم تأكلوها ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾الأنعام:١٢١. أي لعابدون لهم من دون الله؛ فالشرك لا يُطلق في نصوص الكتاب والسنة إلا لنوع عبادة تُصرف للمخلوق من دون ـ أو مع ـ الخالق ﷻ .. ونوع الشرك والعبادة هنا تكمن في طاعتهم في تحليل ما حرَّم الله .. والعدول عن حكم الله وشرعه إلى حكم الشياطين وشرعهم!

هذا الحكم القاطع الفاصل المخيف وإن قيل فيمن يحل أكل الميتة .. إلا أنه يُحمل كذلك على كل من يُحل ما حرم الله .. فمن يُطيع شياطين الإنس والجن في استحلال الربا، وشرب الخمر، والزنى، وغيرها من الفواحش والمحرمات المعلومة من ديننا بالضرورة .. يُقال له ما قيل فيمن يطيع شياطين الإنس والجن في استحلال أكل الميتة ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾؛ فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوصه.

وقال تعالى:﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾التوبة:٣١. وذلك عندما أطاعوا الأحبار والرهبان في تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله؛ فتلك كانت عبادتهم، وذلك كان اتخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله.

كما في الحديث عن عدي بن حاتم، قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب ـ وكان قد تنصر ـ فقال:" يا عدي اطرح هذا الوثن ". وسمعته يقرأ في سورة براءة:﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾، فقلت: إنا لسنا نعبدهم؟! قال ﷺ:" أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ـ أي من جهة الصلاة والركوع والسجود ـ، ولكنَّهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرَّموا عليهم شيئاً حرَّموه، فتلك كانت عبادَتُهم "[٢٨]. فعدي ﷺ ـ لحداثة عهده بالكفر ـ كان يظن أن العبادة محصورة ومقصورة على الصلاة والركوع والسجود، وصرف النذر والنسك وحسب .. إلا أن النبي ﷺ قد صحح له فهمه الخاطئ عن العبادة .. وبين له أن من العبادة أن يُطاع الإنسان ـ أياً كان هذا الإنسان ـ فيما يُحلل ويُحرم بغير سلطان من الله.

وقد سُئل حُذيفة ﷺ عن هذه الآية ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾؛ أكانوا يُصلون لهم؟ قال: لا، ولكنهم كانوا يحلون لهم ما حرَّمَ الله عليهم فيستحلونه، ويحرمون عليهم ما أحل الله لهم فيحرمونه، فصاروا بذلك أرباباً.

قال ابن تيمية في الفتاوى ٦٧/٧: فقد بين النبي ﷺ أن عبادتهم إياهم كانت في تحليل الحرام وتحريم الحلال، لا أنهم صلوا لهم وصاموا لهم، ودعوهم من دون الله ا– هـ.

---

[٢٨] أخرجه الترمذي وغيره، السلسلة الصحيحة: ٣٢٩٣.

فإن علمت ذلك ـ يا عبد الله ـ علمت كم هم الذين يستشرفون الربوبية في زماننا .. ويزعمون لأنفسهم خاصية التشريع والتحليل والتحريم من دون الله .. وكم هم الذين يدخلون في عبادتهم وطاعتهم من الناس، ويقرون لهم بهذه الألوهية والربوبية .. ثم بعد ذلك يزعمون أنهم أحرار .. وأنهم ممن يُحسنون صنعاً!

هذه الألوهية والربوبية قد زعمهما الطاغية فرعون من قبل، كما قال تعالى عنه:﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ﴾؛ فالذي أراه لكم حقاً فهو الحق الذي يجب أن تتبعوه .. والباطل الذي أراه لكم باطلاً هو الباطل الذي يجب أن تنتهوا عنه .. والحلال ما أحلله لكم، والحرام ما أحرمه عليكم .. وأنا في ذلك كله ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾غافر:٢٩. الذي ما سواه فهو الباطل والضلال!

ونحو ذلك قوله تعالى عنه:﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾القصص:٣٨. أي ما علمت لكم من مشرع يُعبد ويُطاع فيما يُشرع، ويحلل ويحرم، ويُحسن ويُقبح غيري!

وقال تعالى:﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾النازعات:٢٣-٢٤. أي أنا الذي أربيكم على ما أشاء من الشرائع والقوانين والنظم والطرق .. وأنا مرجعكم الأعلى في ذلك كله .. لا مرجع ولا رب لكم يربيكم على قانونه وشرعه غيري .. هذا هو المراد من قوله ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾؛ إذ بعيد على فرعون أن يقصد من الربوبية التي زعمها لنفسه أنه الخالق لهذا الكون وما فيه ومن فيه .. فهذه كذبة سرعان ما ينكشف زيفها .. فهو أعجز من أن يخلق بعوضة .. ولما واجهه موسى عليه السلام بآية العصا .. استعان بسحرة الأرض لينقذوه من هذا الموقف الحرج والعصيب .. وهو بعد استعانته بالسحرة .. ظهر عجزه مع السحرة مجتمعين أمام الآية العظمى التي جاء بها موسى من عند ربه ﷻ.

والسؤال الذي يطرح نفسه: كم هم عدد الفراعنة ـ في زماننا ـ الذين يطلبون لأنفسهم مطلق الطاعة من الأتباع، ويزعمون ما زعمه الطاغية فرعون لنفسه من قبل .. ثم كم هم عدد الناس والجماهير التي تعترف للفراعنة المعاصرين هؤلاء بحقهم فيما يزعمونه لأنفسهم من الربوبية والألوهية .. وهم ـ التابع والمتبوع، المُطيع والمُطاع ـ مع هذا الشرك والوزر العظيم .. لا يرون تناقضاً بين واقعهم الشركي هذا .. وبين قولهم عن أنفسهم بأنهم مسلمون!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى ٩٨/١: وكثير من المتفقهة وأجناد الملوك، وأتباع القضاة، والعامة المتبعة لهؤلاء يُشركون شرك الطاعة، وقد قال النبي ﷺ لعدي بن حاتم لما قرأ:﴿

اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾. فقال: يا رسول الله ما عبدوهم؟ فقال:" ما عبدوهم؛ ولكن أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم، وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم ".

فتجد أحد المنحرفين يجعل الواجب ما أوجبه متبوعه، والحرام ما حرمه، والحلال ما حلله، والدين ما شرَّعه إما ديناً، وإما دنيا، وإما دنيا وديناً، ثم يُخوِّف من امتنع من هذا الشرك، وهو لا يخاف أنه أشركَ به شيئاً في طاعته بغير سلطان من الله ا– هـ.

وقال رحمه الله ٢٦٧/١٠: فمن جعل غير الرسول تجب طاعته في كل ما يأمر به وينهى عنه، وإن خالف أمر الله ورسوله فقد جعله نداً ا– هـ.

ومن هنا ـ وحتى لا يقع الإنسان في عبادة الإنسان ـ جاء الإسلام ليرشد طاعة المخلوق للمخلوق .. فقال: الطاعة في المعروف وفيما فيه موافقة للحق .. إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ﷻ .. أيَّاً كان هذا المخلوق، وكانت مرتبته ومكانته.

قال تعالى:﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾العنكبوت:٨.

وقال تعالى:﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً ﴾لقمان:١٥. فحق الوالدين على الولد أو البنت محفوظ ومعلوم .. وهو عظيم جداً .. لكن لا يُمكن لهذا الحق أن يتعدى مستوى أن يُطاعا في الشرك أو فيما فيه معصية لله تعالى .. فحق الخالق أولى وأعظم وهو مقدم على حق المخلوق.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" السَّمعُ والطاعةُ على المرء المسلم فيما أحبَّ وكرِهَ، ما لم يؤمَر بمعصية، فإذا أُمِرَ بمعصيةٍ فلا سَمعَ ولا طاعة "متفق عليه.

وقال ﷺ:" لا طاعةَ في معصيةِ الله، إنما الطاعةُ في المعروف " متفق عليه.

وقال ﷺ:" مَن أمركُم من الولاة بمعصيةٍ فلا تُطيعوه "[٢٩].

وقال ﷺ:" لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالق "[٣٠].

وقال ﷺ:" طاعةُ الإمامِ ـ أي الإمام العام وهو الخليفة ـ حقٌّ على المرءِ المسلم، مالم يأمر بمعصيةِ الله ﷻ، فإذا أمرَ بمعصيةِ الله فلا طاعةَ له "[٣١]. وغيرها كثير من النصوص الشرعية التي تبين أن طاعة المخلوق للمخلوق ليست مطلقة، وإنما هي مرشدة ومقيَّدة في المعروف، وفيما ليس فيه معصية لله ﷻ.

---

٢٩ رواه أحمد، وابن ماجه، وابن حبان، السلسلة الصحيحة:٢٣٢٤.

٣٠ صححه الشيخ ناصر في المشكاة:٣٦٩٦.

٣١ السلسلة الصحيحة:٧٥٢.

فإن قيل: إن حصلت طاعة المخلوق للمخلوق في أمرٍ فيه معصية .. في أي خانة تُصنَّف طاعته هذه .. في خانة الكفر والشرك أم في خانة المعصية التي هي دون ذلك .. وهل كل طاعة خاطئة للمخلوق .. يُمكن أن تُصنَّف على أنها عبادة لهذا المخلوق من دون الله .. وأنها كفر وشرك؟

أقول: طاعة المخلوق للمخلوق الخاطئة تُصنف كشرك وعبادة من المخلوق للمخلوق، في الحالتين التاليتين:

أولاً: أن يُطاع المخلوق طاعة مطلقة لذاته، ولكونه فلاناً .. بغض النظر عما يصدر عنه: هل وافق الحق أم خالفه .. فهذا لا يؤثر على عملية ودرجة الطاعة .. وعلى علاقة المطيع بالمُطاع .. لأنه مطاع لذاته ولشخصه .. فهذه طاعة شرك وعبادة لهذا المخلوق من دون الله، كما تقدم.

ثانياً: أن لا يُطاع طاعة مطلقة ولذاته .. وإنما يُطاع ويُتابع في الشرك والكفر، ومن ذلك طاعته في تحليل ما حرَّم الله، وتحريم ما أحل الله .. فهذه أيضاً طاعة شرك وعبادة لهذا المخلوق من دون الله ، كما تقدم.

وما سوى ذلك إن حصلت الطاعة الخاطئة، كطاعة القرين لقرينه في معاصي هي دون الكفر والشرك؛ كمقارعة شرب الخمر وغيرها من المنكرات والمحرمات .. من غير استحلالٍ لها أو جحودٍ لحرمتها .. فهذا النوع من الطاعة معصية وفسق .. وذنب كبير .. لكن لا يرقى إلى درجة الإشراك بالله ﷻ .. والخروج بصاحبه من ملة الإسلام .. ومرد الحكم في هذا التفريق بين الطاعة المكفرة والطاعة غير المكفرة .. للنص الشرعي فقط .. إذ لا حظ للاجتهاد أو النفس في إصدار الأحكام الشرعية على الأشياء .. وإنما للنص وحسب .. فالنص الشرعي هو الذي قال: هذا كفر وشرك .. وهذا ظلم وفسوق دون الكفر والشرك .. ونحن ليس لنا إلا أن نسلِّم ونسمي الأشياء بمسمياتها الشرعية من غير زيادة ولا نقصان .. تبعاً للنص.

٣- المحبة: أيضاً من العبادات والطاعات الخفية والمشكلة على كثير من الناس، عبادة " المحبة "؛ إذ تراهم يُحبون المخلوق كحب الخالق وأشد .. ويعبدون المخلوق من جهة المحبة والتعلق به وتقديم رضاه وأمره على رضى وأمر الخالق ﷻ .. وهم يعلمون أو لا يعلمون .. ثم هم بعد ذلك يحسبون أنفسهم أنهم على شيء .. وأنهم ممن يُحسنون صنعاً!

اعلم ـ يا عبد الله ـ أن المحبوب لذاته، الذي يوالى فيه ويُعادَى ويُجافى فيه، ويُعطى ويُمنع لأجله وفيه، ويُحب لذاته لأنه هو هو .. هو الله تعالى وحده، وما سواه يُحب له وفيه وبالقدر الذي يأذن به الله تعالى.

وأيما مخلوق يرتضي لنفسه أن يكون محبوباً لذاته ولشخصه؛ لأنه هو هو .. بغض النظر عما يصدر عنه من مواقف .. وأقوال .. وحق أو باطل .. فيُعقد الولاء والبراء فيه وله .. فيوالى

من يواليه ويُعادَى من يُعاديه .. ويُعطَى ويُمنع فيه؛ فمن والاه ودخل في حزبه وصلوه وأعطوه، وإن كان من أفجر وأكفر الناس .. ومن قطعه، ولم يكن في حزبه قطعوه وحرموه وإن كان من أتقى وأصلح الناس .. فمن كان هذا وصفه فهو طاغوت كبير وقد جعل من نفسه نداً وشريكاً لله ﷻ في إلهيته .. ومن يقر له بهذه الخاصية أو الوصف .. وصرف له هذه المحبة بهذا القدر والوصف .. فقد اتخذه إلهاً مع الله .. وعبده من دون الله ﷻ.

قال تعالى:﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً ﴾ شركاء .. طبيعة شركهم ونوع شركهم أنهم ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾؛ فيوالونهم ويحبونهم لذواتهم كما يوالى الله ويُحب لذاته ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ ﴾البقرة:١٦٥.

وقال تعالى:﴿ قَالُوا ﴾؛ أي الأتباع والمتبوعين، المحبين من العبيد والمحبوبين من الطواغيت ﴿ وَهُمْ فِيهَا ﴾؛ أي في نار جهنم يُعذَّبون ﴿ يَخْتَصِمُونَ ﴾ ويتلاومون على ما كان منهم من تفريط وشرك وضلال .. فقال الضعفاء والتبع والعامة للزعماء والطواغيت المستكبرين ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ . إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾الشعراء:٩٦-٩٨. والتسوية هنا لم تكن فيما يخص القدرة على الخلق والإيجاد .. والتصرف بهذا الكون .. فهذا النوع من التسوية لم يحصل .. ولو حصل فهو سرعان ما ينكشف زيفه وكذبه .. وعجز المدعين .. وإنما كانت تسوية الأنداد مع الله تعالى في المحبة .. ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ وأشد .. ويُطيعونهم كطاعتهم لله وأشد .. فتلك كانت تسويتهم للأنداد برب العالمين.

وكذلك قوله تعالى:﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا ﴾؛ كل هذه الأشياء ـ التي تمثل زينة الحياة الدنيا التي تهفوا لحبها والتعلق بها قلوب العباد ـ مجتمعة بعضها مع بعض كما يُفيد حرف العطف " الواو " ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾؛ أي فانتظروا حتى يأتي الله بعذابه ووعيده وانتقامه .. ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾التوبة:٢٤.

وفي الحديث فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله فقد استكمل الإيمان "[٣٢].

وقال ﷺ:" أوثق عرى الإيمان: الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله ﷻ "[٣٣].

---

٣٢ أخرجه أبو داود وغيره، السلسلة الصحيحة:٣٨٠ .

٣٣ أخرجه أحمد وغيره، صحيح الجامع الصغير:٢٥٣٩ .

قال ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى ٦٠٧/١٠: لا يجوز أن يُحب شيء من الموجودات لذاته إلا هو سبحانه وبحمده، فكل محبوب في العالَم إنما يجوز أن يُحب لغيره لا لذاته، والرب تعالى هو الذي يجب أن يُحب لنفسه، وهذا من معاني إلهيته ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾، فإن محبة الشيء لذاته شرك فلا يُحب لذاته إلا الله، فإن ذلك من خصائص إلهيته فلا يستحق ذلك إلا الله وحده، وكل محبوب سواه لم يُحب لأجله فمحبته فاسدة ا– هـ.

وقال ابن القيم رحمه الله في المدارج ٩٩/١: فالله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته الجامعة لكمال محبته، مع الخضوع له والانقياد لأمره . فأصل العبادة: محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله، فلا يُحب معه سواه، وإنما يُحب لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه، فمحبتنا لهم من تمام محبته، وليست محبة معه كمحبة من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحبه ا– هـ.

ومن علامات صدق محبة العبد لربه، ومحبة الرب ﷻ لعبده حصول المتابعة للنبي ﷺ، كما قال تعالى:﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾آل عمران: ٣١.

قال ابن تيمية في الفتاوى ٣٦٠/٨: فكل من ادعى أنه يحب الله ولم يتبع الرسول فقد كذب، ليست محبته لله وحده، بل إن كان يحبه فهي محبة شرك، فإنما يتبع ما يهواه، كدعوى اليهود والنصارى محبة الله؛ فإنهم لو أخلصوا له المحبة لم يحبوا إلا ما أحب، فكانوا يتبعون الرسول، فلما أحبوا ما أبغض الله مع دعواهم حبه كانت محبتهم من جنس محبة المشركين ا– هـ.

ومن علامات صدق المحبة كذلك أن تُصرَف المحبة والموالاة، وكذلك المعاداة والمجافاة للآخرين بقدر .. بحسب قربهم أو بعدهم عن الله ﷻ .. وبحسب طاعتهم أو معصيتهم لله ﷻ .. فالولاء الذي يُصرف للصالحين الأتقياء الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .. لا يُصرف للعصاة والفاسقين من أهل القبلة .. فكل ـ بحسب أعماله وأخلاقه ـ له قدره ومنزلته وحظه الذي يستحقه من الولاء والبراء .. ومن المحبة والمجافاة .. وبالقدر الذي يأذن به الله ﷻ من غير زيادة ولا نقصان .. وهذا ميدان خفي عصِي لا يتنافس فيه إلا من قارب إيمانهم من الكمال!

ما أصعب على النفس أن تعطي وتصل من تكره ويُحبه الله، وتمنع وتقطع من تحب لكن يكرهه ويبغضه الله .. تفعل ذلك طلباً لمرضاة الله ﷻ .. وما أقل من يفعل ذلك!

ـ شروط صحة العبادة: أيما أمرٍ تعبدي يُشترط لقبوله شرطان:

أولاً: حصول المتابعة والموافقة للسنة فيما تتعبد فيه: فلو تعبّدت في أمرٍ أو طريقة لم تُشرَع في الكتاب والسنة .. فعبادتك باطلة ومردودة عليك .. فإن أصررت على الإتيان بها بعد علمك ببطلانها وبدعيتها، فأنت آثم يطالك وزر الإحداث في الدين ما لم يأذن به الله ﷻ.

قال تعالى:﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾الأحزاب:٢١. فإن كنت ترجو مرضاة الله تعالى عنك، والسلامة يوم الآخرة .. فاجعل أسوتك وقدوتك في جميع شؤون حياتك الدينية والدنيوية .. محمداً ﷺ.

وقال تعالى:﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ الحشر:٧.

قال ابن تيمية في الفتاوى ٢٤/٢٨: كل من أمر بأمر كائناً من كان عُرِض على الكتاب والسنة، فإن وافق ذلك وإلا رُدَّ، كما جاء في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال:" من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد " أي مردود ا– هـ.

وفي الحديث فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو رد " متفق عليه.

وقال ﷺ:" فمن رغب عن سنتي فليس مني " متفق عليه.

وقال ﷺ:" فإنه من يعيش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهدين الراشدين، تمسكوا بها، وعَضُّوا عليها بالنواجذ، وإيَّاكم ومحدثاتِ الأمور؛ فإن كل محدثة بدعةٌ، وكل بدعةٍ ضلالةٌ "[٣٤].

وقال ﷺ:" كلُّ بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار ".

وعن ابن عمر ﷺ قال:" كل بدعة ضلالة، وإن رآها الناسُ حسنةً ".

وقال ﷺ:" خذوا عني مناسككم "[٣٥].

وقال ﷺ:" صلوا كما رأيتموني أصلي " متفق عليه. وغيرها من النصوص التي تُفيد وجوب الاقتداء، وعدم الإحداث أو الابتداع في الدين.

ومما نستفيده مما تقدم أن الأصل في العبادات الحظر والمنع مالم يرد نص يُفيد الإباحة والجواز .. وبالتالي فإن الذي يتعبد بما لم يُشرَع هو الذي يُطالب بالدليل على صحة ما يقوم به من عمل تعبدي .. وليس المنكر عليه .. بخلاف الأشياء الأخرى فإن الأصل فيها الإباحة ما لم يرد نص يفيد الحرمة والحظر .. وهنا المنكر على الفاعل . إن وجد . هو المطالب بالدليل على صحة إنكاره .. وليس الفاعل؛ لأن الأصل في الأشياء الإباحة.

---

٣٤ أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وغيرهم، صحيح الجامع الصغير: ٢٥٤٩.

٣٥ أخرجه النسائي وغيره، صحيح الجامع: ٧٨٨٢.

ونستفيد كذلك أن الذي يُطالب الناس أن يتعبدوا بطريقة معينة أو فعل معين .. ينبغي أن يُطالب بالدليل على ما يُطالب به الناس .. فإن أتى بالدليل كان ذلك خيراً .. وإن لم يأتِ بالدليل من الكتاب أو السنة رُدَّ عليه طلبه وأمره، ولا كرامة!

ثانياً: الإخلاص: وهو الشرط الثاني من شروط صحة العبادة؛ إذ أن العبادة وإن توفر فيها شرط المتابعة والموافقة للسنة .. إلا أنها لا تُقبل إلا بعد أن يتحقق فيها شرط الإخلاص؛ فيكون العمل خالصاً لله ﷻ .. لا شبهة شرك ولا رياء فيه .. فإن انتفى الإخلاص رُد العمل على صاحبه وكان عليه وبالاً وخسراناً.

قال تعالى:﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾؛ لقاءً حسناً وحميداً لا شقاء بعده ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً ﴾؛ شرط الموافقة للسنة ﴿ وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾الكهف:١١٠. شرط الإخلاص.

وقال تعالى:﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾الملك:٢. أي أيكم أصوب عملاً وموافقة للسنة، وأخلصه لله ﷻ.

قال ابن تيمية في الفتاوى ٣١٨/١٠: قال الفضيل بين عياض في قوله ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾؛ قال: أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل، حتى يكون خالصاً صواباً؛ والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة ا– هـ.

وفي الحديث، عن أبي أمامة الباهلي، قال: جاء رجلُ إلى النبي ﷺ فقال: أرأيتَ رجلاً غزا يَلتمِسُ الأجرَ والذِّكرَ [٣٦] ماله؟ فقال رسول الله ﷺ:" لا شيءَ له "، ثم قال:" إن الله لا يقبلُ من العملِ إلا ما كان له خالصاً وابتُغِيَ به وجهه "[٣٧].

وقال ﷺ:" إن أوَّلَ الناسِ يُقضى عليه يوم القيامة رجلُ استُشهد؛ فأُتِي به فعرَّفَهُ نعمتَه فعرَفَها، فقال: ما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استشهدتُ. قال: كذبتَ؛ ولكنك قاتلتَ لأن يُقال: جريء، فقد قِيل، ثم أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه حتى أُلقِي في النار. ورجلٌ تعلَّم العلمَ وعلَّمَه، وقرأ القرآنَ، فأُتِي به فعرَّفه نِعمَه فعرفَها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تعلمتُ العِلمَ وعلَّمتُه، وقرأتُ فيك القرآن. قال: كذبتَ، ولكنك تعلمتَ العلمَ ليُقال إنك عالم، وقرأتَ القرآن ليُقال هو قارئ، فقد قِيل، ثم أُمرَ به فَسُحِبَ على وجههِ حتى أُلقِي في النار. ورجلٌ وسَّعَ اللهُ عليه وأعطاه من أصناف المالِ كُلِّهِ، فأُتِي به فعرَّفه نعمَه فعرَفَها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: ما تركتُ

---

٣٦ أي السمعة والشهرة، وأن يتكلم عنه وعن شجاعته وجهاده الناس.

٣٧ رواه أبو داود، والنسائي، صحيح سنن النسائي: ٢٩٤٣.

من سبيلٍ تحبُّ أن يُنفقَ فيها إلا أنفقتُ فيها لك. قال: كذَبتَ، ولكنك فعلتَ ليُقال: هو جواد؛ فقد قِيل، ثم أُمر به فسُحِب على وجهه ثم أُلقي في النار " مسلم.

وقال ﷺ:" إن أخوفَ ما أخافُ عليكم الشركَ الأصغر ". قالوا: وما الشركُ الأصغرُ يا رسولَ الله ﷺ؟ قال:" الرياء؛ يقول الله ﷻ إذا جزى الناسَ بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تُراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء "[٣٨].

وقال ﷺ:" قال الله ﷻ: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عملَ لي عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه برئ، وهو للذي أشرك "[٣٩].

وقال ﷺ:" إنَّ الله يقول: أنا خيرُ شريكٍ؛ فمن أشرك بي أحداً فهو لشريكي. يا أيها الناس! أخلصوا الأعمال لله؛ فإن الله ﷻ لا يقبل من العملِ إلا ما خَلُصَ له، ولا تقولوا: هذا لله وللرحم، وليس لله منه شيء، ولا تقولوا: هذا لله ولوجوهكم، فإنه لوجوهكم، وليس لله منه شيء "[٤٠].

وهذا يستدعي مراقبة النية ومتابعتها وتعهدها بالإخلاص؛ فالمرء يبدأ عمله مخلصاً ومع الغفلة عن النية ومراقبتها ينتهي مرائياً، فيُفسد آخرُ عمله أولَه.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" إنما الأعمال بالنيَّات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسولِه فهجرته إلى الله ورسولِه، ومن كانت هجرته لدنيا يُصيبها أو امرأةٍ يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجرَ إليه "[٤١].

* * * * *

٤ – الدِّينُ.

من المفاهيم والمصطلحات الشرعية التي اعتراها التأويل والتحريف، والتشويش مفهوم ومصطلح " الدين "؛ إذ أن كثيراً من الناس يحصرون ويُقصرون معنى الدين في الأديان السماوية الثلاثة، والمثقف منهم من يضيف إليها الأديان الوثنية المنتشرة في العالم .. وما سوى ذلك لا يُسمى في عرفهم ـ ديناً ولا يدخل في معنى الدين والتدين!

---

[٣٨] رواه أحمد، وغيره، صحيح الترغيب والترهيب: ٢٩.

[٣٩] رواه ابن ماجه وغيره، صحيح الترغيب: ٣١.

[٤٠] السلسلة الصحيحة: ٢٧٦٤.

[٤١] صحيح سنن أبي داود: ٢٢٠١.

وقد ترتب على هذا الفهم الخاطئ القاصر .. أن يُستهجَن من ينتقل من دين الله الإسلام إلى دين النصرانية أو اليهودية .. ويُعامل على أنه مرتد ومبدل لدينه .. بينما لو انتقل إلى دين الشيوعية .. أو العلمانية .. أو البعثية .. أو الديمقراطية .. أو الاشتراكية .. وغيرها من المذاهب الفكرية الأرضية الوضعية .. لا يُستهجن حاله ولا يُستغرب أمره .. ولا يُنظر إليه على أنه قد ارتد وبدل دينه .. وانتقل من دين إلى دين .. كما يُنظر لمن ينتقل إلى دين النصرانية أو اليهودية .. علماً أن كليهما قد انتقلا إلى دينٍ آخر .. ووقعا في الردة والتبديل .. وربما يكون الذي انتقل إلى اعتناق بعض المذاهب الفكرية الوضعية المعاصرة القائمة على الإلحاد، والجحود والإباحية .. أسوأ وأشد إثماً وانحرافاً .. وأصرح ردة وتبديلاً .. من ذاك الذي بدل دينه إلى النصرانية أو اليهودية!

بسبب هذا الفهم الخاطئ لمفهوم " الدين "، لم يعد مستغرباً ـ عند كثير من الناس ـ أن يخرج العبد من طاعة وشريعة وقانون الله ﷻ .. إلى طاعة وشريعة وقانون الطاغوت .. لأن مثل هذا الخروج والانتقال .. لا يُسمى في عرفهم انتقال من دين إلى دين .. كما أنه لا ينفي عن صاحبه مسمى وحكم الإسلام وصفة انتمائه إلى الإسلام .. كما أنه لا يمنع أن يُعامَل معاملة المسلمين؛ فيُزوَّج من نسائهم، ويُقبر في مقابرهم، وتُجرى عليه جميع حقوقهم!

بسبب هذا الفهم الخاطئ لمفهوم " الدين "، فإن لدعاة جميع المذاهب الفكرية الأرضية الوضعية ـ مهما اشتد كفرها وانحرافها ـ كامل الحق في الدعوة والتبشير لمذاهبهم وأحزابهم في بلاد المسلمين .. على اعتبار أن هذه المذاهب لا تُسمى ديناً!

بسبب هذا الفهم الخاطئ لمفهوم " الدين "، لم يعد مستهجناً على ولي أو والدٍ أن يُزوج ابنته من شيوعي ملحد ـ يحمل اسما من أسماء المسلمين ـ بينما في المقابل تراه لا يجرؤ ولا يرضى أن يزوج ابنته من نصراني .. على اعتبار أن النصراني له دين آخر غير دين الإسلام .. ولو فعل لاشتد عليه النكير من قبل المسلمين .. بخلاف الأول فلا أحد يُنكر عليه .. بل يلقى كامل الترحيب والمباركة .. على اعتبار أن الشيوعية لا تُسمى ديناً .. ومعتنقها لا يُمكن أن يُصنف على أن له ديناً آخر غير الإسلام!

فاختلطت ـ بسبب ذلك ـ الأنساب .. وضاع النسل .. ووقع الحرام والمحظور .. واعتدي على الحقوق والحرمات .. فاستدعى ذلك منا وقفة جادة نناقش فيها مفهوم ومصطلح " الدين " من جديد، كما هو ثابت وورد في كتاب الله ﷻ، وسنة نبيه ﷺ .. عسى أن يُزال عنه بعض ما علاه من غبار تأويلات وتحريفات المبطلين الضالين ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ﴾الأنفال:٤٢ . والله تعالى يهدي من يشاء.

الدين لغة واصطلاحاً: الدِّينُ: الجزاء والمكافأة. ودِنْتُه بفعله دَيناً: جزيته. ويوم الدين: يومُ الجزاء. وفي المثَل: كما تدين تُدان؛ أي كما تُجازِي تُجازَى بفعلك وبحسب ما عملت، وقيل كما تفعل يُفعل بك. ودانه ديناً أي جازاه. وقوله تعالى:﴿ أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾الصافات:٥٣. أي مَجزِيُّون مُحاسَبون. وفي حديث سلمان: إن الله ليَدِين للجمَّاء من ذاتِ القَرْن أي يقتص ويَجزي. وفي حديث ابن عمرو: لا تَسُبُّوا السلطانَ فإن كان لا بد فقولوا اللهم دِنهم كما يَدينُونا أي اجزِهم بما يُعامِلونا به. والدِّين: الحسابُ؛ ومنه قوله تعالى:﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾؛ وقيل: معناه مالك يوم الجزاء. وقوله تعالى: ذلك الدِّينُ القَيِّم؛ أي ذلك الحسابُ الصحيح والعدد المستوي. ومنه الدَّيانُ في صفة الله ﷻ. والديَّانُ: من أسماء الله ﷻ، معناه الحكَم القاضي. وقيل القهَّار، وهو فعَّال من دانَ الناسَ أي قهرهم على الطاعة. يُقال: دِنتهم فدانوا؛ أي قهرتهم فأطاعوا، وفي حديث أبي طالب، قال له عليه السلام:" أريد من قريش كلمةً تدينُ لهم بها العرب "؛ أي تُطيعهم وتخضع لهم. والدِّين: الطاعة. وقد دِنته ودِنْتُ له، أي أطعته.

والجمعُ الأَديانُ. يقال: دَانَ بكذا دِيانة، وتَدَيَّنَ به فهو دَيِّن ومُتَدَيِّن. ودَيَّنْتُ الرجل تَدْيِيناً إذا وكلته إلى دِينه. والدِّين: الإسلام، وقد دِنْتُ به. وفي حديث علي، عليه السلام: محبة العلماء دِينٌ يُدان به. والدِّين: العادة والشأن، تقول العرب: مازالَ ذلك ديني ودَيْدَني أي عادتي. ودِينَ: عُوِّد. وفي الحديث:" الكيِّس من دَانَ نفسه وعَمِل لما بعد الموت، والأحمق من أَتبَعَ نَفسَه هواها وتَمَنَّى على الله ". قال أبو عبيدة: قوله دانَ نفسه أي أذلها واستعبدها، وقيل حاسبها. يقال: دِنْتُ القومَ أَدِينُهم إذا فعلت ذلك بهم. والدِّين لله من هذا إنما هو طاعته والتعبد له. ودانه دِيناً أي أَذلّه واستعبده. يقال: دِنْتهُ فدان. وفي التنزيل العزيز:﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾؛ قال قتادة: في قضاء الملك. ابن الأعرابي: دانَ الرجلُ إذا عَزَّ، ودانَ إذا ذَلَّ، ودانَ إذا أطاع، ودانَ إذا عصى، ودانَ إذا اعتاد خيراً أو شراً. ودِنْتُ الرجل: خدمته وأَحسَنتُ إليه. والدِّين: الذل. والمَدِينُ: العبد.

ودِنْتُه أَدِينُه دَيْناَ: سُسْته. ودِنْتُه: مَلَكْتُه. ودُيِّنته أي مُلِّكته. ودَيَّنْتُه القومَ: وليته سياستهم؛ قال الخطيئة:

لقد دُيِّنْتِ أمراً بَنيكِ، حتى تَرَكْتِهِم أَدَقَّ من الطَّحِينِ

يعني مُلِّكْتِ، ويروى: سُوِّسْتِ، يخاطب أمه. والدَّيَّان: السائس؛ وأنشد بيت ذي الإصبع العدواني:

لاهِ ابن عَمِّك، لا أفْضَلْتَ في حَسَبٍ يوماً، ولا أنت دَيَّاني فتَخْزوني!

قال ابن السكيت: أي ولا أنت مالك أَمري فَتَسُوسُني. ودِنْتُ الرجلَ: حملته على ما يَكره. ودَيَّنْتُ الرجل تَدْييناً إذا وكلته إلى دينه.

والدِّينُ: الحالُ. قال النضر بن شميل: سألت أعرابياً عن شيء فقال: لو لقيتني على دينٍ غير هذه لأَخبرتك. والدِّين ما يَتَدَيَّنُ به الرجل. والدِّينُ: السلطان. والدِّين: الوَرَعُ. والدِّين: القهر. والدِّينُ: المعصية. والدين: الطاعة. وفي حديث الحج: كانت قريش ومن دان بدينهم أي اتبعهم في دينهم ووافقهم عليه واتخذ دينهم له دِيناً وعبادة[٤٢].

وفي المفردات للأصفهاني: " الدِّينُ "؛ يُقال للطاعة والجزاء، واستعيرَ للشريعة، والدين كالملة، لكنه يُقال اعتباراً بالطاعة والانقياد للشريعة[٤٣].

وقال ابن تيمية في الفتاوى ١٥/١٥٨: الدين مصدر، والمصدر يُضاف إلى الفاعل والمفعول؛ يُقال دان فلانٌ فلاناً إذا عبده وأطاعه، كما يُقال دانه إذا أذله، فالعبد يدين لله أي يعبده ويطيعه، فإذا أضيف الدين إلى العبد فلأنه العابد المطيع، وإذا أضيف إلى الله فلأنه المعبود المطاع ا– هـ.

نستخلص مما تقدم أن مفهوم كلمة " الدين " تنطوي على معانٍ ودلالات عدة .. إضافة إلى دلالتها لمعنى الجزاء والحساب .. ومعنى الدين المنزل والمرتضى؛ وهو الإسلام:

من هذه المعاني: الطاعة، والخضوع، والانقياد، والعبادة: كما في قوله تعالى:﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ ﴾البقرة:١٩٣. أي وتكون الطاعة لله، فلا يُطاع معه أحد .. فسمى الطاعة ديناً.

ونحو ذلك قوله تعالى:﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّهِ ﴾الأنفال:٣٩. أي حتى تكون الطاعة كلها لله ﷻ، فلا يُطاع معه ولا من دونه أحد سواه .. فهو المطاع لذاته، وما سواه يُطاع له، وطاعة له .. فسمى الدين طاعة، والطاعة ديناً.

وقال تعالى:﴿ وَلَهُ مَا فِي الْسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللّهِ تَتَّقُونَ ﴾النحل:٥٢. أي وله الطاعة وإخلاص العبادة دائماً .. لا شريك له .. فسمى الطاعة والعبادة ديناً.

وقال تعالى:﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾الأعراف:٢٩. أي مخلصين له العبادة والطاعة، والتوجه والدعاء .. فلا تُشركوا معه أحداً في عبادته وطاعته .. فسمى الدين طاعة وعبادة.

---

٤٢ انظر كلمة " الدين " ومشتقاتها، في لسان العرب لابن منظور.

٤٣ المفردات في غريب القرآن للأصفهاني.

وقال تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾يونس:٢٢. ﴾؛ أي مخلصين له في الدعاء والتضرع والتوجه .. لا نشرك معه أحداً في ذلك .. فسمى الدين بذلك.

ونحو ذلك قوله تعالى:﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾العنكبوت:٦٥. أي نسوا الشركاء والطواغيت .. وأخلصوا في العبادة والدعاء والتوجه لله رب العالمين .. فسمى الدين بذلك.

وقوله تعالى:﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾لقمان:٣٢. أي مخلصين له الدعاء والتوجه والعبادة.

وقال تعالى:﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾يوسف:٤٠. أي إفراد الله تعالى في الحكم والتشريع .. وإفراده في العبادة .. هو الدين الحق القويم المستقيم .. وما سواه فهو الدين الباطل .. فسمى توحيد الحاكمية والعبادة ديناً.

وقال تعالى:﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾الزمر:٣. أي له العبادة والطاعة الخالصتين من أدنى شرك.

ونحو ذلك قوله تعالى:﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ ﴾الزمر:١١. قال ابن جرير الطبري في التفسير: قل يا محمد لمشركي قومك: إن الله أمرني أن أعبده مُفْرِداً له الطاعة دون كلّ ما تدعون من دونه من الآلهة والأنداد ا– هـ.

وقال تعالى:﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء ﴾البينة:٥. قال ابن جرير الطبري في التفسير: مفردين له الطاعة؛ لا يخلطون طاعة ربهم بشرك ا– هـ. ففسر الدين بإخلاص الطاعة.

وقال تعالى:﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾الكافرون:٦. أي لكم عبادتكم القائمة على الشرك والتنديد، وعبادة الطاغوت .. ولِيَ عبادتي القائمة على التوحيد الخالص .. فلا أنتم تعبدون ما أعبد، ولا أنا أعبد ما تعبدون .. فسمى العبادة ديناً.

وفي الحديث فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" عليكم بما تُطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملُّوا، وكان أحبُّ الدين إليه ما داوم عليه صاحبه " البخاري. والمراد بالدين في الحديث العبادة والطاعة؛ أي احب العبادات والطاعات إلى الله أدومها.

وقال ﷺ:" إياكم والغلوَّ في الدين؛ فإنه أهلك من كان قبلَكُم الغلوَّ في الدين "[٤٤].

---

٤٤ صحيح سنن ابن ماجه: ٢٤٥٥.

والغلو في الدين هو الغلو في الطاعة والتعبد .. وامتثال الأوامر والتكاليف الشرعية .. وهو كل ما زاد عن السنة.

وقد فسر النبي ﷺ نقصان الدين عند النساء بنقصان الطاعة والعبادة، كما في قوله ﷺ:" وتمكث الليالي ما تُصلي، وتفطر في رمضان، فهذا نقصان الدين " مسلم.

وبعد: فلينظر كل امرئٍ لنفسه؛ إن كان داخلاً في طاعة وعبادة الله تعالى وحده لا شريك الله .. وقد أفرده ﷻ في العبادة والطاعة .. فهو المسلم .. وهو داخل في دين الله.

وإن كان داخلاً ـ ولو بوجه من الوجوه ـ في طاعة وعبادة الطاغوت من دون ـ أو مع ـ الله تعالى .. فهو داخل في دين الطاغوت .. ودينه غير دين الإسلام .. وإن تسمى بأسماء المسلمين، وزعم ـ زوراً ـ أنه مسلم أو من المسلمين، وينتمي إلى دينهم!

ومنها: المنهج الذي يسلكه السالكون، وطريقتهم في الحياة، والقانون، والقضاء، والشريعة: كما في قوله تعالى:﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾يوسف:٧٦. أي ما كان ليأخذ أخاه في قانون وشريعة وقضاء الملك .. فسمى الدين بذلك.

وقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾المائدة:٥٧. وقوله ﴿ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُواً ﴾، يُحمل على من هزئ بمجمل الدين .. أو بشعيرة واحدة من شعائر الإسلام .. أو بحكم واحد من أحكام الإسلام .. فكل من فعل ذلك يُسمى هازئاً بالدين .. والشاهد من الآية أن الحكم الشرعي الواحد فما فوق .. يُسمى ديناً.

ونحو ذلك قوله تعالى:﴿ وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾التوبة:١٢. والطعن بالدين يكون بالطعن بمجمل الدين أو بحكم واحدٍ من أحكامه .. أو شعيرة واحدة من شعائره .. فكل ذلك يُسمى طعناً بالدين.

وقال تعالى:﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾التوبة:٣٦. قال ابن كثير في التفسير: وقوله:﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾؛ أي هذا هو الشرع المستقيم من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم والحذو بها على ما سبق من كتاب الله الأول ا– هـ. ففسر الدين بالشريعة.

وقال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ ﴾التوبة:١٢٢. أي ليتعلموا ما أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ من فقه .. وعقائد .. وشرائع .. وأحكام .. وعِبر .. فهذا كله سُمي ديناً.

وقال تعالى:﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً ﴾؛ أي ومن أحسن وأصوب طريقاً وأهدى منهجاً وسبيلاً ﴿ مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾النساء:١٢٥.

وقال تعالى:﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾الروم:٣٠. قال ابن كثير في التفسير: أي التمسك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين القيم المستقيم ا– هـ.

وقال تعالى:﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾الحج:٧٨. أي ما جعل عليكم من ضيق وشدة في التزام التكاليف الشرعية .. فالضرورات تبيح المحظورات .. والرخص الشرعية يُعمل بها عند توفر شرطها وموجبها .. والشاهد من الآية الكريمة أنه تعالى قد سمى التكاليف والأحكام الشرعية؛ الأمر والنهي .. بالدين.

وقال تعالى:﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾آل عمران:٨٣. والدين في هذه الآية الكريمة يُحمل على معنى الدين كله .. وعلى معنى الطاعة .. وعلى الحكم والقضاء؛ أي من يرد حكماً شرعياً واحداً، يُقال له:﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ ﴾، كما في قوله تعالى:﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾المائدة:٥٠.

وقال تعالى:﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾النور:٢.

وفي قوله تعالى:﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾، قال ابن كثير في التفسير: أي في حكم الله؛ أي لا ترحموهما وترأفوا بهما في شرع الله ا– هـ. فسمى الحكم والقضاء والتشريع ديناً.

وقال تعالى:﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾المائدة:٣. أي اليوم أكملت لكم أيها المؤمنون شرائعي وفرائضي .. وأمري ونهيي .. وحلالي وحرامي عليكم .. فسمى ذلك كله بالدين.

وفي الحديث فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" إن هذا الأمر في قريش لا يُعاديهم أحدٌ إلا كبَّه الله على وجهه؛ ما أقاموا الدين " البخاري. أي ما حكموا الناس بشرائع وأحكام الإسلام .. وأقاموا فيهم بالعدل .. فسمى ذلك ديناً.

وقال ﷺ:" من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين " البخاري. أي يفقهه في حلاله وحرامه .. وأمره ونهيه .. فسمى ذلك ديناً.

ونحو ذلك الأثر الثابت عن عائشة رضي الله عنها، قالت:" نعم النساء نساء الأنصار؛ لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين " مسلم. أي يتفقهن في الحلال والحرام .. والمحظور والمباح .. فسمَّت ذلك ديناً.

ونحوه قول عمر ﷺ:" لا يبع في سوقنا إلا من تفقه في الدين "[٤٥]. أي تفقه في الحلال والحرام .. والأحكام ذات العلاقة بالبيع والشراء .. فسمى ذلك ديناً.

وقال ﷺ:" إن الدين يسر، ولن يشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه " البخاري. أي أن التكاليف الشرعية .. الأمر والنهي .. والحظر والإباحة .. كلها قائمة على مبدأ وقاعدة اليسر والتيسير .. فسمى ذلك كله ديناً.

وعن علي ﷺ قال:" لو كان الدين "؛ أي لو كانت الأحكام والمسائل الشرعية .. والحلال والحرام .. والحظر والإباحة .. يجوز أن يُقال فيها " بالرأي، لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه ".

وقال تعالى:﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾غافر:٢٦. أي أخاف عليكم ـ أيها الناس ـ أن يبدل طريقتكم في الحياة .. ورسومكم .. وعاداتكم .. وعبوديتكم لي التي ربيتكم ونشأتكم عليها .. إلى عبادة ربه .. فهذا هو الدين الذي يخاف عليه فرعون أن يُبدَّل .. وذريعة فرعون هذه هي نفسها ذريعة فراعنة وطواغيت العصر التي يتذرعون بها في ملاحقتهم ومحاربتهم للدعاة إلى الله، والعاملين من أجل الإسلام .. حيث نسمعهم يقولون ـ تكراراً ومراراً ـ وبكل صراحة ووقاحة: هؤلاء رجعيون يريدون أن يبدلوا طريقتكم العصرية المتحضرة المتحررة المثلى .. التي تعبد العبيد للعبيد ..ليعودوا بكم إلى العصور المتخلفة المتحجرة ـ ويقصدون بها عصر النبوة وما تلاه من القرون الأولى المشهود لها بالخيرية والفضل ـ لذا فهم يستحقون منا الملاحقة والسجن والقتل!

يعيبون علينا رجعيتنا إلى عصر النبوة؛ عصر النبي المصطفى ﷺ ومن معه من الصحابة الأخيار .. عصر النور والطهر والتوحيد والعلم .. الذي أضاءت الدنيا لمبعثه ﷺ والنور الذي جاء به من عند ربه ﷻ .. ولا يُعيبون على أنفسهم رجعيتهم إلى عصر الطاغية فرعون .. عصر تعبيد العبيد للعبيد .. فأي الفريقين أولى بأن يُرمى بالتخلف والتحجر والانتكاس .. وأي الفريقين أولى بأن يُوصف بالتحضر والتقدم والرقي .. من يعمل لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد .. ومن ظلم وجهل الأديان إلى عدل ونور الإسلام .. أم من يعمل من أجل تعبيد العبيد للعبيد .. وإخراج الناس من عبادة الله ﷻ .. إلى عبادة الطاغوت؟!

صدق الله العظيم:﴿ اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾البقرة:٢٥٧.

---

[٤٥] صحيح سنن الترمذي: ٤٠٤.

وقال تعالى:﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾الأنعام: ٨١.

وقال تعالى:﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾هود: ٢٤.

خلاصة القول: أن كل إنسان في هذا الوجود له دين؛ فمن لم يتدين بدينٍ سماوي فهو يتدين بدينٍ وضعي أرضي ولا بد .. حتى الملحد الذي يزعم رفض فكرة الدين والأديان فهو متدين، بل قد تجده من أشد الناس تديناً وتعصباً لدينه الإلحادي الذي يحوي على مجموعة من التصورات والاعتقادات والقوانين والشرائع ـ القائمة على مبدأ الإلحاد والجحود للأديان السماوية ـ التي تُعطيه جواباً عن عالمه الحاضر والغائب .. وتبين له أصوله وانتسابه إلى سلالة القرود .. وأن أصله من قرد .. وأن أباه الأول قرد وليس آدم عليه السلام .. وتنظم له حياته الخاصة والعامة بجملة من القوانين والشرائع والاعتقادات .. والتي مصدرها هواه .. أو أهواء طواغيت وشياطين وآلهة أخرى من شياطين وطواغيت الإنس والجن!

فرَّ من الإيمان بالله تعالى .. ومن عبادته وتوحيده ـ وهو ملاقيه وراجع إليه لا محالة ـ إلى الإيمان بمجموعة كبيرة من الآلهة والطواغيت .. وإلى عبادتها وطاعتها من دون الله ﷻ .. والتي هي بدورها تحدد له المنهج الذي ينبغي أن ينتهجه في حياته .. والطريق الذي ينبغي أن يسلكه .. والتصورات والتخيلات التي ينبغي أن يعتقدها .. والشرائع والقوانين التي يلتزمها .. ثم بعد كل ذلك يحسب هذا المغفل الملحد أنه حر .. وأنه متحرر .. وهو في حقيقته عبد لآلهة كثيرة أحط منه قدراً وشأناً أو مثلها في الانحطاط والجهل!

الملحد يُخيل إليه أنه حر ومتحرر من الأديان ومن عقدة الأديان .. وهو في حقيقته متدين بأسوأ الأديان وأشرها .. ويعيش مشاعر الخوف والقلق ـ من مصيره المحتوم بعد الموت ـ وأسوأ العقد النفسية المنبعثة من تعاليم وتصورات دينه الخيالي الذي اسمه " الإلحاد " علم ذلك أم لم يعلم .. وسواء أقر واعترف بلسانه أم لم يعترف!

وبالتالي فإننا نعيد توجيه السؤال المتقدم الهام: على كل امرئٍ أن ينظر لنفسه في أي دين هو .. إن كان يسير وفق منهج الله ﷻ .. ويحتكم إلى شرع الله ﷻ ويرضاه .. فهو في دين الله ﷻ .. وهو المسلم .. أما إن كان يسير ويعيش وفق مناهج أخرى غير منهج الله ﷻ .. وتصورات ومفاهيم أخرى غير تصورات ومفاهيم الإسلام .. ويحتكم في شؤون حياته إلى شرائع أخرى غير شرع الله ﷻ .. فهو في دين أهل تلك المناهج والشرائع .. والطرق .. يأخذ اسمهم وحكمهم ..

علم بذلك أم لم يعلم .. والإسلام منه بريء وهو من الإسلام بريء .. وإن تسمى بأسماء المسلمين .. وزعم زوراً أنه من المسلمين .. وينتمي إلى دينهم!

قال سيد قطب رحمه الله: الإسلام منهج للحياة كلها، من اتبعه فهو مؤمن وفي دين الله، ومن اتبع غيره ولو في حكم واحد فقد رفض الإيمان واعتدى على ألوهية الله، وخرج من دين الله مهما أعلن أنه يحترم العقيدة وأنه مسلم؛ فاتباعه شريعة غير شريعة الله يكذب زعمه ويدمغه بالخروج من دين الله.

نجد كثيرين في كل زمان يقولون: إنهم يؤمنون بالله، ولكنهم يشركون معه غيره في الألوهية؛ حين يتحاكمون إلى شريعة من صنع غيره، وحين يطيعون من لا يتبع رسوله وكتابه وحيث يتلقون التصورات والقيم والموازين والأخلاق والآداب من غيره، فهذه كلها تناقض القول بأنهم يؤمنون بالله .. ولا تستقيم مع شهادة الله سبحانه بأنه لا إله إلا هو.

وأعجب العجب أن ناساً من الناس يزعمون أنهم مسلمون ثم يأخذون في منهج الحياة البشرية عن فلان وفلان من الذين يقول عنهم سبحانه إنهم عمي، ثم يظلون يزعمون بعد ذلك أنهم مسلمون.

إن هناك في جميع أنحاء الأرض، في جميع الأزمنة والأعصار، قاعدتين اثنتين لنظام الحياة؛ لأن هنالك في جميع أنحاء الأرض في جميع الأزمنة والأعصار، قاعدتين اثنتين لتصور الحياة: قاعدة تفرد الله سبحانه بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان .. ومن ثم يقوم عليها نظام للحياة يتجرد فيه البشر من خصائص الألوهية والربوبية والقوامة والسلطان، ويعترفون بها لله وحده فيتلقون منه التصور الاعتقادي، والقيم الإنسانية والاجتماعية والأخلاقية والمناهج الأساسية للحياة الواقعية، والشرائع والقوانين التي تحكم هذه الحياة، ولا يتلقونها من أحد سواه، وبذلك يشهدون أن لا إله إلا الله.

وقاعدة ترفض ألوهية الله سبحانه وربوبيته وقوامته وسلطانه .. إما في الوجود كله ـ بإنكار وجوده ـ وإما في شئون الأرض وفي حياة الناس، وفي نظام المجتمع وفي شرائعه وقوانينه، فتدعى أن لأحد من البشر: فرداً أو جماعة، هيئة أو طبقة، أن يزاول ـ من دون الله أو مع الله ـ خصائص الألوهية والربوبية والقوامة والسلطان في حياة الناس .. وبذلك لا يكون الناس الذين تقوم حياتهم على هذه القاعدة قد شهدوا أن لا إله إلا الله.

هذه قاعدة، وتلك قاعدة .. وهما لا تلتقيان .. لأن إحداهما هي "الجاهلية" والأخرى هي "الإسلام"، بغض النظر عن الأشكال المختلفة، والأوضاع المتعددة والأسماء المتنوعة التي يطلقها الناس على جاهليتهم .. يسمونها حكم الفرد أو حكم الشعب! يسمونها شيوعية أو رأسمالية!

يسمونها ديمقراطية أو ديكتاتورية! يسمونها أوتوقراطية أو ثيوقراطية!! لا عبرة بهذه التسميات ولا بتلك الأشكال .. لأنها جميعها تلتقي في القاعدة الأساسية قاعدة عبادة البشر للبشر، ورفض ألوهية الله سبحانه وربوبيته وقوامته وسلطانه متفرداً في حياة البشر، فلا عبرة بتغير الأشكال وتنوع الأسماء، إذا اتحدت القاعدة التي تقوم عليها الأشكال والأسماء!

إن العبرة في اعتبار أي نظام ـ أو عدم اعتباره ـ إسلامياً، هو الجهة التي يصدر عنها هذا النظام؛ فإن كان صادراً عن الله سبحانه فهو إسلامي، والإسلام هو الدين السائد يومذاك. وإن كان صادراً عن غير الله، فهو جاهلي والجاهلية هي السائدة يومذاك .. وهذا هو مفرق الطريق بين الجاهلية والإسلام، في كل وضع وفي كل نظام دون دخول في جزئيات وتفصيلات هذا النظام ا– هـ.

وقال ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى ٣/٥٥: الإسلام يتضمن الاستسلام لله وحده، فمن استسلم له ولغيره كان مشركاً، ومن لم يستسلم له كان مستكبراً عن عبادته، والمشرك به والمستكبر عن عبادته كافر، والاستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده، وطاعته وحده ا– هـ.

* * * * *

٥– الإيمان.

ماذا قالوا عن الإيمان .. وأي تحريف وتشويه قد أصاب هذا المفهوم الأساس والهام والعظيم في الدين؟!

قالوا: الإيمان هو التصديق الجازم .. وأحسنهم قال: هو تصديق وقول . ويعنون بالقول أن تتلفظ بشهادة التوحيد ولو مرة واحدة في حياتك . فمن أتى بالتصديق أو بالتصديق والقول فهو مؤمن، ومن أهل الجنة وإن لم يأتِ بشيء من العمل .. ومهما كان منه من عملٍ .. ورتبوا على قولهم الفاسد هذا، أن قالوا: الكفر هو تكذيب القلب .. أو استحلال القلب للكفر .. فحصروا الكفر في الجحود والاستحلال القلبي .. فلزمهم أن يحصروا الإيمان في تصديق القلب ومعرفته .. لذا قد وجدنا أصحاب هذا المذهب الضال . مذهب أهل التجهم والإرجاء . ينافحون ويجادلون عن إسلام طواغيت وزنادقة قد اجتمعت فيهم جميع خصال الكفر ونواقض الإيمان .. وحجتهم في ذلك كله أنهم لم يكفروا أو يستحلوا الكفر في قلوبهم .. ثم أن القلوب لا سلطان لنا عليها أو لمعرفة ما فيها .. فكيف نعرف أن فلاناً قد استحل الكفر من قلبه أم لا .. وبذلك قطعوا السبيل على أحكام الشريعة من أن تأخذ طريقها إلى عتاة الزنادقة والطواغيت؟!

وفريق آخر أكثر دهاءً ممن سبق ذكرهم .. وأكثر ضرراً على شباب الإسلام .. إذ تراه يأتي بتعريف الإيمان كما هو معرّف عند أهل السنة والجماعة .. كتعريف فقط .. لكن عند التأصيل والتفريع .. وإنزال المسائل والأحكام على الواقع والأعيان .. تراهم ألصق بمذهب أهل التجهم والإرجاء الذين يحصرون الإيمان والكفر في تصديق وتكذيب القلب وحسب .. ففرح الطاغوت بهم وبدينهم الإرجائي أيما فرح؛ فملَّكهم المساجد .. وخيَّرهم المجالس .. وأقام لهم المحافل .. وفتح لهم القنوات الإعلامية .. وسهَّل لهم العقبات وكل ما يعوق حركتهم ودعوتهم .. وأغدق عليهم العطاء .. ووعدهم بأن يكونوا من المقربين إن كانوا هم الفائزين .. وطارد وسجن مناوئيهم من دعاة وعلماء التوحيد .. لتخلو الساحة لهم ولدينهم الإرجائي الخبيث!

صدق من قال من السلف:" الإرجاءُ دينٌ ينتقصُ العالِم من دينه، ويزيدُ السلطان من مُلكه ".

فنتج عن هذا التحريف .. والتصور الخاطئ لمفهوم " الإيمان " جيل بل أجيال مشوَّهة في إيمانها واعتقادها وتصورها .. ضالة في سلوكها وحياتها؛ لا تُسيئهم السيئات .. ولا تُسِرُّهم الحسنات .. ولا يرجون لله وقاراً .. ولا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ورسمه .. يستخفُّون بالأعمال والطاعات .. أسماؤهم توحي بأنهم ينتمون إلى القبلة وأهلها .. بينما أعمالهم وأحوالهم وأخلاقهم .. وتصوراتهم .. تدل على أنهم ينتمون إلى الطاغوت وحزبه وقبلته .. ينتمون إلى دين غير دين الإسلام .. ثم هم مع ذلك يحسبون أنهم ممن يُحسنون صنعاً .. وأنهم على شيء!

قالوا: لماذا العمل والانقياد لأحكام الشريعة .. لماذا الطاعة لله ولرسوله ﷺ .. لماذا الصلاة .. والحج والزكاة والصوم .. إذا كان العمل لا يدخل كشرط لصحة الإيمان .. ولا يكون سبباً للنجاة يوم الحساب؟!

لماذا العمل إذا كان لا يضر مع التصديق عمل، ولا كفرٌ ظاهر .. ولو ضرَّنا فنحن في النهاية من أهل الإيمان والنجاة .. ولو مسّنا العذاب فلن يمسنا إلا زمناً قليلاً .. كما يزين لهم ذلك مشايخ ودعاة التجهم والإرجاء .. فقالوا كما قال اليهود من قبل:﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾البقرة: ٨٠. وقال تعالى:﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾آل عمران: ٢٤.

من هنا بدأت زاوية الانحراف .. الانحراف في التصور والاعتقاد ومن ثم في السلوك والعمل .. بدأت من عند تحريفهم لمفهوم الإيمان وتطبيقاته ودلالاته .. وتسليط كيدهم ومكرهم وتلبيساتهم على هذا المفهوم الأساسي والعظيم .. إلى أن اتسع الخرق اتساعه الضخم والواسع .. وإلى حدٍّ يصعب معه الاحتواء أو الترقيع .. فنتج عن هذا الانحراف الواسع هذا التفريط الضخم بجانب العمل .. وبواجبات الدين .. وبحق الله تعالى على العباد .. الذي نلمسه ونعيشه ونراه في واقعنا وزماننا المعاصر بكل جلاء ووضوح!

إذاً الأمر جد جلل وخطير .. لا يحتمل الإمهال ولا الإهمال .. يستدعي من الدعاة إلى الله تعالى المخلصين وقفةً جادة ومخلصة .. يوجهون فيها سهام الحق على الباطل وحزبه فيدمغه ويزهقه بإذن الله .. ليُعيدوا لهذا المفهوم الهام والعظيم " الإيمان " مجده، ومعناه الصحيح الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة .. وجرى عليه عمل السلف الصالح .. ويُزيلوا عنه غبار تأويلات وتحريفات المبطلين الضالين .. عسى الله تعالى أن يُعيد بعَودهم هذا الضالَّ من الناس .. وما ذلك على الله بعزيز.

هذا قولهم في الإيمان .. فما هو قول الحق في الإيمان؟

الإيمان لغةً: التصديق، وحقيقته: اعتقادٌ في القلب، وقولٌ باللسان، وعمل بالجوارح، لا يُغني ولا يُجزئ أحدها عن الآخر .. يزيد ويقوى بالطاعات والعمل الصالح، وينقص ويضعف بالمعاصي والعمل الطالح.

والعمل درجات؛ منه ما يُعتبر شرطاً لصحة الإيمان، لا يُقبل الإيمان إلا به، ومنه ما يعتبر واجباً ومستحبَّاً يزداد الإيمان به إيماناً.

هذا ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وأقوال سلف وصالحي الأمة، وإليك بيان ذلك بشيء من التفصيل:

١ – دخول الاعتقاد في الإيمان: ونعني بالاعتقاد جميع الأعمال القلبية من عِلم، وتصديق، ومحبة، وكره، وخشية، ويقين، ورجاءٍ، وإنابة، ورضى، وتوكل، وإخلاص .. فهذه الأعمال القلبية وغيرها من الأعمال .. كلها داخلة في معنى الاعتقاد الذي هو ركن وشرط من أركان وشروط الإيمان، ينتفي الإيمان بانتفائه باتفاق جميع أهل العلم .. إذ ليس وراء انتفائه سوى إضمار الكفر والنفاق والجحود .. وصاحبه كافر مخلد في النار .. وإن أتى ظاهراً ـ نفاقاً ـ بالقول والعمل.

قال تعالى:﴿ إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ . اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾المنافقون: ١–٣. فهؤلاء كفروا بسبب أنهم قالوا بلسانهم بالإيمان ما ليس في قلوبهم .. وهم إذ يقولون بالإيمان لا يقولون به على وجه الاعتقاد في قلوبهم؛ وإنما يقولون به على وجه الاتقاء والنفاق ليدفعوا عن أنفسهم حكم الكفر والردة .. وبالتالي حد السيف!

وقوله تعالى:﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ﴾؛ أي آمنوا بألسنتهم، وفي القول فقط ﴿ ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ في قلوبهم .. فالذي انعقد في القلب خلاف ما يقولونه بألسنتهم .. وهي تكذب ما يقولونه بألسنتهم ﴿ فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ بسبب كفرهم ونفاقهم .. واستقرار الكفر في القلب ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾.

وقال تعالى:﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴾النساء : ١٤٥. وقال تعالى:﴿ وَعَدَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾التوبة:٦٨. والنفاق هو إبطان الكفر والجحود في القلب وإظهار الإسلام على الجوارح نفاقاً خوفاً وفرقاً من الحق وأهله .. وهذا خداع منهم ليخدعوا المؤمنين بأنهم منهم .. وما هم منهم .. وما يخدعون إلا أنفسهم كما قال تعالى:﴿ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾البقرة:٩.

قال القرطبي في التفسير: مخادعتهم ما أظهروه من الإيمان خلاف ما أبطنوه من الكفر، ليحقنوا دماءهم وأموالهم، ويظنون أنهم قد نجوا وخدَعوا ا– هـ.

وفي الحديث الذي أخرجه مسلم وغيره، قوله ﷺ:" إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى ".

فدل أن مرد قبول الأعمال ـ بما في ذلك الإيمان ـ إلى النية المنعقدة في القلب والباعثة على العمل .. فإن كانت خالصة لله تعالى قبلت .. وإن كانت غير ذلك ردَّت.

وقال ﷺ:" ما من أحدٍ يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار " البخاري.

وفي رواية عند البخاري كذلك:" أبشروا وبشروا من وراءكم أنه من شهد أن لا إله إلا الله صادقاً بها دخل الجنة ". منطوق الحديث ومفهومه يقضيان ويلزمان أن من يشهد أن لا إله إلا الله .. لكنه لا يكون صادقاً بها، معتقداً لها في قلبه .. لا يدخل الجنة، ولا يكون من أهلها، وإنما هو من أهل النار.

ونحو ذلك قوله ﷺ:" من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة " مسلم. وقوله ﷺ:" من يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة " مسلم. منطوق الحديثين ومفهومهما يقضيان ويُلزمان أن من مات وهو لا يعلم لا إله إلا الله .. ولا هو مستيقناً بها .. لا يدخل الجنة ولا يُبشر بها .. وهذا مآل الكافرين والعياذ بالله.

فالأدلة على دخول الاعتقاد ـ بجميع أعماله وشعبه ـ في الإيمان .. والتي تدل كذلك أن الإيمان لا يصح ولا يستقيم إلا بعد أن ينعقد الاعتقاد الصادق للإيمان في القلب .. هي أكثر من أن تحصر في هذا الموضع.

ومما يُستفاد مما تقدم بطلان مذهب مرجئة الكرَّامية الخبيث الذي يحصر الإيمان في الإقرار باللسان فقط؛ والذي من لوازمه أن يعد المنافقين الذين يُبطنون الكفر والنفاق من المؤمنين الذين يدخلون الجنة يوم القيامة ..!

وهذا المذهب الخبيث الضال وإن كان لا يوجد في زماننا من يتبناه اسماً وشعاراً، ونسبة، إلا أنه يوجد من يتبناه تأصيلاً وتقعيداً وهم لا يشعرون ـ أو يشعرون ـ وعلامتهم أنك لو أشرت إلى كفر وتكفير الشيوعيين، والعلمانيين، والليبراليين وغيرهم من الزنادقة الذين يعتقدون الكفر والإلحاد والباطل ـ لكنهم ينطقون بشهادة التوحيد بلسانهم إذا طُلب منهم ذلك ـ لقالوا لك من فورهم ـ أي مرجئة الكرَّامية ـ: كيف تكفرهم وقد أقروا باللسان .. وشهدوا بألسنتهم أن لا إله إلا الله .. ألا يكفيك أنهم يقولون لا إله إلا الله ..؟!

وهؤلاء على مذهب محمد بن كرَّام ـ مؤسس مذهب مرجئة الكرّامية ـ في الإيمان .. وإن زعموا بلسانهم أنهم على مذهب أهل السنة والجماعة في الإيمان!

٢ – دخول القول في الإيمان: نعني بالقول هنا الإقرار باللسان بشهادتي التوحيد: أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ .. فالإقرار بشهادتي التوحيد والتصريح بهما شرط لصحة الإيمان .. وشرط لدخول المرء في الإسلام.

ومن الأدلة الدالة على دخول القول في الإيمان وكشرط من شروطه، قوله ﷺ لعمه أبي طالب كما في صحيح مسلم وغيره:" يا عم قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة " قال: لولا أن تعيرني قريش يقولون إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك .. وأبى أن يقول لا إله إلا الله ! فأنزل الله:﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾القصص:٥٦. وقوله تعالى:﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾التوبة:١١٣.

فالذي منع أبا طالب من الإقرار بشهادة التوحيد ليس لكونه مكذباً بالنبي ﷺ أو لاعتقاده بطلان رسالته ودعوته .. لم يكن لشيء من ذلك، وإنما ـ كما أفاد النص ـ حتى لا تعيره قريش بأن الذي حمله على الإقرار بشهادة التوحيد الجزع من الموت .. وأبى أن يقولها إلى أن مات كافراً.

ولما مات قال علي ﷺ ـ وهو ابن أبي طالب ـ للنبي ﷺ: إن عمَّك الشيخ الضال قد مات! قال ﷺ:" اذهب فوارِ أباكَ، ثم لا تُحْدِثَنَّ شيئاً حتى تأتيني "، فذهبتُ فواريته، وجئتُه، فأمرني فاغتسلت، ودعا لي[٤٦].

وفي رواية عند النسائي، عن علي ﷺ أنه أتى النبيَّ ﷺ، فقال: إنَّ أبا طالب قد مات. فقال ﷺ:" اذهب فوارِه "، قال: إنه ماتَ مشركاً، قال ﷺ:" اذهب فوارِه ". فلما واريته رجعتُ إليه، فقال لي:" اغتسل "[٤٧].

قلت: ومع ذلك، ورغم تصريح علي ﷺ بموت أبيه على الشرك وأنه قد مات مشركاً، وإقرار النبي ﷺ له على ذلك .. لا يزال إلى الساعة يوجد من الجهلة المتعصبة ـ وبخاصة منهم الشيعة الروافض ـ من يجادل عن إسلام أبي طالب .. وأنه مات مسلماً .. وكأنهم أرحم بأبي طالب من الحبيب المصطفى ﷺ .. ومن ولده علي ﷺ ؟!

وقال ﷺ:" أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله " متفق عليه.

قال النووي في الشرح ٢١٢/١: فيه أن الإيمان شرطه الإقرار بالشهادتين مع اعتقادهما واعتقاد جميع ما أتى به رسول الله ﷺ ا– هـ.

وقال ابن تيمية في الفتاوى ٦٠٩/٧: الشهادتان إذا لم يتكلم بهما مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين، وهو كافر باطناً وظاهراً عند سلف الأمة وأئمتها وجماهير علمائها ا– هـ.

---

[٤٦] صحيح سنن أبي داود: ٢٧٥٣.

[٤٧] صحيح سنن النسائي: ١٨٤.

٣- دخول العمل في الإيمان: وعلى هذا الركن من أركان الإيمان يشتد النزاع مع طرفي الإفراط والتفريط: الخوارج والمرجئة .. فالخوارج الغلاة جعلوا الأعمال الواجبة المكملة للإيمان شرطاً لصحة الإيمان .. بينما المرجئة أخرجوا مطلق العمل من مسمى ومعنى الإيمان، فلم يجعلوا شيئاً منه من الإيمان فضلاً عن أن يجعلوه شرطاً أو واجباً .. والحق وسط بينهما .. وهو ما عليه اعتقاد أهل السنة والجماعة، ودلت عليه نصوص الكتاب والسنة؛ وهو أن العمل يدخل في معنى ومسمى الإيمان، لكن منه ما يكون شرطاً لصحة الإيمان، ومنه ما يكون واجباً أو مندوباً يكتمل به الإيمان.

وإليك الدليل على ذلك بشيء من التفصيل:

أولاً: الدليل على دخول العمل في معنى ومسمى الإيمان: قال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾البقرة:١٤٣. والمراد بالإيمان هنا الصلاة المكتوبة، فسمى الصلاة ـ وهي عمل ـ إيماناً.

قال القرطبي في التفسير ٢/١٥٧:﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾؛ أي صلاتكم. فسمى الصلاة إيماناً لاشتمالها على نية وقول وعمل. وقال مالك: إني لأذكر بهذه الآية قول المرجئة: إن الصلاة ليست من الإيمان ا- هـ.

وفي الحديث من رواية أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سُئل أي العمل أفضل ؟ فقال:" إيمان بالله ورسوله "البخاري. فسمى الإيمان عملاً وعده أفضل الأعمال.

وقال ﷺ:" الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان "مسلم. فعد ﷺ إماطة الأذى عن الطريق ـ وهو عمل ـ من شعب الإيمان، وكذلك الحياء.

ومن حديث النبي ﷺ لوفد عبد قيس قال ﷺ:" آمركم بالإيمان بالله .. أتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟" قالوا الله ورسوله أعلم، قال:" شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس "متفق عليه. ففسر الإيمان بهذه الأعمال الظاهرة على الجوارح الظاهرة.

وقال ﷺ:" ليس بمؤمن من لا يأمن جاره غوائله "مسلم.

وقال ﷺ:" والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه " البخاري. فنفى مسمى الإيمان عمن لا يأمن جاره بوائقه وأذاه .. مما دل أن من الإيمان أن يأمن الجار بوائق وشرَّ جاره .. وهو عمل.

وقال ﷺ:" لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرقُ وهو مؤمن، ولا يشرب الخمرَ حين يشربُها وهو مؤمنٌ " متفق عليه.

قال ابن رجب في جامع العلوم ١٠٥/١: فلولا أن ترك هذه الكبائر من مسمى الإيمان لما انتفى اسمُ الإيمان عن مرتكب شيءٍ منها؛ لأن الاسم لا ينتفي إلا بانتفاء بعض أركان المسمى أو واجباته ا– هـ.

من هذه النصوص وغيرها نص علماء الأمة وسلفها أن الإيمان: اعتقاد، وقول، وعمل. وإليك بعض أقوالهم:

قال البخاري في صحيحه: هو قول وفعل، ويزيد وينقص.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى المسلمين في الأمصار: إن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسناً، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، فإن أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص.

قال ابن رجب في كتابه القيم " جامع العلوم "١٤٤/١: أنكر السلف على من أخرج الأعمال عن الإيمان إنكاراً شديداً، وممن أنكر ذلك على قائله وجعله قولاً محدثاً: سعيد بن الجبير، وميمون بن مهران، وقتادة، وأيوب السختياني، وإبراهيم النخعي، والزُّهري، ويحيى بن أبي كثير، وغيرهم.

وقال الثوري: هو رأي محدث، أدركنا الناس على غيره . وقال الأوزاعي: كان من مضى ممن سلف لا يفرقون بين الإيمان والعمل ا– هـ.

قال الشافعي في كتابه الأم: كان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم، ومن أدركناهم يقولون: الإيمان قول وعمل ونية، لا يجزي واحد من الثلاث إلا بالآخر ا– هـ.

قال ابن تيمية في الفتاوى ١٤٤/٧: قال أبو القاسم الأنصاري شيخ الشهرستاني في " شرح الإرشاد " لأبي المعالي بعد أن ذكر قول أصحابه: قال: وذهب أهل الأثر إلى أن الإيمان جميع الطاعات فرضها ونفلها، وعبروا عنه بأنه إتيان ما أمر الله به فرضاً ونفلاً والانتهاء عمن نهى عنه تحريماً وأدباً.

قال: وهذا قول مالك بن أنس إمام دار الهجرة، ومعظم أئمة السلف رضوان الله عليهم أجمعين ا– هـ.

وقال ابن رجب في كتابه " فتح الباري شرح صحيح البخاري " ٥/١: وأكثر العلماء قالوا: هو قول وعمل، وهذا كله إجماع من السلف وعلماء أهل الحديث، وقد حكى الشافعي إجماع الصحابة والتابعين عليه، وحكى أبو ثور الإجماع عليه أيضاً.

وقال الأوزاعي: كان من مضى ممن سلف لا يفرقون بين الإيمان والعمل، وحكاه غير واحدٍ من سلف العلماء عن أهل السنة والجماعة، وممن حكى ذلك عن أهل السنة والجماعة: الفضيلُ بن عياض، ووكيع بن الجراح.

وممن روي عنه أن الإيمان قول وعمل: الحسن، وسعيد بن جبير، وعمر ابن عبد العزيز، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، والشعبي، والنخعي، والزهري، وهو قول الثوري، والأوزاعي، وابن المبارك، ومالك، الشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأبي عبيد، وأبي ثور، وغيرهم ا– هـ.

ثانياً: الدليل على أن من العمل ما يكون شرطاً لصحة الإيمان: ينتفي الإيمان بانتفائه إن كان أمراً، أو بفعله إن كان نهياً أو منهياً عنه .. فمن الأعمال التي ينتفي الإيمان بانتفائها، العمل بالتوحيد، والولاء والبراء في الله، والحكم بما أنزل الله، والتحاكم إلى شرع الله ﷻ، ورد المنازعات إليه، وإقامة الصلاة .. أو انتفاء مطلق العمل .. وهو ما يُعبر عنه بترك جنس العمل، فلا يعمل بشيء من الطاعات .. فالقيام بهذه الأعمال شرط لصحة الإيمان ينتفي الإيمان بانتفائها أو انتفاء بعضها أو أحدها.

أما الأعمال التي ينتفي الإيمان بفعلها: كفعل الشرك، وطاعة المخلوق وموالاته لذاته، وصرف أي عملٍ تعبدي لغير الله ﷻ؛ كالسجود، والدعاء، والاستغاثة، وصرف النذور والنسك وغيرها من الأعمال .. أو قول الكفر من دون إكراه أو جهل يعذر، أو الطعن والاستهزاء بدين الله ﷻ وأسمائه الحسنى وصفاته العليا، أو برسله، أو آياته .. أو ازدراء القرآن الكريم ـ أو ببعض آياته ولو آية واحدة ـ ورميه في المواطن التي تُرمى فيها القاذورات والأوساخ .. أو مجالسة المستهزئين بدين الله تعالى من غير إكراه، ولا إنكار، ولا قيام .. أو إرادة التحاكم إلى الطاغوت والعدول عن التحاكم إلى شرع الله، أو الحكم بغير ما أنزل الله، أو سن القوانين والتشريعات المضاهية لشرع الله تعالى، أو حراسة قوانين الكفر والشرك وفرضها على البلاد والعباد، وكذلك العمل على ترويجها وتزيينها في أعين الناس .. أو موالاة الكفار ومظاهرتهم على الإسلام والمسلمين، أو مقاتلة المسلمين ومحاربتهم لدينهم، أو فعل السحر، والكهانة .. أو نشر الفاحشة بين المؤمنين والترويج لها بغية فتنتهم وصدهم عن دين الله .. أو الإعراض عن دين الله تعالى فلا يتعلمه ولا يعمل به .. فهذه كلها أعمال وكل عمل منها ينفي عن صاحبه مطلق الإيمان .. وإن ادعى بلسانه أنه لا يجحد أو لا يستحل شيئاً منها في قلبه .. فظاهره يدمغه بالكذب ..

ويُبطل ادعاءه .. ثم أن الأحكام تُبنى على الظاهر وما يُظهره المرء من قول أو عمل، وليس على

ما في البطون والقلوب .. إذ لا يعلم من في القلوب إلا علام الغيوب[٤٨].

وهانحن نذكر لك الأدلة، بصفة عامة، على جميع ما تقدم ذكره من أعمال، قال تعالى:﴿ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾الأنعام:٨٨.

وقال تعالى:﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً ﴾النساء:٤٨.

وقال تعالى:﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾النحل:١٠٦.

وقال تعالى:﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ.لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾التوبة:٦٦.

وقال تعالى:﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ ﴾التوبة:٧٤.

وقال تعالى:﴿ وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾التوبة:١٢.

وقال تعالى:﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُم ﴾النساء:١٤٠.

وقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُم ﴾المائدة:٥١.

وقال تعالى:﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾المجادلة:٢٢.

وقال تعالى:﴿ لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ ﴾آل عمران:٢٨.

وقال تعالى:﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاء إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً ﴾الكهف:١٠٢.

---

[٤٨] جميع هذه الأعمال أتينا على ذكرها وذكر أدلتها بشيء من التفصيل، في كتابنا " أعمال تخرج صاحبها من الملة "، فراجعه إن شئت.

وقال تعالى:﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾النساء:٧٦.

وقال تعالى:﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾البقرة:٢٥٦.

وقال تعالى:﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾النمل:٦٥.

وقال تعالى:﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً ﴾الجن:٢٦.

وقال تعالى:﴿ وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾البقرة:١٠٢.

وقال تعالى:﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾الأحقاف:٥.

وقال تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾النور:١٩.

وقال تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾البروج:١٠.

وقال تعالى:﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾المائدة:٤٤.

وقال تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً ﴾النساء:٦٠.

وقال تعالى:﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾الأنعام:١٢١.

وقال تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾محمد:٢٥-٢٦.

وقوله تعالى:﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾النساء:٦٥.

وقال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً ﴾الأحزاب:٣٦.

وقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾الحجرات:١-٢.

وقال تعالى:﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾النساء:٥٩.

وقال تعالى:﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾النور:٦٣.

وقال تعالى:﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ﴾يونس:٥٩.

وقال تعالى:﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾هود:١٨.

وقال تعالى:﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾الأنعام:١٤٤.

وقال تعالى:﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُوْلئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾النحل:١٠٥.

وقال تعالى:﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾البينة:٥.

وقال تعالى:﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾التوبة:١١.

وقال تعالى:﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً ﴾الكهف:٥٧.

وقال تعالى:﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾السجدة:٢٢.

وقال تعالى:﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾طه:١٢٤.

وقال تعالى:﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ . وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾النور:٤٧

-٤٨.

وقال تعالى:﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً ﴾الكهف:٢٦.

وقال تعالى:﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾الكهف:١١٠.[٤٩].

وغيرها كثير من الآيات القرآنية التي تدل على صحة ما ذكرناه من أعمال؛ سواء منها التي تُخرج صاحبها من الملة بفعلها، أو التي تخرج صاحبها من الملة بتركها.

وقال ﷺ في حكم تارك الصلاة:" بين الرجل وبين الشرك والكفر، ترك الصلاة " مسلم.

وقال ﷺ:" ليس بين العبد وبين الكفر إلا ترك الصلاة "[٥٠].

وقال ﷺ:" بين الكفر والإيمان ترك الصلاة "[٥١].

وقال ﷺ:" العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر "[٥٢].

وقال ﷺ:" بين العبد وبين الكفر والإيمان الصلاة، فإذا تركها فقد أشرك "[٥٣].

وقال ﷺ:" من ترك الصلاة فقد كفر "[٥٤].

عن عبد الله بن شقيق ﷺ، قال:كان أصحاب محمد ﷺ، لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر، غير الصلاة[٥٥].

ولا يصح أن يقال أن الكفر الوارد هنا يراد به الكفر العملي الأصغر وليس الكفر الأكبر، فهذا بعيد جداً عن الصواب، ولو كان الأمر كذلك لاستوى ترك الصلاة مع ترك كثير من الطاعات التي يعتبر تركها كفراً عملياً أصغر، ولما تميزت الصلاة عن غيرها من الطاعات، علماً أن الصلاة ـ بأدلة الكتاب والسنة ـ هي أعظم أركان الإسلام بعد شهادتي التوحيد.

وأثر عبد الله بن شقيق واضح في أن مراد الصحابة هو الكفر الأكبر وليس الكفر الأصغر، بدليل أنهم كانوا يرون ترك كثير من الأعمال غير الصلاة كفراً أصغر أو كفراً عملياً أصغر؛ فعلم أن نفي اجتماعهم على شيء من الأعمال أنها كفر سوى الصلاة .. أن مرادهم من

---

[٤٩] اجتهد في أن تحفظ وتفهم هذه الآيات القرآنية الآنفة الذكر أعلاه؛ فهي زادك الذي لا ينفد، وسلاحك البتار الذي لا يصدأ ولا يضعف في مواجهة شبهات أهل التجهم والإرجاء.

[٥٠] رواه النسائي، صحيح الترغيب:٥٦٣.

[٥١] رواه الترمذي، صحيح الترغيب:٥٦٣.

[٥٢] رواه أحمد وغيره، صحيح الترغيب:٥٦٤.

[٥٣] رواه هبة الله الطبري، صحيح الترغيب:٥٦٥.

[٥٤] رواه ابن أبي شيبة، صحيح الترغيب:٥٧٤.

[٥٥] صحيح الترغيب والترهيب: ٥٦٤.

ذاك هو الكفر الأكبر البواح وليس سواه.

وقال حنبل: حدثنا الحميدي قال: وأخبرت أن ناساً يقولون: من أقر بالصلاة والزكاة والصوم والحج ولم يفعل من ذلك شيئاً حتى يموت، ويصلي مستدبر القبلة حتى يموت، فهو مؤمن ما لم يكن جاحداً إذا علم أن تركه ذلك فيه إيمانه إذا كان مقراً بالفرائض واستقبال القبلة، فقلت: هذا الكفر الصراح، وخلاف كتاب الله وسنة رسوله وعلماء المسلمين. قال الله تعالى:﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّين ﴾. وقال حنبل: سمعت أبا عبد الله بن حنبل يقول: من قال هذا فقد كفر بالله ورد على أمره وعلى الرسول ما جاء به عن الله[٥٦].

وقال ابن تيميه في الفتاوى ٢٨٧/٧: لو قدر أن قوماً قالوا للنبي ﷺ: نحن نؤمن بما جئتنا به بقلوبنا من غير شك، ونقر بألسنتنا بالشهادتين، إلا أنا لا نطيعك في شيء مما أمرت به ونهيت عنه؛ فلا نصلي ولا نصوم، ولا نحج، ولا نصدق الحديث، ولا نؤدي الأمانة، ولا نفي بالعهد، ولا نصل الرحم، ولا نفعل شيئاً من الخير الذي أمرت به، ونشرب الخمر وننكح ذوات المحارم بالزنا الظاهر، ونقتل من قدرنا عليه من أصحابك وأمتك، ونأخذ أموالهم، بل نقتلك أيضاً، ونقاتلك مع أعدائك، هل كان يتوهم عاقل أن النبي ﷺ يقول لهم: أنتم مؤمنون كاملون الإيمان، وأنتم من أهل شفاعتي يوم القيامة، ويرجى لكم أن لا يدخل أحدكم النار، بل كل مسلم يعلم بالاضطرار أنه يقول لهم: أنتم أكفر الناس بما جئت به، ويضرب رقابهم إن لم يتوبوا من ذلك ا– هـ.

وقال محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: لا خلاف أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل، فإن اختل شيء من هذا لم يكن الرجل مسلماً، فإن عرف التوحيد ولم يعمل به، فهو كافر معاند كفرعون وإبليس وأمثالهما، فإن عمل بالتوحيد عملاً ظاهراً وهو لا يفهمه ولا يعتقده بقلبه، فهو منافق وهو شر من الكافر الخالص، لقوله تعالى:﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّار ﴾ [٥٧].

فعلم مما تقدم أن العمل بالتوحيد ـ وما يدخل في معناه من الأعمال كشرط لصحتة كالصلاة، وغيرها من الأعمال مما تقدمت الإشارة إليه ـ يعتبر شرطاً لصحة الإيمان، وشرطاً لثبوته، وانتفاع صاحبه به يوم القيامة .. وما سوى ذلك من الأعمال والطاعات ـ سواء منها الواجبة أو المندوبة ـ فهي تعتبر مكملة للإيمان؛ يزداد الإيمان ويقوى بفعلها، وينقص ويضعف بتركها .. وإن كانت هذه الأعمال من جهة المحظورات المنهي عنها ـ سواء منها الكبائر أم الصغائر ـ فإن الإيمان ينقص ويضعف بفعلها .. ويزداد ويقوى بتركها.

---

٥٦ عن الفتاوى لابن تيمية: ٢٠٩/٧.

٥٧ مجموعة التوحيد: ٨٢.

فإن قيل: أين الدليل على أن الإيمان يزيد ويقوى بالطاعات، وينقص ويضعف بارتكاب الذنوب والمعاصي ..؟

أقول: الأدلة من الكتاب والسنة كثيرة، منها قوله تعالى:﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانا﴾الأنفال:٢. وقوله تعالى:﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾التوبة:١٢٤. وقوله تعالى:﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً ﴾مريم:٧٦. وقوله تعالى:﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾الفتح:٤. وقوله تعالى:﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً ﴾الأحزاب:٢٢. وغيرها من الآيات.

وفي الحديث، عن جندب بن عبد الله، قال: كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن، فازددنا به إيماناً[٥٨].

وعن أنس بن مالك قال: غدا أصحاب رسول الله ﷺ، قالوا: يا رسول الله! هلكنا ورب الكعبة. قال:" وما ذاك؟" قالوا: النفاق النفاق! قال:" ألستم تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟" قالوا: بلى. قال:" ليس ذاك النفاق ". ثم عاودوه الثانية، فقالوا:يا رسول الله! هلكنا ورب الكعبة. قال:" وما ذاك؟" قالوا: النفاق النفاق! قال:" ألستم تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟" قالوا: بلى.قال:" ليس ذاك بنفاق ". ثم عاودوه الثالثة، فقالوا مثل ذلك، فقال لهم:" ليس ذلك بنفاق ". فقالوا: يا رسول الله! إنا إذا كنا عندك كنا على حال، وإذا خرجنا من عندك همَّتنا الدنيا وأهلونا. فقال رسول الله ﷺ:" لو أنكم إذا خرجتم من عندي تكونون على مثل الحال التي تكونون عليها عندي لصافحتكم الملائكة في طرق المدينة "[٥٩].

فانظر كيف أن إيمانهم كان يتغير عليهم عندما كانوا ينشغلون بالمباح من أمور الدنيا وهمومها، عما هم عليه من قوة الإيمان واليقين عندما يكونون في حضرة النبي المصطفى ﷺ، حتى بلغ منهم الحال أن يخشوا على أنفسهم النفاق، مما دل أن الإيمان تتغير أحواله زيادة ونقصاناً بحسب الحال والعمل والبيئة التي يعيش فيها صاحب هذا الإيمان.

ومن حديث الشفاعة الصحيح الذي يرويه أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ، جاء فيه

---

٥٨ صحيح سنن ابن ماجة:٥٢.

٥٩ هذا الشعور من الصحابة الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ هو لكمال وقوة إيمانهم، ولسلامة قلوبهم من المرض، ولإحساسهم المرهف في كل ما يؤثر على إيمانهم سلباً، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن ". فالشعور بالمرض ـ مهما دق أو خفي ـ هو من علامة سلامة القلوب والأبدان .. بخلاف مرضى القلوب فإنهم لا تسيئهم السيئات؛ لأنهم لا يشعرون بها .. حيث ترى أحدهم يفعل الموبقات ثم يظن أنه على إيمان أبي بكر وعمر، وعثمان وعلي ..!!

أن الرب ﷻ يقول للمؤمنين بعد أن أخرجوا من النار من يعرفون من أهل الإيمان:" أخرجوا من كان في قلبه وزن دينار من الإيمان، ثم من كان في قلبه وزن نصف دينار حتى يقول: من كان في قلبه مثقال ذرة " قال أبو سعيد: فمن لم يصدق بهذا فليقرأ هذه الآية:﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ﴾النساء: ٤٠.

فدل أن الإيمان يتفاضل عند الناس بحسب أعمالهم؛ فلا يستوي من كان إيمانه كالجبال بمن كان إيمانه مثقال دينار، ومن كان إيمانه مثقال دينار بمن كان إيمانه مثقال ذرة.

وقد سُئل ابن عمر ﷺ: هل كان الصحابة يضحكون؟ فقال:" نعم، والإيمان في قلوبهم أمثال الجبال "، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وعن أبي ذر الغفاري قال: قلت يا رسول الله كيف علمت أنك نبي حين استُنبئت؟ فقال:" يا أبا ذر أتاني ملكان وأنا ببعض بطحاء مكة، فوقع أحدهما على الأرض، وكان الآخر بين السماء والأرض، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم، قال: فزنه برجل فوزِنت به، فوزنتُه، ثم قال: فزِنه بعشرةٍ، فوزِنت بهم، فرجحتُهم، ثم قال: زِنه بمائةٍ فوزنت بهم فرجحتُهم، ثم قال: زِنه بألفٍ، فوزنت بهم، فرجحتهم، كأني أنظر إليهم ينثرون علي من خفة الميزان، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لو وزنته بأمّةٍ لرجحها "[٦٠]. صلوات ربي وسلامه عليه.

قال ابن رجب في كتابه فتح الباري ١/٨: زيادة الإيمان ونقصانه قول جمهور العلماء. وقد روي هذا الكلام عن طائفةٍ من الصحابة كأبي الدرداء، وأبي هريرة، وابن عباس، وغيرهم من الصحابة. وروي معناه عن عليٍّ، وابن مسعود أيضاً، وعن مجاهدٍ، وغيره من التابعين ا– هـ.

قلت: فيما تقدم رد على أولئك الذين يجعلون إيمان العباد سواء؛ إيمان عصاة الأمة وفسَّاقها ومجرميها كإيمان الأنبياء والرسل، والملائكة المقربين .. والعياذ بالله!

والقول بأن الإيمان يزيد وينقص .. له دلالات عدة: منها، أن الإيمان يضعف بحسب نوع المعاصي التي تمارس؛ فأثر كبائر الذنوب على الإيمان أشد من أثر الصغائر، وأثر الكفر أو الشرك على الإيمان أشد فتكاً من اجتماع الكبائر كلها التي هي دون الكفر.

ومنها: أن المعاصي تضعف الإيمان بحسب ممارستها وتكرارها .. فمن يأتي بالذنب مرة واحدة ليس كمن يأتي به مائة مرة أو ألف مرة .. ومن لا يحكم بما أنزل الله مرة ليس كمن لا يحكم بما أنزل الله مائة مرة، أو ألف مرة .. أو مطلقاً .. كما يقول البعض .. ثم بعد ذلك يحسبون أنفسهم أنهم سلفيون وأنهم على عقيدة أهل السنة والجماعة في الإيمان!

---

٦٠ أخرجه الدارمي، السلسلة الصحيحة: ٢٥٣١.

فنصوص الشريعة ميزت بين من يأتي بالذنب مرة وبين المدمن على الذنب من حيث الأثر على الإيمان، كما في الحديث الذي أخرجه أحمد وغيره:" مدمن الخمر إن مات لقي الله كعابد وثن "[٦١]. وقال ﷺ:" لا يدخل الجنة مدمن خمر "[٦٢]. ومثل هذا لا يُقال فيمن قارع شرب الخمر مرة أو مرتين، والله تعالى أعلم.

. مسألة: ثم أنه حصل خلاف، هل الإيمان يتضمن الإسلام أم لكل منهما معناه المختلف والمغاير عن الآخر .. وهل كل مؤمن مسلم، وكل مسلم مؤمن، أم لكل منهما معناه المغاير والمخالف للآخر؟

أقول: خلاصة القول في المسألة، والذي دلت عليه النصوص من الكتاب والسنة، أن الإيمان أحياناً يطلق ويكون له معنى مستقلاً ومغايراً للإسلام، ويكون المراد منه حينئذٍ الأعمال القلبية الباطنة، وكذلك الإسلام فإنه أحياناً يطلق ويكون له معنى مستقلاً ومغايراً للإيمان، ويكون المراد منه حينئذٍ الأعمال الظاهرة على الجوارح .. وأحياناً يُطلق لفظ الإيمان ويكون شاملاً ومتضمناً للإسلام، وكذلك لفظ الإسلام أحياناً يُطلق ويكون شاملاً ومتضمناً للإيمان .. ويُعرف ذلك كله من خلال النص والقرائن المحيطة به من خلال النص ذاته، أو من خلال نصوص أخرى.

هذا إجمال يحتاج إلى تفصيل واستدلال .. وإليك إيَّاه:

. الدليل على افتراق لفظي الإيمان والإسلام في الدلالة والمعنى، وبيان أن لكل منهما معناه الخاص به:

قال تعالى:﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾الأحزاب:٣٥.

فقوله تعالى:﴿ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾؛ أي الذين استسلموا في ظاهرهم وعلى جوارحهم لأحكام الشريعة، ﴿ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾؛ الذين صدَّقت قلوبهم وخشعت وأيقنت واستسلمت لما استسلمت له وأقرت به جوارحهم الظاهرة .. فإيمان القلب يصدق الإسلام الظاهر، والإسلام الظاهر يُصدق إيمان القلب ويترجمه .. فكل منهما يصدق الآخر، ويدل عليه، ولازم له.

---

٦١ أخرجه أحمد وغيره، السلسلة الصحيحة: ٦٧٧.

٦٢ أخرجه ابن حبان، السلسلة الصحيحة: ٦٧٨.

قال عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله في التفسير:﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾؛ وهذا في الشرائع الظاهرة إذا كانوا قائمين بها. ﴿ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾؛ هذا في الأمور الباطنة؛ من عقائد القلب وأعماله ا– هـ.

وفي السنة كما في سؤال جبريل النبيَّ ﷺ عن الإسلام والإيمان، قال:" يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله ﷺ:" الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا ". قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال:" أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره ". قال: صدقت " مسلم.

فتأمل كيف فسر الإسلام بأمر ظاهر؛ وبأعمال ظاهرة تُمارس على الجوارح الظاهرة، بينما فسر الإيمان بأمر باطن، وبأعمالٍ قلبية.

وكذلك من أدعية النبي ﷺ قوله:" اللهم من أحييته منا، فأحيه على الإسلام، ومن توفيته منا، فتوفه على الإيمان "[٦٣]. ففرق في الدعاء بين الإسلام والإيمان.

قال ابن رجب في جامع العلوم ١٠٨/١: لأن العمل بالجوارح إنما يتمكن منه في الحياة، فأما عند الموت فلا يبقى غير التصديق بالقلب ا– هـ. أقول: وكذلك يبقى اليقين، والرجاء، وحرارة الشوق للقاء، وتحسين الظن بالخالق ﷻ .. فهذه كلها أعمال قلبية وهي تنفع صاحبها عند الاحتضار.

وقال ﷺ:" اللهمَّ لكَ أسلمتُ، وبك آمنتُ " متفق عليه. أي لك أسلمت وانقادت جوارحي الظاهرة، وبك صدقت وأيقنت؛ فأطلق اللفظان ولكل منهما معناه المختلف عن الآخر.

وقال ﷺ:" المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويَدِه، والمؤمنُ مَنْ أمِنَهُ الناسُ على دمائهم وأموالهم "[٦٤]. ففسَّر المسلم بأمرٍ ظاهر؛ وهو أن يسلم المسلمون من لسان ويده، وكلاهما من الأعمال الظاهرة. بينما فسر المؤمن بأمر قلبي باطن؛ وهو أن يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والأمان مكانه القلب، ومن الأعمال الباطنة.

ونحوه قوله ﷺ:" تَدرونَ مَن المسلم؟ قالوا: الله ورسولُه أعلم. قال: مَن سلم المسلمون من لسانِه ويدِه، قال: تدرون مَن المؤمن؟ قالوا: الله ورسولُه أعلم. قال: مَن أمِنَه المؤمنون على أنفسِهم وأموالهم، والمهاجرُ مَن هجرَ السُّوءَ فاجتنبَه "[٦٥].

---

٦٣ أخرجه الترمذي، وقال: حسن صحيح، والحاكم في صحيحه، ووافقه الذهبي.

٦٤ صحيح سنن الترمذي: ٢١١٨.

٦٥ أخرجه أحمد في المسند " ٦٩٢٥ "، وقال عنه الشيخ شاكر: إسناده صحيح.

وقال ﷺ:" بُني الإسلام على خمسٍ: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسولُ الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت "[٦٦]. ففسر الإسلام بالأعمال الظاهرة على الجوارح.

وقال ﷺ:" من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذلكم المسلم " البخاري. وهذه أعمال ظاهرة على الجوارح الظاهرة .. ففسر إسلام المسلم الذي يُحكم له بالإسلام، وتكون له حرمة المسلمين بالذي يأتي هذه الأعمال الظاهرة.

وكذلك قوله ﷺ في الصحيحين:" لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ". وقوله ﷺ:" لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين ". وقوله ﷺ:" ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحب إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار ". فعلق وجود الإيمان والشعور بحلاوته على أن يكون الله ورسوله أحب للمرء مما سواهما .. وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار .. والحب والكره كلاهما من أعمال القلب الباطنة.

ونحو ذلك قول النبي ﷺ في الأنصار:" لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق " مسلم.

وقال ﷺ:" أسلمَ الناسُ وآمنَ عمرو بنُ العاص "[٦٧]. أي أتى الناس بالإسلامِ الظاهر .. بينما عمرو بن العاص ﷺ قد حقق الإيمان واستقر الإيمان في قلبه .. ومن كان كذلك فهو لازم له أن يأتي بالإسلام الظاهر ولا بد .. بخلاف من يُسلم بالظاهر فهو لا يلزم منه بالضرورة أن يأتي بالإيمان وبالأعمال القلبية الباطنة على الوجه الأمثل .. ولاحتمال النفاق، كما قال تعالى عن بعض الأعراب:﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾الحجرات: ١٤. أي الصواب أن تقولوا أسلمنا وانقدنا ظاهراً؛ لأن الإيمان لم يتمكن من قلوبكم جيداً بعد .. فالإسلام الوارد في النص له معناه المختلف والمغاير لمعنى الإيمان، إذ لكل منهما معناه الخاص به والمختلف عن الآخر كما هو ظاهر .. والأدلة الدالة على هذا الافتراق في المعنى والدلالة كثيرة، وفيما تقدم الكفاية[٦٨].

---

٦٦ صحيح سنن الترمذي: ٢١٠٤.

٦٧ صحيح سنن الترمذي: ٣٠٢٠. والحديث فيه أن عمرو بن العاص ﷺ من المبشرين بالجنة؛ لأن من بُشر بالإيمان فقد بُشر بالجنة .. والله تعالى أعلم.

٦٨ قلت: وفيما تقدم ذكره من أدلة حول مسمى الإيمان والإسلام يبطل القاعدة الشائعة في بعض كتب أهل

. الدليل على تضمن واشتمال أحد اللفظين للآخر: قال تعالى:﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلام ﴾آل عمران:١٩. فالإسلام هنا يشمل الإيمان كذلك؛ أي يشمل الأعمال الظاهرة والباطنة معاً، إذ لا يصح أن يُقال أن الدين الذي يرضاه الله تعالى هو الإسلام الذي يشمل الأعمال الظاهرة دون الأعمال القلبية الباطنة .. فهذا لا يقول به عاقل.

ونحو ذلك قوله تعالى:﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْه ﴾آل عمران:٨٥ . فالإسلام الذي لا يقبل الله ديناً غيره، هو الإسلام الذي يتضمن الإيمان والإسلام معاً؛ الأعمال الباطنة والظاهرة معاً، ولا يصح أن يقال غير ذلك.

وكذلك قوله تعالى:﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾الذريات:٣٦. فالمسلم والمؤمن هنا بمعنى واحد، وكل منهما متضمن للآخر، لأن المؤمن الذي أخرج هو نفسه المسلم، وهو كقوله ﷺ في السلام على مقابر المسلمين:" السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمتأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون " مسلم. أي " المؤمنين "؛ الذين أمنوا وأسلموا .. " والمسلمين "؛ الذين أسلموا وآمنوا؛ إذ لا يجوز السلام ولا الترحم على مسلم لم يؤمن.

قال النووي في الشرح ٤٤/٧: ولا يجوز أن يكون المراد بالمسلم في هذا الحديث غير المؤمن لأن المؤمن[٦٩]إن كان منافقاً لا يجوز السلام عليه والترحم ا– هـ.

وكذلك قول النبي ﷺ، لوفد عبد القيس:" أمرهم بالإيمان بالله وحده، قال: أتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟" قالوا: الله ورسوله أعلم، قال:" شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تُعطوا من المغنم الخمس " البخاري. ففسر الإيمان بالإسلام الظاهر، مما دل أن الإيمان أحياناً يُطلق بالمعنى الشامل والمتضمن للإسلام الظاهر.

وفي مسند الإمام أحمد، عن عمرو بن عبسة، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، ما الإسلام؟ قال:" أن تسلم قلبك لله، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك "، قال: فأي الإسلام أفضل؟ قال:" الإيمان ". قال: وما الإيمان؟ قال:أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله،

العلم .. وعلى ألسنة بعض طلبة العلم .. من أن الإيمان والإسلام إذا اجتمعا في نصٍ تفرقا في المعنى، وإذا افترقا؛ وكان كل منهما في نص اجتمعا ودل أحدهما على الآخر .. فهذه قاعدة غير منضبطة، وهي بخلاف النص .. كما هو ظاهر مما تقدم ذكره أعلاه.

٦٩ قلت: لعل الصواب أن يُقال " المسلم " بدلاً من كلمة " المؤمن "؛ لأن المؤمن لا يصح أن يُفترض فيه النفاق، فلا يجتمع في قلبٍ واحدٍ إيمان ونفاق مخرج من الملة، بخلاف المسلم فإنه يصح أن يُفترض فيه النفاق؛ لاحتمال استسلامه لأحكام الشريعة في الظاهر مع إضماره الكفر والنفاق في القلب، والله تعالى أعلم.

والبعث بعد الموت " قال: فأي الإيمان أفضل؟ قال:"الهجرة". قال: فما الهجرة؟ قال:" أن تهجر السوء"، قال: فأي الهجرة أفضل؟ قال:"الجهاد"[٧٠].

فقوله:" ما الإسلام "؛ يريد منه الإسلام العام والشامل للأعمال الظاهرة والباطنة .. بدليل إجابة النبي ﷺ له الدالة على هذا المعنى والشمول، فقال ﷺ:" أن تُسلم قلبك لله، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك "؛ ففسر النبي ﷺ الإسلام بأمرٍ باطن وظاهر معاً .. ثم جعل الإيمان الخاص، وهو " الإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت " داخلاً في معنى الإسلام العام والشامل، وهو من أفضل أعماله وشعبه .. ثم أدخل الأعمال كالهجرة والجهاد في معنى ومسمى الإيمان وجعلها منه .. وهو من جملة الأدلة على دخول الأعمال في مسمى ومعنى الإيمان.

وكذلك قوله ﷺ:" لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة " البخاري. أي مسلمة مؤمنة، فالإسلام هنا يشمل الإيمان ويتضمنه ولا بد؛ لأن من لوازم دخول الجنة تحقيق الإيمان، كما في قوله ﷺ لعمر:" يا ابن الخطاب! اذهب فناد في الناس: إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون " مسلم. وفي حديث آخر قال:" يا ابن عوف! اركب فرسك، ثم ناد: إن الجنة لا تحل إلا لمؤمن "[٧١]. فالمسلم الذي يدخل الجنة هو مسلم مؤمن، كذلك المؤمن الذي يدخل الجنة فهو مؤمن مسلم .. ولا يصح أن يُقال غير ذلك.

من خلال ما تقدم ندرك: أن كل مؤمن مسلم؛ إذ لا بد لمن آمن في قلبه أن ينقاد ظاهره لما استقر في قلبه من الإيمان، فيترجمه من خلال أعمال تسري على ظاهره وجوارحه، كما في الحديث الصحيح:" ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب " متفق عليه.

قال ابن حجر في"الفتح" ١/١٢٨: خص القلب بذلك لأنه أمير البدن، وبصلاح الأمير تصلح الرعية، وبفساده تفسد ا– هـ.

ولا يلزم بالضرورة أن يكون كل مسلم مؤمناً؛ لاحتمال النفاق .. فالمنافق مسلم في الدنيا . تُجرى عليه أحكام المسلمين . كافر في الآخرة . تُجرى عليه أحكام الكافرين الجاحدين . لكن أيما مسلم يُحكم له بالجنة يلزم منه ولا بد أن يكون مؤمناً .. ويكون إسلامه ولا بد متضمناً وشاملاً للإيمان؛ كأن يُقال: المسلمون من أهل الجنة .. أو قتلانا . على العموم . من المسلمين في الجنة .. فهذا التعبير وهذا الإطلاق يتضمن الإسلام والإيمان معاً، والمؤمن والمسلم معاً؛ لأنه لا ينتفع من الجنة ولا يدخلها إلا من كان مؤمناً أو مسلماً بالمعنى المتضمن والشامل للإيمان.

---

[٧٠] قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/٥٩: رواه أحمد، والطبراني في الكبير بنحوه، ورجاله ثقاة.

[٧١] أخرجه أبو داود، صحيح الجامع: ٧٨٣٧.

ـ مسائل وتنبيهات تتعلق بالإيمان وتعريفه.

المسألة الأولى: قد ورد في تعريف الإيمان لبعض أهل العلم: بأنه معرفة بالقلب أو تصديقه، وقول باللسان، وعمل بالأركان .

وهذا التعريف نرى فيه قصوراً عن الإلمام بجميع ما يدخل في معنى ومسمى الإيمان، وبيان ذلك: أن معرفة القلب أو تصديقه هو عمل واحد من أعمال القلب وليس كلها، والإيمان يشمل جميع أعمال القلب: كالتصديق، والمحبة، والبغض، والخشية، والعلم، والخضوع، والانقياد، والرضى، وغيرها مما يدخل في أعمال القلب.

فكلمة تصديق بالقلب لا تعطي المدلول الصحيح لما يدخل في معنى ومسمى الإيمان من الأعمال القلبية، بخلاف كلمة " اعتقاد بالقلب " التي تشمل جميع الأعمال القلبية، كما تقدم بيانه.

وكذلك القول في مدلولات عبارة " العمل بالأركان "؛ فإنها لا تعطي المدلول الصحيح لجميع ما يدخل في معنى ومسمى الإيمان من الأعمال الظاهرة، بخلاف القول: بالعمل بالجوارح .. التي تفيد دخول جميع الطاعات الظاهرة التي تمارس على الجوارح؛ الأركان وغيرها من الطاعات .. حتى إماطة الأذى عن الطريق، والله تعالى أعلم.

وعلى القارئ أن يتنبه لهذه الفروق الدقيقة في التعريفات المخالفة لتعريف أهل السنة والجماعة للإيمان؛ لما يترتب عليها من إفراط أو تفريط واسعين في الاعتقاد، والعمل والسلوك.

المسألة الثانية: من لوازم القول بتعريف أهل السنة والجماعة للإيمان بأنه " اعتقاد، وقول، وعمل "، القول بأن الكفر كذلك يكون بالاعتقاد والقول والعمل .. أو بأحدها .. أما من يأتي بتعريف أهل السنة والجماعة للإيمان كتعريف فقط .. ثم عند التأصيل والتفريع وإنزال الأحكام على الأعيان والأشياء .. تراه يحصر الكفر في تكذيب وجحود القلب وحسب .. فهذا أولاً متناقض مع نفسه ومع تعريفه للإيمان .. وهو ثانياً مخالف لمنهج وعقيدة أهل السنة والجماعة في مسائل الإيمان والكفر .. وإن زعم بلسانه خلاف ذلك .. وأنه منهم وعلى نهجهم .. وهو ثالثاً يكون باعتقاده هذا ألصق بأهل التجهم والإرجاء وأقرب إليهم وإلى منهجهم واعتقادهم في الإيمان من قربه إلى أهل السنة والجماعة، وإلى منهجهم واعتقادهم في الإيمان!

المسألة الثالثة: فإن قيل: هل يجوز للمرء أن يشهد على نفسه بأنه مؤمن، أم أنه يجب عليه أن يستثني، فيقول: أنا مؤمن إن شاء الله ..؟

أقول: إذا كان المراد من وراء شهادته على نفسه بالإيمان نفي الشك وإثبات التصديق واليقين، نعم يجوز أن يشهد على نفسه بأنه مؤمن من دون أن يستثني .. لأن الاستثناء في هذا الموضع قد يُستفاد منه حصول الشك، وهذا لا يجوز .. أما إن أراد أنه مؤمن بمعنى أنه من أهل

الجنة والنجاة يوم القيامة، على اعتبار أن مآل المؤمن الجنة .. فهنا لا بد له من الاستثناء، فيقول عن نفسه: هو مؤمن إن شاء الله .. يرجو رحمة الله ويخشى عذابه .. لأن الحكم على المصير والمآل ـ لشخص بعينه ـ يوم القيامة .. بأنه من أهل الجنة .. لا بد له من نص .. حتى لا يحصل التألّي .. ولا تزكية النفس على الله تعالى .. ولا نص هنا بعد انقطاع الوحي.

قال تعالى:﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾النجم:٣٢.

ومما كان يقوله النبي ﷺ ويأمر به أن يُقال لأموات المسلمين في البقيع:" وإنَّا إن شاء الله بكم للاحقون " مسلم. أي للاحقون بكم إلى الجنة إن شاء الله .. فاستثنى ﷺ وأمر بالاستثناء لأن الكلام له علاقة بالمآل والمصير يوم القيامة.

ونحو ذلك قوله ﷺ:" لا يدخل النارَ إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد، الذين بايعوا تحتها " مسلم.

وكذلك قوله ﷺ:" إني اختبأتُ دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلةٌ إن شاء الله من مات من أمتي لا يُشرك بالله شيئاً " مسلم. وإذا كان النبي ﷺ يستثني فيما وعده إياه ربه ﷻ .. فمن باب أولى لمن سواه ـ لمن لا يعلم عن مصيره شيء ـ أن يستثني ولا يقطع لنفسه بوعد معين من دون استثناء.

قال ابن أبي العز الحنفي في شرحه للعقيدة الطحاوية: فإن أراد المستثني الشكَّ في أصل إيمانه مُنع من الاستثناء، وهذا مما لا خلاف فيه، وإن أراد أنه مؤمنٌ من المؤمنين الذين وصفهم الله:﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾الأنفال:٤. فالاستثناء حينئذ جائز، وكذلك من استثنى وأراد عدَم علمهِ بالعاقبة، وكذلك من استثنى تعليقاً للأمر بمشيئة الله، لا شكاً في إيمانه ا– هـ.

وكذلك يُشرع الاستثناء من أجل العمل، لأن العمل من الإيمان كما تقدم؛ والعمل لا ينتهي ولا ينقطع إلا بالموت .. فهو يقول مؤمن إن شاء الله على اعتبار أنه سيأتي بما يجب عليه وما قد فاته من العمل .. إن شاء الله .. ملتمساً بذلك عون الله وتوفيقه .. فهذا مشروع ولا حرج فيه، كما قال تعالى:﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً . إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾الكهف:٢٤. ومن الأشياء التي تُفعل الطاعات والعبادات وهي تُسمى إيماناً كما تقدم.

وفي الحديث لما طلب أحد الأنصار من النبي ﷺ أن يصلي في بيته ليتخذه مصلى، فقال ﷺ:" سأفعل إن شاء الله .." البخاري. أي سأفعل الإيمان أو ما هو من الإيمان إن شاء الله؛ لأن الصلاة قد سُمّيت إيماناً .. كما تقدم.

قال الإمام أحمد رحمه الله لرجلٍ: أليس الإيمان قولاً وعملاً؟ قال الرجل: بلى، قال: فجئنا بالقول؟ قال نعم، قال: فجئنا بالعمل؟ قال: لا، قال فكيف تعيب أن يقول إن شاء الله ويستثني؟!

وقال: الإيمان قول وعمل فجئنا بالقول ولم نجئ بالعمل، فنحن مستثنون بالعمل.

وقال: بلغني عن عبد الرحمن بن مهدي أنه قال: أول الإرجاء ترك الاستثناء.

وقال: لو كان القول كما تقول المرجئة أن الإيمان قول، ثم استثنى بعد على القول لكان هذا قبيحاً أن تقول: لا إله إلا الله إن شاء الله، ولكن الاستثناء على العمل. انتهى عن كتاب السنة للخلال.

المسألة الرابعة: فإن قيل: هل يجوز بأن نشهد على شخصٍ معين بأنه مؤمن وأنه مات على الإيمان؟

أقول: لا يجوز أن نشهد على معيَّن على وجه الجزم ـ من غير نص ـ بأنه مؤمن، وأنه مات على الإيمان؛ لأن الإيمان مقره القلب، ولا يعلم ما في القلوب إلا علام الغيوب .. كما لا يجوز أن نشهد لمعينٍ ـ من غير نص ـ بأنه من أهل الجنة .. والمؤمن بيقين من أهل الجنة .. ولما في ذلك من التزكية والتألِّي على الله تعالى بغير علم.

وإن كان ولا بد نعلق ونرجو ونستثني ولا نجزم؛ فنقول: نحسبه مؤمناً ولا نزكيه على الله .. نرجو إن شاء الله أن يكون مؤمناً .. ومن أهل الجنة، كما قال تعالى:﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾النجم:٣٢.

وقال تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾النساء:٤٩ . فذم من يتجرأ على تزكية نفسه والآخرين بغير سلطان من الله.

وفي الحديث فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" إن كان أحدكم مادحاً أخاه لا محالة، فليقل: أحسب فلاناً ـ إن كان يرى أنه كذلك ـ ولا أزكي على الله أحداً " مسلم.

وفي رواية:" إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة، فليقل: احسب فلاناً، والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحداً، أحسبه ـ إن كان يعلم ذلك ـ كذا وكذا " مسلم.

قلت: وهذا إذا كان يعلم عنه فيما يخص حياته الدنيوية، فكيف لو أراد أن يزكيه فيما له علاقة بحياته الأخروية، وبما ينتظره من وعد أو وعيد .. مما لا يعلمه إلا الله .. فحينئذٍ الاستثناء وكذلك الرجاء يكون من باب أولى.

فمن عقيدة أهل السنة والجماعة أن لا يُشهد على معين من أهل القبلة بوعد ولا وعيد إلا من ورد بحقه نص .. وهذا قد انقطع بعد وفاة النبي ﷺ.

لكن يجوز أن نشهد على المعين بالإسلام بناء على ظاهره الذي يدل على إسلامه، كما في الحديث الصحيح:" من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذلكم المسلم ". أي فذلكم المسلم الذي نحكم له، ونشهد عليه بالإسلام، والله تعالى أعلم.

المسألة الخامسة: فإن قيل: هل يُقال في الكافر المعيَّن، ما قيل في المسلم، بحيث لا نشهد عليه بوعيد ولا نار؟

أقول: الكافر في حياته لا يُجزَم له بوعيد ولا نار على وجه التعيين؛ لاحتمال هدايته وتوبته فالتوبة تجب ما قبلها .. وكذلك الإسلام يجب ما قبله .. ومن يتجرأ فيحكم على كافرٍ مُعين في حياته . قبل أن تُعلَم خاتمته . بأنه من أهل الوعيد والنار .. فقد تألَّى على الله بغير علم .. وخاض فيما لا يعنيه .. وهو مثله مثل من يقول لهذا الكافر: التوبة ممنوعة ومقطوعة عنك .. وهدايتك غير ممكنة .. ولا مصير لك إلا النار .. وهذا قول لا يقدم عليه إلا من هان عليه دينه .. وهانت عليه آخرته!

أما إن مات على الكفر والشرك، فحينئذٍ نشهد عليه بعينه بأنه من أهل الوعيد، ونبشره بالنار كما قال النبي ﷺ للأعرابي الذي سأله عن أبيه الذي مات على الكفر:" حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار " قال الأعرابي: لقد كلفني رسول الله ﷺ تعباً؛ ما مررت بقبر كافر إلا بشرته بالنار[٧٢].

وهذا ليس من التألي على الله في شيء لأن الكافر الذي يموت على الكفر ليس له عند الله تعالى إلا حكم واحد، ومصير واحد، كما قال تعالى:﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾النساء:٤٨.

وقال تعالى:﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾البقرة:٢١٧.

وقال تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾محمد:٣٤. فعلَّق الوعيد على الموافاة على الكفر.

أما التألي فصفته أن يُحكَم على معين بحكم واحدٍ يحتمل حاله عند الله تعالى العفو أو العقاب .. وهذا ليس للكافر الذي يموت على الكفر.

فإن قيل: كيف بهذا المبشَّر بالنار إن كان في علم الله تعالى أنه قد مات مسلماً وهو من أهل الجنة، وأنه كان ممن يكتمون إيمانهم، ولم يكن يعلم عنه ذلك أحد ..؟!

---

[٧٢] رواه الطبراني، سلسلة الأحاديث الصحيحة: ١٨.

أقول: ما دام فعل التكفير صادراً عن اجتهاد صحيح، واعتماد القرائن الظاهرة المحيطة بالميت، وطاعة لله ولرسوله ﷺ .. ليس على صاحبه شيء وإن أخطأ في الحكم، فخطأه مغفور له؛ لأنه صادر عن اجتهاد معتبر .. ثم هو من جهة لا يُقدم ولا يؤخر إن كان مخالفاً للحق؛ لأن الحكم يومئذٍ لله العلي القدير؛ فمن كان في علم الله تعالى أنه من المؤمنين ومن أهل الجنة، لا يضره ما يقول الناس فيه، ولو اجتمع أهل الأرض قاطبة وحكموا عليه بالكفر، وأنه من أهل النار .. لما ضره ذلك، ولما منع ذلك عنه رحمة الله تعالى.

* * * * *

٦- الأسماءُ والصِّفات.

أجلُّ عِلمٍ على الإطلاق .. وأعظمُه .. وأجملُه .. وأحلاه .. وأيسره .. وأقربه للنفوس المؤمنة .. وأكثره بركةً وعطاءً .. العلم بأسماء الله تعالى الحسنى، وصفاته العليا؛ لتعلقه بالخالق ﷻ؛ فهو العلم الذي من خلاله يُعرِّف الخالقُ نفسَه لعباده .. ومنه يتعرف العبادُ على خالقهم ﷻ .. وعلى أسمائه الحسنى، وصفاته وخصائصه العليا، التي لا يُشركه فيها أحد من خلقه .. فيزيدهم ذلك إيماناً وعبودية وحباً وانقياداً وخشيةً وتعظيماً وتوقيراً لربهم .. وإعجاباً وافتخاراً وتماجداً بهذا الرب ﷻ .. والعبد كلما ازداد علماً ومعرفة بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا .. كلما رقى وارتقى .. وازداد إيمانه .. وحَسُنَ خُلُقه .. وقَرُبَت عبوديته من الكمال .. فأكملُ الناس عبودية وتوحيداً لله ﷻ أعرفهم بالله تعالى، وأعرفهم بأسمائه الحسنى وصفاته العليا .. وأعرف الناس بالله ﷻ هو محمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

فمرد تفاضل وتمايز العباد في العلم والإيمان والدرجات والمقامات إلى هذا العلم الشريف العظيم الجليل .. وإلى مدى تمكن كل منهم في ذا العلم .. والقَدْر الذي يؤتَاه منه .. ويمنُّ اللهُ به عليه .. ومن ثم أثر هذا العلم الجليل على إيمانه ونفسه وسلوكه وحياته .. والله تعالى يؤتي فضله من يشاء.

ثم هذا الخلق كله؛ السماوات السبع ومن فيهن، والأراضين السبع ومن فيهن .. كلها .. وكل حوادثها .. وما يستجد فيها من حوادث وأعمال .. ومن دون استثناء .. وإلى يوم القيامة .. هي أثر من آثار أسماء الله الحسنى، وصفاته العليا .. ومقتضى من مقتضياتها .. كل منهما دال ودليل على الآخر؛ فعظمة الخلق تدل على عظمة الخالق وعظمة أسمائه الحسنى وصفاته العليا، وعظمة الأسماء والصفات تدل على عظمة الخلق، وعظمة آثار أفعال الخالق ﷻ . الذي له الأسماء الحسنى والصفات العليا . في خلقه.

ومع ذلك، فهذا العلم الشريف العظيم . الذي يقوم عليه الكون كله . لم يسلم من تأويلات وتحريفات المبطلين المتكلمين .. فامتدت إليه . ولا تزال . أيادي الغدر والعبَث والتحريف والتأويل والتعطيل من قِبل أهل الفلسفة والكلام والهوى .. فحرَّفوا معانيه ومقاصده .. وشوهوا جماله .. وعقَّدوا عباراته وألفاظه .. وحوَّلوه إلى علم جدليّ كلامي فلسفي .. ضره أكثر من نفعه .. فصعَّبوه

على الناس .. ونفَّروهم منه .. فأورثوهم بذلك قساوة وجفاء ونفوراً في القلوب .. ومن ثم في واقع حياتهم وأعمالهم .. بعد أن كانت عامرة بالذكر والحب والإيمان!

وفي المقابل فريق آخر ـ من أهل السنة ـ حظه من هذا العلم الشريف .. وهمه الأكبر .. كيف يثبت الصفات .. وكيف يرد على المتأولة والمعطلة ـ من أهل الكلام وغيرهم ـ شبهاتهم وتأويلاتهم .. فأطالوا الوقوف عند هذه الجزئية ـ دراسة وتدريساً وتأليفاً ـ ولم يُحسنوا تجاوزها بسلام .. فشاركوا في النتيجة المشار إليها أعلاه .. من حيث لا يريدون .. ومن حيث يظنون أنهم يُحسنون صُنعاً .. فغاب ـ أو كاد ـ المقصود الأول والأعظم من هذا العلم الشريف!

لذا نجد من الأهمية أن نشير إلى بعض الضوابط والقواعد والمسائل ذات العلاقة بهذا العلم الشريف .. والتي تعين ـ بإذن الله ـ على فهمه .. وعلى إزالة ما علق ـ أو بعض ما علق ـ به من شبهات وتحريفات وأهواء وجفاء المبطلين والمنحرفين .. وتُعرِّف السالكين على الطريقة المثلى في التعامل مع هذا العلم الشريف والعظيم .. والله تعالى وحده الهادي والموفق لكل خير.

ـ ضوابط وقواعد تُعِين على فهم هذا العلم الشريف:

١ – الضابط الأول: تحقيق متابعة النبي ﷺ وأصحابه الكرام رضي الله عنهم أجمعين فيما كانوا عليه من دين واعتقاد؛ فنثبت ونتلقى ونفهم ونفسِّر أسماء الله الحسنى، وصفاته العليا، الذاتية منها والفعلية ـ الواردة في الكتاب والسنة ـ من غير جحود، ولا تعطيل، ولا تأويل، ولا تكييف، ولا تشبيه .. كما فسّرها النبي ﷺ ـ وعلى مُراده ـ وكما فهمها وتلقاها منه الصحابة رضي الله عنهم أجمعين .. فلا نعقب عليهم ولا نتعداهم في فهم ولا في نفي ولا إثبات .. ولا في فضول بحث ولا سؤال .. فيكفينا ما كفاهم .. فطريقة السلف الصالح هي الأسلم والأحكم .. والأرضى لله ﷻ .. فقد رضي الله عنهم .. ورحل النبي ﷺ وهو عنهم راضٍ .. وذلك لسلامة دينهم ونهجهم واعتقادهم وفَهمهم .. فمن نهج نهجهم نجا وسَلِم .. ومن أبى إلا أن يُخالف ويُشاقق .. ويسلك دروب الهوى والرأي .. فقد غوى وهلك .. ولا يلومَنَّ إلا نفسه.

قال تعالى:﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾؛ أي غير سبيل الصحابة ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين ﴿ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً ﴾النساء: ١١٥.

وقال تعالى:﴿ فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾البقرة:١٣٧. أي إن آمن الناس بمثل ما آمن به محمد ﷺ ومن معه من أصحابه رضي الله عنهم ﴿ فَقَدِ اهْتَدَواْ ﴾ إلى الحق والصراط المستقيم .. فالهداية وصفتها وكل ما يُؤدي إليها محصور بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه من طريقة ومنهج ﴿ وَّإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ وأعرضوا عمَّا آمن به محمد ﷺ ومن معه

من أصحابه .. ﴿ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾؛ أي في خلاف مع الحق وأهله .. فهم في شقٍّ .. والحقُّ وأهله في شِقٍّ آخر.

وقال تعالى:﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾النور: ٦٣. والفتنة هنا يُراد بها الكفر والشرك؛ أي فليحذر الذين يُخالفون أمر النبي ﷺ وطريقته إلى أمر غيره وطريقته أن يقعوا في الكفر؛ فيكفرون بعد أن كانوا مؤمنين.

وقال تعالى:﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾الأحزاب: ٢١.

وفي الحديث فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" خيرُ الناسِ قرني، ثم الذين يلونَهُم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيءُ مِن بعدِهم قومٌ تَسبِقُ شهادَتُهُم أيمانَهم، وأيْمانُهُم شهادَتَهُم " متفق عليه.

وقال ﷺ:" خيرُ أمتي قرني، ثم الذين يلونَهُم، ثم الذين يلونهم، ثم إنَّ بعدكم قوماً يَشهدون ولا يُستشهَدون، ويَخونون ولا يُؤتمنون، ويَنْذُرُون ولا يَفُونَ، ويَظهَرُ فيهم السِّمَنُ " متفق عليه.

وقال ﷺ:" فإنه من يَعِش منكم بعدي، فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنَّتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين؛ تمسكوا بها، وعضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدِثات الأمور؛ فإن كلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالة "[٧٣].

وعن عبد الله بن مسعود، قال: مَن كان مسْتَنًّاً فليستنَّ بمن قد مات، فإن الحيَّ لا تُؤمَنُ عليه الفتنة، أولئك أصحابُ محمد ﷺ كانوا أفضلَ هذه الأمة، أبَرَّها قلوباًَ، وأعمقَها علماً، وأقلَّها تكلفاً، اختارهم الله لصحبةِ نبيه، ولإقامة دينِه، فاعرفوا لهم فضلَهم، واتَّبعوهم على آثارهم، وتمسَّكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسِيَرِهم، فإنهم كانوا على الهُدى المستقيم.

٢- الضابط الثاني: كل ما يتعلق بعلم الأسماء والصفات الأصل فيه أنه وقفٌ على نقل الكتاب والسنة وحسب؛ فما ورد وثبت من الأسماء والصفات في الكتاب والسنة .. نثبته ونؤمن به .. وأيما إثباتٍ أو نفي لم يردا في الكتاب والسنة أو يُخالفا ما جاء في الكتاب والسنة .. فهما رد .. وهما من الإحداث في الدين والابتداع .. وكل بدعة ضلالة .. وكل ضلالة في النار .. لأنه لا مجال في هذا العلم الشريف للرأي أو العقل والاجتهاد.

واعلم أن سبب هلاك وضلال من ضل من أهل الكلام والفلسفة والرأي والهوى .. أنهم لم يقتنعوا ولم يكتفوا بما ورد من نقلٍ في الكتاب والسنة .. وأرادوا أن يخوضوا في علم الأسماء والصفات .. وفي الماهية والكيفية والذات . بعيداً عن نقل وهدي الكتاب والسنة . معتمدين على

---

[٧٣] رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي وابن ماجه، وقال الشيخ ناصر في تخريج المشكاة " ١٦٥ ": سنده صحيح، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

أنفسهم وقدراتهم القاصرة العاجزة .. وآرائهم .. وتخيلاتهم .. وظنونهم التي لا تُغني من الحق شيئاً .. فحسبوا تخيلاتهم وأوهامهم وظنونهم من القواطع والحجج الدامغة .. فقاتلوا وجادلوا عنها .. وكفروا مخالفيهم فيها بغير حق .. فضلوا وأضلوا .. وهلكوا وأهلكوا من تبعهم!

والله تعالى قد نزَّه نفسه عن كل وصف يصفه به الواصفون لم يُستمدوا وصفهم مما جاء به الأنبياء والرسل، كما قال تعالى:﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾؛ فنزَّه الرب نفسه عن كل وصف يصفه به الواصفون، أيَّاً كانوا، وأيَّاً كان وصفهم؛ لأنهم يصفونه بغير علم ولا سلطان من الله .. ثم استثنى من الواصفين الرسل، فسلم وأثنى عليهم وبارك وصفهم له فقال تعالى:﴿ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾الصافات:١٨٠-١٨١. لأنهم في وصفهم لله ﷻ لا ينطقون عن الهوى وإنما يستمدون علمهم ووصفهم مما يُوحى إليهم من ربهم ﷻ.

وقال تعالى:﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾الزخرف:٨٢. وهذا البراء والتنزيه شامل لكل من يصف الله تعالى أو يتجرأ على وصفه بأي صفة من غير علم ولا برهانٍ من الله تعالى.

وقال تعالى:﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾الزمر:٦٧. وقال تعالى:﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾الحج:٧٤. وكل من يُثبت لله تعالى صفة من عند نفسه وهواه .. أو ينفي عنه صفة ثابتة في الكتاب أو السنة .. فهو ممن لا يرجون لله وقارا .. ولم يقدروا الله حق قدره.

ومن يتأمل وصف من يصف الله تعالى بغير علم ولا دليل من الكتاب والسنة ـ مهما أراد من وصفه التنزيه والتعظيم ـ يجد أن وصفه لربه لا يُمكن أن يرقى إلى درجة الكمال أو الأحسن .. لأن الكمال والأحسن محصوران في وصف الله تعالى لنفسه، ووصف أنبيائه ورسله له ﷻ .. والله تعالى يوصف بالكمال والأحسن .. وليس بالحسن الذي يوجد أحسن منه .. ومن يصف الله تعالى بالحسن ويترك الأحسن والأكمل يناله نصيب من الوعيد الوارد في قوله تعالى:﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾.

٣- الضابط الثالث: نفي المماثلة والمشابهة والمكافأة والندية من جميع أوجهها؛ فإن اعتراك وسواس بأن لله ﷻ شبيه أو مماثل أو مُكافئ أو نِدٌّ يَعْدِلُه من خلقه .. في أي صفة من صفاته أو خاصية من خصائصه ﷻ .. فاقطعه مباشرة بقوله تعالى المحكم الصريح:﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾الشورى:١١. وكلمة ﴿ شَيْءٌ ﴾؛ صيغة نكرة تفيد مطلق وعموم الأشياء .. وهي تشمل كل شيء مما يخطر على البشر تصوره وما لا يخطر.

وقوله تعالى:﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾الإخلاص:٤. وفي قراءة صحيحة:﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُؤاً أَحَدٌ ﴾؛ أي ليس له مُماثل ولا شبيه ولا مُكافِئ ولا شريك ولا نِدٌّ يَعْدِلُه ويُكافِئه في شيءٍ من صفاته وخصائصه؛ فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، المتفرد بأسمائه الحسنى وصفاته العليا التي لا يُشابهها ولا يُماثلها ولا يُكافئها شيء من خلقه.

فتوحيد الأسماء والصفات قائم على ركنين، لا يصح ولا يقبل إلا بهما معاً: أولهما إثبات ما يستحقه الخالق ﷻ من الأسماء الحسنى والصفات العليا الثابتة في الكتاب والسنة، من غير جحود ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل.

الركن الثاني: نفي الند أو الشبيه، الذي يُشارك أو يُشابه الخالق ﷻ في أيٍّ من صفاته وخصائصه العليا .. فالركن الأول قائم على إثبات ما يستحقه الخالق ﷻ من أسماء وصفات .. والثاني قائم على تنزيه الخالق ﷻ عن المشابهة والمماثلة لشيء من خلقه .. فمن أخل بركنٍ من الركنين الآنفي الذكر فقد أخل بتوحيد الأسماء والصفات وانتقض توحيده.

ونفي التشبيه والمماثلة يشمل نوعي التشبيه معاً: تشبيه الخالق بالمخلوق، وتشبيه المخلوق بالخالق .. وهذا النوع من التشبيه أوسع انتشاراً .. وأكثر رواجاً .. يقع فيه كثير من الناس ثم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً؛ فهم إذ تراهم يستهجنون ويستنكرون تشبيه الخالق بالمخلوق، إلا أنهم يستسيغون تشبيه المخلوق بالخالق، ولا يرون في ذلك غضاضة ولا حرجاً في دينهم .. علماً أنه في الوزر والتشبيه سواء مثله مثل من يشبه الخالق بالمخلوق لا فرق.

وبرهان ذلك: لو قيل لهم أن الله تعالى يُشابه خلقه في صفاته، وكلامه، وحكمه، وشرعه .. لاستهجنوا ذلك وعدوه منكراً كبيراً . وهم محقون في ذلك . بينما لو قيل لهم: للمخلوق صفات وخصائص كصفات وخصائص الله تعالى .. لاستسيغ ذلك من طرفهم .. وما اعتبروه من التشبيه، ولا الشرك؛ كأن يُقال لهم: للإنسان خاصية التشريع والتحليل والتحريم من دون الله ﷻ .. هو السيد في الأرض والحكم له من دون الله تعالى .. أو أن هذا الحاكم أو المِلك فوق المساءلة والمحاسبة أو أن يُسأل عمَّا يفعل كما ينص على ذلك كثير من دساتيرهم وقوانينهم .. أو من الناس من يعلم الغيب .. ويُصيب فيما يتكهن به .. أو يقدر على أن يجلب النفع ويدفع الضر عمن يشاء .. أو من خصوصيات المخلوق أن يُطاع لذاته ويُحب لذاته .. فيُوالى فيه ويُعادى فيه .. وتُقسم الحقوق والواجبات فيه وعلى أساسه وأساس الانتماء إليه .. وما أكثر من يدعي لنفسه هذه الخصائص والصفات . والتي هي من خصوصيات الله تعالى وحده . وما أكثر من يقر لهم بهذه الخصائص والصفات .. ثم هم مع هذا الوزر العظيم لا يعتبرون أنفسهم من المشبهة أو قد وقعوا في التشبيه

والشرك .. والنصوص الشرعية التي تنهى عن تشبيه الخالق بالمخلوق لا تطالهم ولا تعنيهم في شيء .. وأنهم ممن يُحسنون صنعاً!

لذا فإن مواجهة هذا النوع من التشبيه ـ تشبيه المخلوق بالخالق ـ يحتاج إلى جهد وجهاد مضاعفين من قبل الدعاة إلى الله .. عسى الله تعالى أن يُعيد بهم العباد إلى سبيل الحق والرشاد.

وإن عجبي ليشتد من دعاة تراهم يُقاتلون عن التشبيه الأول .. ويؤلفون ويُناظرون .. بينما عند وقوع الناس في التشبيه الثاني؛ تشبيه المخلوق بالخالق ـ وما أكثر من يقع فيه ـ تراهم يصمتون صمت أهل القبور؛ لا يأمرون ولا ينهون، وكأن الأمر لا يعنيهم، وليس فيه من المآخذ ما في التشبيه الأول، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٤ – الضابط الرابع: معنى الصفات معلوم نؤمن به ونثبته .. ولا نُماري فيه .. لكن إثبات المعنى للصفات لا ينبغي أن يحمل المرء على التوسع والخوض في كيفية الصفات .. فإثبات معنى الصفة شيء والخوض في كيفيتها شيء آخر .. إذ ليس من النقل ولا العقل أن يخوض العبد في البحث عن كيفية الصفات، وماهية الذات .. فالنقل قد نهى عن ذلك .. كذلك العقل السليم يأبى على صاحبه أن يخوض فيما لا يعنيه ولا يقدر عليه .. وأن يرد موارد التهلكة والضياع .. ثم أن الخوض في الكيفية مآله ـ ولا بد ـ الوقوع في التشبيه .. وقد تقدم ذكر النصوص التي تحذر من الوقوع في التشبيه.

قال ابن تيمية في الفتاوى ٤/٤: لمَّا سُئل مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ فقيل له: يا أبا عبد الله ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾طه:٥. كيف استوى؟! فأطرق مالكٌ وعلاه الرحضاء ـ يعني العرق ـ وانتظر القومُ ما يجيء منه فيه، فرفع رأسَه إلى السائل وقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمانُ به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأحسبك رجل سوء، فأمرَ به فأُخرج.

وهذا الجواب من مالك ـ رحمه الله ـ في الاستواء شافٍ كافٍ في جميع الصفات، مثل النزول، والمجيء، واليد، والوجه وغيرها، فيُقال في مثل النزول: النزول معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وهكذا يُقال في سائر الصفات ا– هـ.

واعلم ـ يا عبد الله ـ أن غيرك الكثير ممن علا كعبهم في البحث والطلب قد جربوا وحاولوا أن يخوضوا في البحث عن كيفية الصفات وماهيتها .. وأن يرتقوا هذا المرتقى الصعب والمستحيل .. فأنفقوا في سبيل ذلك أعمارَهم كلها .. فارتدت عليهم محاولاتهم بالحسرة والفشل والضياع والخسران .. والشك .. والقلق .. والحيرة .. وقساوة في القلب .. وسوء الظن بالله ﷻ .. وحصل منهم بعد ذلك الندم ـ ولات حين مندم ـ على ما فرطوا بحق أنفسهم وحق الله تعالى .. وما أنفقوا من أعمارهم من غير فائدة ولا طائل يُذكر .. والكيِّس الفطن من يتعظ بغيره،

ويأبى أن يكون عظة لغيره.

فإن راودتك وساوس الشيطان وأبت عليك إلا أن تركب هذا المحظور؛ وتبحث في كيفية الصفات وماهيتها .. وطمَّعك الشيطان بالظفر والوصول .. فاقطعها مباشرة بقوله تعالى:﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾طه:١١٠. أي مهما حاولت فإنك لا ولن تستطيع أن تُحيط بالله ﷻ أو بشيء من صفاته العليا علماً .. وهذا حكم قاطع مانع يمنع العاقل من أن ينشغل فيما لا يعنيه ولا ينفعه .. وأن تقتصر همته على طلب ما يعنيه وينفعه بإذن الله.

ونحو ذلك قوله تعالى:﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ﴾الأنعام:١٠٣.

وكذلك قوله تعالى:﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء ﴾البقرة:٢٥٥. فالمؤمن مطالب أن يطلب العلم في المساحة التي شاءها الله تعالى وقدرها لعباده .. وبينها عن طريق الأنبياء والرسل .. فلا يتعداها في شيء .. وهو المراد من الاستثناء في قوله تعالى ﴿ إِلاَّ بِمَا شَاء ﴾.

٥- الضابط الخامس: في حال ظهر نوع تعارضٍ بين بعض النصوص الشرعية ذات العلاقة بالصفات، ثم استحيل التوفيق بينها .. فُسِّر النص المتشابه منها في دلالته ومعناه على ضوء النص أو النصوص المحكمة في دلالتها ومعناها .. ورُدّ إليها .. وجُعِل النص المحكم حكَماً على المتشابه منها .. وليس العكس.

أما أن يحصل العكس؛ فيُتبع المتشابه ويُترك المحكم .. أو يُرد المحكم إلى المتشابه ويُفسَّر على ضوء المتشابه .. ويُجعل المتشابه حكماً على المحكم .. فهذا صنيع من يُتهم في دينه وعقيدته ممن في قلوبهم زيغ ومرض، كما قال تعالى:﴿ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ ﴾آل عمران:٧.

فإن قيل: لو تضرب لنا مثالاً يتضح فيه هذا الضابط أكثر؟

أقول: مثال ذلك قوله تعالى:﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾الحديد:٤. وقوله تعالى:﴿ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾محمد:٣٥. وقوله تعالى:﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾طه:٤٦. وقوله تعالى:﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىَ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾المجادلة:٧.

كيف تُفهم وتُفسر المعية الواردة في النصوص أعلاه ..؟

فإن فُسرت على إطلاقها وعمومها بما في ذلك معية الذات .. تعارض ذلك مع النصوص

المحكمة الدالة على أن الله تعالى في السماء، بائنٍ عن خلقه، مستوي فوق عرشه، له العلو، يعلو ولا يُعلى عليه، كما في قوله تعالى:﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾الأعراف٤، و يونس:٣، والرعد:٢، والفرقان:٥٩، والحديد:٤.

وقوله تعالى:﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾طه:٥. وقال تعالى:﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾النمل:٢٦.

وقوله تعالى:﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ . أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾الملك:١٧.

وفي صحيح مسلم وغيره، قال النبي ﷺ لجارية:" أين الله؟" قالت: في السماء، قال:" من أنا؟" قالت: أنت رسولُ الله ﷺ، قال ﷺ لصاحبها:" اعتقها فإنها مؤمنة "[٧٤]. وغيرها من النصوص المحكمة الدالة على أن الله تعالى في السماء فوق خلقه وعرشه[٧٥].

وحتى لا يتم هذا التعارض مع هذه النصوص المحكمة في دلالتها ومعناها تُفسَّر وتُفهم المعيَّة على أنها معية علم، واطلاع، وشهادة، وسمع وبصر، وقدرة، وإرادة .. ومعية توفيق وتسديد ونصرة وتأييد لأوليائه .. فكل هذه المعاني تدخل في معنى المعية الواردة في قوله تعالى:﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ وغيرها من الآيات.

فإن قيل: هذا تأويل .. ونحن نُهينا عن التأويل في الصفات؟

أقول: هذا النوع والقدر من التأويل تحتمله معنى الآية لغة وشرعاً، وهو لا يُفضي إلى التعطيل والجحود .. ثم أن في أول آية المعية ذِكرٌ لعلو الله تعالى على خلقه، واستوائه على عرشه .. وفي ذلك دلالة حتى لا تُفهم المعية الواردة في نهاية الآية أنها معية ذات .. ومعية وحدة وحلول والعياذ بالله، كما قال تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾الحديد:٤. فقدم ذكر ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾، على

---

٧٤ هذه الجارية أفقه من كثير من شيوخ وخواص هذا الزمان .. الذين إن سألتهم: أين الله؟ لأجابوك من فورهم: هو في كل مكان ..!!

٧٥ قال ابن أبي العز الحنفي في شرحه للعقيدة الطحاوية، ص١٩٨ من التهذيب: روى شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري في كتابه (الفاروق) بسنده إلى أبي مطيعٍ البلخي، أنه سأل أبا حنيفة عمَّن قال: لا أعرف ربّي في السماء أم في الأرض؟ فقال: قد كَفَر، لأن الله يقول:﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾. وعرشه فوق سبع سماوات، قلت: فإن قال: إنه على العرش، ولكن يقول: لا أدري العرش في السماء أم في الأرض؟ قال: هو كافر، لأنه أنكر أنه في السماء، فمن أنكر أنه في السماء، فقد كفر ا– هـ.

ذكر ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾؛ حتى لا يحصل الالتباس والفهم الخاطئ لمعنى المعية.

ويُقال كذلك: هذا النوع والقدر من التأويل محمود شرعاً؛ لضرورة درء تعارض المتشابه مع المحكم، وضرورة تفسير المتشابه على ضوء المحكم.

ويُقال أخيراً: هذا القدر من التأويل ثابت عن بعض الصحابة كابن عباس وغيره من السلف الصالح، فنحن بهذا النوع والقدر من التأويل والفهم لم نخرج عن المتابعة والاقتداء بالصحابة وما كان عليه الناس في القرن الأول من البعثة؛ خير القرون وأفضلها[٧٦].

مثال آخر: فقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال:" فإن الله خلق آدم على صورته " مسلم.

قال فريق من الناس:" على صورته "؛ أي على صورة الله ﷻ .. وتقووا على فهمهم الخاطئ هذا بحديث ضعيف:" لا تُقبحوا الوجوه فإن ابن آدم خُلق على صورة الرحمن "[٧٧].

أقول: هذا نص متشابه في دلالته إن لم يُرد إلى لنصوص المحكمة ويُفسر على ضوئها .. سيُفهم فهماً خاطئاً ولا بد .. وهذا الذي وقع به هذا الفريق من الناس.

فإن قيل: أين النص المحكم .. وأين وجه التعارض بينه وبين الحديث المذكور أعلاه؟

أقول: النص المحكم هو قوله تعالى:﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾الشورى:١١. فهذا نص محكم في دلالته، متفق على معناه ينفي مطلق المشابهة والمماثلة كما تقدم .. وأيما نصٍ يظهر ـ ولو بوجه من الوجوه ـ أنه يتعارض مع هذا النص المحكم .. فهو متشابه ـ لا يقوى على رد المحكم ـ يُنظر في سنده أولاً فإن كان ضعيفاً لا يُلتفت إليه ولا يُعتمد عليه .. وإن كان صحيحاً .. رُدَّ إلى النصوص المحكمة .. وفُسِّر وفُهم على أساسها .. وبما لا يتعارض معها في شيء.

فإن قيل: كيف نفهم ونفسر إذاً قوله ﷺ:" على صورته " على ضوء الأدلة المحكمة؟

أقول: من القواعد اللغوية المتفق عليها أن الضمير يعود إلى أول اسم قبله، وبالتالي فقوله ﷺ " على صورته "؛ فضمير الهاء الوارد في كلمة " صورته " عائد إلى أول اسم قبله، وهو آدم عليه السلام؛ أي على صورة آدم عليه السلام.

ومما يقوي هذا الفهم قوله ﷺ في رواية أخرى:" خلق الله آدمَ على صورَته؛ طوله سِتُّونَ ذِراعاً " متفق عليه. فالضمير في كلمة " طوله " عائد إلى آدم عليه السلام .. وإذا سُلِّمَ بذلك ـ ولا بُد أن يُسلّم ـ لزم التسليم بأن الضمير في كلمة " صورته " كذلك هو عائد إلى آدم عليه السلام.

---

[٧٦] انظر إن شئت كتاب " مختصر العلو للعلي الغفار " لشمس الدين الذهبي، اختصار وتحقيق الشيخ ناصر .. ستجد فيه عشرات الآثار الصحيحة الثابتة عن الصحابة والتابعين .. الدالة على المعنى الآنف الذكر أعلاه.

[٧٧] أخرجه ابن عاصم في السنة، وقال عنه الشيخ ناصر في التخريج " ٥١٧ ": إسناده ضعيف.

بهذا الفهم نُصيب الحق في فهم النص المتشابه .. وفي نفس الوقت نَسلَم من معارضة النص المحكم .. ولله الحمد.

الأمثلة كثيرة لم نرد في بحثنا هذا تقصيها وإحصائها .. وإنما أردنا أن نضرب المثال الذي نبين فيه للقارئ المنهج السليم في فهم النصوص المتشابهة ذات العلاقة بالأسماء والصفات .. وكيفية التعامل معها إذا ما وردت عليه.

٦- الضابط السادس: اعلم أن طريقة الكتاب والسنة في بيان الأسماء والصفات هو اتباع أسلوب الإثبات المفصَّل، والنفي المجمل؛ الذي يستفاد منه إثبات صفة كمال، وهو الأسلوب الأكمل في التنزيه والتعظيم، والتقديس، كما في قوله تعالى:﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾الشورى:١١. نفي عام مجمل أتى ليثبت صفة كمال؛ وهي تفرد الخالق ﷻ في أسمائه وصفاته التي لا يُماثلها ولا يُشابهها شيء.

وكذلك قوله تعالى:﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾النساء:٤٠. وقال تعالى:﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾الكهف:٤٩. نفي عام مجمل لمطلق الظلم، ولمطلق المخلوقات، وذلك لكمال عدله ﷻ، فأفاد النفي إثبات صفة كمال؛ وهي كمال العدل.

وكذلك قوله تعالى:﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء ﴾يونس:٦١. وذلك لكمال علمه؛ فالنفي عام ومجمل أفاد إثبات صفة كمال؛ وهي كمال العلم.

ونحو ذلك قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ق:٣٨. أي ما مسنا من إعياء وتعب أو نصب؛ لبيان كمال قدرته ﷻ. وقوله تعالى:﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾البقرة:٢٥٥. أي لا يثقله ولا يعجزه حفظهما لكمال قدرته؛ فالنفي أفاد إثبات صفة كمال وهي كمال القدرة.

وكذلك قوله تعالى:﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾الإخلاص:٤. وذلك لكمال ألوهيته وربوبيته، وكمال أسمائه وصفاته التي لا تقبل وجود الند أو الشريك المكافئ.

وكذلك قوله تعالى:﴿ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ ﴾البقرة:٢٥٥. وذلك لكمال حياته، وكمال قيُّوميته على شؤون خلقه .. إذ الخلق كله لا يُمكن أن يتماسك أو يعيش دقيقة واحدة من دونه ﷻ؛ فالنفي أفاد إثبات صفة كمال وهي كمال الحياة وكمال القيُّوميَّة. وهكذا لو أردنا أن نتتبع صيغ النفي ذات العلاقة بصفات الله تعالى الواردة في الكتاب والسنة لوجدناها لا تخرج عن هذا النسق البديع العظيم الذي يُفيد غاية التنزيه، والتعظيم، والتوقير، والأدب مع الخالق ﷻ.

أما طريقة أهل الكلام والرأي والهوى والبدع .. فهي على عكس ذلك؛ إذ تراهم يتبعون طريقة الإثبات المختصر المجمل للصفات وإلى درجة جحود ونكران ما هو ثابت في الكتاب والسنة؛

حتى أن منهم من يحصر صفات الخالق ﷻ في سبع صفات أو أقل من ذلك أو أكثر بقليل .. بينما في جانب النفي تراهم يتبعون منهج وأسلوب النفي المفصل المجرد .. الذي لا يُفيد إثبات صفة كمال .. وفي كثير من الأحيان يدل على سوء أدب مع الخالق ﷻ .. كقول بعضهم أن الله تعالى ليس بجسم ولا هواء، ولا شبح، ولا لحم، ولا دم، ولا شخص، ولا جوهر، ولا عرض، ولا بذي لون، ولا طعم ولا رائحة، ولا بذي حرارة ولا برودة ... إلى آخر قائمة النفي التي لا تنتهي .. والتي لو قيلت لملك من ملوك الأرض لأدَّب قائلها عليها .. ولعد كلماته سُبَّة ومنقصة له.

وكان يكفيهم ـ بدل قائمة النفي الطويلة هذه ـ قول الحق تبارك وتعالى:﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾الشورى: ١١ . لو كانوا يعلمون وأرادوا التنزيه والتعظيم بحق.

وعلى القارئ أن يتنبه لكلا الطريقتين: فيتبع طريقة القرآن والسنة .. والسلف الصالح .. ويدع ما سوى ذلك من طرق أهل الكلام والبدع والأهواء .. ويحذِّر منها!

ـ كيف نتلقى هذا العلم الشريف العظيم ..؟

بعد أن بينا الضوابط التي تُعين القارئ على فهم هذا العلم الشريف، بعيداً عن تعقيدات وتأويلات وتحريفات المبطلين الضالين .. يأتي السؤال المهم: كيف نتلقى هذا العلم الشريف .. وكيف نعيشه .. ونتفاعل معه؟

قد ذكرت من قبل أن مما زاد من نفور الناس عن هذا العلم الجليل .. وزاد من جفاء قلوبهم وقسوتها .. الطريقة الجدلية الكلامية الجافة التي اتُّبِعَت ـ عند كثير من المتأخرين ـ في دراسة وتدريس هذا العلم الشريف؛ فهم في مرحلتي الدراسة والتدريس: لم يتجاوزوا قضية إثبات الصفات أو نفيها وتأويلها .. ففريق أولها ونفاها .. وفريق أثبتها .. وكل فريق لا همَّ له إلا كيف يرد على الفريق الآخر ويُبطل استدلالاته أو شبهاته .. وكأن الغاية والقصد من وراء هذا العلم الشريف العظيم ـ علم الأسماء والصفات ـ إثارة هذا النوع من الجدل المستمر والعقيم .. الذي لا تظهر عليه بوادر الانتهاء أو التوقف!

وهذا بخلاف المنهج النبوي العظيم في تلقين هذا العلم .. وبخلاف ما كان عليه السلف الصالح من منهجية في التعامل مع هذا العلم الشريف.

نضرب مثالاً ليتضح المراد للقارئ بصورة أفضل: حديث النزل؛ فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له " البخاري.

وفي رواية عند مسلم:" ينزلُ الله إلى السماء الدنيا كل ليلة، حين يمضي ثلث الليل الأول، فيقول: أنا الملِك، أنا الملِك، من ذا الذي يدعوني فأستجيب له، من ذا الذي يسألني فأعطيه، من

ذا الذي يستغفرني فأغفر له، فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر " مسلم.

هذا الحديث العظيم جانب منه متعلق بالخالق ﷻ، وجانب منه متعلق بعبد الله، أما الجانب المتعلق بالخالق ﷻ؛ فهو يدل على عظمة وكمال رحمة ورفق وغِنى وكرم الخالق ﷻ .. فالله تعالى بكبريائه وعظمته وقدرته وغناه وعزته وجبروته .. وأسمائه الحسنى وصفاته العليا .. يستنهض عباده النائمين الغافلين .. ويسألهم القيام ليسألوه حوائجهم فيعطيهم .. وهو القادر .. ويستغفروه مما اقترفته أيديهم في النهار من خطايا ليغفر لهم .. وهو القادر .. والله تعالى يكرر عليهم السؤال والمناداة .. وذلك في الثلث الآخر من كل ليلة .. وإلى أن ينفلق الفجر!

الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا يُقبل على عباده هذا الإقبال العظيم .. ويناديهم هذا النداء الخالد العظيم .. وفي كل ليلة من غير مللٍ حاشاه .. وهو الغني ونحن الفقراء إليه .. وفي المقابل كثير من العباد يغفلون عنه .. وعن ندائه .. فيستقبلون إقباله بالإدبار والنوم والغفلة والنسيان .. ما أعظمه من إقبال وما أسوأه من استقبال!

ولو قيل لأحد هؤلاء أن ملِكاً من ملوك الأرض ـ على ضعفه وعجزه وفقره ـ سيزورك .. لظلَّ أياماً يتهيأ ويعدّ لاستقباله .. ولله المثل الأعلى!

أما الجانب الذي يتعلق بالعبد .. فهذا الحديث حافز قوي له على أن ينهض من نومه وثباته .. ليتعبد ويسأل ويستغفر الكريم الودود الرحيم الغني القدير.

هذا الحديث حافز وداعٍ له على أن يستحي من الله؛ فيتأدب مع ربه .. ويُحسن استقباله ومناجاته؛ إذ كيف يليق بالعبد الضعيف الفقير العاجز الخطَّاء .. أن يستقبل ربه الغني استقبال المدبرين المعرضين الغافلين؟!

هذا الحديث حافز له على أن لا يقنط من رحمة الله .. فها هو الرب ﷻ بنفسه يأتيه فيقول له: قم وانهض .. سلْ تُعطى .. وأنا القادر على ذلك!

هذا الحديث حافز للعبد على أن يقوي علاقته بربه ﷻ .. وأن يزداد إيماناً وحباً وتعلقاً بخالقه ﷻ .. وكيف لا .. والغني القدير الذي له الأسماء الحسنى والصفات العليا يتودد إليه في كل ليلة فيأتيه .. وينادي .. ويكرر عليه النداء .. هل لك من حاجة فأقضيها لك .. هل اقترفت ذنباً تريد أن أغفره لك .. هل أصابك همٌّ فأزيله عنك .. لا يُحزنك الشيطان وكيده .. فمهما أزَّك لفعل الخطايا .. فأنا أغفرها لك ولا أبالي .. وليس بينك وبين مغفرتي لك .. وإجابتي لك .. سوى أن تنهض وترفع كفيك فتسأل وتدعو .. فأنت لا تحتاج إلى وسيط بيني وبينك .. يحمل مسألتك إلي .. بل ولا إلى أن ترفع صوتك .. فأنا معك ـ قريب منك ـ أسمع وأرى .. وأعلم ما في نفسك، وما تُخفيه في صدرك!

هذه المعاني الإيمانية العظيمة وغيرها هي التي كانت تعتلج في نفوس السلف الصالح .. فزادتهم إيماناً .. وزادتهم حباً وتعظيماً وعبودية لخالقهم ﷻ .. فكان إيمان أحدهم كالجبال .. وكانت الخشية عامرة في قلوبهم .. هذا حظهم من حديث النزول الآنف الذكر .. وهكذا فهموه وتعاملوا معه .. أما الخلف ـ ممن تنكبوا منهج السلف الصالح ـ فكان حظهم من الحديث فقط: أن يقفوا عند صفة النزول .. وكيفيتها .. ويُكثروا من الجدال حولها: فريق يثبتها .. وفريق ينفيها .. ولا يتجاوزن ذلك .. فطال عليهم الأمد وهم على هذا الجدال العقيم ـ وكأن مقصد النبي ﷺ من وراء هذا الحديث العظيم حمل المسلمين على هذا الجدل والتفرق في الدين .. حاشاه!ـ وغفلوا عن المقصد الأعظم من الحديث .. فقست قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة!

مثال آخر: عن أبي رزين قال: قال النبيُّ ﷺ:" ضَحِكَ ربُّنا عزَّ وجلَّ من قنوطِ عبادِه، وقُربِ غِيَرِه "، فقال أبو رزين: أوَيضحَكُ الربُّ عزَّ وجل؟ قال:" نعم ". فقال: لن نُعدَمَ من ربٍّ يضحكُ خيراً[٧٨].

تأمَّل كيف تعامل الصحابي الجليل أبو رزين ﷺ مع صفة الضحك لربنا ﷻ .. وكيف فهمها .. وكيف استبشر بها خيراً .. وعدها صفة ودودة دالة على عدم انقطاع خير الرب ﷻ عن عباده .. فربٌّ يضحك لا ينقطع خيره عن عباده .. وقد أقرَّه النبي ﷺ على فهمه واستبشاره .. قال السندي: يريد أن الرب الذي من صفاته الضحك لا نفقد خيره، بل كلما احتجنا إلى خيره وجدناه، فإنا إذا أظهرنا الفاقة لديه يضحك فيُعطي[٧٩]ا– هـ.

هكذا فهم السلف الصالح الحديث .. وهذا هو حظهم منه .. وأنعم به من حظ .. بينما الخلف ممن تنكبوا منهج وطريقة السلف الصالح .. وقفوا عند قضية صفة الضحك .. فأكثروا من الجدال والخصام حولها .. بين مثبت ومنكر لها .. ولم يُحسنوا تجاوزها ليلتفتوا إلى المقصد الأسمى والأعظم من الحديث ـ ولا يزالون في جدالهم يعمهون ـ فقست قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة .. هذا هو حظهم من الحديث .. وهذا هو مبلغهم من العلم والفهم .. وشتان شتان بين حظ وطريقة السلف وبين حظ وطريقة الخلف!

الأمثلة كثيرة لم نرد هنا استقصاءها وإحصاءها .. وإنما أردنا مما تقدم ذكره أن نوضح الطريقة المثلى والصحيحة في التعامل مع هذا العلم الشريف؛ علم الأسماء والصفات .. كيف ينبغي أن نتلقاه ونفهمه .. ومن ثم الفارق بين طريقة السلف التي أثمرت رجالاً قلوبهم عامرة بالحب

---

[٧٨] أخرجه الطيالسي في مسنده، وأحمد، وابن أبي عاصم في السنة وغيرهم، السلسلة الصحيحة: ٢٨١٠.

[٧٩] السلسلة الصحيحة: ٦/٧٣٧.

والإيمان واليقين والخشية .. وبين طريقة الخلف التي أثمرت رجالاً قلوبهم عامرة بالشك والقسوة والجفاء، وسوء الظن بالله!

* * * * *

٧- الأمرُ بالمعروفِ والنَّهي عنِ المُنكَر.

من المفاهيم الشرعية التي طالتها أيادي الغدر والتشويه والتحريف، والتعطيل مفهوم " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر "!

العلمانيون والليبراليون والديمقراطيون ـ من بني جلدتنا .. وما أكثرهم ـ أرادوها إباحية مطلقة .. وحرية مطلقة .. منكرين ابتداءً لمبدأ وعقيدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما هي في الإسلام!

العمل بعقيدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ كما هي في الإسلام ـ تعني عندهم التعدي على الحريات الفردية .. والشخصية .. والحزبية .. والإعلامية .. إلى آخر قائمة الحريات المعروفة والمزعومة .. وهذا لا يجوز!

المعروف عندهم الذي ينبغي أن يُتبع ما تنص عليه أعرافهم وقوانينهم وأهواؤهم وطواغيتهم بأنه معروف .. ولو كان في دين الله تعالى منكراً .. والمنكر عندهم ما تنص عليه أعرافهم وقوانينهم وأهواؤهم وطواغيتهم بأنه منكر .. ولو كان في دين الله تعالى معروفاً.

وهؤلاء هم المعنيون حقاً من قوله تعالى:﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾التوبة:٦٧.

وقد تأثر بهؤلاء الزنادقة المنافقين .. وبدعوتهم .. وثقافتهم القائمة على الإباحية في كل شيء وكل مجال من مجالات الحياة .. كثير من دعاة ومشايخ هذا العصر .. إذ نراهم يُطالبون وينادون ـ بكل جرأة وصراحة ـ بالحريات والديمقراطيات بالمعنى الذي يتصادم مع مبدأ وعقيدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. وهم مع ارتكابهم لهذا الوزر العظيم .. ينسبون وزرهم ـ كذباً ـ إلى الإسلام .. وإلى مبادئ وقيم الإسلام .. ويحسبون أنهم ممن يُحسنون صنعاً .. وهذا إثمه عليهم أثقل وأغلظ من سابقه!

وفريق آخر: حصر المعروف والمنكر فيما يراه الحاكم وقانونه معروفاً أو منكراً .. فتراهم يُخطّئون ويُؤثّمون ويُجرّمون ويُقبّحون ويُحسّنون ما يراه الحاكم وقانونه خطأ أو إثماً أو جرماً أو قبيحاً أو حسناً .. فانحسر معنى ومفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ عند هذا الفريق من الناس ـ فيما يراه الطاغوت وقانونه معروفاً أو منكراً!

وعلامته أنك لو سألته لماذا فعلت هذا .. أو تركت هذا .. لأجابك من فوره: لأن هذا يسمح به القانون والدستور الوضعي .. والآخر لا يسمح به القانون والدستور الوضعي .. بغض النظر عن مدى موافقة ـ أو مخالفة ـ هذا أو ذاك لشرع الله ﷻ!

وفريق آخر طلباً للسلامة، ولغرضٍ في نفسه: قسَّمَ تغيير المنكر إلى ثلاثة أقسام: منكر يُنكَر باليد؛ وهذا مقصور على السلطان أو الحاكم فقط، ومُنكر يُنكَر باللسان؛ وهذا مقصور على العلماء فقط، ومُنكر يُنكر بالقلب؛ وهذا من حظ عامة المسلمين .. وهذا تقسيم ـ كما سيتضح معنا ـ ما أنزل الله به من سلطان .. ومآله أن لا يُنكر منكر قط؛ لغياب السلطان المسلم العدل ـ في كثير من الأمصار ـ الذي يحكم بما أنزل الله، وقِلّة وندارة العلماء!

وفي المقابل فريق آخر غلبت عليه الحماسة الزائدة .. فتراه لا يكترث للعواقب والنتائج .. ولا يوازن بين المصالح والمفاسد .. ولا يتردد في أن يزيل منكراً بمنكرٍ أكبر منه!

فسادت ـ بسبب هذه المفاهيم والمناهج والتصورات المغلوطة الخاطئة لمفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المدعومة من قوى الشر والفساد، وذوي الهوى ـ الفواحش والمنكرات .. والموبقات .. والفساد والأمراض .. فطال عليها الأمد والناس عليها عاكفون؛ يقترفونها .. ويعيشونها .. ويُحسِّنونها ويُزينونها .. إلى أن أصبحت جزءاً لا يتجزأ من حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم .. لا تُفارقهم ولا يُفارقونها إلا عند الممات .. تركها مستهجن ومُستنكَر وصعب لمخالفته للمألوف!

فانقلبت الموازين .. وتعطَّلت المدارك والأحاسيس .. وفسدت الأذواق والطبائع إلى درجة الشذوذ والمرض .. وانقلب وتغير معها كل شيء .. حتى أصبحت الأمور تُرى معكوسة على غير حقيقتها التي خُلقت عليه؛ فالمعروف يُرى منكراً، والمنكر يُرى معروفاً، والحقّ يُرى باطلاً، والباطلُ يُرى حقاً، والشرّ يُرى خيراً، والخيرُ يُرى شراً، والتقدم يُرى تخلفاً، والتخلف يُرى تقدماً، والطهرُ يُرى نجاسة، والنجاسة تُرى طهراً، والحريَّة تُرى عبوديةً، والعبوديةُ تُرى حريَّةً .. فعملت معاول الهدم والتخريب والتدمير في البيوت والمجتمعات .. فطالت مصالح الناس وأخلاقهم .. وكل شيء في حياتهم .. فلم يسلم من شرها وفتنتها إلا من سلَّمه الله.

إذاً فالأمر جد خطير .. لا يقبل الإرجاء ولا الاستخفاف .. يستحق منا وقفة جادة ومستعجلة نعيد فيها المعنى الصحيح لمفهوم " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر "، ونُجيب ـ بإذن الله ـ عن كل ما يتعلق بهذا المفهوم العظيم من مسائل وأحكام .. وقبل أن تغرق السفينة فنهلك جميعاً .. مستلهمين من الله تعالى وحده العون والتوفيق والسداد.

ما هو المعروف وما هو المنكر .. ومن هي الجهة التي تُحدد المعروف والمنكر .. وما هي أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. وما هي مضار وعواقب ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. وما حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. ومن هي الجهة المخولة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. وما هي شروطه وضوابطه .. ومراتبه .. وكيفيَّته .. وغاياته وأغراضه .. وغيرها

من المسائل ذات العلاقة بمفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سنجتهد ـ بإذن الله ـ أن نجيب عنها، في الأسطر التالية:

ـ المعروف: هو كل ما تعارفت عليه نصوص الشريعة بأنه معروف وحسن ومحمود، ما ظهر من الأقوال والأعمال وما بطن، وأعلى خصال المعروف وأعظمها التوحيد.

ـ المنكر: هو خلاف المعروف؛ وهو كل ما أنكرته نصوص الشريعة وحرَّمته واستقبحته، ما ظَهرَ من الأقوال والأعمال وما بطن، وأعلى خصال المنكر وأغلظها إثماً الشرك.

ـ الجهة التي لها الحق في تحديد المعروف والمنكر: ليس لأي مخلوق الحق في تحديد ما هو معروف، وما هو منكر، ما هو حسن وما هو قبيح ومُشين، ما هو حق وما هو باطل، ما هو حلال وما هو حرام .. ما هو خير وما هو شر .. ما هو عدل وما هو ظلم .. أيَّاً كان هذا المخلوق، وأيَّاً كانت صفته؛ سواء كان هذا المخلوق حاكماً أم شيخ علمٍ أو قبيلةٍ .. أم حزباً .. أم شعباً .. أم أكثرية أو أقلية .. أم مجلساً نيابياً كما في الأنظمة الديمقراطية .. أو مجلساً شعبياً كما في الأنظمة الديكتاتورية .. فليس لهؤلاء ولا لغيرهم من البشر الحق في تحديد صفة المعروف الذي ينبغي اتباعه واستحسانه .. وصفة المنكر الذي ينبغي إنكاره واجتنابه واستهجانه .. إنما هذا الحق لواحدٍ أحد فرد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد .. وهو الله.

بهذا نطقت أدلة النقل والعقل: أما أدلة النقل، كما في قوله تعالى:﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾الأنعام:٥٧. وقوله تعالى:﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾يوسف:٤٠. وقوله تعالى:﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾غافر:٢٠. وقوله تعالى:﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً ﴾الكهف:٢٦. وقوله تعالى:﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾المائدة:٥٠. وغيرها كثير من الآيات التي تدل على هذا الأصل العظيم.

ولما أقرَّ اليهود والنصارى لأحبارهم ورهبانهم الحقَّ في أن يحكموا على الأشياء بالتحسين أو التقبيح، وبالتحليل أو التحريم ـ من دون أو مع الله ـ أنكر عليهم الرب ﷻ صنيعهم وإقرارهم هذا في قوله تعالى:﴿ اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ ﴾التوبة:٣١. وأمر المؤمنين بأن يدعوهم إلى كلمة سواء ويقولوا لهم:﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾آل عمران:٦٤.

قال ابن تيمية في الفتاوى ٢٨/١٦٤: فإن الله تعالى هو الذي حمده زين، وذمه شين، دون غيره من الشعراء والخطباء وغيرهم، ولهذا لما قال القائل من بني تميم للنبي ﷺ: إن حمدي زين، وذمي شين! قال له:" ذاكَ الله "ا– هـ.

وأما أدلة العقل: فإن العقل يُسلِّم بأن المالِك للشيء الخالق له هو الذي يحق له أن يُشرِّع لهذا الشيء ولما يملك .. وأن يُلزمه أن يسير وفق منهجه وقانونه وشرعه دون غيره .. فكيف إذا أضيف إلى هذا المالك الخالق .. خاصية اتصافه بالأسماء الحسنى والصفات العليا .. التي تقتضي الكمال من كل وجه وجانب .. بينما غيره يتصف بصفات النقص والعجز والضعف والجهل .. من كل وجه وجانب .. فحينئذٍ لا بد للعقل السليم من أن يركع ويُسلِّم لشريعة وقانون الخالق المالك الذي له الأسماء الحسنى والصفات العليا دون غيره.

العقل السليم لا يرضى أن يتدخل إنسان في إدارة ما يملكه إنسان آخر من دون إذنه .. علماً أن ملكية هذا الإنسان لهذا الشيء ناقصة وهي صورية وليست حقيقية .. فهو راحل عنه .. وما يملك راحل عنه إلى غيره لا محالة .. فكيف تراه يرضى أن يتدخل المخلوق العاجز الضعيف الجاهل الذي لا يملك شيئاً .. في إدارة ما يملكه الخالق ﷻ وأن يُشرّع ويُقنن له؛ فيقول هذا حلال وهذا حرام، هذا يجوز وهذا لا يجوز .. ومن دون إذن المالك الحقيقي .. والأرض كلها وما فيها ومعها الكون كله من خلق الله تعالى وملكه؟!

قال تعالى:﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ ﴾يونس:٥٩. أي كيف تتدخلون فيما لا تملكون ولا تخلقون .. فتقولون عنه هذا حلال وهذا حرام من تلقاء أنفسكم .. والله الخالق المالك الذي أنزل الرزق كله لم يأذن لكم في شيء من ذلك .. فأنتم إذ تجرأتم على فعل ذلك ﴿ عَلَى اللّهِ ﴾ المالك صاحب الرزق ومنزِّله ﴿ تَفْتَرُونَ ﴾.

فإن قيل: كيف السبيل إلى معرفة حكم الله تعالى على الأشياء بأنها زين أو شين أو أنها حلال أو حرام، أو أنها مشروعة ومباحة أو غير ذلك ..؟

أقول: السبيل إلى معرفة حكم الله تعالى على الأشياء عن طريقين: كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وكلاهما يخرجان من مشكاة واحدة؛ ألا وهي مشكاة الوحي، كما قال تعالى عن نبيه ﷺ:﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾النجم:٣–٤.

وقال تعالى:﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾النساء:٦٥.

وقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ بعضكم مع بعض، أو مع أولي الأمر، أو أولي الأمر بعضهم مع بعض ﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾النساء:٥٩. والرد إلى الله تعالى يكون بالرد إلى كتابه المنزَّل، والرد إلى الرسول ﷺ يكون بالرد إلى شخصه في حياته، وإلى سنَّته بعد مماته .. وسنته ﷺ كل ما صحَّ عنه من قولٍ أو فعلٍ أو إقرار.

ونحو ذلك قوله تعالى:﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾آل عمران:٣١. وقوله تعالى:﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾الحشر:٧.

ـ أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في دين الله تعالى، وفي حياة الناس:

تكمن أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من جهات عدة:

منها: أنه يُمثل جهاز المناعة والقوة في الأمة؛ ففي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حياة للشعوب والأمم .. وعلى قدر قوة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الأمة على قدر ما يكون ذلك علامة على القوة والصحة والسلامة .. وكلما كانت عصيَّةً على الغزو والفساد والتخريب والدمار بكل أنواعه؛ المادي منه والمعنوي .. فالأمة التي تفقد ـ أو تضعف فيها ـ خاصية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يسهل غزوها وتخريبها وتدميرها والاعتداء عليها .. لذا فإن هذه العقيدة ـ عقيدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ كانت ولا تزال هدفاً رئيسياً للكافرين والمنافقين .. إن نجحوا في إزالتها أو إضعافها أو تشويهها .. نجحوا في تمرير شرورهم ومخططاتهم إلى البلاد والعباد .. وتمكنوا وسادوا!

قال تعالى:﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾البقرة:١٧٩. والقصاص نوع من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. والحياة يُراد بها كل ما يسعد الإنسان في هذه الأرض، ويحقق له السعادة، والسلامة، والأمن والأمان.

وفي الحديث، فقد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال:" مثَلُ القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قومٍ استَهَمُوا على سفينةٍ؛ فأصابَ بعضُهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على مَن فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذِ مَن فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً " البخاري.

قلت: ومثل السفينة في الحديث مثل المجتمعات والدول في حياة الناس .. فإن ترك القائمون على حدود الله المهمة المنوطة بهم؛ وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. وتركوا المفسدين المخربين أن يُفسدوا في المجتمعات ويبثوا سمومهم ـ تحت أي ذريعة كانت ـ فحينئذٍ يهلك

الجميع: الصالحون، والطالحون، والمجتمعات .. وأن أخذوا على أيديهم بالزجر والمنع والإنكار، نجوا جميعاً: الصالحون والطالحون، والمجتمعات التي يعيشون فيها.

وقال ﷺ:" إنَّ الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى تعمل الخاصة بعملٍ تقدرُ العامة أن تُغيره ولا تُغيره، فذاك حين يأذن الله في هلاك العامة والخاصة "[٨٠].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما هو يمثل جهاز المناعة في الأمة والمجتمع فهو كذلك يمثل جهاز المناعة عند الأفراد؛ فالإنسان الذي لا يعرف قلبه معروفاً ولا يُنكر منكراً فهو من أموات الأحياء؛ الذين لا يُحسنون التمييز بين الخير والشر، ولا بين النافع والضار .. فالمعروف والمنكر عنده سواء، بل لربما رأى المعروف منكراً، والمنكر معروفاً .. وهذا لا تسأل عن درجة هلاكه ومرضه إن بلغ هذا المبلغ .. وما أسهل وقوعه في شباك شياطين الإنس والجن.

قال ﷺ:" تُعرَضُ الفِتَنُ على القلوبِ كالحصيرِ عوداً عُوداً، فأيُّ قلبٍ أُشْرِبَها نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سوداءُ، وأيُّ قلبٍ أنكرها نُكِتَ فيه نُكتَةٌ بيضاء، حتى يَصيرَ على قلبين: على أبيضَ مثل الصَّفا فلا تضرُّه فتنةٌ ما دامت السماوات والأرض. والآخَرُ أسودُ مُرْبَادَّاً كالكوزِ مُجَخِّياً لا يَعرفُ معروفاً ولا يُنكِرُ مُنكَراً إلا ما أُشرِبَ من هواهُ " مسلم.

فكما أن الكوز المجخَّى المائل لا يثبت فيه شيء ولا يُمكن أن يوضع فيه شيء .. وكلما وضع فيه شيء يخرج منه .. كذلك القلب المرباد الذي علته أدران الذنوب والفتن وتمكنت منه لا يثبت فيه معروف ولا إنكار منكر .. لأنه لا يقوى على التمييز بين ما هو معروف وبين ما هو منكر .. بل هو لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً .. إلا ما يُقذف فيه من جهة هواه؛ فما يراه هواه معروفاً فهو عنده المعروف، وما يراه هواه منكراً فهو عنده المنكر . ولو كان في دين الله غير ذلك . وهو حينئذٍ يتألَّه ما يهوى لا غير، كما قال تعالى:﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾الفرقان:٤٣.

ونحوه قوله ﷺ:" ما من نبي بعثه الله في أمةٍ قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تَخلُفُ من بعدهم خُلُوفٌ؛ يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يُؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمنٌ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبَّةُ خردلٍ " مسلم.

فقوله:" ليس وراء ذلك من الإيمان حبَّة خردل "؛ لأنه ليس وراء مجاهدة القلب وإنكاره سوى الرضى بالكفر والباطل .. وهذه مرتبة إن بلغها القلب .. يموت فيها .. ويموت الإيمان فيه .. لم يعد يقوى على المقاومة والمجاهدة .. ولا التمييز بين ما هو معروف وما هو منكر!

---

٨٠ قال الهيثمي في الزوائد ٢٦٨/٧: رواه الطبراني ورجاله ثقات.

قيل لابن مسعود: هلك من لم يأمر بالمعروف، وينه عن المنكر. فقال ابن مسعود ﷺ:" بل هلك من لم يعرف قلبُه المعروفَ، ويُنكر المنكر "[٨١]. لأنه من أموات الأحياء الذين يدبون على الأرض بأقدامهم، لكنهم لا يحسنون التمييز بين ما هو منكر وما هو معروف .. وما فيه حياة حقيقية لهم.

قال ابن تيمية في الفتاوى ١٢٧/٢٨: وذلك يكون ـ أي تغيير المنكر ـ تارة بالقلب، وتارة باللسان، وتارة باليد. فأما في القلب فيجبُ بكل حال؛ إذ لا ضرر في فعله، ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن، كما قال النبي ﷺ:" وذلك أضعف الإيمان "، وقال: وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل ". وقيل لابن مسعود: من ميت الأحياء؟ فقال: الذي لا يعرف معروفاً ولا يُنكر منكراً ا– هـ.

ومنها: أن خيرية وفضل الأمة تُعرف بقدر التزامها وقيامها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ودورها الريادي القيادي بين الأمم والشعوب يكون على قدر قيامها بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ يتذبذب صعوداً وهبوطاً .. تقدماً وتخلفاً .. على قدر التزامها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

كما قال تعالى:﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾آل عمران:١١٠. فالأمة لم تُمنح هذه الخيرية لجنس أو لون أو لغة أو نسبٍ أو لأي اعتبار أرضي آخر .. وإنما من أجل صفة لصيقة بها؛ وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. فإذا انفكَّت عنها فقدت خيريتها مباشرة بمجرد انفكاكها عنها.

وقال تعالى:﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾فصلت:٣٣. فهذا لا أحد أحسن منه قولاً عند الله تعالى .. ومن الدعوة إلى الله ـ إن لم تكن الدعوة كلها ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفي الحديث فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" خير الناس أقرؤهم، وأتقاهم، وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر، وأوصلهم للرحم "[٨٢].

وقال ﷺ:" أحب الأعمال إلى الله إيمان بالله، ثم صلة الرحم، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر "[٨٣].

---

٨١ أخرجه ابن الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٧٥/٧، وقال: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

٨٢ قال الهيثمي في المجمع ٢٦٣/٧: رواه أحمد ـ وهذا لفظه ـ والطبراني، ورجالهما ثقات وفي بعضهم كلام لا يضر.

٨٣ أخرجه أبو يعلى في مسنده، صحيح الجامع: ١٦٦.

وقال ﷺ:" إنَّ من أمتي قوماً يُعطون مثل أجورِ أوَّلهم، يُنكرون المنكر "[٨٤]. أي يُعطون مثل أجور من آمن زمن البعثة النبوية؛ وهذا لما في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فضل وأجرٍ وثواب.

ومنها: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سببٌ من أسباب النصر والتمكين والاستخلاف، وغاية من غاياته في آنٍ معاً: أما أنه سبب من أسباب النصر، فهو لقوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾محمد:٧.

وقوله تعالى:﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾الحج:٤٠. ومن نصر العبد لربه ﷻ أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر.

وقال تعالى:﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾التوبة:١١٢. والبشرى هنا شاملة لخيري الدنيا والآخرة، ومن خير الدنيا النصر والتمكين .. والعزة بعد الذلة والهوان.

وأما أنه غاية من غايات النصر والتمكين، فهو لقوله تعالى:﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾الحج:٤١. فهذا هو الغرض من التمكين والظفر؛ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. وليس الحرص على الزعامات .. والمكاسب .. والمناصب .. وليكن بعدها ما يكون!

وإن عجبي ليشتد من قومٍ يرفعون ـ في مرحلة الاستضعاف ـ شعار الإسلام هو الحل .. ثم إن منَّ الله عليهم بنوع تمكين أو ظفر .. انتكسوا وتنكبوا عن وعودهم وشعاراتهم .. وغرتهم مناصبهم وحياتهم الدنيا .. وابتغوها علوَّاً في الأرض وفساداً .. وقالوا الدستور والقانون الوضعيين هما الحل!

وقال تعالى:﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ﴾كل هذا المن والخير والعطاء مقابل ﴿ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ﴾النور:٥٥. وتحقيق العبادة والتوحيد لا يتأتى إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفي الحديث فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" إنكم مَنصُورون، ومُصيبون، ومَفتُوح لكم، فمن أدرك ذلك منكم فليتَّقِ الله، وليأمُرْ بالمعروف وليَنْهَ عن المنكر "[٨٥].

---

٨٤ أخرجه أحمد في مسنده، صحيح الجامع: ٢٢٢٣.

٨٥ صحيح سنن الترمذي: ١٨٤١.

ومنها: أن مما يتميز به المؤمن عن المنافق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: فمن علامة المنافقين أنهم يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف .. ويحبون أن تشيع الفاحشة في المؤمنين .. لذا تراهم يزينون المنكرات والفواحش ويروجون لها في منتدياتهم .. وعبر جميع وسائلهم الإعلامية وغيرها .. فمن عُرف عنه ذلك فهو زنديق منافق شديد الزندقة والنفاق، وإن زعم بلسانه خلاف ذلك، كما في قوله تعالى:﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾التوبة:٦٧.

وقال تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾النور:١٩.

وقال تعالى:﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً ﴾ إن أبيتم إلا الجلوس مع الكافرين المستهزئين من غير قيام ولا إنكار ﴿مِّثْلُهُمْ ﴾ في الوزر والكفر .. وأنتم حينئذٍ من المنافقين؛ لأن صنيعكم هذا ينم عن نفاق .. وهو يتنافى مع ما تزعمونه من إيمان .. ﴿ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ ﴾الجالسين في مجالس الكفر والاستهزاء من غير إنكار ولا قيام ولا إكراه ﴿ وَالْكَافِرِينَ ﴾ المستهزئين الذين يُباشرون الاستهزاء بالدين ﴿ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً ﴾النساء:١٤٠.

أما المؤمنون فمما يتميزون به عن غيرهم أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، كما في قوله تعالى:﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾التوبة:٧١.

وقال تعالى:﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾آل عمران: ١١٤.

وقال تعالى:﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾الأعراف:١٥٧.

ومنها: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سهم من أسهم الإسلام، وباب من أبواب الخير والفلاح يُكفِّر خطايا صاحبه، ويُطهره من ذنوبه، ويرفعه مقاماً ودرجات يوم القيامة، كما قال تعالى:﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾آل عمران:١٠٤.

وقال ﷺ:" فتنة الرجلِ في أهله وماله وجاره، تُكفِّرها الصلاةُ، والصدقة، والأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر " البخاري.

وقال ﷺ:" إنه خُلِق كلُّ إنسانٍ من بني آدمَ على ستّين وثلاثمائَةِ مَفْصَلٍ: فمَن كبَّرَ اللهَ، وحمِدَ اللهَ، وهلَّلَ اللهَ، وسبَّحَ اللهَ، واستغفرَ اللهَ، وعَزَلَ حجَراً عن طريقِ الناس، أو شوكةً أو عظماً من طريقِ الناس، وأَمَرَ بمعروف، أو نَهَى عن مُنكَرٍ، عدَدَ تلكَ السِّتينَ والثَّلاثِمَائة السُّلامَى، فإنه يمشي يومئذٍ وقد زحزَحَ نفسَه عن النَّار " مسلم.

وقال ﷺ:" يُصبح على كل سُلامَى ـ أي مفصل وعظم ـ من أحدِكُم صدقةٌ، فكلُّ تسبيحةٍ صدقَةٌ، وكلُّ تحميدةٍ صدقةٌ، وكلُّ تهليلةٍ صدقةٌ، وكلُّ تكبيرة صدقة، وأمرٌ بالمعروفِ صدقة، ونهيٌ عن المنكرِ صدقةٌ، ويجزئ من ذلك ركعتان يركَعُهما من الضُّحَى " مسلم.

وقال ﷺ:" الإسلامُ ثمانيةُ أسهمٍ: الإسلامُ سَهمٌ[٨٦] والصلاةُ سهمٌ، والزَّكاةُ سَهمٌ، والصومُ سهمٌ، وحجُّ البيتِ سهمٌ، والأمرُ بالمعروفِ سَهمٌ، والنهيُ عن المنكرِ سَهمٌ، والجهادُ في سبيلِ الله سهمٌ، وقد خابَ من لا سَهمَ له "[٨٧].

وقال ﷺ:" والذي نفسُ محمدٍ بيده إن المعروفَ والمنكرَ لخليقتان ينصبان للناس يوم القيامة؛ فأما المعروف فيبشر أصحابه ويوعِّدهم الخيرَ وأما المنكر فيقول إليكم إليكم وما يستطيعون له إلا لزوماً "[٨٨].

وقال ﷺ:" أهلُ المعروف في الدنيا؛ هم أهل المعروف في الآخرة، وأهل المنكر في الدنيا؛ هم أهل المنكر في الآخرة "[٨٩].

ومنها: أن من عواقب ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التفريط بمقاصد وغايات الدين وفقدانها: وهي سلامة الدين، والنفس، والعقل، والعِرض، والمال .. وهو كذلك يورث في القلب الكفر والنفاق .. ومؤداه إلى نزول العذاب والانتقام والدمار بالبلاد والعباد .. وحلول اللعن والطرد من رحمة الله ﷻ بحق المفرطين التاركين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. وفشو الظلم

---

[٨٦] يُراد بالإسلام هنا شهادتي التوحيد لا إله إلا الله، محمد رسول الله .. ويُراد بالإسلام الوارد في أول الحديث الدين الشامل للأعمال الظاهرة .. وإذا أردنا أن نتوسع في تأويل وتفسير الشهادتين ومعنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. يُمكن أن نعتبر الإسلام الوارد في أول الحديث شاملاً للدين كله؛ الأعمال الظاهرة منها والباطنة، والله تعالى أعلم.

[٨٧] رواه البزار وغيره، صحيح الترغيب: ٤٧١.

[٨٨] قال الهيثمي في المجمع: رواه أحمد والبزار، ورجالهما رجال الصحيح.

[٨٩] صحيح الأدب المفرد: ١٦٣.

والطغيان .. وضياع الحقوق .. واستعلاء كلمة المستكبرين من الطواغيت الظالمين .. وغيرهم من المفسدين المخربين .. واستخفاء واستضعاف شوكة وكلمة المؤمنين .. فيسود الجهل ويخفت صوت الحق والعلم .. ومن عواقبه كذلك رد الدعاء؛ فلا يُقبل من التاركين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعاء .. وغيرها من المصائب والبلايا التي تتأتى من جراء ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. والتي تجعل الديار بلاقع!

قال تعالى:﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾الأعراف:١٦٥.

وقال تعالى:﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾الإسراء:١٦.

وقال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾هود:١١٧.

وقال تعالى:﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً ﴾الكهف:٥٩.

وقال تعالى:﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ . كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾المائدة:٧٨-٧٩.

وفي الحديث، فقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال:" مُروا بالمعروف، وانهَوا عن المُنكرِ، قبل أن تدعُوا فلا يُستجابَ لكم "[٩٠].

وعن قيس، قال: قال أبو بكرٍ بعد أن حمد الله وأثنى عليه: يا أيُّها الناسُ، إنَّكم تقرؤون هذه الآية، وتضعونَها على غيرِ موضعها:﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾، وإنَّا سمعنا النبي ﷺ يقول:" إن النَّاس إذا رأَوا الظالمَ فلم يأخذوا على يدَيْهِ أوشَكَ أن يَعُمَّهم اللهُ بعقابٍ ". وإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:" ما مِن قومٍ يُعمَلُ فيهم بالمعاصي، ثمَّ يَقدرون على أن يُغيروا، ثم لا يُغيّرُوا، إلا يوشَكُ أن يعمَّهُم اللهُ منه بعقابٍ "[٩١].

وقال ﷺ:" ما مِنْ قومٍ يُعمَلُ فيهم بالمعاصي، هم أعزُّ منهم وأمنَعُ، لا يُغيّرُون، إلا عمَّهُمُ اللهُ بِعِقابٍ "[٩٢].

وقال ﷺ:" والذي نفسي بيده لتأمُرُنَّ بالمعروف، ولَتَنهوُنَّ عن المنكرِ، أو ليوشِكَنَّ اللهُ أن يَبعثَ عليكم عِقاباً من عندِه، ثم لتدْعُنَّه فلا يَستجيبَ لكم "[٩٣].

---

٩٠ صحيح سنن ابن ماجه: ٣٢٣٥.

٩١ رواه أبو داود وغيره، صحيح سنن أبي داود: ٣٦٤٤.

٩٢ صحيح سنن ابن ماجه: ٣٢٣٨.

وقال ﷺ:" كيفَ يُقدّسُ اللهُ أمَّةً لا يُؤخَذُ لضعيفِهم من شديدهِم "[٩٤].

وقال ﷺ:" إن مَن كان قبلكم من بني إسرائيل إذا عملَ فيهم العاملُ الخطيئةَ فنهاهُ الناهي تعذيراً، فإذا كان من الغدِ جالَسهُ وواكلَه وشَاربَه؛ كأنه لم يرَهُ على خطيئةٍ بالأمس، فلما رأى اللهُ تعالى ذلك منهم ضَربَ قلوبَ بعضهم على بعضٍ على لسانِ داود وعيسى بن مريم ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾، والذي نفسي بيده لتأمرُنَّ بالمعروفِ ولتنهُنَّ عن المنكر، ولتأخذُنَّ على أيدي المسيء ولتأطرنَّه على الحق أطراً أو ليضربنَّ اللهُ بقلوبِ بعضكم على بعض، ويلعنَكُم كما لعنَهُم "[٩٥].

وقال ﷺ:" إذا رأيتَ أمتي تهابُ الظالمَ أن تقولَ له أنتَ الظَّالمُ فقد تُودِّعَ منهم "[٩٦].

وقد تقدم قوله ﷺ:" إنَّ الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى تعمل الخاصة بعملٍ تقدرُ العامة أن تُغيره ولا تُغيره، فذاك حين يأذن الله في هلاك العامة والخاصة ".

وعن زينب بنت جحش رضي الله عنها، قالت: يا رسولَ الله أنهلَكُ وفينا الصالحون؟ قال:" نعم إذا كثرَ الخبَث " متفق عليه. ولا يكثر الخبث إلا إذا أُمسِكَ عن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وقال ﷺ:" يا معشرَ المهاجرين! خمسٌ إذا ابتُليتُم بهنَّ، وأعوذ بالله أن تُدركوهُنَّ: لم تظهَرْ الفاحشةُ في قوم قطُّ حتى يعلنوا بها، إلا فشَا فيهم الطَّاعُون و الأوجَاعُ التي لم تكُن مضَت في أسلافِهمُ الذين مَضَوا. ولم يَنقُصُوا المِكيالَ والميزانَ، إلا أُخِذوا بالسِّنينَ وشِدَّةِ المئونَةِ وجَوْرِ السُّلطانِ عليهم. ولم يمنَعوا زكاةَ أموالِهم إلا مُنِعوا القطرَ من السماء، ولولا البهائمُ لم يُمطَروا. ولم يَنقُضوا عهدَ اللهِ وعهدَ رسولِه، إلا سَلَّطَ اللهُ عليهم عدوًّاً من غيرِهم، فأخَذوا بعضَ ما في أيدِيهم. ومَا لم تحكم أئمَّتُهم بكتاب الله، ويتخيَّرُوا مما أنزلَ اللهُ، إلا جعلَ اللهُ بأسَهم بينَهُم "[٩٧]. وهذه الأمور الخمس ـ التي تُجلب على الأمة تلك المصائب والبلايا ـ لا تظهر ولا تستحكم إلا في حال غياب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو صمَّام الأمان من كل تلك المصائب وغيرها.

وقال ﷺ:" في هذه الأمة خسفٌ ومَسْخٌ وقَذْفٌ ". فقال رجلٌ من المسلمين: ومتى ذلك؟

---

[٩٣] أخرجه أحمد، والترمذي، صحيح الجامع: ٧٠٧٠.

[٩٤] صحيح سنن ابن ماجه: ٣٢٣٩.

[٩٥] قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٦٩/٧: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

[٩٦] قال الهيثمي في الزوائد ٢٧٠/٧: رواه أحمد، والبزار، والطبراني، وأحد أسانيد البزار رجاله رجال الصحيح.

[٩٧] صحيح سنن ابن ماجه: ٣٢٤٦.

قال:" إذا ظهرَت القِيانُ، والمعازِفُ، وشُرِبَت الخمور "[٩٨]. وهذه المعاصي لا تظهر إلا في حال غياب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضعف شوكة الآمرين بالمعروف والنَّاهين عن المنكر!

وعن أبي بكرة ﷺ قال:" إني أخشى أن أدركَ زماناً لا أستطيع أن آمرَ بالمعروف، ولا أنهى عن منكرٍ، ولا خير يومئذٍ "[٩٩].

ومن شؤم ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن الساعة بأهوالها تقوم على أناس لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، كما في الحديث:" ثم يرسلُ الله ريحاً باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحدٌ في قلبه مثقال ذرةٍ من إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدَكم دخل في كبد جبلٍ لدخلت عليه حتى تقبضه، فيبقى شرارُ الناس؛ في خِفَّة الطير، و أحلامِ السِّباع، لا يعرفون معروفاً، و لا ينكرون منكراً .. " مسلم. فعلى هؤلاء تقوم الساعة.

وقال ﷺ:" لا تقومُ الساعةُ حتى لا يُقالَ في الأرضِ الله الله " مسلم. وذلك لغياب الآمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر.

وقال ﷺ:" إنَّ ن أشراطِ الساعة أن يُرفعَ العِلمُ، ويظهرَ الجهلُ، ويفشو الزِّنى، ويُشرَبَ الخمرُ، وتكثرَ النساءُ، ويُقِلَّ الرجالُ؛ حتى يكونَ لخمسين امرأةٍ قيمٌ واحد " متفق عليه. وهذا كله لا يكون إلا بسبب غياب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر!

وقال ﷺ:" لا تقوم الساعةُ حتى يأخذَ اللهُ شَرِيطَتَهُ من أهلِ الأرضِ، فيبقى عَجَاجَةٌ؛ لا يعرفون معروفاً، ولا يُنكرون منكراً "[١٠٠].

وقال ﷺ:" يَذهبُ الصالحون، الأوَّلُ فالأول، ويبقى حُفالةٌ كحُفَالَةِ الشَّعير والتمر، لا يُبالِهم اللهُ بالَةً "[١٠١] البخاري.

وعن عبد الله بن مسعود قال:" يَذهب الناسُ أَسْلاخَاً ويبقى أهلُ الريب؛ من لا يعرفُ معروفاً ولا يُنكر مُنكراً "[١٠٢].

---

[٩٨] صحيح سنن الترمذي: ١٨٠١. والقيان: المغنيات. ومن ظهورهنَّ هذا الاحتفاء الكبير بهنَّ كنجمات وبطلات، ومميزات، ومثل أعلا ـ لبنات المسلمين ـ يُحتذى بهن .. كما هو حاصل في هذا الزمان!!

[٩٩] قال الهيثمي في الزوائد ٢٨٠/٧: رواه الطبراني، ورجاله ثقات.

[١٠٠] أخرجه أحمد في المسند، وقال أحمد شاكر في التخريج ١٦١/١١: إسناده صحيح. ومعنى " شريطته "؛ أي أهل الدين والخير والصلاح. و " العَجَاجة "؛ أي السفلة، والغوغاء، والأراذل ممن لا خير فيهم.

[١٠١] الحفالة: هم الحثالة والأراذل من الناس، مثلهم مثل الرديء من التمر والشعير ونفايتهما. وقوله " لا يُبالهم "؛ أي لا يرفع لهم قدراً، ولا يُقيم لهم وزناً .. يُقال: ما بالَيْتُه وما بالَيْتُ به؛ أي لم أكترث له " النهاية ".

[١٠٢] قال الهيثمي في المجمع ٢٨٠/٧: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

. حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: بعد أن بينا أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمزالق والمخاطر الناجمة عن عدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. نعرّج . بإذن الله تعالى . إلى بيان حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبعض المسائل المتعلقة بهذا الحكم، مستلهمين من الله تعالى السداد والتوفيق.

أما حكمه: فهو فرض عين على كل مسلم ومسلمة بحسبه؛ أي بحسب علمه وقدرته واستطاعته، ومكانته، وحاجة الظرف الذي يعيشه أو يُصادفه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال تعالى:﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾التغابن:١٦ . وهذه الآية المعني بها جميع المسلمين ومن دون استثناء؛ فالكل مخاطب ومُطالب بأن يتقي الله ما استطاع، ومن تقوى الله تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كل بحسب علمه واستطاعته.

هذا هو الحكم العام، وهذا هو الأصل، دلَّ عليه، قوله ﷺ:" كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته " البخاري. فهذا الحديث عام وشامل لكل المسلمين ومن دون استثناء؛ فكل مسلمٍ راع وهو مسؤول عما استرعاه الله إياه، ومن الرعاية والمسؤولية؛ أن يُحيط الراعي رعيته وما استرعاه الله إياه بالنصح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقال ﷺ:" من رأى منكم منكراً فليغيّرْهُ بيدِه، فإنْ لم يستطعْ فبلسانِه، فإن لم يستطع فبِقَلْبِه؛ وذلك أضعفُ الإيمان " مسلم.

وفي رواية عند النسائي:" من رأى منكم منكراً فغيَّره بيده؛ فقد بَرِئَ، ومن لم يستطع أن يغيّرَهُ بيده فغيره بلسانه؛ فقد بَرِئ، ومن لم يستطع أن يغيره بلسانه فغيَّرَهُ بقلبه؛ فقد برئ، وذلك أضعفُ الإيمان "[١٠٣].

فقوله ﷺ " من رأى منكم "؛ عام وشامل لجميع المسلمين المكلفين، ومن دون استثناء أحدٍ منهم؛ أي كل من رأى منكم منكراً فليغيره؛ فعل أمرٍ يفيد الوجوب .. ومما يدل على هذا الشمول والعموم في التكليف، خيارات تغيير المنكر الواردة في الحديث، والشاملة لجميع شرائح المسلمين ومستوياتهم وقدراتهم؛ فالقوي المتمكن يغير المنكر بيده، والأقل منه قوة وتمكيناً يغير بلسانه، والضعيف الذي لا يقدر على واحد من الخيارين الآنفي الذكر ينكر ويغير بقلبه .. وهو أضعف الإيمان .. وهذا الخيار الأخير لا يُستثنى منه مسلم في قلبه مثقال حبة خردلٍ من إيمان، كما في الحديث الآخر:" فمن جاهدهم بيده فهو مؤمنٌ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبَّةُ خردلٍ " مسلم.

---

[١٠٣] رواه النسائي، صحيح الترغيب: ٢٣٠٢.

وقوله ﷺ " فقد بَرِئَ "؛ مفهوم المخالفة يقضي بأن من لم ينكر المنكر ـ أياً كان .. وكل بحسبه ـ لم يبرأ من الذنب والمؤاخذة والمحاسبة يوم القيامة.

وقال ﷺ:" لا يمنعنَّ رجلاً هيبةُ الناسِ أنْ يقولَ بحقٍّ إذا عَلِمَهُ؛ فإنَّه لا يُقرِّبُ من أجلٍ ولا يُبعدُ من رِزْقٍ "[١٠٤]. وهذا عام وشامل لكل رجل مسلم؛ فهو مطالب بأن يصدع بالحق، وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ـ بشرطه؛ وهو العلم بما يصدع به ـ وأن لا يمنعنَّه من القيام بهذا الواجب الرهبة أو الهيبة من الناس وملأهم.

ونحوه قوله ﷺ:" لا يَحْقِرَنَّ أحدُكم نَفسَه " قالوا: يا رسولَ الله كيف يَحقِرُ أحدُنَا نَفْسَه؟ قال:" يَرى أمراً للهِ عليه مقالاً، ثمَّ لا يَقولُ فيه، فيقولُ اللهُ ﷻ يومَ القيامة: ما منعَكَ أن تقولَ فيَّ كَذا وكذا؟ فيقول: خشيةَ النَّاسِ. فيقولُ: فإيَّايَ كُنتَ أحقَّ أن تخشَى "[١٠٥].

وقوله ﷺ:" لا يَحْقِرَنَّ أحدُكم نَفسَه "؛ وهذا خطاب للمسلمين جميعاً من دون استثناء؛ أي لا يستخفن أحدُكم نَفسَه، وبقيمة دوره في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والانتصاف للحق ـ فيحتقر نفسه في الموارد والمواضع التي يتعين عليه فيها أن يصدع بما يعلم من الحق، فيقول لنفسه: من أنا حتى أقول وآمر، ثم ليتحمل تبعات البيان والصدع بالحق غيري ـ فيحمله هذا الاستخفاف والاحتقار والخشية من الناس على التفريط بما يجب عليه من البيان والصدع، والانتصار للحق وأهله!

وفي الأثر عن عبد الله بن مسعود، قال: إذا رأيت الفاجرَ فلم تستطِعْ أن تُغيِّر عليه فاكفَهِرَّ في وجهه "[١٠٦].

ومما يؤكد على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على جميع المكلفين من المسلمين، شيوع المنكر في كل زِقٍ وشارع، وبيت ومكان .. وبخاصة في القرون والعصور المتأخرة بعد القرون الخيرة الثلاثة التي أثنى عليها النبي ﷺ خيراً .. فقد شاع المنكر والفساد في كل مكان .. وتعددت وسائله بصورة فاقت الخيال .. وبالتالي حصر مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في فئة معينة من الناس مهما كانت كبيرة .. لا يمكنهم من الوصول إلى كل منكر في مكانه .. وفي زمن حصوله من غير تأخير .. وبالتالي التقصير سيحصل ولا بد .. وهو لا يندفع إلا بتعميم وجوب الأمر

---

١٠٤ رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، السلسلة الصحيحة: ١٦٨.

١٠٥ قال المنذري في الترغيب: رواه ابن ماجه، ورواته ثقاة. وقال أحمد شاكر في العمدة ١/٧٠١: إسناده صحيح.

١٠٦ قال الهيثمي في المجمع ٧/٢٧٦: رواه الطبراني باسنادين؛ في أحدهما شريك وهو حسن الحديث، وبقية رجاله رجال الصحيح. وقوله " فاكفَهِرَّ في وجهه "؛ أي قطِّب حاجبيك، واعبس في وجهه.

بالمعروف والنهي عن المنكر على عامة المسلمين، وكل في مكانه وموقع تواجده .. وبحسب استطاعته .. فتغيير المنكر واجب .. وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ومما يدل كذلك على هذا العموم والشمول في التكليف مبايعة النبي ﷺ لأصحابه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. وأمره ﷺ لمن يجلس بالطرقات بأن يعطوا الطريق حقه؛ ومنه رد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر .. وكذلك توجيهه ﷺ لفقراء المسلمين بأن يتصدقوا؛ وعد من الصدقات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. ونحو ذلك قوله ﷺ بأن على كل عظم أو مفصل من مفاصل الإنسان ـ وتعدادها ستون وثلاثمائة مفصل ـ صدقة في اليوم الواحد، وعدَّ ﷺ من الصدقات المعدودات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. وقوله ﷺ " ليس مِنَّا من لم يأمر بالمعروف، وينه عن المنكر " .. وغيرها من النصوص والتوجيهات النبوية التي تدل على أن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مهمة الجميع ومن دون استثناء، وكل بحسبه.

وفي القرآن الكريم، قوله تعالى:﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عن المُنكَرِ ﴾التوبة:٧١. فدخول " أل " التعريف على المؤمنين والمؤمنات، يفيد العموم والشمول؛ أي كل المؤمنين والمؤمنات ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عن المُنكَرِ ﴾.

قال ابن تيمية في الفتاوى ٦٥/٢٨: وإذا كان جماع الدين، وجميع الولايات هو أمر ونهي؛ فالأمر الذي بعث الله به رسولَه هو الأمر بالمعروف، والنهي الذي بعثه به هو النهي عن المنكر، وهذا نعتُ النبي والمؤمنين، كما قال تعالى:﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عن المُنكَرِ ﴾. وهذا واجب على كل مسلم قادر، وهو فرض على الكفاية، ويصير فرض عين على القادر الذي لم يقم به غيره .. فإن مناط الوجوب هو القدرة، فيجب على كل إنسان بحسب قدرته، قال تعالى:﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾التغابن:١٦. ا– هـ.

هذا الذي تقدم لا يتعارض ولا يمنع من أن تنهض فئة أو طائفة من المؤمنين تتخصص وتتفرغ وتتصدى لمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. وتكون هذه الطائفة من ذوي الكفاءات والقدرات المميزة التي تمكنهم من القيام بهذا الواجب على أكمل وجه، كما قال تعالى:﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾آل عمران:١٠٤.

فقوله تعالى:﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ ﴾؛ أي طائفة تنتصب وتتفرغ وتتخصص لمهمة الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال ابن كثير في التفسير: قال الضحاك: هم خاصة الصحابة وخاصة الرواة؛ يعني المجاهدين والعلماء .. والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه ا– هـ.

ونحو ذلك، قوله تعالى:﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾التوبة:١٢٢. هذه الطائفة التي تنفر من كل فرقة لتتفقه في الدين .. من مهامها وواجباتها أنها تنتصب للدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو معنى الإنذار الوارد في الآية أعلاه.

فإن قيل: متى يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، فإن من أهل العلم من صرَّح بأنه فرض على الكفاية؛ إن قام به نفر سقط الواجب عن الآخرين .. فكيف نوفق بين قولهم هذا وبين ما تقدم بأنه واجب على جميع المكلفين من المسلمين؟

أقول: لا تعارض إن شاء الله؛ إذ للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صور وحالات إن قام بها نفر من المسلمين سقط حكم الوجوب عن الآخرين، مثال ذلك: منكر حصل في شارع من الشوارع .. أو في مكان من الأمكنة .. شهده مائة شخص .. أنكر هذا المنكر وأزالوه خمسة منهم فقط .. فزال المنكر تماماً بإنكارهم .. في هذه الحالة ومثيلاتها .. يسقط الوجوب عن البقية الذين شهدوا المنكر مهما كان تعدادهم؛ إذ المهم والواجب أن يُزال المنكر .. لا أن يُشارك كل من شهد المنكر في إزالته .. فإن استعصى إزالة المنكر على الخمسة، تعين الوجوب على البقية؛ على كل من شهد المنكر أن يُساهم ويُشارك بحسب استطاعته في إزالة هذا المنكر .. فإن زال المنكر ببعضهم ـ قلوا أم كثروا ـ سقط الوجوب عن البعض الآخر .. فهذه الصورة ومثيلاتها هي المعنية من قول بعض أهل العلم بأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على الكفاية.

وقولنا " سقط الوجوب عن البعض الآخر "؛ أي في إزالة هذا المنكر تحديداً .. إذ الوجوب يطالهم في مواضع أخرى .. وحالات أخرى .. وفي عمليات أخرى من عمليات ومهام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن عمليات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غير محصورة في زمن ومكان محددين ثم ينتهي الأمر؛ بل هي عمليات مطلقة وشاملة لكل زمان ومكان .. وبخاصة في زماننا هذا الذي شاع فيه المنكر في جميع جوانب الحياة.

مثال آخر: منكر عام ظاهر مسلح بأسباب القوة والمنعة .. ينتدب له السلطان المسلم أو من ينوب عنه من ذوي الشوكة والمنعة من يستأصله ويُزيله .. فإن زال المنكر بهم .. سقط الوجوب عن الآخرين .. وإن لم يزل تعين على الآخرين المساهمة ـ كل بحسب استطاعته ـ في إزالته إلى أن

تتحقق الكفاية على إزالة المنكر .. فهذه الصور ومثيلاتها هي المعنية من قول بعض أهل العلم بأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على الكفاية.

فإن عُلم ذلك عُلِم عدم التعارض بين القولين ولله الحمد، وتبين أن لكل من القولين معناه وموضعه وتوجيهه المناسب الذي لا يتعارض مع الآخر.

فإن قيل: كيف نوفق بين أدلة القول بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الجميع، وكل بحسبه، وبين قوله تعالى:﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾الحج:٤١. فالآية بينت أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خصائص ووظائف الممكنين في الأرض، وليس كل مسلم مكلف ممكن في الأرض؟

أقول: لا تعارض بين القولين ولله الحمد؛ فالممكنين في الأرض يأمرون بمطلق المعروف، وينهون عن مطلق المنكر، بما في ذلك إقامة الحدود الشرعية على مستحقيها، بينما الأقل منهم تمكيناً، أو المستضعفون من المسلمين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بحسب استطاعتهم، فالله تعالى لا يُكلف نفساً إلا وسعها، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك، وبذلك ينتفي التعارض، ويتضح التوفيق، ولله الحمد.

خلاصة القول: أن المرء كلما ازداد تمكيناً وظهوراً وقوة وعلماً .. كلما تعين عليه مزيد من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. وتوسعت مساحة الأمر والنهي التي ينبغي عليه أن يملأها ويقوم بها .. وعلى قدر ظهوره ودرجة تمكنه وعلمه من غير زيادة ولا نقصان .. وكلما ازداد ضعفاً وعجزاً كلما ضاقت مساحة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحقه، وأقيلت عثرته، على قدر ضعفه وعجزه من غير زيادة ولا نقصان .. فما يجب على القوي القادر المستطيع .. لا يجب على الضعيف العاجز .. لذلك ورد النص بأن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف.

. شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

١ – الإسلام: فهو شرط لقبول أي عملٍ تعبدي عند الله تعالى، كما قال تعالى:﴿ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾الأنعام:٨٨. وقال تعالى:﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً ﴾الفرقان:٢٣.

كما أن غير المسلم فاقد لأصل المعروف وأعظمه؛ ألا وهو التوحيد، مرتكب لأعظم الشر والمنكر؛ والمتمثل في الشرك .. وفاقد الشيء لا يُعطيه.

إلا إذا كان يأمر بمعروف عام متعارف عليه لدى الشعوب وبالفطرة أنه معروف، ونهى عن منكر عام متعارف عليه بين الشعوب بأنه منكر .. فحينئذٍ لا يُنكر عليه، ولا يُمنع .. لأن الإسلام جاء بإنصاف الحق .. وتحصيل المصالح ودرء المفاسد .. وتقليل الشرور والأضرار ما أمكن .. وإن تحقق ذلك عن طريق غير المسلمين .. فقد صح عن النبي ﷺ مباركته لحلف الفضول " المطيبين " لقيامه على معانٍ طيبة منها إنصاف المظلوم من ظالمه .. وكان القائمون على هذا الحلف من المشركين.

٢- البلوغ: وهذا شرط للوجوب، وليس شرطاً لجواز مباشرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو شرطاً لقبول العمل؛ إذ للولد الذي هو دون سن البلوغ أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وله أجر إن فعل، لكن ليس واجباً عليه؛ بحيث إن لم يقم به أثم ولحقه الحرج، لقوله ﷺ:" رُفِع القلم عن ثلاثة . منهم .: وعن الصبي حتى يحتلم "[١٠٧].

٣- القدرة أو الاستطاعة: لأن العجز يرفع التكليف، لقوله تعالى:﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾البقرة:٢٨٦. وقوله تعالى:﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾التغابن:١٦.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" وما أمرتكم به من أمرٍ فأتوا منه ما استطعتم " متفق عليه.

قال الشافعي رحمه الله: فإن الله تعالى يعلم أن هذا مستطيع يفعل ما استطاعه فيثيبه، وهذا مستطيع لا يفعل ما استطاعه فيعذبه؛ فإنما يعذبه لأنه لا يفعل مع القدرة، وقد علم الله ذلك منه، ومن لا يستطيع لا يأمره ولا يعذبه على ما لم يستطعه ا- هـ.

والعجز يرفع التكليف فيما قد تم العجز فيه دون سواه، فمثلاً من عجز عن تغيير المنكر باليد، لكنه لم يعجز عن تغييره باللسان، فهو معذور فيما قد عجز عنه، وهو عدم تغيير المنكر باليد .. لكنه محاسب فيما لو لم ينكر المنكر باللسان؛ لأنه قادر عليه.

فالمنكر من حيث الكم والنوع والقوة .. تتفاوت نسبه ودرجاته صعوداً وهبوطاً .. ومُنكِر المنكر قد لا يستطيع أن ينكر كل أنواع المنكر على اختلاف أحجامها وقوتها .. فحينئذٍ يُعذر فيما قد عجز عن تغييره .. وما لم يعجز عن تغييره تعين عليه تغييره بشرطه.

ويُقال كذلك: أن العاجز الذي يُعذر بالعجز، هو العجز الذي لا يمكن دفعه مع بذل الجهد على دفعه .. أما إن كان قادراً على دفع عجزه .. ثم لا يفعل .. ولا يجتهد في دفع عجزه مع قدرته على فعل ذلك .. فهذا لا يُعذر بالعجز، وإن كان عاجزاً؛ لأنه قادر على دفع عجزه لكنه لا يفعل.

---

[١٠٧] صحيح سنن أبي داود: ٣٧٠٣.

قال ابن تيمية في كتابه القيم رفع الملام: إنَّ العذر لا يكون عذراً إلا مع العجز عن إزالته، وإلا فمتى أمكن الإنسان معرفة الحق فقصَّر فيه، لم يكن معذوراً ا– هـ.

٤– العلم: ولا نعني بهذا الشرط أن يكون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر من العلماء المجتهدين .. فإقحام شرط " العلم " بهذا المعنى يلزم منه تعطيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لشح الأمة بهؤلاء العلماء المجتهدين .. وإنما نعني بهذا الشرط أن يكون الآمر الناهي عالماً بما يأمر به وبما ينهى عنه؛ أي عالم بالمسألة أو الجزئية التي يأمر بها أو ينهى عنها .. لأن جاهل الشيء كفاقده .. وفاقد الشيء لا يُمكن أن يُعطيه للآخرين.

فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" بلِّغوا عني ولو آية " البخاري. وبالتالي لا يُقال لمن لا يعلم من كتاب الله تعالى إلا آيةً واحدة، لا تبلغ هذه الآية حتى تتعلم القرآن كله .. وتُصبح عالماً مطلقاً .. فإن هذا مخالف لنص الحديث، ولتوجيهات النبي ﷺ .. لكن الذي يُقال له: الآية التي تريد أن تبلغها للآخرين، يجب عليك أن تتعلمها قبل أن تستشرف مهمة تبليغها.

وفي حديث آخر، قال أبو ذر: قلت يا رسولَ الله ماذا يُنجي العبد من النار؟ قال" الإيمانُ بالله "، قلت: يا نبيَّ الله إن مع الإيمان عمل؟ قال" يرضخُ مما رزقَه الله "، قلت: يا رسولَ الله أرأيت إن كان فقيراً لا يجد ما يرضَخُ به؟ قال:" يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر "، قلت: يا رسولَ الله أرأيت إن كان عييًّا لا يستطيع أن يأمر بمعروفٍ ولا ينهى عن منكرٍ؟ قال:" يصنعُ لأخرقٍ "، قلت: أرأيت إن كان أخرق لا يستطيع أن يصنع شيئاً؟ قال:" يعين مغلوباً "، قلت: أرأيت إن كان ضعيفاً لا يستطيع أن يعين مظلوماً؟ فقال" ما تريد أن تترك في صاحبك من خير؟! تمسك الأذى عن الناس ". فقلت يا رسولَ الله إذا فعل ذلك دخل الجنة؟ قال:" ما من مسلمٍ يفعلُ خصلةً من هؤلاء إلا أخذت بيدِه حتى تُدخِلَه الجنَّة "[١٠٨].

الشاهد من الحديث، سؤال أبي ذرٍّ ﷺ :" يا رسولَ الله أرأيت إن كان عييًّا ـ أي جاهلاً ـ لا يستطيع أن يأمر بمعروفٍ ولا ينهى عن منكرٍ "؛ والنبي ﷺ قد أقره ولم ينكر عليه قوله بأن الجاهل لا يستطيع أن يأمر بمعروفٍ ولا ينهى عن منكرٍ .. مما دل أن العلم شرط، لأن المشروط لا يتم إلا به، والله تعالى أعلم.

٥– أن لا يؤدي الأمر بالمعروف إلى تفويت معروفٍ أعظم منه، ولا أن يؤدي النهي عن المنكر إلى منكرٍ أكبر منه أو موازٍ له: فإذا كان الأمر بالمعروف سيؤدي إلى تفويت معروف أكبر منه أمسك عن الأمر به التماساً لطلب المعروف الأكبر، مثاله: حرص المرء على تحصيل النوافل على

---

١٠٨ أخرجه الطبراني، السلسلة الصحيحة: ٢٦٦٩. والأخرق: هو الجاهل بما يجب أن يعمله، ولم يكن في يديه صَنعَةً يكتسب بها. عن " النهاية ".

حساب الفرائض؛ فهذا خطأ، والصواب أن يقدم طلب الفرض على ما دونه من الأعمال في حال تعذر الجمع بينهما، ونحو ذلك الانشغال بفرض يحتمل التأخير، على فرضٍ لا يقبل التأخير أو التأجيل، كمن يعظ الناس ويأمرهم بالمعروف، فجاءه رجل ـ وهو في هذه الحالة ـ فقال له أريد أن أسلم، فماذا أقول، وماذا أفعل .. فيتعين عليه حينئذٍ ترك موعظته ودرسه، بل وخطبته يوم الجمعة وهو على المنبر .. وأن يلتفت إلى السائل لكي يلقنه الشهادتين، ويُعلمه ما يتعين على المرء تعلمه لحظة دخوله في الإسلام .. لأنه لا يجوز تأخير الكفر والشرك مع القدرة على إزالته .. ولأن إنقاذ امرئٍ من ظلمات الكفر والشرك إلى نور التوحيد والإيمان، أهم من الانشغال فيما دون ذلك من المواعظ والدروس مع المسلمين .. ونحو ذلك من يُعالج جريحين، يصعب الجمع بينهما في وقت واحد: جريح يحتمل جرحه التأخير لساعات وربما لأيام .. بينما الجريح الآخر لا يحتمل شيئاً من هذا التأخير، ولو حصل لمات من فوره؛ فحينئذٍ يتعين تقديم معالجة من كان جرحه لا يحتمل التأخير على الآخر .. ونحو ذلك من يدخل على سلاطين الكفر والجور بزعم نصحهم وتذكيرهم وأمرهم بالمعروف .. ويكون ذلك على حساب دينه وعقيدته وتوحيده .. ودين وعقيدة وتوحيد الناس .. فيدخل عليهم بدين، ويخرج من عندهم بلا دين، أو يكون دينه دين الطاغوت .. ومثاله كذلك الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه والمقربين من رحمه؛ فيكون مثله مثل الشمعة التي تُضيء للناس وتحرق نفسها .. وقِس على ذلك من الأمثلة.

وكذلك يُقال عند تغيير المنكر؛ لا يجوز تغيير المنكر إذا كان سيؤدي إلى منكر أكبر منه؛ كأن تُزال معصية بمعصية أكبر منها، مثاله: أن يفجر خاناً أو باراً مع علم الفاعل المسبق أن تفجيره وتدميره لهذا البار والخان سيؤدي إلى قتل الأنفس البريئة المعصومة .. أو يقتل العشرات من المسلمين والآمنين بذريعة قتل كافر محارب .. فهذا مثله مثل من يزيل منكر بمنكر أكبر منه .. ويزيل ضرراً بضررٍ أكبر منه، وهذا لا يجوز.

ونحوه الذي يهرب من فتنة ليقع في فتنة أشد منها .. كمن يترك الجهاد في سبيل الله هرباً من فتنة النساء .. أو فتنة الدنيا .. أو يترك الجمعة والجماعات حتى لا تقع عينه على شيء من منكرات الأسواق .. فهذا أيضاً مثله مثل الذي يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير وأعلا، كما قال تعالى:﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾التوبة:٤٩. وقال تعالى:﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾البقرة:١٩١. أي فتنة الشرك واستعلاء كلمته .. وبسط نفوذه على البلاد والعباد .. أشد من فتنة القتل الناتج عن قتال المشركين المحاربين، ودفعهم عن بلاد وحرمات المسلمين.

كما لا يجوز أن تُزال الكبائر بكفر، أو أن يؤدي إزالتها إلى كفر، أو يُزال كفر مجرد بكفر مغلظ، أو يُؤدي إلى كفر مغلظ، كما في قوله تعالى:﴿ وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾الأنعام:١٠٨. علماً أن سب ولعن الطواغيت والأنداد التي تُعبد من دون الله تعالى جائز .. إلا أنه إذا كان سيتم بصورة تؤدي عند الطرف الآخر إلى أن يسب الله تعالى ﴿ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾؛ فحينئذٍ يتعين التوقف عن سب آلهتهم حتى لا يسبوا الله تعالى ﴿ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾.

ونحو ذلك؛ أن يُزال منكر بمنكر مماثل؛ كمن يُزيل حجراً عن طريق الناس بحجرٍ أخرى مثلها فهذا أيضاً لا يجوز؛ لأنه من العبَث، وفيه مضيعة للأوقات والطاقات من دون مقابل ولا طائل يُذكر .. والإسلام قد نهى عن ذلك؛ حيث أمرنا باغتنام الأوقات والطاقات بالخير وبما ينفع الناس.

قال ابن القيم في كتابه الأعلام ١٦/٢: فإنكار المنكر أربع درجات، الأولى: أن يزول ويخلفه ضده، الثانية أن يقل وإن لم يزل بجملته، الثالثة: أن يخلفه ما هو مثله، الرابعة: أن يخلفه ما هو شر منه؛ فالدرجتان الأوليان مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد[١٠٩]، والرابعة محرمة، فإذا رأيتَ أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة إلا إذا نقلتهم منه إلى ما هو أحب إلى الله ورسوله؛ كرمي النشاب، وسباق الخيل، ونحو ذلك.

وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه، يقول: مررتُ أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقومٍ منهم يشربون الخمر، فأنكرَ عليهم من كان معي، فأنكرتُ عليه، وقلت له: إنما حرَّم الله الخمرَ لأنها تصد عن ذكر الله، وعن الصلاة، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية، وأخذ الأموال، فدعهم ا– هـ.

فإن عُلم ذلك، بقي أن نُشير إلى أن تقدير ومعرفة المنكر الأصغر من المنكر الأكبر، وتمييز أحدهما عن الآخر .. مرده إلى حكم وتقديرات النص الشرعي .. وليس للهوى .. أو لشيء من حظوظ النفس وما تميل إليه وتتمناه؛ لأن الإنسان بعيداً عن النص الشرعي وتوجيهاته وإرشاداته قد يميل ويجنح إلى اختيار ما يضره ولا ينفعه، ثم هو مع ذلك يحسب نفسه أنه ممن يحسنون صنعاً، كما قال تعالى:﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾البقرة:٢١٦.

---

١٠٩ قد تقدم أن إزالة المنكر بمثله من كل الوجوه فهو من العبث الذي نُهينا عنه .. إلا إذا رجح التفاوت من وجه خفي بين المنكر المزال، والمنكر المترتب عن إزالة المنكر .. وكان في إزالته نوع مصلحة راجحة كإظهار شوكة المسلمين وتجريئهم على الصدع بالحق ونحو ذلك .. فهذا الذي يستدعي الاجتهاد والنظر والتقدير .. أما إذا استويا من كل الوجوه .. فحينئذٍ من العبث أن يُزال المنكر بمثله، وهو قولاً واحداً لا يجوز!

وقال تعالى:﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾الكهف:١٠٤.

٦- أن يتحلى الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، بالخلق الحسن، والاعتدال، والصبر، والرفق، والحكمة[١١٠]: لأن الغرض من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليس مجرد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما الغرض منه بسط المعروف ونشره وإعلاء كلمته، وإزالة المنكر وأسبابه .. وبالتالي لا بد للآمر بالمعروف الناهي عن المنكر من أن يلتمس جميع الأسباب والخصال والصفات الحميدة التي تُعينه على تحقيق هذا الغرض، وأجره على الله تعالى.

من هذه الأسباب والخصال: انتهاج الوسطية فيما يأمر به وينهى عنه؛ من غير جنوح إلى إفراط أو تفريط، وأن يتحلى بالخلق الحسن، وأن يكون السبَّاق للالتزام بما يأمر به وينهى عنه .. فلا يأمر بخلق لا يأتيه .. أو ينهى عن خلق ويأتيه!

وكذلك عليه أن يتحلى بالصبر على تحمل الأذى، وما يُمكن أن يُصيبه من أذى بسبب أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر .. وأن يكون رفيقاً فيما يأمر به وينهى عنه، وبمن يأمر وينهى .. وأن يتحلى بالحكمة التي تمكنه من وضع الأشياء في موضعها الصحيح والمناسب من غير إفراط ولا تفريط .. وغيرها من المعاني والأخلاق النبيلة التي تعينه على تحقيق هذا الغرض.

قال تعالى في وصف نبيه ﷺ:﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾القلم:٤.

وقال تعالى:﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾التوبة:١٢٨.

وقال تعالى:﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾آل عمران:١٥٩.

وقال تعالى:﴿ ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾النحل:١٢٥.

وقال تعالى:﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾الإسراء:٥٣. فالمؤمن مطالب بأن يقول ويتحرى من قوله وكلامه الأحسن، وليس الحسن وحسب.

ومن وصية لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه، كما قال تعالى:﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾لقمان:١٧.

---

[١١٠] هذا البند ليس شرطاً، وإنما هو واجب .. استحسنا وضعه هنا لمناسبته لموضوع الفقرة.

وقال تعالى:﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾البقرة:١٥٥.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" ادعوا النَّاس، وبَشِّروا ولا تُنفِّروا، ويَسِّروا ولا تُعَسِّرُوا " مسلم.

وقال ﷺ:" عَلِّموا، ويَسِّرُوا ولا تُعَسِّروا، وبَشِّروُا ولا تُنَفِّروا، وإذا غَضِبَ أحدُكم فليَسْكُت "[١١١].

وعن عائشة، أنها قالت:" ما خُيِّرَ رسولُ الله ﷺ بين أمرين إلا أخذَ أيسرَهُما، ما لم يكُن إثماً كان أبعدَ الناسِ منه، وما انتقم رسولُ الله ﷺ لنفسِه، إلا أن تُنتَهك حرمَةُ اللهِ فينتقمُ لله بها " متفق عليه.

وقال ﷺ:" إيَّاكُم والغُلُو في الدين، فإنما هلَكَ من كان قبلكُم بالغلوّ في الدين "[١١٢].

وقال ﷺ:" إنَّ الدينَ يُسْرٌ، ولن يُشَادَّ الدينَ أحدٌ إلا غَلبَه " البخاري[١١٣].

وقال ﷺ:" عليكُم هدياً قاصِداً[١١٤]، فإنَّهُ من يُغالِب هذا الدينَ يغلُبُه "[١١٥].

وقال ﷺ:" إنَّ اللهَ رفيقٌ يُحبُّ الرِّفقَ في الأمرِ كُلِّه " البخاري.

وقال ﷺ:" إنَّ اللهَ رفيقٌ يُحبُّ الرِّفقَ، ويُعطِي على الرفقِ ما لا يُعطي على العنفِ، ومَا لا يُعطي على ما سواهُ " مسلم.

وقال ﷺ:" إنَّ الرِّفقَ لا يكونُ في شيءٍ إلا زانَهُ، ولا يُنزَعُ من شيءٍ إلا شانَه " مسلم.

وقال ﷺ:" مَن يُحرَمِ الرِّفقَ يُحْرَمِ الخيرَ " مسلم.

وقال ﷺ:" إن من خياركم أحسنَكُم أخلاقاً "متفق عليه.

وقال ﷺ:" أكمل المؤمنين إيماناً أحسنُهم خلُقاً "[١١٦].

وقال ﷺ:" إن المؤمن ليُدرك بحسن خُلقه درجة الصائمِ القائم "[١١٧].

---

١١١ روها أحمد، صحيح الجامع: ٤٠٢٧.

١١٢ رواه أحمد، والنسائي، وابن ماجه، وغيرهم، السلسلة الصحيحة: ١٢٨٣. والغلو في الدين؛ هو كل ما زاد عن المشروع المنصوص عليه في الكتاب والسنة.

١١٣ قال ابن حجر في"الفتح" ١١٧/١: والمشادة بالتشديد المغالبة، والمعنى لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفقَ إلا عجز وانقطع فيُغلب ا– هـ.

١١٤ أي طريقاً معتدلاً وسطاً من غير جنوح إلى إفراط ولا تفريط.

١١٥ رواه ابن أبي عاصم في السنة، وصححه الشيخ ناصر في التخريج: ٩٥. وقوله " يُغالب "؛ أي يجنح للتشدد .. ويعتزل الرفق والاعتدال .. فلا يأخذ بالرخص الشرعية حيث ينبغي الأخذ بها.

١١٦ رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

وقال ﷺ :" ما من شيءٍ أثقلُ في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حُسن الخلق، وإن الله يبغض الفاحش البذيَّ "[١١٨].

وعن معاوية بن الحكم، قال: بينما أنا أُصلّي مع رسولِ الله ﷺ، إذ عَطَس رجلٌ من القوم، فقلت: يرحمُكَ اللهُ، فرماني القومُ بأبصارهم، فقلت: واثكل أمياه، ما شأنُكم تنظرون إلي؟! فجَعلُوا يَضربون بأيدِيهم على أَفخاذِهم فلمَّا رأيتهم يُصمِّتُونَني، لكنِّي سكَتُّ، فلمَّا صلَّى رسولُ الله ﷺ . فبأبي هو وأمّي، ما رأيتُ معلِّماً قبلَه ولا بعدَه أحسن تعليماً منه . فوالله ما كهَرَني، ولا ضَرَبني، ولا شَتَمني، ثم قال:" إن هذه الصلاةَ لا يصلُحُ فيها شيءٌ من كلامِ النَّاس، إنما هو التَّسبيحُ والتكبيرُ وقراءةُ القرآن " مسلم.

وعن أنس بن مالك، قال: بينما نحنُ في المسجدِ مع رسولِ الله ﷺ إذ جاءَ أَعرابي، فقامَ يبولُ في المسجِدِ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مَهْ مه! قال : قال رسولُ الله ﷺ:" لا تُزْرِمُوه، دَعُوه "، فترَكُوه حتى بالَ. ثم إنَّ رسولَ الله ﷺ دعاهُ فقال له:" إنَّ هذهِ المسَاجِدَ لا تَصلُحُ لشيءٍ من هذا البولِ والقذَر، إنما هي لذكرِ اللهِ ﷻ، والصلاةِ، وقراءةِ القُرآن ". قال فأمرَ رجلاً من القوم، فجاءَ بدلوٍ من مَاءٍ، فشَنَّه عليه. مسلم.

وفي رواية عن أبي هريرة، قال: قام أعرابي فبال في المسجد! فتناوله الناس . أي بالزجر والمنع . فقال لهم رسول الله ﷺ:" دَعُوه وأهرِيقُوا على بولِه دَلْواً مِن ماءٍ، فإنَّما بُعِثتُم مُيَسِّرين، ولم تُبعَثوا مُعَسِّرين "[١١٩].

وقال ﷺ:" المؤمنُ الذي يُخالط الناسَ، ويصبرُ على أذاهم، أعظمُ أجراً من المؤمن الذي لا يُخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم "[١٢٠].

وقال ﷺ:" لو كان المؤمنُ في جحرِ ضبٍّ لقُيِّضَ إليه فيه من يُؤذيه، أو قال: منافقاً يؤذيه "[١٢١].

---

[١١٧] صحيح سنن أبي داود:٤٠١٣.

[١١٨] رواه الترمذي، وقال:حديث حسن صحيح.

[١١٩] رواه البخاري، والنسائي، صحيح سنن النسائي: ٥٥. أقول: اعتبر النبي ﷺ زجر الرجل ومنعه من أن يتم بوله نوع من أنواع التعسير المنافي للتيسير، فما يكون القول فيمن يعسر على المسلمين أمر دينهم؟

ثم لو أن جاهلاً فعل اليوم في مسجد من مساجد المسلمين ما فعله الأعرابي جاهلاً في مسجد النبي ﷺ .. هل ترونه يخرج حياً من المسجد؟!

[١٢٠] صحيح سنن ابن ماجه: ٣٢٥٧.

[١٢١] قال الهيثمي في المجمع ٢٨٦/٧: رواه البزار والطبراني في الأوسط، وفيه أبو قتادة بن يعقوب بن عبد الله العذري ولم أعرفه، وبقية رجال الطبراني ثقات.

ومن وصية عُمير بن حبيب ﷺ لولده:" إذا أراد أحدكم أن يأمرَ بالمعروف أو ينهى عن المنكر فليوطِّن نفسه على الصبر على الأذى، ويثِق بالثواب من الله تعالى فإنه من وثق بالثواب من الله ﷻ لم يضره مسُّ الأذى "[١٢٢].

وغيرها كثير من النصوص التي تحض المؤمن ـ وبخاصة من يتفرغ وينتصب لمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ على ضرورة وأهمية أن يتحلى بالصفات الحميدة والنبيلة التي تمكنه من أداء مهمته الدعوية النبيلة في هذه الحياة على أحسن وأكمل وجه.

قال تعالى:﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾فصلت:٣٣. فهذا بنص الآية الكريمة لا أحد أحسن منه قولاً وعملاً ودرجة عند الله تعالى.

ـ مراتب ودرجات إنكار المنكر: قد دل قوله ﷺ:" من رأى منكم منكراً فليغيِّرْهُ بيدِه، فإنْ لم يستطعْ فبلسانِه، فإن لم يستطع فبِقَلْبِه؛ وذلك أضعفُ الإيمان " مسلم. وقوله ﷺ:" فمن جاهدهم بيده فهو مؤمنٌ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبَّةُ خردلٍ " مسلم. أن مراتب ودرجات تغيير المنكر ثلاث: أولها وأعلاها التغيير باليد، ثم باللسان، ثم بالقلب.

كيف نفهم ونفسر هذا الترتيب والتدرج في إنكار المنكر ..؟

هل كل منكرٍ يُرى ينبغي لمن رآه أن يُغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه .. كما يظن أو يفهم البعض؟!

الجواب: ليس المراد من الحديث ذلك؛ وإنما المراد أن المنكر المتمنع الذي يستعصي تغييره إلا باليد فهو الذي يخضع لهذا الترتيب في الإنكار .. أما إن كان المنكر يُنكر ويُغير باللسان .. أو بالهجر .. أو دون ذلك كالنظرة وتقطيب الوجه والحاجبين في وجه صاحب المنكر ونحو ذلك .. فحينئذٍ الحكمة تقتضي تغييره باللسان أو بما هو دون ذلك؛ لأن الغرض من إنكار المنكر ـ كما سبق أن ذكرنا ـ إزالة المنكر، بأقل ضررٍ أو حرج ممكن .. وليس الوسيلة أو الأداة التي يُنكر بها هذا المنكر أو ذاك .. ومن يقف على شيء من سيرة الحبيب المصطفى ﷺ يدرك هذا المعنى، ويعلم أن النبي ﷺ لم يكن يغير كل منكر باليد .. بل في كثير من الأحيان كان يُغيره بالتلميح دون التصريح، وبقوله " ما بال أقوام .."، مع قدرته على تغييره باليد .. إلا إذا كان هذا المنكر قد استعصى على الطاعة والخضوع والانقياد للحق .. وأبى إلا الاستقواء على الحق بالباطل .. فحينئذٍ كان النبي ﷺ ينكره ويغيره بيده .. ويأمر بأن يُنكر ويُغير هذا المنكر باليد .. لأنه لا سبيل

---

[١٢٢] قال الهيثمي في المجمع ٢٦٦/٧: رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات.

لإنكاره وتغييره سوى استخدام اليد والقوة .. ولا بد مما كان لا بد منه.

وبالتالي فإن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ـ قبل أن يقدم على تغيير المنكر ـ لا بد من أن يقدِّر الوسيلة الأنفع في إنكار المنكر وتغييره؛ فإن كانت الوسيلة الأنفع استخدام اليد استخدم يده .. وإن كانت الوسيلة الأنفع استخدام اللسان والكلمة .. اعتمد هذه الوسيلة من دون أن يتعداها إلى غيرها وإن كان قادراً على إنكار المنكر بيده .. وهذا من مقتضيات العمل بالحكمة والموعظة الحسنة التي تلزمنا بها النصوص الشرعية.

ونستفيد كذلك من هذا الترتيب الوارد في الحديث أعلاه أن العمل من الإيمان .. وأن الإيمان يزيد وينقص .. وأن المؤمنين يتفاضلون فيما بينهم في درجة وقوة الإيمان .. وأن الإيمان ينتفي بانتفاء إنكار المنكر في القلب؛ لأن ليس وراء إنكار القلب سوى الاستحسان، والإقرار والرضى، والرضى بالكفر كفر .. وهذه معانٍ قد تقدم الحديث عنها بشيء من التوسع عند الحديث عن مصطلح ومفهوم الإيمان، فليراجعه من شاء.

ونستفيد من هذا الترتيب كذلك أن إنكار المنكر باليد ليس محصوراً بالسلطان المسلم وحسب ـ كما يُشاع ـ وإنما لآحاد المسلمين أن يغير المنكر بيده بشرطه؛ والذي منه القدرة، وأن لا يؤدي إنكاره للمنكر إلى ما هو أنكر منه، دلت على ذلك نصوص أخرى، كما في قوله تعالى:﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾الشورى:٣٩.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" من قُتِل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتِل دون دمه فهو شهيد، ومن قُتل دون دينه فهو شهيد، ومن قُتل دون أهله فهو شهيد "[١٢٣]. أي من قُتِل دفاعاً عن ماله أو دمه أو دينه أو أهله ـ في سبيل الله ـ فهو شهيد.

وفي حديث آخر، قال ﷺ:" من قُتِل دون مظلمته، فهو شهيد "[١٢٤].

وعن مخارق، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: الرجلُ يأتيني فيريد مالي ـ أي عنوة بغير حق ـ؟ قال:" ذكِّره بالله "، قال: فإن لم يذكر؟ قال:" فاستعن عليه من حولك من المسلمين "، قال: فإن لم يكن حولي أحدٌ من المسلمين، قال: فاستعِن عليه بالسلطان " قال: فإن نأى السلطان عني، قال:" قاتل دون مالِك، حتى تكون من شهداء الآخرة، أو تمنَع مالَك "[١٢٥].

وقال ﷺ:" من أدَّى زكاة ماله طيبةً بها نفسُهُ، يريد وجه الله والدار الآخرة؛ لم يُغيِّب شيئاً

---

١٢٣ أخرجه أحمد وغيره، صحيح الجامع: ٦٤٤٥.

١٢٤ أخرجه النسائي وغيره، صحيح الجامع: ٦٤٤٧.

١٢٥ صحيح سنن النسائي: ٣٨٠٣.

من ماله، وأقامَ الصلاةَ، وأدى الزكاةَ، فتعدّى عليه الحقُّ، فأخذَ سلاحَهُ فقاتلَ، فقُتِل فهو شهيد "[١٢٦].

وقال ﷺ:" لو اطَّلعَ رجلٌ في بيتك . أي خلسة ومن دون إذنك . فحذفته بحصاةٍ، ففقأت عينه، ما كان عليك جُناح "[١٢٧].

قال ابن تيمية في الفتاوى ١٢٢/١٥: وكما في قصة عمر بن الخطاب ﷺ لما أتاه رجلٌ بيده سيف فيه دمٌ، وذكر أنه وجدَ رجلاً تفخَّذَ امرأته فضربه بالسيف، فأقره عمر على ذلك وشكره، وقبِل قوله أنه قتله لذلك إذ ظهرت دلائل ذلك ا– هـ.

وغيرها كثير من النصوص التي تُجيز للمرء أن ينتصف لحقه ومظلمته أو أن يُباشر تغيير المنكر بنفسه ويده . لكن بشرطه كما تقدم . وفيما تقدم ذكره كفاية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

فإن قيل: علمنا كيف يُغيَّر المنكر باليد واللسان .. لكن كيف يُغيَّر المنكر بالقلب .. وهو عمل قلبي لا يتعدى باطن صاحبه؟

أقول: تغيير المنكر بالقلب . وهو أضعف الإيمان . لا بد أنه مع الزمن، ومع حديث النفس المستمر والمنبعث من إنكار القلب يحمل صاحبه ابتداءً على تغيير ورفع ما نزل به من ضعف وعجز ليرقى في القوة والاستطاعة إلى درجة أعلى وأرفع تمكنه فيما بعد من تغيير المنكر باللسان .. ومن ثم باليد.

فمن المقدمات الضرورية والهامة لتغيير المنكر باللسان أو باليد .. تغيير المنكر أولاً بالقلب .. أما من لا ينكر المنكر ولا يُغيره بقلبه .. فهو مهزوم لا محالة .. وهو ثانياً لا يُمكن أن ينهض . في مراحل القوة والتمكين . إلى تغيير المنكر باللسان أو باليد .. لذا فإن تغيير المنكر بالقلب هو آخر خطوط المواجهة والدفاع والمناعة . التي لا يمكن تجاوزها . الذي يحمل صاحبه . ولو بعد حين . على الكر على المنكر وأهله من جديد عند التقاط الأنفاس، وإعداد العدة من جديد .. لذا جاء لفظ الحديث أنه ليس وراء إنكار وجهاد القلب من الإيمان مثقالُ حبَّة خردَلٍ .. لأنه بانتفاء إنكار القلب وجهاده .. تكون قد انهارت جميع خطوط المقاومة والدفاع أمام الباطل وأهله .. وانكشفت الحرمات من غير حارس ولا مانع للطامعين الغزاة .. وفقد الإنسان المناعة التي تمكنه من المقاومة أو النهوض للمقاومة واستئناف الحياة من جديد!

---

[١٢٦] أخرجه ابن خزيمة في صحيحه، السلسلة الصحيحة: ٢٦٥٥.

[١٢٧] صحيح الأدب المفرد: ٨١٤.

ونحو ذلك قوله ﷺ:" من ماتَ ولم يَغزُ، ولم يحدِّث نفسه بالغزو، مات على شُعبَةٍ من نفاق "[١٢٨]. لأن حديث النفس الصادق لا بد أنه يحمل صاحبه ـ يوماً من الأيام ـ على الغزو بالنفس والسِّنان .. من هنا تكمن أهميته وأهمية استمراره .. وتكمن خطورة من يتركه أو يسهو عنه .. فحديث النفس هو الخطوة الأولى والأهم نحو الانطلاق والحركة للغزو في سبيل الله بالنفس والمال والحراب .. وكذلك تغيير المنكر بالقلب فهو الخطوة الأولى والأهم للانطلاق نحو تغيير المنكر باللسان أو اليد، والله تعالى أعلم.

فإن قيل: كيف نوفق بين القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصدع بالحق على ما يترتب عليه من نوع بلاء ـ كما تقدم ـ، وربما يؤدي بالآمر بالمعروف والناهي عن المنكر إلى أن يُقتل ويُستشهد، كما في قوله ﷺ:" سيِّدُ الشُّهداء حمزةُ بنُ عبدِ المطلب، ورجلٌ قامَ إلى إمامٍ جائرٍ فأمرَه ونَهاهُ فقتَلَهُ "[١٢٩]. وبين قوله ﷺ:" لا ينبغي للمؤمن أن يُذِلَّ نفسَهُ "، قالوا: وكيف يُذلُّ نفسَه؟ قال:" يتَعَرَّضُ من البلاء لما لا يُطيقُهُ "[١٣٠]؟

أقول: لا تعارض بين القولين .. والتوفيق بينهما سهل ولله الحمد .. وبيانه: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب أن يُؤدَّى بشرطه ـ كما تقدم ـ ومن شرطه: القدرة، وأن لا يؤدِّي إنكار المنكر إلى ما هو أنكر منه .. فإن لم يُراعِ الآمر الناهي هذه الشروط .. تعرَّض لبلاء لا يُطيقه، فيذله بعد أن كان عزيزاً .. ولا يلومَنّ حينئذٍ إلا نفسه؛ لأنه اقتحم البيوت من غير أبوابها، واستشرف أعمالاً لم يوفِّ شروطها، ومثله مثل من يخوض معركة ضروساً من دون عتادٍ ولا سلاح .. فلو كان أول المقتولين في المعركة فلا يلومَنَّ إلا نفسه، وعليه وعلى أمثاله يُحمل قوله تعالى:﴿ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾البقرة:١٩٥.

ويُقال كذلك: أن من يستشرف مواطن الشدة والعزيمة والبلاء ـ والتي منها الصدع بالحق أمام سلطانٍ جائر ـ مع علمه المسبق بضعف نفسه عن القيام بتلك الأعمال .. وأن نفسه أضعف من أن تتحمل تبعات تلك المواقف .. يكون قد أذلَّ نفسه وفتنها بتكليفها ما لا تُطيق .. فهذا الذي يُقال له الحديث الآنف الذكر:" لا ينبغي للمؤمن أن يُذِلَّ نفسَهُ ".

كم من امرئٍ همَّ بأن يدخل على سلطانٍ جائر ليأمره بالمعروف وينهاه المنكر .. فلما دخل عليه افتتن؛ فأمره بالمنكر ونهاه عن المعروف، وزين له باطله .. فهذا يكون ممن أذل نفسه .. وعرَّض نفسه من البلاء ما لا تُطيق!

---

[١٢٨] صحيح سنن أبي داود: ٢١٨٤.

[١٢٩] رواه الحاكم، السلسلة الصحيحة: ٤٩١.

[١٣٠] صحيح سنن ابن ماجه: ٣٢٤٣.

ونحوه الذي يدخل على سلطانٍ جائرٍ ليأمره وينهاه .. فيفلح في إيصال رسالته إليه .. لكنه عندما يتعرض لأدنى بلاء أو عقوبة أو سجن من السلطان الجائر .. نتيجة لأمره ونهيه له .. تراه ينفد صبره .. وينقلب على عقبيه .. ويُفتتن في دينه .. ويرفع رايات الاستسلام والطاعة والولاء .. فيكون بذلك قد أذل نفسه بنفسه، وهذا ليس من الإيمان، ولا الحكمة في شيء .. وهو كان في غنى عن أن يُقحم نفسه هذا المقحم والمورد!

وقوله ﷺ:" سيّدُ الشُّهداء حمزةُ بنُ عبدِ المطلب، ورجلٌ قامَ إلى إمامٍ جائرٍ فأمرَه ونهاهُ فقتَلَهُ ". وقوله ﷺ:" أفضلُ الجهادِ كلمةُ حقٍّ عندَ سُلطانٍ جائرٍ "[١٣١]. وقوله ﷺ:" أحبُّ الجهادِ إلى اللهِ، كلمةُ حقٍّ تُقالُ لإمامٍ جائرٍ "[١٣٢]. هذا كله محمول على من يجد في نفسه وإيمانه القوة والثبات والجرأة على القيام بهذه المهمة العظيمة النبيلة .. من دون أن يُفتتن في دينه أو ينقلب على عقبيه .. فهو بهذه الصفات الحميدة ينال تلك الدرجة العظيمة مع سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ﷺ .. ولأجلها صُنِّفَ جهاده بأنه أفضل الجهاد .. وأحبه إلى الله تعالى.

كثير من الناس يحسب أن جهاد الصدع بالحق عند سلاطين وأئمة الكفر والجور هيناً وسهلاً .. فيستشرف له من هو ليس بأهلٍ له .. فيُفتتن في دينه، وينقلب على عقبيه .. فيخسر دنياه وآخرته .. فهذا وأمثاله ممن يتشبعون بما لم يُعطَوا، وما ليس فيهم، يُقال له:" لا ينبغي للمؤمن أن يُذِلَّ نفسَهُ ".

فإن قيل: كيف يتم إنكار المنكر المتشابه، ومن يقوم به ..؟

أقول: المنكر المتشابه؛ هو الذي يحتمل البطلان والخطأ من وجه، والحق والصواب من وجه آخر .. ولمعرفة الراجح والمرجوح منهما .. ومعرفة وجه الحق من الباطل .. والفصل بينهما .. يحتاج إلى نوع فقه وعلم واجتهاد .. وهذا ما لا يملكه كل إنسانٍ .. لذا فإن العامّة لا حظَّ لهم في إنكار هذا النوع المتشابه من المنكر .. ولا ينبغي لهم أن يستشرفوا ميادينه؛ لأن من شروط إنكار المنكر ـ كما تقدم ـ العلم، وهم يفقدون هذه الدرجة العالية من العلم التي تمكنهم من الخوض في إنكار المنكر المتشابه .. لذا فإن إنكار هذا النوع من المنكر المتشابه مقصور على العلماء وطلبة العلم الذين يجدون في أنفسهم الكفاءة الشرعية على خوض هذا المخاض الصعب.

ومن فقه التعامل مع المنكر المتشابه .. أن تخف حدة الإنكار على المخالف .. وأن يُتوسع في الإعذار والتأويل للفريق المخالف ـ بحسب قوة ودرجة التشابه في المسألة المتشابهة المختلف عليها ـ وأن لا يترتب عليه جفاء .. وولاء وبراء .. أو هجر وقتال .. وعلاجه يكون عن طريق التناصح

---

[١٣١] رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، السلسلة الصحيحة: ٤٩١.

[١٣٢] رواه أحمد، والطبراني، صحيح الجامع: ١٦٨.

والحوار الراشد والهادف الهادئ .. إلا إذا انتقل المنكر ـ من خلال المحاجة وقيام الأدلة المحكمة على الفريق المخالف ـ من ساحة المنكر المتشابه إلى ساحة المنكر المحكم الصريح الذي لا يجوز الاختلاف فيه .. ويحصحص فيه الحق من الباطل للعامة والخاصة سواء .. فحينئذٍ يُجرى عليه ما يجرى على المنكر البواح الصريح عند التعامل معه ومع أهله.

فإن قيل: فما يكون القول فيمن يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر ..؟

أقول: هو كمن يأمر بنصف الدين، ويترك نصفه الآخر .. وهو كمن يقول للناس: اعبدوا الله .. لكن لا ينهاهم عن عبادة الطاغوت؛ فيكون قد أتى بالشطر الأول من الآية الكريمة:﴿ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ ﴾، وترك الشطر الثاني منها:﴿ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ ﴾النحل:٣٦. والدين لا يكتمل إلا بالأمرين معاً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولما كان الأمر بالمعروف هو الجانب الأسهل في العملية الدعوية من الجانب الآخر والأصعب؛ وهو النهي عن المنكر .. نجد كثيراً من الدعاة المعاصرين ـ رهبة أو رغبة ـ يلتزمون الأمر بالمعروف دون النهي عن المنكر .. فيقولون للناس: اعبدوا الله .. لكن لا يقولون لهم: اجتنبوا الطاغوت .. يأمرونهم بفعل الخيرات .. لكن لا ينهونهم عن مقارفة الفواحش والمنكرات .. لتعارض ذلك مع الحريات الشيطانية المزعومة .. ولما في النهي عن المنكر من تصادم مباشر مع الطواغيت ورغباتهم .. ومصالح أصحاب الشهوات والمنكرات .. وفي ذلك من المشقة على الدعاة ما ليس في جانب الأمر بالمعروف، ومجرد التذكير بفعل الخير!

والداعية الذي يُدمن هذا المنهج والأسلوب .. طلباً للسلامة أو الرياسة وحب الظهور .. أو لكي يحظى بنوع قرب من الظالمين .. أو غير ذلك من الأعذار .. فهو ممن يكتمون العلم، وعليه وعلى أمثاله يُحمل قوله تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾البقرة:١٥٩. وقوله تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾البقرة:١٧٤.

* * * * *

٨- الجهاد.

مفهوم الجهاد .. كغيره من المفاهيم الشرعية .. التي تسلطت عليه آلات وقدرات وأقلام أرباب التحريف، والتأويل، والحقد، والكذب، والتزوير .. فعملوا ولا يزالون يعملون على تشويه صورة هذا المفهوم العظيم في أذهان الناس .. حتى أنهم ـ في كثير من الأحيان ـ يخرجونه عن مقصوده .. وغاياته .. وعن معناه الشرعي الذي أراده الله تعالى وعناه في كتابه وتنزيله.

أكثر ما يغيظ ويُخيف العدو ـ بكل أطيافه ومسمياته، الكافر منه والمنافق، الخارجي منه والداخلي ـ من الإسلام .. مفهوم الجهاد في سبيل الله .. وعقيدة الجهاد كما هي في الإسلام .. لذا فهم لا يتورعون ولا يترددون في أن ينفقوا من أموالهم وأعمارهم .. وإعلامهم .. الشيء الكثير الكثير .. مقابل تحريف هذا المفهوم العظيم .. وصد الأمة عن العمل به .. وتغييبه عن ساحة الشعور والتفكير لدى الناس .. ليضعف جهاز المناعة والمقاومة عندهم .. ومن ثَمَّ يسهل غزوهم .. والسطو على حرماتهم وحقوقهم!

قالوا: الجهاد المشروع هو الجهاد المحصور بجهاد العدو الأجنبي الصائل على الأوطان وحسب .. أما جهاد العدو الداخلي المحلي المرتد، الأشد كفراً وظلماً .. الصائل على الأوطان، والدين، والعِرض، وجميع الحرمات .. لا يجوز جهاده، وليس من الجهاد جهاده .. بل أن جهاده فتنة .. والفتنة نائمة لعن الله من أيقظها!

قالوا: لا جهاد إلا في سبيل الأوطان .. ورد العدو الأجنبي عن الأوطان وحسب .. أما الجهاد من أجل العقيدة .. وقيم ومبادئ الإسلام .. فهو تخلف وهمجية وإرهاب!

قالوا: لا جهاد للعدو الأجنبي الخارجي الصائل على الحرمات والأوطان إلا بإذنٍ من ولاة الأمر؛ المتمثلين في طواغيت الحكم والكفر والزندقة والردة .. صنائع العدو الأجنبي .. الذين هم بحاجة إلى من يجاهدهم، ويُقاتلهم!

قالوا: جهاد الطلب باطل .. واستعمار .. وعدوان .. وتدخل في شؤون الغير بغير حق .. وهو منافٍ للحريات، والمواثيق الدولية .. وكأن هناك مواثيق دولية يحترمها الأعداء!

ولا أدري في أي خانة يُمكن أن يُصنف غزو العدو الكافر لبلاد المسلمين في فلسطين، والعراق، وأفغانستان، والصومال .. وغيرها من البلدان .. في خانة جهاد الدفع، أم جهاد الطلب .. وهل عبور السفن والبوارج الحربية الأمريكية البحار والمحيطات لتصل طائراتها وراجماتها إلى العراق وأفغانستان .. والصومال .. هو من جهاد الدفع، أم من جهاد الطلب؟!

راجعوا ـ إن شئتم ـ تاريخ الحروب الصليبية القديمة منها والمعاصرة .. وغزوهم واستعمارهم لبلاد المسلمين لعشرات السنين .. والمستمرة ـ في كثير من المواقع بصورة مباشرة إلى يومنا هذا ـ

ومن دون أن يقدموا عن مجازرهم التي ارتكبوها بحق المسلمين الآمنين أدنى اعتذار .. في أي خانة يُمكن أن يُصنف غزوهم هذا .. واستعمارهم هذا .. في خانة جهاد الدفع أم جهاد الطلب؟!

أم أن ما يحق لهم .. لا يحق لغيرهم .. وما هو حلال لهم .. حرام على غيرهم؟!

ألغوا ـ نزولاً عند رغبة العدو ـ من المقررات والمناهج الدراسية عقيدة جهاد العدو الصائل .. وأبقوا للتلاميذ ـ أمل ومستقبل الأمة ـ جهاد النفس والشيطان .. وقالوا هذا هو الجهاد الأكبر، دونكم وإياه!

قالوا .. ولا يزالون يقولون: الإسلام دين سلام .. دين سلام .. دين سلام .. حتى تمكن العدو من رقاب المسلمين .. فذبحهم ـ في عقر دارهم ـ من الوريد إلى الوريد .. وما أكثر المجازر الجماعية الدالة على هذه الحقيقة التي يغفل ـ أو يتغافل ـ عنها كثير من الناس!

قالوا: لا جهاد إلا مع خليفة .. وبعد إيجاد الخليفة .. وتنصيب خليفة على المسلمين .. وإلى حين مجيء الخليفة فالشعوب المسلمة لا تعدو كونها مشاريع أضاحي وقرابين تُذبح في مسالخ الطواغيت الظالمين ذبح النعاج، والأنعام .. لا خيار لها سوى الصبر على ألم السياط والقتل والسجون .. فشابه قولهم هذا قول الروافض الأوائل القائلين لا جهاد إلا مع " المنتظر "؛ حينما يخرج من السرداب .. وإلى حين خروجه من السرداب ناموا ولا تستيقظوا .. فعطلوا بقولهم هذا العمل بذروة سنام الإسلام.

قالوا: الجهاد في سبيل الله إرهاب .. والإرهاب على إطلاقه مذموم .. ومن أحيى فريضة الجهاد ـ كما هي في الإسلام ـ فهو إرهابي .. ينبغي استهدافه واستئصاله .. وتجريمه .. وهو هدف مشروع للعدو الداخلي والخارجي سواء!

تنهض حفنة من الشباب المسلم للجهاد في سبيل الله .. والذود عن الحرمات والأعراض .. فتقوم لهم دنيا الأعداء ولا تقعد .. مستنكرين ومستهجنين .. ومحذرين .. ومعممين لصورهم وأسمائهم .. لكي يبلغ عنهم من يراهم إلى سلطات أمن الطواغيت .. وفي المقابل ينهض ـ من شباب الأمة ـ مئات الآلاف للجهاد والقتال في سبيل الطاغوت وأغراضه، وأهدافه .. ولينضموا إلى عسكره وجنده .. فلا أحد يُنكر عليهم .. بل يلقون من جميع الجهات والمؤسسات الرسمية والشعبية والأهلية ـ إلا من رحم الله ـ التبريك .. والتشجيع .. والاستحسان .. حتى أصبح الجهاد في سبيل الله مستهجناً ومرفوضاً .. ومريباً .. وخيانة وخروجاً عن الأعراف والأصول .. بينما الجهاد في سبيل الطاغوت .. ومن أجل حماية عرش الطاغوت ومكاسبه وأطماعه .. مستحسناً .. ومحموداً .. وبطولة .. ورجولة .. ووطنيةً .. وشهامة يُكافأ عليها بالأوسمة والنياشين والعطاء الجزيل، من قِبَلِ الطاغوت ومَلَئِه .. لذا نجد كثيراً من شباب الأمة يتسابق للتطوع في الانضمام إلى عسكر الطاغوت

.. وللمشاركة والقتال في هذا النوع من الجهاد في سبيل الطاغوت .. مقابل دراهم معدودات تُرمى إليه .. من دون أن يجد في نفسه أدنى غضاضة أو حرج .. صدق الله العظيم:﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ ﴾، وما أقلهم ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ﴾النساء:٧٦. وما أكثرهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وصلتني مئات الأسئلة .. كلها تدور حول موضوع واحد .. هل يجوز للشاب أن ينفر للجهاد في سبيل الله من دون أذن الوالدين .. بينما لم يصلني سؤال واحد يسأل هل يجوز للشاب أن ينفر للجهاد في سبيل الطاغوت .. أو لكي يلتحق بجند وعسكر الطاغوت من دون إذن أبويه .. وذلك لأن الأول؛ وهو الجهاد في سبيل الله محل اختلاف وتجاذب عند الكثير وللأسف .. بينما الآخر؛ وهو الجهاد في سبيل الطاغوت والالتحاق بعسكره وجنده محل اتفاق عند الجميع إلا من رحم الله .. لا يحتاج عما يبدو إلى سؤال!

وفي المقابل نجد فريقاً آخر قليل ـ محسوباً على الجهاد وأنصاره ـ كان ـ وللأسف وهو لا يدري ـ عوناً للفريق الأول المشار إليه أعلاه على بعض مآربه وأغراضه .. من خلال الاستهانة ببعض الأخطاء .. التي فرح بها العدو أيما فرحٍ .. واستثمرها لنفسه ومصالحه أسوأ استثمار .. والتي لو لم يقم بها مَن هو محسوب على المجاهدين .. لقام بها العدو نفسه بنفسه .. ثم نسبها للمجاهدين زوراً .. ليستفيد لنفسه من وراء نسبة تلك الأعمال للجهاد والمجاهدين .. وقد حصل شيء من ذلك!

وضعوا السلاح في مواضع ينبغي رفعه .. ورفعوه في مواضع أخرى ينبغي وضعه .. انشغلوا في المتشابه على حساب المُحكم رغم توافره .. وظهوره .. فقصدوا الآمنين شرعاً في أسواقهم، ومساكنهم .. وأماكن عملهم .. فقتلوهم .. وروعوهم ـ من خلال العمليات المسماة خطأ بالاستشهادية ـ من أجل نفر واحد من العدو .. أو بضعة أنفار من الأعداء المحاربين .. وفي كثير من الأحيان لا يُصاب منهم أحد .. فتأتي النتائج كارثية؛ وعلى حساب النفوس الآمنة والمعصومة شرعاً .. لا أدري بما سيُجاب عنها، يوم الحساب!

همهم الأكبر الفعل .. أمَّا ما يترتب على هذا الفعل .. وما ينتج عنه من آثار .. وكيف سيُفهم ويُفسَّر .. وما هو أثره على العامة من المسلمين .. وعلى مصالحهم .. فهو غير مهم عندهم .. ولا يلتفتون إليه ولا يكترثون .. وهذا يتعارض مع ما يقتضيه النظر في المقاصد والغايات من الأعمال .. وما يقتضيه العمل بفقه السياسة الشرعية، واعتبار المصالح والمفاسد من وراء كل عمل، كما بينا ذلك في أكثر من موضع.

من علاماتهم أنك تراهم يصفقون ويُكبرون لكل دم يُسفك ويُهرَاق، بحق كان أو غير حق .. مغلبين حب التشفي والانتقام، على الحكم الشرعي!

وهؤلاء أيضاً ـ من حيث يدرون أو لا يدرون ـ قد أساءوا لمفهوم الجهاد في الإسلام .. حتى أصبح مفهوم الجهاد في أذهان كثير من الناس .. تعني تلك الفوضى أو الممارسات الخاطئة التي تُمارس باسم الجهاد هنا وهناك .. وقد ساعد على تكريس هذه القناعة الخاطئة لدى هذا الفريق الواسع من الناس الإعلام الكافر والمنافق الذي يطرب فرحاً لتلك الأخطاء .. ويضخمها ويزيد عليها من عنده .. والتي يعتبرها بمثابة الملح الذي يعطي طعماً وذوقاً ولوناً لمواد إعلامه الخبيثة المغرضة .. وزيادة منه في الخبث والإمعان في التشويه يأتي ـ في كثير من الأحيان ـ ببعض المغفلين ممن يُحسبون على الدعوة والدعاة ليوثق نسبة تلك الأعمال للإسلام .. وللجهاد والمجاهدين!

كل هذا وذاك .. يحملنا بإلحاح على أن نبين للناس المراد من " مفهوم الجهاد " كما هو في الإسلام، وكما يريده الإسلام .. وكما أنزل على محمد ﷺ من غير تحريفٍ ولا تعطيل .. ولا كتمانٍ للحق أو لأي جزئية من جزئياته .. وكما ينبغي أن يُمارَس أو أن تعيشه الأمة في واقع الحياة .. وأن نزيل عنه ما علق به من شبهات وتأويلات المفسدين المبطلين المتأخرين .. ليميز الخبيث عن الطيب .. ويحصحص الحق ويزهق الباطل .. إن الباطل كان زهوقاً .. وهذا ما سنتناوله ـ بإذن الله ـ بشيء من التفصيل في النقاط التالية ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ﴾الأنفال:٤٢. والله تعالى الموفق والمستعان.

معنى الجهاد: الجهاد؛ من المجاهدة وبذل الجهد، وحمل النفس على استفراغ طاقتها في قتال العدو ودفعه؛ ما زاد منه عن حد الاستطاعة والقدرة؛ إفراط وتهلكة، وتهور، وما نقص منه عن حد الاستطاعة والقدرة؛ تفريط وإثم عظيم، لقوله تعالى:﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾الأنفال:٦٠. هذا هو المطلوب، وهذا هوا الواجب، الذي لا يجوز أن يُزاد عليه ولا أن ينقص عنه ﴿ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾، فالله تعالى كما لا يكلف نفساً ما لا تُطيق، إلا أنه ﷻ يُحاسب على المطاق والمقدور عليه، لقوله تعالى:﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا ﴾البقرة:٢٨٦. وقوله تعالى:﴿ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا ﴾الأعراف:٤٢. وقوله تعالى:﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾التغابن:١٦. ولقوله ﷺ في الحديث المتفق عليه:" إذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم ".

أنواعه: والجهاد يكون بالنفس، والمال، والكلمة، أما الدليل على الجهاد بالنفس والمال، لقوله تعالى:﴿ انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾التوبة:٤١. وقوله تعالى:﴿ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾الصف:١١. ولقوله ﷺ:" مَن جهَّزَ غازياً في سبيل الله فقد غزا " متفق عليه.

أما الدليل على الجهاد بالكلمة أو اللسان، فهو لقوله ﷺ:" إن المؤمن يُجاهدُ بسيفه ولسانه "[١٣٣]. ولقوله ﷺ:" جاهدوا المشركين بأموالكم، وأيديكم، وألسنتِكُم "[١٣٤]. فالحديث قد جمع بين أنواع الجهاد الثلاثة.

وكذلك قوله ﷺ:" أفضلُ الجهادِ كلمةُ عدلٍ عندَ سلطانٍ جائرٍ "[١٣٥].وفي رواية:" أفضلُ الجهادِ كلمةُ حقٍّ عند سلطانٍ جائر ". وقال ﷺ:" إنَّ من أعظمِ الجهادِ كلمةُ عدلٍ عندَ سلطانٍ جائرٍ "[١٣٦]. وقال ﷺ:" أحبُّ الجهادِ إلى اللهِ؛ كلمةُ حقٍّ تُقال لإمامٍ جائرٍ "[١٣٧]. وأفضل أنواع الجهاد والمجاهدين وأعلاهم درجة عند الله تعالى من جمع في نفسه أنواع الجهاد الثلاثة الآنفة الذكر: الجهاد بالنفس، والمال، واللسان .. ولا يجتمعن إلا في القليل .. نسأل الله تعالى ـ بمنّه ورحمته وكرمه ـ أن يجعلنا وإياكم منهم، إنه تعالى على ما يشاء قدير.

غاياته: غاية الجهاد في الإسلام أن يكون في سبيل الله؛ لكي تكون كلمة الله تعالى هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى .. فالجهاد ـ كغيره من العبادات ـ عمل تعبدي عظيم يُبتغى منه مرضاة الله تعالى، والتقرب إليه ﷻ ـ وفق أمره ـ ببذل الغالي والنفيس .. رجاء الفوز بما وعد الله تعالى المجاهدين في سبيله من عطاء جزيل.

كما في الحديث المتفق عليه:" مَن قاتلَ لِتكون كلمَةُ اللهِ هي العُليا، فهو في سبيلِ الله ﷻ ". أما من يُقاتل لكي تكون كلمة الذين كفروا أو كلمة الطاغوت هي العليا ـ ومن كلمات الطاغوت حكمه وقانونه وشرعه ونظامه ودستوره ـ فقتاله في سبيل الطاغوت .. ولا يمنع عنه هذه الحقيقة .. وهذا الحكم أو الوصف أن يتسمى وعمله ـ زوراً وجهلاً ـ بالجهاد والمجاهد؛ فتسمية الأشياء بغير مسمياتها لا تنفي عنها صفتها الحقيقية، كما قال تعالى:﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ مهما أضفى عليهم العدو من ألقاب السوء .. فهذا لا يضيرهم .. ولا ينفي عنهم صفة أنهم ﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾، ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ﴾؛ مهما أضفى عليهم إعلام الطاغوت وسحرته من ألقاب المديح والإطراء .. فهذا لا ينفي عنهم صفتهم الحقيقية وهي أنهم ﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ﴾، ﴿ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾النساء:٧٦.

---

١٣٣ أخرجه أحمد وغيره، صحيح الجامع: ١٩٣٤.

١٣٤ صحيح سنن النسائي: ٢٩٠٠.

١٣٥ صحيح سنن أبي داود: ٣٦٥٠.

١٣٦ صحيح سنن الترمذي: ١٧٦٦.

١٣٧ أخرجه أحمد وغيره، صحيح الجامع: ١٦٨.

ومعنى "كلمة الله "؛ أي حكمه، وشرعه، وأمره، وقضاؤه .. فكل هذه المعاني تدخل في معنى "كلمة الله "، وعليه فكل ما أمر الله تعالى به، أو حكم وقضى به، أو شرَعه لعباده .. أو أذن لهم به .. فهو من "كلمة الله " تعالى .. والقتال دونه من القتال في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا.

أغراضه: أغراض الجهاد في الإسلام شتى وعديدة؛ وهي كل ما أذن الله تعالى بالقتال دونه، ودفاعاً عنه: كالدين، والأنفس، والعِرض، والمال، والمظالم والمظلومين، وأوطان المسلمين؛ مأوى ومحضن الحرمات والحقوق؛ لما في الاعتداء عليها اعتداء على الحقوق والحرمات؛ إذ لا أمن ولا سلامة لحرمات المسلمين وحقوقهم من دون أمن وسلامة أوطانهم وديارهم، فأمن وسلامة كل منهما مرتبط بأمن وسلامة الآخر .. فهما متلازمان؛ فكل منهما لازم وملزوم للآخر .. من هنا نص أهل العلم على وجوب الدفاع عن أراضي وأوطان المسلمين في حال اعتدي على شبر واحد من أوطانهم وبلادهم.

قال تعالى:﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾الحج:٣٩. هذا قتال في سبيل الله، الغاية منه طلب مرضاة الله تعالى بطاعته فيما أمر وأذن به .. غرضه دفع ظلم الظالمين وطغيانهم عن عباد الله المظلومين.

وكذلك قوله تعالى:﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً ﴾النساء:٧٥. هذا قتال في سبيل الله .. الغرض منه الدفاع عن المستضعفين، وإنقاذهم، ورد عدوان ظلم الظالمين عنهم.

وقال تعالى:﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾الشورى:٣٩. هذا قتال في سبيل الله .. غرضه الانتصار للحق ورد بغي الباغي.

ونحوه قوله تعالى:﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾الحجرات:٩. هذا قتال في سبيل الله .. غرضه رد عدوان وبغي الطائفة الباغية المعتدية عن الطائفة المعتدى عليها.

وقال تعالى:﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾الأنفال:٣٩. هذا قتال في سبيل الله .. غرضه حتى لا تكون في الأرض فتنة ولا شرك .. ولا ظلم ولا طغيان ولا فساد .. وتكون طاعة العباد وخضوعهم لله تعالى وحده لا شريك له.

وغيرها كثير من الآيات التي تدل على أن الغاية من الجهاد واحدة وثابتة لا تتغير ولا تتبدل بتغير أغراض الجهاد؛ وهي طلب مرضاة الله تعالى، ورجاء ثوابه وعطائه بطاعته وامتثال أمره وكلمته

في جهاد العدو .. بينما أغراض الجهاد شتى وعديدة .. لا ينبغي ولا يجوز الخلط بينها وبين الغاية منه.

وفي الحديث فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" مَن قُتِلَ دون ماله فهو شهيد، ومَن قُتِلَ دون دمِه فهو شهيد، ومن قُتل دون دينه فهو شهيد، ومن قُتل دون أهله فهو شهيد "[١٣٨]. وقال ﷺ:" مَن قُتل دون مَظلمته فهو شهيد "[١٣٩].

وعن أبي هريرة قال: جاء رجلٌ إلى رسولِ الله ﷺ، فقال: يا رسولَ الله أرأيتَ إن جاءَ رجلٌ يريدُ أخذَ مالي؟ قال:" لا تُعْطِه مالَك "، قال: أرأيتَ إن قاتلَني؟ قال:" قاتِلْهُ "، قال: أرأيتَ إن قَتلَني؟ قال:" فأنتَ شهيدٌ "، قال: أرأيتَ إنْ قَتَلْتُه؟ قال:" هو في النَّارِ " مسلم.

وقال ﷺ:" من أُرِيدَ مالُه بغيرِ حَقٍّ فقاتلَ فَقُتِلَ فهو شَهيدٌ "[١٤٠].

قال ابن المبارك: يُقاتِلُ عن مالِه ولو درهمين[١٤١].

فالقتال دون هذه الأشياء من أغراض ومبررات الجهاد .. القتال دونها، والدفاع عنها مما أذن الله تعالى به، وهي من كلماته ﷻ .. والجهاد دونها من الجهاد في سبيل الله .. لا تعارض بينها وبين الغاية من الجهاد .. كما لا يجوز إنزال أغراض الجهاد منزلة الغاية منه؛ فيُقال: نقاتل في سبيل الأوطان، أو في سبيل المال والأعراض، والأهل، والمظالم وغيرها من الأغراض .. فهذا التعبير خاطئ وهو تعبير شركي وضعي يرفع الغرض إلى مقام الغاية .. وقد راج على كثير من ألسنة الناس .. والتعبير الشرعي الصحيح هو التعبير النبوي؛ فيُقال: نقاتل في سبيل الله دون أو دفاعاً عن الدين أو الأهل، أو العِرض، أو الأرض، أو المال، أو المظالم .. وغيرها من الحقوق والأغراض المشروعة.

هذا التفريق بين الغاية من الجهاد وبين أغراضه هام جداً، والانتباه إليه عند الشروع في الجهاد ضروري كذلك؛ لأن الخلط بينهما مآله إلى الظلم والشرك، ورفع الغرض إلى مقام الغاية، وإنزال الغاية منزلة الغرض .. كما أنه يكون في بعض الأحيان مانعاً لفريق من الناس أن يُجاهدوا في سبيل الله على اعتبار أن هذا الشيء الذي يُجاهَد دونه ودفاعاً عنه .. هو من الأمور الدنيوية لا الدينية .. والجهاد دونه لا يجوز أن يُصنف على أنه من الجهاد في سبيل الله .. ولكي تكون كلمة الله هي العليا .. فيقع حينئذٍ التفريط .. وتُنتهك الحرمات والأعراض .. وتضيع الحقوق .. ويسود الظلم .. ويقع الندم ولات حين مندم!

---

[١٣٨] أخرجه أحمد وغيره، صحيح الجامع: ٦٤٤٥.

[١٣٩] أخرجه النسائي وغيره، صحيح الجامع: ٦٤٤٧.

[١٤٠] صحيح سنن الترمذي: ١١٧٤.

[١٤١] صحيح سنن الترمذي: ٦٢/٢.

كم من مجزرة عاصرناها .. كان من ضحاياها آلاف المستضعفين المسلمين من الرجال والنساء والولدان .. كان من أسبابها هذا الخلط بين الغاية من الجهاد وبين أغراضه .. مما منع كثيراً من المسلمين عن القيام بواجب الجهاد والنصرة نحو إخوانهم المسلمين المستضعفين .. واكتفوا بدور المتفرج المراقب لأحداث المجازر، على اعتبار أن المعركة ليست معركة دينية ـ كما يظهر لهم ـ وبالتالي فهي لا تعنيهم ولا تخصهم في شيء .. وما أخبار المجازر الجماعية التي حصلت في البوسنة والهرسك .. وكوسوفوا .. والشيشان .. وأفغانستان .. وسورية .. وفلسطين .. والعراق .. وأخيراً في الصومال وما يرتكبه الصليبيون الأثيوبيون بحق المسلمين الصوماليين .. عن مسامعنا وأبصارنا ببعيد!

مبرراته: الكل يُسلِّم بأن الشيطان موجود .. وأن جنده موجودون .. وينشطون .. وأن الشرَّ موجود .. وأن أهله موجودون .. وهم لا يكلّون ولا يملون من العمل من أجل إفساد الأرض وخرابها ومَن عليها .. وصد الناس عن عبادة ربهم .. وأطرهم إلى عبادة الطاغوت .. ولو اضطرهم ذلك إلى القتل والقتال واستخدام القوة والعنف .. وجميع صنوف الإرهاب الفكري منه والمادي .. فهم لا يترددون عن ذلك لحظة .. وعن إبادة مدن ودول بكاملها من أجل غرضهم هذا .. وفي نفس الوقت لا توجد عندهم القيم الحضارية التي تمنعهم من المضي في الإجرام والقتل والإفساد .. فالغايات عندهم تبرر الوسائل على فساد الغايات والوسائل سواء .. هذه حقيقة واقعة مُسلَّمة لا جدال فيها، قد دل عليها النقل والعقل، والواقع المعايش المنظور .. لا يعمى عنها إلا من أعمى اللهُ بصره وبصيرته.

قال تعالى:﴿ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾البقرة:٢١٧. وقال تعالى:﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً ﴾سبأ:٣٣.

من هنا شُرِع الجهاد في سبيل الله .. للحفاظ على الأرض وأهلها أن يعيشوا بسلام وأمن وأمان وإيمان بعيداً عن الشر وسطوته .. وفتنته .. شُرِع الجهاد ليوقف سرطان الشرّ وجنده عند حده .. ويحجّمه ما استطاع .. ليمنعه من التمدد والانتشار في الجزء السليم من جسد الأمة!

شُرِع الجهاد في سبيل الله .. لإخراج العباد من عبادة العباد والأنداد .. إلى عبادة رب العباد وحده .. ومن جور وظلم وطغيان الأديان .. إلى عدل ورحمة ونور الإسلام .. ومن غير إكراه؛ إذ لا إكراه في الدين.

قال تعالى:﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾التوبة:٣٦.

وقال تعالى:﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾الحج: ٤٠.

وقال تعالى:﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾البقرة: ٢٥١.

فمن أعظم نعم الله تعالى على عباده المؤمنين أن أذن لهم في الجهاد في سبيله .. وأن يدفعوا عن أنفسهم .. وحرماتهم .. ومقدساتهم .. والأرض التي يسكنوها .. الفسادَ .. والدمارَ والخراب!

تأملوا لو أن الإسلام يخلو من شعيرة الجهاد في سبيل الله .. أتظنون أنكم سترون في الأرض مسجداً يُرفع فيه الأذان .. أو أن عبداً ـ من غير خوف ـ يقول ربي الله .. أو امرأة تسير آمنة على نفسها، وعِرضها، ودينها .. من دون أن يمسها السوء .. أو تجدون أدنى احترام لمقدسات المسلمين، وشعائر الله؟![١٤٢].

وفي الحديث، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قومٍ استهمُوا ـ أي اقترعوا ـ على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذي في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذِ مَن فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً ".

وهكذا حال أهل الشر والشرك والفساد .. تراهم يريدون أن يمرروا فسادهم .. وخرابهم، وإجرامهم .. وإلحادهم .. تحت ستار شعائر براقة .. كالحرية .. والحقوق الشخصية وغيرها .. فإن تُرِكوا وما يريدون .. هلك المجتمع كله بمن فيه؛ الصالحون والطالحون سواء .. وإن أخذوا على أيديهم بالزجر والنهي .. والضرب ـ إن استدعى الأمر ـ نجوا، ونجوا جميعاً[١٤٣].

شروطه: للجهاد في الإسلام ثلاثة شروط، لا يُقبل الجهاد، ولا يُمكن أن يُصنف على أنه جهاد شرعي؛ يرتضيه الإسلام إلا بها، وبعد استيفائها جميعاً.

---

١٤٢ وأنا أكتب هذه الكلمات طالعتنا بعض وسائل الإعلام بخبر مفاده، أن الجنود الصليبيين الأمريكيين في العراق يجعلون القرآن الكريم هدفاً عسكرياً للرماية؛ يتدربون على الرماية عليه في معسكرات التدريب التابعة لهم .. والخبر مرفق بصور للمصاحف التي عليها آثار الرماية .. قمة الاستهانة والاستهتار بحرمات ومقدسات المسلمين .. يفعلون ذلك وهم يواجهون مقاومة من المجاهدين الأبطال في العراق .. فكيف لو وجدوا العراق لقمة سهلة سائغة .. من غير مقاومة ولا جهاد .. فماذا عساهم يفعلون بالعراق .. وبأهل العراق .. وبحرمات ومقدسات مسلمي العراق .. توقع حينئذٍ كل ما يسيء الحر الكريم؟!

١٤٣ إن أردت المزيد والتوسع حول هذه النقطة راجع مقالنا " لماذا الجهاد في سبيل الله "، الجزء الأول منه والثاني.

أولاً: أن يكون الجهاد خالصاً لوجه الله تعالى .. طلباً لمرضاته، وما أعد للمجاهدين في سبيله من أجرٍ عظيم .. لا يُرجى منه سمعة ولا رياء .. فالجهاد ـ كما تقدم ـ عمل تعبدي شرطه الأساس الإخلاص، والتقرب به إلى الله تعالى .. إن انتفى ـ أي الإخلاص ـ انتفى العمل وأجره سواء.

كما قال تعالى:﴿ وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾الكهف: ١١٠.

وفي الحديث، عن أبي موسى الأشعري، قال: قال أعرابيٌّ للنبي ﷺ: الرجلُ يُقاتلُ للمغنَمِ، والرجلُ يُقاتلُ ليُذكَرَ، ويُقاتل ليُرَى مكانُه، مَن في سبيلِ الله؟ فقال:" من قاتل لتكون كلمةُ الله هي العُليا، فهو في سبيلِ الله " متفق عليه.

وعنه، قال: سُئلَ رسولُ الله ﷺ: عن الرجلِ يُقاتلُ شَجاعةً، ويُقاتلُ حميَّةً، ويُقاتِلُ رياءً، أي ذلك في سبيلِ الله؟ فقال رسولُ الله ﷺ:" مَن قاتلَ لتكونَ كلِمَةُ اللهِ هي العليا، فهو في سبيلِ الله " مسلم.

وعن أبي أُمَامةَ الباهِلي قال: جاءَ رجلٌ إلى النبيّ ﷺ فقال: أرأيتَ رجلاً غَزَا يَلتمسُ الأجرَ والذِّكرَ ما لَه؟ فقال رسولُ الله ﷺ:" لا شَيءَ لَهُ "، فأعادَها ثلاثَ مرَّاتٍ، يقولُ له رسولُ الله:" لا شيءَ له "، ثم قال:" إنَّ الله لا يقبَلُ مِن العمَلِ إلا ما كانَ له خالِصاً وابتُغِيَ به وَجْهُهُ "[١٤٤].

وقال ﷺ:" قال الله ﷻ: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عملَ لي عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء، وهو للذي أشركَ "[١٤٥].

وقال ﷺ:" من غزا في سبيلِ الله، ولم ينْوِ إلا عِقَالاً، فله ما نَوى "[١٤٦]. وذلك أن الأعمال بالنيات، وأن لكل امرئ ما نوى.

ثانياً: أن يكون الجهاد صائباً على السُّنة، تتحقق فيه صفة المتابعة لتعاليم الشرع؛ فيُوضع السيف على من أذن الشرع أن يوضع السيف عليه، ويُرفع عمن أوجب الشرع أن يُرفع عنه، وإن لم يوافق ذلك هوى في النفس .. ونحو ذلك المثلة بجثث قتلى العدو؛ فلا يجوز المثلة بها إلا ما كان على وجه القصاص والمعاملة بالمثل، والعفو والصبر خير وأفضل كما قال تعالى:﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾النحل:١٢٦. وقال تعالى:﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾البقرة:١٩٠[١٤٧].

---

١٤٤ صحيح سنن النسائي: ٢٩٤٣. وقوله " يَلتمسُ الأجرَ والذِّكر "؛ أي خلَط الإخلاص؛ وهو طلب الأجر والثواب من الله تعالى، مع نية أخرى فيها رياء؛ وهو طلب الثناء والمديح على جهاده من الناس فهذا أيضاً مما يُفسد العمل؛ لأن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم.

١٤٥ رواه ابن ماجه وغيره، صحيح الترغيب: ٣١.

١٤٦ صحيح سنن النسائي: ٢٩٤١. والعِقال؛ الحبل الذي يُعقَل به البعير ونحوه من الدواب.

فالمجاهد في سبيل الله هو الذي ينهى النفس عن الهوى إيثاراً لمتابعة الشرع، كما قال تعالى:﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾النازعات: ٤٠– ٤١. أما من يضع السيف والجهاد تبعاً لهواه .. أو استجابة لنزعة حب التشفي والانتقام .. ومن دون مراعاة لما أمر الله تعالى به وما نهى عنه؛ فيضع السيف حيث يجب أن يُرفع .. ويرفعه حيثما يجب أن يضعه .. فلا يسلم منه طفل ولا شيخ ولا امرأة .. ولا غيرهم ممن عصم الله ورسولُ دمَه .. وصان حُرْمَته .. فهذا قد عصى اللهَ ورسولَه، واتبع غير سبيل المؤمنين المجاهدين .. وهو ضال مضل .. وممن اتخذ إلهه هواه .. لا يجوز أن يُنسَب عمله للجهاد والمجاهدين .. وقتاله ألصق بقتال طريقة أهل الأهواء من الخوارج الغلاة، وغيرهم من المفسدين وقطاع الطرق[١٤٨].

وفي الحديث عن المقداد بن الأسود قال: يا رسولَ الله أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار فقاتلني فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها، ثم لاذ مني بشجرة، فقال: أسلمت لله، أفأقتله يا رسولَ الله بعد أن قالها؟ قال رسول الله ﷺ:" لا تقتلْه "، قال: فقلت يا رسول الله إنه قد قطع يدي ثم قال ذلك بعد أن قطعها، أفأقتله؟ قال رسول الله ﷺ :" لا تقتله فإن قتلته فإنه بمنزلتك ـ أي مصان وحرام الدم ـ قبل أن تقتله، وإنك بمنزلته ـ أي حلال الدم ـ قبل أن يقول كلمته التي قال " متفق عليه. فلا موضع للتشفي والانتقام ومتابعة الهوى .. ولا حظَّ للنفس .. عندما يقول الشرع كلمته .. ويقضي قضاءه، قال تعالى:﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾النور:٦٣.

وقال تعالى:﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾النساء:٦٥.

---

١٤٧ قال ابن كثير في التفسير: وقوله:﴿ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾؛ أي قاتلوا في سبيل الله، ولا تعتدوا في ذلك ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي، كما قاله الحسن البصري: من المثلة، والغلول، وقتل النساء، والصبيان، والشيوخ؛ الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم، والرهبان وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار، وقتل الحيوان لغير مصلحة، كما قال ذلك ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومقاتل بن حيان وغيرهم. ولهذا جاء في صحيح مسلم، عن بريدة أن رسول الله ﷺكان يقول:" اغزوا في سبيل الله وقاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا الوليد، ولا أصحاب الصوامع ". وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: وجدت امرأة في بعض مغازي النبي ﷺ مقتولة، فأنكر رسولُ الله ﷺ قتل النساء والصبيان " ا– هـ.

١٤٨ يجب التفريق بين الخطأ غير المقصود .. والاستثنائي .. فهذا يمكن أن يقع به المجاهد في سبيل الله .. وبين من يكون منهجه قائم على الخطأ .. وجل أعماله قائمة على الخطأ ومجافاة الشرع .. ومتابعة الهوى .. فهذا لا يُمكن أن يُصنف عمله من الجهاد في سبيل الله .. ولا أن يُصنف هو من المجاهدين في سبيل الله .. وإن تسمى بأسماء المجاهدين، وانتسب إليهم .. فالعبرة بالحقائق لا بالمسميات!

ثالثاً: أن يكون الجهاد لغرض مشروع؛ قد أذن الله تعالى بالقتال دونه .. كما تقدمت الإشارة إلى بعض هذه الأغراض .. أما إن كان الغرض من الجهاد غير مشروع ولا مأذوناً به من الله تعالى؛ كالقتال عصبية لقبيلة أو وطنٍ أو حزبٍ .. أو زعيم ـ في الحق والباطل سواء ـ أو لبدعة كقتال الخوارج والروافض على بدعهم .. أو نصرة لباطل .. أو ظالم على ظلمه .. أو طاغوت على حكمه .. ونحوها من الأغراض الباطلة .. فالقتال والجهاد دونها باطل ومردود .. لا يجوز أن يُنسب إلى الإسلام أو يُصنف على أنه من الجهاد في سبيل الله .. وإن زعم أصحابه أنهم حققوا في أنفسهم شرط الإخلاص، ونية إرادة الخير، فكم من مريد للخير لا يدركه؛ لأنه قد طلبه عن غير طريق شرع الله .. والتمس طرقاً ووسائل وأغراضاً غير مشروعة .. وكم من مفسد في الأرض يحسب أنه ممن يُحسنون صنعاً، كما قال تعالى:﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾الكهف: ١٠٤.

وفي الحديث فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال في الخوارج أنهم:" يقرؤون القرآن لا يُجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، لئن أدركتهم لأقتلنَّهم قتل عاد " متفق عليه. وهذا كله وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .. وأنهم فيما يقومون به من عمل إنما هو من الجهاد في سبيل الله!!

وقال ﷺ:" سيكون في أمتي اختلافٌ وفرقة، قومٌ يحسنون القِيلَ ويسيئون الفعل، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقِيَهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، لا يرجعون حتى يرتد على فوقه، هم شرار الخلق والخليقة، طوبى لمن قتلهم وقتلوه، يَدعون إلى كتاب الله وليسوا منه في شيء، من قاتلَهم كان أولى بالله منهم، سِيماهُم التحليق "[١٤٩].

وأخرج ابن وضّاح القرطبي في كتابه " البدع والنهي عنها "، عن أبي عبيدة بن حذيفة قال: جاء رجل إلى حذيفة بن اليمان وأبو موسى الأشعري قاعد، فقال: أرأيت رجلاً ضرب بسيفه غضباً لله حتى قُتِل، أفي الجنةِ أم في النار؟ فقال أبو موسى: في الجنة. قال حذيفة: استفهم الرجل وأفهمه ما تقول[١٥٠]. قال أبو موسى: سبحان الله! كيف قلت؟! قال: قلت رجلاً ضرب بسيفه غضباً لله حتى قُتِلَ أفي الجنة أم في النار؟ فقال أبو موسى في الجنة. قال حذيفة استفهم الرجل وأفهمه ما تقول، حتى فعل ذلك ثلاث مرات، فلما كان في الثالثة قال: والله لا تستفهمه، فدعا به حذيفة قال: رويدك، إن صاحِبَك لو ضرب بسيفه حتى ينقطع فأصاب الحقَّ حتى يُقتل عليه فهو في الجنة، وإن لم يُصِبْ الحقَّ ولم يوفقه الله للحق فهو في النار. ثم قال: والذي نفسي بيده

---

١٤٩ أخرجه أبو داود، وأحمد، والحاكم وغيرهم، صحيح الجامع: ٣٦٦٨.

١٥٠ كأنه أنكر عليه استعجاله في إجابته للسائل قبل أن يستفهم ويستوضح منه مراده جيداً!

ليدخلنَّ النارَ في مثل الذي سألتَ عنه أكثر من كذا وكذا.

قال الحسن البصري: فإذا بالقوم قد ضربوا بأسيافهم على البدع!

أقسامه: ينقسم الجهاد في سبيل الله إلى قسمين: جهاد دفع، وجهاد طلب. أما جهاد الدفع؛ فصفته أن يصول العدو الكافر ـ سواء كان كفره أصلياً أم كان طارئاً من جهة الردة ـ على بلاد وحرمات المسلمين .. فحينئذٍ يجب على جميع المسلمين ممن صال عليهم العدو جهاد هذا العدو ودفعه عن البلاد والعباد، فإن عجزوا عن دفعه .. اتسعت دائرة الوجوب لتشمل أقرب المسلمين إلى البلد المعتدى عليه .. فإن لم يحققوا الكفاية .. وجب على من وراءهم؛ الأقرب فالأقرب إلى أن تتحقق الكفاية في رد عدوان العدو الصائل عن عدوانه.

وهذا القسم من الجهاد؛ لضرورته وأهميته، وإلحاحه .. ولكونه لا يقبل التأخير والتواني .. ولكون أهله لهم حكم وصفة من شهد الصف عند لقاء العدو؛ فليس لأحدهم أن يتخلف أو يفر .. لا يُشترط له شرط .. بل يُنفر لجهاد العدو خفافاً وثقالاً .. فرداناً وجماعات .. كل بحسب استطاعته وقدرته .. سواء أذن الحاكم المسلم بذلك أم لم يأذن .. وهذا لا يتنافى مع ضرورة تنظيم الجهاد في عملية الدفع، وأن يكون للجهاد أمير مُطاع فهذا لا شك أنه أجدى في عملية الدفع .. لكنه لا يُعتبر شرطاً لجهاد العدو الصائل، ورد عدوانه.

قال ابن تيمية في الفتاوى ٢٨/٣٥٨:" إذا أراد العدو الهجوم على المسلمين، فإنه يصير دفعه واجباً على المقصودين كلهم، وعلى غير المقصودين؛ لإعانتهم، كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ﴾. وكما أمر النبي ﷺ بنصر المسلم، وسواء كان الرجل من المرتزقة للقتال أم لم يكن. وهذا يجب بحسب الإمكان على كل حد بنفسه وماله، مع القلة والكثرة، والمشي والركوب، كما كان المسلمون لم قصدهم العدو عام الخندق لم يأذن الله في تركه لأحد، كما أذن في ترك الجهاد ابتداء لطلب العدو، الذي قسمهم فيه إلى قاعد وخارج، بل ذم الذين يستأذنون النبي ﷺ ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً ﴾ "ا– هـ.

قلت: قوله " وعلى غير المقصودين "؛ ينبغي أن يحمل على الأقرب منهم للمقصودين .. ثم تتسع الدائرة، ليشمل الواجب الأقرب فالأقرب إلى أن تتحقق الكفاية في رد عدوان العدو .. وذلك أن الأقرب له حكم المشاهد بخلاف الغائب .. ثم أن الأقرب أسرع وأقدر على النصرة من الأبعد، والله تعالى أعلم.

وقال ابن قدامة المقدسي في الكافي ٤/٢٥٤:" إذا نزل الكفار ببلد المسلمين، تعين على أهله قتالهم، والنفير إليهم، ولم يجز لأحد التخلف، إلا من يحتاج إلى تخلفه لحفظ الأهل، والمكان

والمال، ومن يمنعه الأمير الخروج، لقوله تعالى:﴿ انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً ﴾التوبة:٤١. ولأنهم في معنى حاضر الصف، فتعين عليهم، كما تعين عليه "ا– هـ.

قلت: قوله " ومن يمنعه الأمير الخروج "؛ أي يمنعه من الخروج لمصلحة الجهاد، أو لمصلحة راجحة يراها الأمير .. ضمن خطة عامة تقضي بتوزيع المهام على الأفراد .. فهذا لا بأس به .. أما إن كان منعه لمجرد المنع .. والتخذيل عن العدو الصائل .. فلا سمع له ولا طاعة .. لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .. وإنما الطاعة تكون في المعروف.

أما جهاد الطلب: هو أن يطلب المجاهدون المسلمون العدو في عقر دارهم؛ خارج حدود دولة الإسلام، وهذا القسم من الجهاد اشترط له بعض أهل العلم إذن الإمام أو الحاكم العام للمسلمين .. والصواب أن أذن الإمام أو الحاكم العام يلزم من تحت حكمه وسلطانه من المسلمين؛ فمن كان يعيش في كنفه وتحت حكمه وسلطانه؛ فهذا الذي يلزمه الاستئذان في جهاد الطلب .. أما من كان يعيش خارج سلطانه ودولته .. فلا يلزمه الاستئذان .. وله أن يمضي لجهاد الطلب ولو بمفرده .. وكذلك في حال انتفاء وجود الأمير أو الحاكم المسلم العام .. فحينئذٍ كل مسلم أمير نفسه .. فلا يلزمه الاستئذان من معدوم .. كما لا يجوز القول بتعطيل الجهاد بقسميه إلى حين وجود المعدوم .. فقد ثبت أن الصحابي أبا بصير ﷺ كان ـ ومن التحق به من المسلمين ـ يطلبون قوافل كفار قريش، ويُغيرون عليها .. من تلقاء أنفسهم .. فما كان يلزم المسلمين في المدينة المنورة تجاه قريش وفق بنود شروط صلح الحديبية .. لا يلزمه ومن معه من المسلمين؛ وذلك أنه كان يعيش خارج سلطان دولة الإسلام الممثلة يومئذٍ في المدينة المنورة، ومن دخل في حلفها من القبائل .. وكانت حركة جهاده خارج حدود دولة الإسلام .. ومع ذلك فالنبي ﷺ لم ينكر عليه .. بل قال عنه:" أنه مسعر حرب لو كان معه رجال "؛ كلمة إعجاب ـ من سيد الخلق وإمام المجاهدين ـ بهذا البطل العظيم .. كما أن كفار قريش لم يكونوا يعاملوه أو يلزموه بما قضى به صلح الحديبية من صلح وسلام وأمان .. لعلمهم المسبق أنه لا يلزمه ما يلزم المسلمين في المدينة المنورة.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" لا تزال طائفة من أمتي يُقاتلون على الحق، ظاهرين إلى يوم القيامة " مسلم.

وفي رواية عند أبي داود:" لا تزال طائفة من أمتي يُقاتلون على الحق، ظاهرين على من ناوأهم حتى يُقاتل آخرهم المسيحَ الدجال ".

والطائفة لغة وشرعاً تُطلق على الشخص الواحد فما فوق، كما قال تعالى:﴿ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾التوبة:٦٦. فالطائفة المعفو عنها هي شخص واحد، واسمه مخاشن بن حُمير، والطائفة المعذبة لاستهزائهم .. قيل رجل واحد وقيل اثنان .. وشاهدنا أن

الطائفة تُطلق على الشخص الواحد .. وعلى الاثنين .. وعلى ما هو أكثر من ذلك .. والجهاد يمضي ـ بنص الحديث ـ بطائفة أقلها شخص واحد .. فكيف بعد ذلك يُقحم شرط وجود الإمام أو الحاكم العام ـ واستئذانه ـ كشرط لصحة الجهاد .. وانطلاق الجهاد؟!

قال ابن حزم في المحلى ٣٥٢/٥:" ويُغزى أهل الكفر مع كل فاسق من الأمراء، وغير فاسق، ومع المتغلب والمحارب، كما يغزى مع الإمام، ويغزوهم المرء وحده إن قدر أيضاً "ا– هـ.

مسألة: قد راج على ألسنة بعض المتأخرين قولهم: أن المرأة في جهاد الدفع يجب عليها أن تخرج للجهاد من دون إذن زوجها أو وليها .. وهذا قول مرجوح لا دليل عليه من كتاب أو سنة .. ولا أعرف سلفاً من القرون الثلاثة الأولى المشهود لها بالخيرية والفضل من قال بهذا القول ..بل الدليل على خلافه؛ كما حصل في موقعة الخندق .. حيث غزت أحزاب وقبائل الكفر والشرك المدينة المنورة .. ومع ذلك فالنبي ﷺ لم يُعرف عنه أنه استنفر النساء لقتال المشركين والذود عن المدينة .. وإنما اكتفى بالرجال فقط فلم يستثن منهم أحداً، بما في ذلك المنافقين الذين قالوا ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ فكذبوا .. وإنما أرادوا الفرار من القيام بالواجب .. فأنزل الله تعالى يكذبهم ويكذب زعمهم:﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً ﴾الأحزاب:١٣.

بينما نساء وأطفال وذراري المسلمين اكتفى بتأمينهم في الحصون، كما في الحديث الذي يرويه رافع بن خديج ﷺ قال:" لم يكن حصن أحصن من حصن بني حارثة، فجعل النبي ﷺ النساء والصبيان والذراري فيه، وقال:" إن ألمَّ بكنَّ أحدٌ فألمِعْنَ بالسيف "، فجاءهن رجل من بني ثعلبة بن سعد يقال له نجدان أحد بني حشّاش على فرس، حتى كان في أصل الحصن ثم جعل يقول للنساء: انزِلن إليَّ خيرٌ لكنّ، فحرَّكْن السيفَ، فأبصره أصحابُ رسولِ الله ﷺ، فابتدرَ الحصنَ قوم فيهم رجلٌ من بني الحارثة يقال له: ظهير بن رافع، فقال: يا نجدان ابرز، فبرز إليه، فحمل على فرسه، فقتله وأخذ رأسه فذهب به إلى النبي ﷺ [١٥١].

لكن الذي يمكن قوله هنا أن المرأة لو اقترب منها العدو .. سواء كان ذلك في جهاد الدفع أم في جهاد الطلب .. يجوز لها أن تجاهد وتقاتل دفاعاً عن نفسها، وعن غيرها من المسلمين، كما في الحديث، عن أنس بن مالك، أنَّ أُمَّ سُلَيْم اتخذت يومَ حُنَين خِنجَراً، فكان معها، فرآها أبو طلحةَ، فقال: يا رسولَ الله هذه أمُّ سُلَيْمٍ معها خنجرٌ ـ وأمُّ سُلَيم هي زوجة أبي طلحة ـ فقال لها رسولُ الله ﷺ:" ما هذا الخنجرُ؟" قالت: اتَّخَذتُهُ؛ إن دنا مني أحدٌ من المشركين بَقَرْتُ به بطنَهُ، فجعلَ رسولُ الله ﷺ يَضحك " مسلم.

---

١٥١ قال الهيثمي في المجمع ١٣٣/٦: أخرجه الطبراني، ورجاله ثقات.

فالقول بالجواز شيء .. وهو ما دل عليه الحديث أعلاه .. والقول بالوجوب .. وأنه يجب عليها أن تخرج للجهاد ـ في حالة جهاد الدفع ـ من دون إذن زوجها أو وليها .. شيء آخر .. وهو ما يعوزه الدليل، ولا دليل[١٥٢].

شبهة: بين الفينة والأخرى يُثار جدال عقيم بين بعض الدعاة والمثقفين، حول التفريق بين جهاد الطلب وجهاد الدفع .. وحول تحديد مواطن جهاد الطلب وجهاد الدفع .. وشروط كل قسم منهما .. وأن جهاد الطلب يحتاج إلى إذن الحاكم في البلد .. وبالتالي لا يجوز للمسلم في مصر أو سورية أو المغرب أو السعودية ـ مثلاً ـ أن يقصد الجهاد في العراق أو فلسطين أو في أفغانستان أو الصومال .. على اعتبار أن هذه البلاد ليست بلاده .. والجهاد فيها بالنسبة له جهاد طلب يحتاج إلى إذن الحاكم في بلده ..؟

وهذه شبهة نُجيب عنها من أوجه:

منها: عند التحقيق والتدقيق نجد أن الأمة كلها قد صال عليها العدو الكافر؛ سواء كان كفره أصلياً، أم كان طارئاً من جهة الزندقة والردة .. وفي بعض أقطارها قد اجتمع العَدُوَّان معاً على مسلمي أهل تلك الأقطار والأمصار .. وبالتالي الجهاد في جميع أمصارها يدخل في إطار جهاد الدفع لا الطلب .. وإلى حين انتهاء الأمة من مرحلة جهاد الدفع .. وطرد العدو الصائل بنوعيه المرتد والكافر الأصلي من بلاد المسلمين .. حينئذٍ يسوغ الانشغال بالحديث عن جهاد الطلب وشروطه .. وتوجد له مبرراته .. أما قبل ذلك ـ وقبل الانتهاء من مرحلة جهاد الدفع الأكثر ضرورة وإلحاحاً ـ فإن الانشغال بالحديث عن جهاد الطلب .. والوقوف عنده طويلاً يُعد من العبث .. والتشويش .. وإضاعة الأوقات والطاقات من غير طائل يُذكر!

ومنها: إن كان المعني من استئذان الحكام؛ حكام وطواغيت هذا العصر .. فهؤلاء حقهم والواجب نحوهم أن يُجاهَدوا ويُقاتَلوا .. لا أن يُستأذَنوا في جهاد العدو .. وهم العدو .. وحلفاء وأنصار وعملاء العدو .. فكيف للمرء أن يستأذن العدو .. وعملاء العدو في جهاده .. فهذا مغاير ومخالف للنقل والعقل سواء!

ومنها: أن هذه الحدود المصطنعة بين أقطار وبلدان الأمة .. التي يُعقد فيها الولاء والبراء من دون الله .. والتي فرقت بين المسلمين في أقطار وانتماءات وعصبيات وطنية جاهلية ما أنزل الله بها من سلطان .. فهي أولاً من صنائع ومكائد العدو والاستعمار الخارجي .. بتعاون مع العدو

---

[١٥٢] ليس غرضنا هنا أن نبين الأعمال الجهادية التي يمكن للمرأة أن تقوم بها .. وبخاصة بعد تطور وسائل الحرب والقتال المعاصرة .. واعتماد الوسائل الالكترونية .. وعن بعد .. في كثير من العمليت الحربية .. فهذا له موضع آخر من أبحاثنا.

الداخلي المتمثل في طواغيت الحكم والكفر والخيانة والعمالة .. وأنظمتهم الفاسدة .. وثانياً فالإسلام لا يعترف بهذه الحدود الظالمة ولا يقرها .. وهو بريء منها ومن آثارها كل البراء .. فالإسلام جعل الأمة ـ على اختلاف أقطارها ودويلاتها ـ كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً .. ويقوي بعضه بعضاً .. توحدها العقيدة .. وقيم ومبادئ الإسلام .. الاعتداء على أي جزء منها هو اعتداء على البنيان كله .. كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو واحد تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والقلق والحمى.

فقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال:" المسلمون تتكافأ دماؤهم، يسعى بذمَّتهم أدناهم، ويُجيرُ عليهم أقصاهم، وهم يدٌ على مَن سواهُم، يَردُّ مُشِدُّهُم[١٥٣] على مُضعِفهم، ومُتَسَرّعِهم[١٥٤] على قاعِدهم، لا يُقتَلُ مؤمنٌ بكافرٍ، ولا ذُو عهدٍ في عهده " [١٥٥].

وقال ﷺ:" ما من امرئٍ يَخذُلُ امرءاً مسلماً في موطنٍ يُنتقصُ فيه عِرضُه، ويُنتهكُ فيه من حُرمَتِه، إلا خذَلَه اللهُ تعالى في موطنٍ يُحبُّ فيه نصرَتَهُ، وما مِن أحدٍ ينصرُ مُسلماً في موطنٍ يُنتقَصُ فيه من عِرضهِ، ويُنتهكُ فيه من حُرمتِه، إلا نصرَهُ اللهُ في موطنٍ يُحبُّ فيه نصرتَهُ "[١٥٦].

وقال ﷺ:" المؤمنُ من أهلِ الإيمان بمنزلة الرأسِ من الجسد، يألَمُ المؤمنُ لما يُصيبُ أهلَ الإيمان، كما يألَمُ الرأسُ لما يصيبُ الجسدَ "[١٥٧].

وقال ﷺ:" ترى المؤمنين في تراحُمِهم وتوادِّهم، وتعاطُفِهم، كمثلِ الجسدِ إذا اشتكى عضواً تداعى لهُ سائرُ الجسدِ بالسَّهرِ والحُمَّى " متفق عليه.

وقال ﷺ:" المؤمنون كرجلٍ واحدٍ، إذا اشتكى رأسَهُ اشتكى كلُّه، وإن اشتكى عينَهُ اشتكى كلُّه "[١٥٨]. وغيرها كثير من النصوص التي تدل على أن المؤمنين ـ على اختلاف جنسياتهم، ولغاتهم، وألوانهم، وأوطانهم وأمصارهم ـ لا يمكن أن يكونوا إلا كرجل واحد " إذا اشتكى عضواً تداعى لهُ سائرُ الجسدِ بالسَّهرِ والحُمَّى " و " إذا اشتكى رأسَهُ اشتكى كلُّه، وإن اشتكى عينَهُ اشتكى كلُّه ".

هذه هي التوجيهات النبوية التي لا مردّ لها .. وليس للمسلم إلا أن يرضى بها ويُسلم لها

---

١٥٣ أي قويهم.

١٥٤ وفي رواية:" ومتسريهم "، وهو المجاهد الذي يجاهد في سبيل الله.

١٥٥ صحيح سنن أبي داود: ٢٣٩١.

١٥٦ رواه أحمد، وأبو داود، صحيح الجامع: ٥٦٩٠.

١٥٧ رواه أحمد، صحيح الجامع: ٦٦٥٩.

١٥٨ رواه أحمد ومسلم، صحيح الجامع: ٦٦٦٨.

تسليماً .. ويعمل بها .. أنعم بها وأكرم من توجيهات .. أما توجيهات طواغيت الحكم والكفر والخيانة .. وأبواقهم من المثقفين ودعاة وشيوخ البلاط .. يقولون: ما نزل بأهل العراق يخص أهل العراق وحدهم .. وما نزل بأهل فلسطين .. أو أفغانستان .. أو الصومال .. أو الشيشان .. يخص مسلمي تلك الأمصار وحدهم دون غيرهم .. لا ينبغي أن نتدخل في شؤون وأوطان الغير .. هذا ما يقتضيه العمل بالولاء الوطني، والتقسيمات الوطنية المعاصرة التي تُقصِر اهتمام كل امرء على حدود وطنه وبلده .. دون أوطان وبلاد الآخرين من المسلمين .. وبئس التوجيه توجيههم!

لما سنَّت فرنسا قانونها العنصري الظالم ضد المحجبات المسلمات الفرنسيات .. وغيرهن من الوافدات .. قالوا جميعهم .. ومعهم شيخ الأزهر؛ شيخ الطاغوت: هذا شأن داخلي .. يخص فرنسا وحدها .. لا دخل لنا به .. والعقيدة الوطنية المعاصرة ـ المعمول بها ـ تقضي بأن لا يتدخل أحد بشؤون أوطان وأمصار الآخرين .. فغيبوا بذلك عقيدة أخوة الإسلام .. وعقيدة الولاء والبراء في الإسلام!

حكمه: يتعين الجهاد في ثلاثة مواضع: عند دفع العدو الصائل على بلاد وحرمات المسلمين، وبحسب التفصيل المتقدم الآنف الذكر. وعندما يستنفر الإمام أو الحاكم المسلم من أراد من المسلمين للجهاد؛ فحينئذٍ يتعين الجهاد على كل من استنفرهم للجهاد، لقوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾التوبة:٣٨. ولقوله ﷺ:" وإذا استُنفِرتُم فانفروا " متفق عليه.

وكذلك في حال التقى الصفان أو الجمعان للقتال، فالثبات للجهاد واجب على كل من حضر الصف واللقاء، والفرار من الزحف والقتال في هذا الموقف من كبائر الذنوب، وقد عده الإسلام من جملة الموبقات السبع، كما في الحديث المتفق عليه:" اجتنبوا السبع الموبقات " منها:" والتولي يوم الزحف " متفق عليه.

وقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ . وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾الأنفال:١٥-١٦.

وما سوى هذه المواضع الثلاثة الآنفة الذكر فإن الجهاد حكمه فرض كفائي؛ إن قام به نفر من المسلمين سقط عن الآخرين، لقوله تعالى:﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾التوبة:١٢٢.

ميادينه: ميادين الجهاد في سبيل الله هي ساحات الحرب والقتال، وحيث تتوفر دواعيه .. أما ساحات الإيمان أو العهد والأمان فهي ساحات سلام لا يجوز وضع السيف فيها .. ولا القتال .. فلساحات الحرب والقتال أحكامها ونصوصها الشرعية التي تُحمل عليها وتُقال فيها .. ولساحات السلم والعهد والأمان أحكامها ونصوصها الشرعية التي تُحمل عليها وتُقال فيها .. ومن الظلم والبغي، والجهل حمل أحكام ونصوص ساحات الحرب والقتال على ساحات الإيمان أو العهد والأمان .. أو العكس؛ فتُحمل أحكام ونصوص ساحات وميادين العهد والأمان .. على ساحات الحرب والقتال .. فهذا أيضاً من الظلم، والبغي، والجهل .. ومؤداه إلى التفريط.

فريق من الناس ـ لجهل أو غرض في نفوسهم ـ تراهم يعارضون بين نصوص دار من الدارين مع نصوص الدار الآخر .. ويجعلون نصوص أحد الدارين ناسخاً أو ملغياً لنصوص الدار الآخر .. ومن يُوفقه الله؛ فيُحسن التمييز بين نصوص دار الحرب والقتال، فيحملها على دار وساحات الحرب والقتال وحسب .. وبين نصوص ساحات العهد والأمان؛ فيحملها على ساحات العهد والأمان وحسب .. تراهم يرمونه بالتناقض .. وأنه يقول بالشيء وضده .. أو أنه يقول بالجهاد وعدمه .. وعند التدقيق والتحري .. تجد أن التناقض مرده إلى فهمهم السقيم .. وجهلهم العقيم .. إذ حاشى نصوص الشريعة أن تعارض بعضها بعضاً!

ولما غاب للمسلمين الدولة الإسلامية التي يرأسها إمام مسلم عام تجتمع عليه الكلمة .. ويوحد البلاد والعباد في دولة إسلامية واحدة .. تحدد للمسلمين ساحات الحرب والقتال، وساحات العهد والأمان والصلح .. من خلال ما تبرمه من عهود وعقود مع الدول الأخرى .. حصل نوع اضطراب وفوضى في تحديد ميادين الحرب والقتال من ميادين العهد والأمان والسلم .. وأصبح كل مسلم أمير نفسه .. يحدد عدوه من غيره .. من تلقاء نفسه .. ومن خلال واقعه وحركته ومصلحته .. ومن دون الرجوع إلى حاكم أو أمير عام مُطاع[١٥٩].

---

[١٥٩] هذه النتيجة تتحمل تبعاتها وأخطاءها كل من ساهم وتآمر على إسقاط الخلافة العثمانية؛ وبخاصة منها دول الغرب النصرانية وعلى رأسها بريطانيا .. وهم لا يزالون إلى الساعة يُساهمون ويعملون على جعل المسلمين رعية بلا راعٍ .. ويعتبرون قيام دولة لهم تمثلهم .. أو تمثل بعضهم .. بمثابة الممنوعات والمحظورات التي لأجلها يستحلون الحرمات .. ويعلنون الحروب، ويستنفرون لها الجيوش ـ وما أكثر التجارب المعاصرة الدالة على هذه الحقيقة ـ فآلت الأمور إلى ما نحن عليه الآن؛ رعية بلا راع ولا دولة تمثل المسلمين وتتكلم باسمهم، وتنوب عنهم في إبرام العهود والعقود، وفي المحافل الدولية الرسمية .. وبالتالي فإن المتآمرين ـ بكل أصنافهم ـ هم شركاء في هذه الفوضى الحاصلة .. يتحملون الجزء الأكبر من تبعاتها وآثارها وأخطائها!

من خلال هذا الواقع الصعب ـ الذي لم تشهده الأمة من قبل ـ نجتهد في أن نضبط هذه المسألة الشائكة .. المثيرة للجدل .. فنحدد ـ من منظور الشريعة الإسلامية ـ ميادين الجهاد والحرب والقتال، من ميادين العهد والسلم والأمان .. بالنسبة لكل مسلم، أين كان موقعه أو كانت صفة تواجده .. وذلك في النقاط التالية:

أولاً: أيما بلدٍ إسلامي سطا وصال عليه العدو الكافر؛ سواء كان كفره أصلياً أم كان كفره من جهة الردة والزندقة .. فهي ساحة حرب وقتال وجهاد بالنسبة لجميع المسلمين .. وهذا لا يعني ولا يلزم منه معاملة جميع سكان وأهالي هذه البلدة معاملة أهل الحرب.

ثانياً: الأصل في جميع الدول غير الإسلامية .. أنها دول محاربة .. تجرى عليها أحكام أهل الحرب .. لانتفاء وجود العهد أو الصلح بينها وبين دولة الإسلام .. لأنه لا توجد أصلاً دولة للإسلام والمسلمين .. تجري مثل هذه العقود والعهود .. على مستوى جميع المسلمين .. تلزم بها رعاياها ومواطنيها.

وهذا لا يعني معاملة الشيوخ والنساء، والأطفال .. وغيرهم ـ من سكان تلك البلاد ـ ممن لا شأن لهم بأمور الحرب والقتال .. معاملة أهل الحرب والقتال .. فيُقصَدون كما تُقصد المحاربة منهم .. فالشريعة الإسلامية قد نهت عن ذلك.

ثالثاً: أيما فرد أو مجموعة من الأفراد من غير المسلمين ينتمون إلى دولة محاربة .. يدخلون بلداً من بلاد المسلمين بعهد وأمان معتبر واستثنائي خاص بهم .. وعلى غير وجه وصفة المحاربة أو المحاربين ـ من ذلك ما تعارف عليه جميع الناس على أن تأشيرة المرور التي بموجبها يُسمح للمرء بدخول البلاد هي بمثابة العهد أو الأمان الذي يُمنح للشخص ـ فهم آمنون سالمون .. طيلة فترة إقامتهم وتواجدهم .. لا يجوز الاعتداء عليهم في شيء .. كما لا يجوز أن تُجرى عليهم أحكام أهل الحرب والقتال .. فالبلد المُزار بالنسبة لهم تحديداً دار عهد وسلم وأمان.

ونحوهم الأقلية غير المسلمة من نصارى أو يهود أو مجوس .. الذين يعيشون بين أظهر المسلمين في بلادهم ومجتمعاتهم .. يتعاملون معهم ويتبايعون .. فهم أيضاً آمنون وسالمون .. وهم في عقد اجتماعي مع المسلمين ممن يعيشون معهم .. لا يجوز الاعتداء عليهم في شيء .. أو التعامل معهم معاملة أهل الحرب والقتال .. ما لم يغدروا أو ينقضوا العهد ويخِلوا بشروطه .. فحينئذٍ تُعامل الفئة الغادرة الباغية منهم معاملة أهل الحرب والقتال .. والملام حينئذٍ هم لا المسلمون.

رابعاً: أيما فرد أو مجموعة من المسلمين تدخل بلداً من البلاد المحاربة .. بعهد وأمان استثنائي خاص بها مع تلك البلدة أو الدولة .. فالدولة وكذلك المجتمع ـ بالنسبة لهذا الفرد أو المجموعة من الأفراد ـ تعتبر دار عهد وأمان .. وسلام .. لا يجوز لهم أن يغدروا أو يعتدوا على شيء

من ممتلكات تلك الدولة .. أو أن يحملوا عليها أحكام دار الحرب والقتال .. لما بينهم وبين تلك الدولة أو المجتمع من عهد استثنائي خاص بهم يمنعهم شرعاً من ذلك.

ونحوهم أيما أقلية مسلمة ترتضي أن تعيش في دولة غير إسلامية محاربة لغيرهم من المسلمين .. فهذه الأقلية المسلمة ترتبط مع هذه الدولة بعقد اجتماعي خاص .. يتبادلون بموجبه الحقوق والواجبات .. وبالتالي فإن الدولة وكذلك المجتمع الذي يعيشون فيه .. بالنسبة لهم يُعتبر دار عهد وأمان وسلام .. لا يجوز لهم الغدر بأهله في شيء أو أن يحملوا عليه وعلى أهله أحكام أهل الحرب والقتال .. وهذا يلزمهم وحدهم دون غيرهم من المسلمين ممن لا يربطهم مع هذه الدولة أي صيغة عقد صلح أو عهد وأمان.

خامساً: أيما دولة أو إمارة إسلامية تُجري عهد صلح وأمان مع أي دولة معادية محاربة .. فعهدها وأمانها ملزم لهذه الإمارة وحدها ومن يعيش في كنفها وسلطانها من الرعايا .. دون غيرهم من المسلمين في بقية الأمصار .. بينما لو أجرى الخليفة العام للمسلمين صلحاً معيناً مع دولة من دول العدو .. فصلحه وما يترتب عليه من آثار وأمان للطرف الآخر يُلزم جميع الولايات والأمصار التابعة له .. كما يُلزم جميع الرعايا التي تعيش في تلك الأمصار والولايات.

بهذا التفصيل المتقدم تتحدد ـ من منظور إسلامي ـ ميادين الحرب والقتال، وميادين العهد والأمان والسلم .. بالنسبة لكل مسلم .. أين كان موقعه وتواجده .. أو كانت صفة تواجده؛ سواء كان فرداً .. أو كان ينتمي إلى مجموعة أو إمارة إسلامية في حال وجودها أو قيامها .. والمجاهد في سبيل الله كما يجب عليه أن يتحرى في جهاده العدو المحارب الذي يستحق أن يُحارَب ويُقاتَل .. وأن تُوجَّه إليه ـ دون غيره ـ السهام .. كذلك يجب عليه أن يتحرى لجهاده ساحات الحرب والقتال .. فيميزها عن ساحات وميادين العهد والسلم والأمان .. فيعطي كل دار منهما حقها من غير إفراط ولا تفريط .. أما من يخلط بينهما .. ويعتبرهما في الحكم سواء فقد أبعد وظلم، وهو كحاطب ليل .. وهو واقع ـ ولا بد ـ في الإفراط أو التفريط[١٦٠].

تنبيه: اعلم أن ليس كل ما هو جائز في الجهاد واجباً فعله أو القيام به .. إذ لا بد من النظر ـ على ضوء نصوص وقواعد الشرع ـ في المصالح والمفاسد .. والمآلات والآثار المترتبة عن القيام بهذا الفعل أو ذاك .. ومدى توفر القوة على استيعاب ردة الفعل أو النتائج الناتجة عن هذا

---

١٦٠ فإن قيل أين الدليل على ما تقدم تقريره أعلاه .. ثم ما هي الصيغ التي بها يتحقق العهد والأمان .. وتُلزم صاحبها بأن يكف عن القتال .. وكيف ينتهي أو ينتقض العهد والأمان .. ومن من المسلمين مخول بأن يُجير ويُعطي مثل هذا العهد والأمان ..؟! أقول: الجواب عن هذه المسائل وغيرها ـ بأدلتها الشرعية ـ يجدها القارئ في كتابنا " الاستحلال " .. فليراجعه من شاء.

الفعل أو ذاك .. فما رجحت مصلحته على مفسدته .. قمنا به .. وما رجحت مفسدته ـ ولو بصورة مؤقتة ـ على مصلحته .. أمسكنا عنه .. وأرجأناه إلى حين تحقق المصلحة الراجحة من القيام به .. وهذا المعنى هام جداً ـ قد دلت عليه جملة من النصوص الشرعية ـ لا بد للمجاهد من أن يتفطن إليه وهو يعيش غمرات الجهاد وأجوائه .. وقد أشرنا إليه بشيءٍ من التوسع في كتابنا " الجهاد والسياسة الشرعية "، فراجعه إن شئت.

أهميته: تكمن أهمية الجهاد في سبيل الله من ثلاثة أوجه:

أولها: لكونه عبادة وطاعة لله ﷻ .. وتنفيذاً لأمره .. لا مناص للمؤمن أن يتخلف عنه، كما قال تعالى:﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ ﴾البقرة:٢١٦. أي فُرِض عليكم القتال، وهو كقوله تعالى:﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾البقرة:١٨٣. وعجبي لا ينتهي من قوم يفرقون بين ﴿ كُتِبَ ﴾ الأولى، و ﴿ كُتِبَ ﴾ الثانية علماً أن لهما نفس الدلالة من حيث الحكم والوجوب؛ فإذا قرأت عليهم قوله تعالى:﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ ﴾، أكثروا في مجادلتك .. ومخاصمتك .. ووضعوا قيوداً وشروطاً للقيام بفريضة الجهاد ما أنزل الله بها من سلطان .. وكثرت أعذارهم وتأويلاتهم .. وفي حقيقة الأمر إنما أرادوا الفرار من الزحف .. والتخلف عن القيام بالواجب، كما قال تعالى:﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً ﴾الأحزاب:١٣.

بينما إذا قرأت عليهم قوله تعالى:﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾، سلّموا لك بفرضية الصيام .. وأن صيامه واجب .. ومن غير نقاش ولا جدال .. وأعدوا واستعدوا لقدوم شهر الصوم .. بقوافل من الأطعمة والأشربة المتنوعة .. وكأنما قد أطلت عليهم طلائع جيش يريد غزوهم .. وليس شهر صيام وقيام!!

وقال تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾التوبة:١١١. فالبيع قد تم وانتهى .. والله تعالى قد اشترى ما يملك تفضلاً وتكرماً .. وترغيباً بالجهاد في سبيله .. فالصفقة قد مضت .. ومن شروطها عدم الترجيع .. أو التراجع .. ومن أراد أن يرجع عن صفقته .. أو أن يتراجع عن بيعه .. يُقال له قد تم البيع .. ومضى زمن الترجيع .. ولم يعد لك ملكية أو سلطان على ما بعته طواعية من غير إكراه .. فإن أبيت إلا أن تفسد البيع وتبطله .. تخرج من صفة ﴿ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، ولم تعد معنياً من هذا البيع والشراء أساساً .. لأنك لم تعد من المؤمنين الذين اشترى الله منهم ﴿ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾.

ثانياً: في الجهاد في سبيل الله عِز وسؤدد وتمكين وحياة كريمة في الأرض .. وحفاظ للحرمات من أن تُنتهك أو يُساء إليها، ولمقاصد الدين من أن يُعتدَى عليها، وهي: الدين، والنفس، والعقل، والعِرض أو النسل، والمال .. التفريط بالجهاد تفريط بهذه المقاصد كلها، كما قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾الأنفال:٢٤. فكل أمرٍ أمرنا به النبي ﷺ وداعنا إليه ففي تنفيذه وامتثاله حياة عزيزة وكريمة لنا .. ومما أمرنا به النبي ﷺ ودعانا إليه الجهاد في سبيل الله .. بل إن من أهل العلم من فسَّر قوله تعالى:﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾؛ أي إذا دعاكم إلى الجهاد في سبيل الله الذي فيه حياة حقيقة لكم، قال ابن الزبير: أي للحرب التي أعزكم الله تعالى بها بعد الذل، وقواكم بها بعد الضعف، ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم. وقال ابن إسحاق، وابن قتيبة: هو الجهاد الذي يحيي دينَهم ويُعليهم.

وقال تعالى:﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ﴾ لما يترتب عليه بعض الآلام والجراحات .. ونوع مفارقة للأهل والعادات المألوفة .. ولكن ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ لما في الجهاد في سبيل الله من خير كثير يعلو مصلحة ما يصيبكم أو تخسرونه بسببه ﴿ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً ﴾؛ وهو ترك الجهاد والركون إلى الدنيا وملذاتها، ولهوها ﴿ وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ﴾؛ لما يترتب على تركه من شرٍ عظيم وفساد كبير .. ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ أين تكمن مصلحتكم ومنفعتكم .. فارضوا بحكمه، وأطيعوا أمره ﴿ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾البقرة:٢١٦.

وفي الحديث فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" عليكم بالجهاد في سبيل الله تبارك وتعالى؛ فإنه باب من أبواب الجنة يُذهب الله به الهمَّ والغمَّ "[١٦١].

ثالثاً: لما يترتب عليه من أجرٍ عظيم عند الله تعالى، فالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الدالة على فضل الجهاد، وما أعد لله تعالى للمجاهدين في سبيله أكثر من أن تحصر في هذا الموضع، نذكر منها طائفة على سبيل التدليل ـ والترغيب والتشويق ـ لا الحصر، قوله تعالى:﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً . دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾النساء:٩٥-٩٦.

وقال تعالى:﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾التوبة:٢٠.

وقال تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾التوبة:١١١.

---

١٦١ أخرجه الحاكم وغيره، السلسلة الصحيحة: ١٩٤١.

وقال تعالى: وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾آل عمران:١٦٩-١٧٠.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" لَقيامُ رجلٍ في سبيلِ اللهِ ساعةً أفضلُ من عبادةِ ستينَ سنة "[١٦٢].

وقال ﷺ:" مقامُ الرَّجُلِ في الصَّفِّ في سبيلِ الله، أفضَلُ عندَ الله من عبادةِ الرجلِ ستينَ سنةً "[١٦٣].

وقال ﷺ:" موقفُ ساعةٍ في سبيلِ اللهِ خيرٌ من قيامِ ليلةِ القدْرِ عند الحجرِ الأسودِ "[١٦٤].

وقال ﷺ:" مثلُ المجاهدِ في سبيلِ الله كمثلِ الصائمِ القائمِ الدائمِ الذي لا يَفترُ من صلاةٍ، ولا صيامٍ حتى يرجعَ "[١٦٥].

وقال ﷺ:" الغَدْوَةُ والرَّوحَةُ في سبيلِ الله أفضلُ من الدنيا وما فيها " متفق عليه.

وقال ﷺ:" من اغبرت قدماه في سبيل الله فهو حرام على النار "[١٦٦].

وقال ﷺ:" رِبَاطُ يومٍ في سبيلِ اللهِ خيرٌ من الدُّنيا وما عليها " متفق عليه.

وعن أنس بن مالك، قال: سُئلَ رسولُ الله ﷺ عن أجرِ الرّباط، فقال:" من رابطَ ليلةً حارِساً مِن وراءِ المسلمين كان له أجرُ من خَلْفَه مِمَّن صامَ وصلَّى "[١٦٧].

وقال ﷺ:" من رابطَ ليلةً في سبيلِ الله؛ كانت كألفِ ليلةٍ صيامِها وقيامِها "[١٦٨].

---

١٦٢ رواه العقيلي في الضعفاء، والخطيب في التاريخ، السلسلة الصحيحة: ١٩٠١.

١٦٣ رواه الحاكم، وقال: صحيح على شرط البخاري، صحيح الترغيب: ١٣٠٣.

١٦٤ رواه ابن حبان، والحافظ ابن عساكر في " أربعين الجهاد "، السلسلة الصحيحة: ١٠٦٨.

١٦٥ أخرجه مالك في الموطأ، وغيره، السلسلة الصحيحة: ٢٨٩٦.

١٦٦ صحيح سنن النسائي: ٢٩١٩. قلت: هذا فيمن اغبرت قدماه في سبيل الله .. فكيف بمن يغبر وجهه .. ويُخالط غبار الجهاد شغاف قلبه؟!

١٦٧ قال الترمذي في الترغيب والترهيب ٢٠٢/٢: رواه الطبراني في الأوسط، بإسنادٍ جيد. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٨٩/٥: رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات. قلت: كون له أجر من خلفه ممن صلى وصام؛ لأنه سبب فيما ينعمون به من أمنٍ وأمانٍ، يمكنهم من فعل الطاعات؛ لذا فهو شريك لهم في أجر وثواب ما يقومون به من طاعات.

١٦٨ رواه ابن ماجه، صحيح الترغيب والترهيب: ١٢٢٤.

وقال ﷺ:" كلُّ ميّتٍ يُخْتَمُ على عملِهِ، إلا المُرابطُ؛ فإنه ينمو له عملُهُ إلى يوم القيامة، ويُؤمَّن مِن فَتَّانِ القبْرِ "[١٦٩].

وقال ﷺ:" حَرَسُ ليلَةٍ في سبيلِ الله أفضلُ من ألفِ ليلةٍ يُقامُ ليلُها ويُصامُ نهارُها "[١٧٠].

وقال ﷺ:" إن في الجنَّةِ مائةَ درجَةٍ أعدَّها اللهُ للمجاهدين في سبيلِ الله؛ ما بين الدَّرجتين كما بينَ السماءِ والأرض " البخاري.

وعن كعب من مرَّة، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:" من بَلَغَ العدوَّ بسهمٍ، رفعَ اللهُ له درجةً "، فقال له عبد الرحمن بن النَّحَّام: وما الدَّرجةُ يا رسولَ الله؟ قال:" أما إنها ليست بعَتَبَةِ أُمِّك؛ ما بين الدرجتين مِئةُ عامٍ "[١٧١].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجلٌ إلى رسولِ الله ﷺ، فقال: دُلَّني على عملٍ يعدِلُ الجهادَ، قال:" لا أجِدُه ". قال:" هل تستطيعُ إذا خرجَ المجاهدُ أن تدخلَ مسجدَكَ، فتقومَ ولا تَفْتُرَ، وتصومَ ولا تُفطِرَ ؟" قال: ومن يستطيع ذلك؟! البخاري.

وقال ﷺ:" مثَلُ المجاهدِ في سبيلِ الله؛ كمثَل الصَّائمِ القائمِ القَانِتِ بآياتِ اللهِ، لا يَفْتُرُ من صِيامٍ ولا صلاةٍ حتى يرجعَ المجاهدُ في سبيلِ الله تعالى " مسلم.

وقال ﷺ:" مثَلُ المجاهدِ في سبيلِ الله ـ والله أعلمُ بمن يجاهد في سبيلِه ـ كمثَلِ الصَّائِمِ، القائمِ، الخاشِعِ، الرَّاكِعِ، السَّاجِدِ "[١٧٢].

وقال ﷺ:" مثَلُ المجاهدِ في سبيلِ الله؛ كمثَلِ الصائمِ نهارَهُ، القائمِ ليلَهُ، حتى يرجِعَ متى يرجِعُ "[١٧٣].

وعن ابن عباس: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال:" ألا أخبِرُكُم بخيرِ النَّاسِ مَنزِلاً؟ "قلنا: بلى يا رسولَ الله، قال:" رجلٌ آخِذٌ برأسِ فرَسِهِ في سبيلِ الله ﷻ حتى يموتَ أو يُقتَلَ "[١٧٤].

---

[١٦٩] صحيح سنن أبي داود: ٢١٨٢.

[١٧٠] رواه الحاكم في المستدرك ٨١/٢، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

[١٧١] رواه النسائي، وابن حبان، صحيح الترغيب والترهيب: ١٢٨٧.

[١٧٢] صحيح سنن النسائي: ٢٩٣٠.

[١٧٣] رواه أحمد والبزَّار والطبراني، صحيح الترغيب والترهيب: ١٣٢٢. وقوله " حتى يرجع "؛ أي حتى يرجع من جهاده وغزوه إلى منزله ومسكنه مقر إقامته، مهما تأخر رجوعه.

[١٧٤] صحيح سنن النسائي: ٢٤٠٩.

وعن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال:" أفضلُ الجهادِ عند الله يوم القيامة الذين يُلْقَونَ في الصفِّ الأوَّلِ فلا يُلفِتون وجُوهَهُم حتى يُقتَلوا، أولئك يَتَلَبَّطون في الغُرَفِ العُلَى من الجنَّةِ يَنظرُ إليهم ربُّك، إن ربَّك إذا ضَحِك إلى قومٍ فلا حِسابَ عليهم "[١٧٥].

وعن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ:" تضَمَّن اللهُ لمن خرَجَ في سبيلِهِ، لا يُخرِجهُ إلا جهاداً في سبيلي، وإيماناً بي، وتصديقاً برُسُلي، فهو عليَّ ضامِنٌ أن أُدخِلَه الجنَّة، أو أَرجِعَهُ إلى مسكَنِه الذي خَرَجَ منه، نائلاً ما نالَ من أجرٍ أو غنيمةٍ، والذي نفسُ محمدٍ بيدِه! ما من كَلْمٍ يُكلَمُ في سبيلِ الله تعالى، إلا جاء يومَ القيامةِ كهيئتِه حين كُلِمَ؛ لونُه لونُ دمٍ وريحُهُ مِسكٌ، والذي نفسُ محمد بيده! لولا أن يَشُقَّ على المسلمين، ما قعَدتُ خِلافَ سَريةٍ تغزُو في سبيلِ الله أبداً، ولكن لا أجدُ سَعَةً فأحمِلُهم، ولا يجدون سَعةً، ويَشُقُّ عليهم أن يَتَخَلَّفُوا عني، والذي نفسُ محمدٍ بيده! لوَدِدْتُ أن أغزُو في سبيلِ الله فأُقتَلُ، ثمَّ أغزُو فأُقتَل، ثم أغزُو فأُقتَلُ " مسلم.

وقال ﷺ:" ولأن أُقتلَ في سبيل الله أحبُّ إلي من أن يكون لي أهل الوبَرِ والمدَرِ "[١٧٦].

وقال ﷺ:" للشهيدِ عندَ اللهِ ستُّ خِصَالٍ: يَغْفِرُ له في أَوَّلِ دُفعَةٍ من دَمِه، ويُرَى مَقعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ ويُجَارُ من عذابِ القبرِ، ويأمَنُ من الفَزَعِ الأكبَرِ، ويُحَلَّى حُلَّةَ الإيمانِ، ويُزَوَّجُ مِنَ الحورِ العينِ، ويُشَفَّعُ في سبعين من أقاربِه "[١٧٧]. وغيرها كثير من النصوص الشرعية الدالة على عظمة وفضل الجهاد، وما أعد الله تعالى لعباده المجاهدين في سبيله من أجرٍ عظيم .. ومنزلة رفيعة في الجنان .. وفيما تقدم ذكره كفاية لمن كان له قلب، وأراد الدار الآخرة، وسعى لها سعيها!

عواقِبُ تركه: لترك الجهاد آثار مُدمِّرة، وعواقب وخيمة، في الدنيا والآخرة، قال تعالى:﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾التوبة:٢٤.

وقال تعالى:﴿ إِلاّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾التوبة:٣٩.

---

[١٧٥] أخرجه الطبراني في الأوسط، السلسلة الصحيحة: ٢٥٥٨. وقوله " يتلبَّطون في الغُرف "؛ أي يضطجعون، ويتقلَّبون في نعيم الجنان .. فيغمرهم النعيم من كل حدب وصوب.

[١٧٦] صحيح سنن النسائي: ٢٩٥٥. قوله " أهل الوَبَر "؛ أي أهل البادية والصحراء. وأهل " المَدَر "؛ أي أهل القرى والمدن، والأمصار.

[١٧٧] صحيح سنن ابن ماجه: ٢٢٥٧. والفزع الأكبر؛ يوم بعث الناس من القبور للحساب. وقيل: يوم يُعرض الناس على النار، ويُذبح الموت وينادى يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت.

وفي الحديث، فقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: " ما ترك قوم الجهادَ إلا عمَّهم الله بالعذاب "[١٧٨].

وقال ﷺ:" إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد سلَّط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم "[١٧٩]. أي حتى ترجعوا إلى جهادكم، فلا تنشغلوا عنه بشيءٍ مما تقدم ذكره في الحديث .. فسمى الجهاد ديناً.

وقال ﷺ:" يوشكُ الأمم أن تَدَاعى عليكم ـ أي تجتمع وتتكالب ـ كما تَدَاعى الأكلةُ إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذٍ ؟ قال: بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنَّ في قلوبكم الوهن، فقال: يا رسول الله وما الوهن ؟ قال: حُبُّ الدنيا وكراهيةُ الموت "[١٨٠].

وقال ﷺ:" من ماتَ ولم يَغزُ، ولم يُحدِّث نَفسَهُ بالغزو، ماتَ على شعبةٍ من نفاق "[١٨١].

وقال ﷺ:" من لم يغزُ، أو يجهِّز غازياً، أو يخلف غازياً في أهله بخير؛ أصابه اللهُ سُبحانه بقارعةٍ قبلَ يومِ القيامة "[١٨٢]. فالمسلم بين ثلاث خيارات لا رابع لها: إمّا أن يغزو، وإما أن يُجهِّز غازياً، وإما أن يخلف غازياً في أهله بالخير .. فإن لم يفعل شيئاً من ذلك .. بقي الخيار الرابع والأخير؛ وهو أن تنزل به وبساحته قارعةٌ، الله تعالى أعلم بماهيتها، وكمِّها، ونوعها، وأثرها .. ولا يلُومَنَّ حينئذٍ إلا نفسه.

فإن حصل العجز المؤقت الذي يمنع المسلم من مباشرة الجهاد في سبيل الله .. انتقل ـ ولا بد ـ إلى المرحلة الثانية؛ وهي مرحلة الإعداد، والعمل على دفع العجز، وأسبابه .. إذ لا يجوز الاستسلام للعجز، والاعتذار به طويلاً، مع وجود القدرة على دفعه والتحرر منه.

للجهاد تكاليف وضريبة معلومة للجميع، لا ننكرها ـ وهي في حقيقتها تدور بين كرامتين ونصرين وفوزين؛ إما الظفر والنصر على العدو، وإما الظفر بالشهادة في سبيل الله ـ لكن مهما عظمت آلام تكاليف الجهاد وقِيلَ عنها فهي لا ترقى إلى جزءٍ يسير من تكاليف وضريبة الذل، والهوان، والركون إلى الدنيا، وترك الجهاد .. تأملوا حال الشعوب التي تركت الجهاد خوفاً وهروباً من تبعاته، وركنت إلى الطواغيت الظالمين .. كيف أنهم ضحوا في سبيل الطاغوت بكل غالٍ ونفيس

---

[١٧٨] أخرجه الطبراني، السلسلة الصحيحة: ٢٦٦٣.

[١٧٩] أخرجه أبو داود وغيره، السلسلة الصحيحة: ١١.

[١٨٠] أخرجه أبو داود وغيره، السلسلة الصحيحة: ٩٥٨.

[١٨١] أخرجه مسلم، وأبو داود، صحيح سنن أبي داود: ٢١٨٤.

[١٨٢] أخرجه أبو داود وغيره، السلسلة الصحيحة: ٢٥٦١.

يملكونه .. حتى باتوا يشكون لقمة الخبز فلا يجدونها إلا بعد عناء .. ووقوف ساعات طويلة في طوابير الذل والانتظار .. والطاغوت لا يكفُّ عن مُطالبتهم بالمزيد من التضحية والبذل على موائد شهواته وأهوائه .. وهذا كله مصداق لقوله ﷺ إن " تركتم الجهاد سلَّط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم ".

الجهاد ماضٍ: حاول المرجفون عبر تاريخهم القديم والمعاصر ـ وإلى يومنا هذا ـ تعطيل الجهاد .. وتقييده بحجج وقيود ما أنزل الله بها من سلطان .. يستحيل معها العمل بفريضة الجهاد .. ابتداء بالشيعة الروافض .. لما قالوا: لا جهاد إلا مع المعصوم الموجود في السرداب .. ولما طال خروجه من السرداب .. وطال انتظارهم .. وملوا الانتظار .. خرج لهم الخميني بعقيدة ولاية الفقيه التي تمنح الفقيه جميع سلطات وصلاحيات الغائب المنتظر .. مروراً بزعيم الحركة القاديانية في الهند أحمد غلام لما زعم لأتباعه ـ مرضاة للاستعمار الإنكليزي ـ أنه قد نسخ حكم الجهاد في الإسلام .. فأبطل العمل به .. واعتبره من شريعة من قبله .. فألغاه من دين وحياة أتباعه .. مروراً بحزب التحرير؛ الذي جمّد وعطَّل الجهاد منذ أكثر من ستين عاماً .. إلى حين نزول أو ظهور الخليفة الذي يتبنى أفكار وعقيدة الحزب .. ويأتي عن طريقهم وعلى طريقتهم .. فهذا الذي له الحق وحده أن يأذن بالجهاد .. وإلى الساعة لم يظهر .. وإلى الساعة هم ينتظرون .. ويسلون أنفسهم بفقه الاستضعاف والصبر على سياط الجلادين المجرمين .. مروراً بالحركات المنسوبة للتيار الإخواني التي رفعت شعار الجهاد برهة .. وتنكَّبَته وتخلّت عنه ـ وعن أهله ـ دهراً وعملاً .. واستبدلته بالديمقراطية وألعابها .. مروراً بمرجئة العصر .. وشيوخ البلاط والسلاطين .. الذين قيدوا الجهاد بإذن طواغيت الحكم المعاصرين .. فقالوا لا جهاد إلا معهم وبعد استئذانهم .. فإن لم يأذنوا فلا جهاد .. ولا قتال .. وأنى لهؤلاء الطواغيت العملاء أن يأذنوا لشعوبهم بأن يُجاهدوا في سبيل الله العدوَّ ـ وهم العدو، وهم أولى بأن يُجاهَدُوا ـ فعطلوا بقولهم هذا، وشرطهم هذا الجهاد في سبيل الله .. وجرَّموا كل من يجاهد على غير طريقة أولياء أمورهم من الطواغيت الظالمين!

وإلى هؤلاء جميعاً نقول: كذبتم .. الجهاد ماضٍ رغماً عن أنوفكم .. وإرجافكم .. وإلى يوم القيامة .. مثلكم مثل الكلاب التي تنبح على جنبات قوافل وجحافل الجهاد وهي تسير .. لا تأبه لكم، ولا لنباحكم!

الأمة تُذبَح من الوريد إلى الوريد .. ودماء الأبرياء تسيل أودية وأنهاراً .. وأنتم ـ لا بارك الله بكم ـ لا تزالون تنتظرون .. وتُنظِّرون .. وتَكذِبُون على الناس!

انتظروا .. ناموا .. أو استيقظوا .. فنومكم .. واستيقاظكم في ميزان الحق سواء .. فأنتم من هؤلاء الذين قال الله تعالى فيهم:﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ

يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾التوبة:٤٧. وقال تعالى:﴿ فَتَرَبَّصُوا ﴾؛ أي انتظروا ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾التوبة:٢٤.

عن سلمة بن نفيل الكندي، قال: كنت جالساً عند رسول الله ﷺ فقال رجل: يا رسولَ الله، أذالَ الناسُ الخيلَ ـ أي استخفوا بها وتركوها ـ ووضعوا السلاح، وقالوا: لا جهاد، قد وضعت الحرب أوزارها! فأقبل رسولُ الله ﷺ بوجهه وقال:" كَذَبوا؛ الآن جاء القتال، ولا يزال من أمتي أمة يقاتلون على الحق ويُزيغ الله لهم قلوب أقوام ويرزقهم منهم حتى تقوم الساعة، وحتى يأتي وعدُ الله، والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة "[١٨٣].

وقال ﷺ:" لن يبرح هذا الدين قائماً يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة " مسلم.

وقال ﷺ:" لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة " مسلم.

وقال ﷺ:" لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس " مسلم.

وقال ﷺ:" لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق، ظاهرين على من ناوأهم، حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال "[١٨٤].

وقوله ﷺ " لا تزال "؛ يُفيد الاستمرار .. من غير انقطاع .. ويُفيد تواجد الطائفة المنصورة المجاهدة المقاتلة في كل زمان؛ سواء كان للمسلمين خليفة وإمام، أم لم يكن لهم خليفة وإمام .. عَلِمَ ذلك من علم، وجهل ذلك من جهل .. فهذا لا يضر الحقيقة الشرعية شيئاً .. فهنيئاً لمن كان من هذه الطائفة الظاهرة المنصورة .. وأخلص في نصرتها والنصح لها .. والذود عنها .. وخابَ وخسر من خانها وخذلها .. وأسلم ظهرها للعدو الكافر .. وخلفهم في أهليهم وذراريهم بالشرِّ والسوء.

* * * * *

٩- الشَّهَادَة.

الشهادة في سبيل الله معنى نبيل، وشَرَفٌ عظيم، ومقام رفيع، لا يناله إلا المصطفون الأخيار، تتوق له نفوس المؤمنين الموحدين .. فيه يتنافس المتنافسون .. ويتسابق المتسابقون .. ومع ذلك فإن هذا المفهوم " مفهوم الشهادة "، لم يسلم من التحريف والتشويه؛ فوضعوه في غير

---

[١٨٣] صحيح سنن النسائي: ٣٣٣٣.

[١٨٤] صحيح سنن أبي داود: ٢١٧٠.

موضعه، وأنزلوه غير منزله، وحملوه ويحملونه على أناس ماتوا ويموتون في سبيل الطاغوت .. وفي سبيل رايات عصبية جاهلية ما أنزل الله بها من سلطان .. وكلما هلك منهم هالك وعدوه بالجنة .. وجزموا له بالشهادة، وأجر الشهادة!

ولم يقتصر تحريفهم وكذبهم عند هذا الحد .. حيث أن فريقاً منهم ـ من محترفي التحريف والكذب ـ بلغت بهم الجرأة والوقاحة .. بأن يصرفوا حكم الشهادة عمن يُقتل في سبيل الله حقاً .. وأن يصفوا من يُقتَل في سبيل الله بأقبح الألقاب والأوصاف؛ كالفئة الضالة .. والخوارج .. وغيرها من عبارات التنابز بالألقاب .. لينفروا الناس عن الجهاد .. والاستشهاد في سبيل الله .. فانقلبت الموازين .. وتغيرت الأحكام .. فأصبح من يُقتَل في سبيل الطاغوت شهيداً وبطلاً، يستحق المديح وجِنان الخلد .. ومن يُقتل في سبيل الله .. يستحق الذم، ونار جهنم، والعذاب الأليم .. وكأن الأمور بأيديهم .. والحكم لهم من دون الله .. ساء ما يحكمون وما يصفون.

وفريق آخر أراه قد استعجل على الله .. ونفدَ صبره على حرّ الشوق، وفراق المحبوب، وما يحظى به الشهيد من مقام عظيم، ونعيم مقيم عند الله تعالى .. فاستعجل؛ فبادَرَ ربَّه بنفسه .. وسلك لطلب الشهادة طرقاً ملتوية خاطئة قصيرة ما أنزل الله بها من سلطان .. لا تُحقق شروط الشهادة ولا تنفي عنها موانعها .. ظناً منه أنه بذلك يختصر الطريق إلى الجنة .. وأنه ممن يُحسنون صنعاً، وفي الحديث القدسي:" بادرني عبدي بنفسه، حرَّمتُ عليه الجنَّة " البخاري. والحديث وإن كان له سبب إلا أن العبرة بعموم اللفظ .. فيُحمَل على كل من يَقتل نفسَه بنفسه لنوع استعجال على الله.

ومما زاد الطين بلَّة أنه قد أصبح لهذا النوع من الخطأ مُفتون .. ومُنظِّرون .. ومحمِّسون .. ومشجِّعون .. قد علا صوتهم، وأرهبوا مخالفهم .. فاتَّسع الخرق .. إلى أن صَعُبَ الترقيع!

لذا يتعين الحديث عن هذا المفهوم العظيم " مفهوم الشهادة "، وعن بعض ما يتعلق به من مسائل وأحكام .. ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾الأنفال:٤٢. وليُعرَف من الشهيد بحق الذي يستحق هذا الوسام العظيم " وسام الشهادة "، ويستحق وعد الله تعالى للشهداء.

الشَّهيد: هو الذي يُقتَل في سبيل الله، على السُّنَّة، لكي تكون كلمة الله هي العليا. أما من يُقتَل في سبيل الله على البدعة؛ كقتال الخوارج ونحوهم من أهل الأهواء والبدع فهذا ليس بشهيد؛ لاختلال شرط المتابعة والموافقة للسنة، وانتفاء الغرض المشروع الذي يبرر القتال، أو أن يُقتل المرء دونه .. وما أكثر الذين يُقتلون في هذا السبيل ثم يحسبون أنهم ممن يُحسنون صنعاً!

وفي معنى الشهيد لغة، قيل معانٍ عدة: منها أنه سُمي شهيداً لأن الله وملائكته شُهودٌ له بالجنة، وقيل لأنه حيٌّ يُرزق من نعيم الجنة لم يمت، كأنه شاهد؛ أي حاضر، وقيل لأنَّ ملائكة الرَّحمة تَشْهَدُهُ، وقيل لقيامِه بشهادة الحقِّ في أمرِ الله حتى قُتِل، وقيل لأنه يشهد ما أعدَّ الله له من الكرامة بالقتل، وقيل لعدالته وفضله وحسن خاتمته يؤذن له يوم القيامة بأن يشهد على الناس بما كان منهم، وأن الأنبياء قد بلَّغوا رسالة ربهم، كما قال تعالى:﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾البقرة:١٤٣. وقال تعالى:﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾الحج:٧٨. فهذه الشهادة لا يُعطاها من الأمة إلا العدول الأخيار، والشهيد منهم، ومن سادتهم وخيرة الأخيار .. وهذه معانٍ كلها حق لا تنافي ولا تضاد بينها لو صُرِفت كلها للشهيد[١٨٥].

. أنواع الشهداء: الشهداء في الإسلام أنواع: منهم شهيد وقتيل المعركة الذي يُقتل في سبيل الله، ومنهم الذي يموت بسبب الأوجاع والأمراض أو الأسباب التالية . فيصبر ويحتسب الأجر عند الله تعالى . وهي: المطعون؛ الذي يموت بسبب مرض الطاعون، والمبطون؛ الذي يموت بسبب مرض البطن؛ كالملاريا، وانتفاخ البطن، والإسهال ونحوها من الأمراض والأوجاع البطنية، والذي يموت بالسِّلِّ، وصاحب ذات الجنب، وصاحب الهدم؛ الذي يموت بسبب الهدم؛ كأن يُهدم عليه منزل أو جدار ونحو ذلك .. فيؤدي إلى وفاته، والذي يموت حرقاً بالنار، والنفساء؛ المرأة التي تموت بسبب الولادة .. وكذلك الذي يخرج للجهاد في سبيل الله فيدركه الموت في الطريق بغير سبب القتال .. ونحوه الذي يتمنى الشهادة في سبيل الله بصدق ثم يموت على فراشه .. والذي تأكله السِّباعُ والوحوش الضارية .. فهؤلاء كلهم قد سماهم النبيّ ﷺ بالشهداء، وصرف لهم أجر الشهيد، كما في الحديث فقد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال:" الشهداء خمسة: المطعون، والمبطون ، والغرق، وصاحِبُ الهدم، والشهيد في سبيل الله " متفق عليه. أي قتيل المعركة الذي يُقتل في سبيل الله .. والمطعون؛ أي المصاب بالطاعون.

وقال ﷺ:" الطاعون شهادةٌ لكل مسلم " متفق عليه.

---

١٨٥ انظر كلمة " شهد " في النهاية.

وقال ﷺ:" كان ـ أي الطاعون ـ عذاباً يبعثُهُ اللهُ على من يشاء، فجعله الله رحمةً للمؤمنين؛ فليس من عبدٍ يقعُ الطاعونُ فيمكثُ في بلده صابراً، يعلمُ أنه لن يُصيبَهُ إلا ما كتَبَ اللهُ له، إلا كان له مثلُ أجرِ الشَّهيد " البخاري.

وقال ﷺ:" الطَّاعون غدَّةٌ كغدَّةِ البعير، المُقيمُ بها كالشهيد، والفارُّ منها كالفارِّ من الزَّحفِ "[١٨٦].

وقال النبي ﷺ:" يأتي الشهداء والمتوفَّون بالطاعون، فيقول أصحابُ الطاعون: نحن شهداء. فيقال: انظروا فإن كانت جراحتهم كجراح الشهداء تسيل دمَاً كريح المسك، فهم شهداء، فيجدونهم كذلك "[١٨٧].

وقال ﷺ:" الطَّاعون، والغرقُ، والبطنُ، والحرقُ، والنُّفَساءُ شهادةٌ لأمتي "[١٨٨].

وقال ﷺ:" الطَّعنُ، والطَّاعون، والهَدمُ، وأكلُ السَّبُعِ، والغرقُ، والحرقُ، والبطنُ، وذاتُ الجنْبِ شهادةٌ "[١٨٩].

وعن عبادة بن الصامت ﷺ قال: دخلنا على عبد الله بن رواحة نعوده، فأُغمِيَ عليه، فقلنا: رحمك الله إن كنا لنحب أن تموتَ على غير هذا، وإن كنا لنرجو لك الشهادة، فدخل النبي ﷺ ونحن نذكر هذا، فقال:" وفيما تعدون الشهادة؟ " فأَرَمَّ القومُ، وتحرَّك عبدُ الله فقال: ألا تُجيبون رسولَ الله ﷺ؟ ثم أجابه هو فقال: نَعُدُّ الشهادةَ في القتلِ. فقال ﷺ: "إن شهداء أمتي إذاً لقليل، إنَّ في القتلِ شهادةً، وفي الطاعون شهادةً، وفي البطنِ شهادة، وفي الغرقِ شهادةً، وفي النفساء يقتُلُها ولدها جُمْعاً شهادة "[١٩٠].

وقال رسولُ الله ﷺ: " أو ما القتل إلا في سبيل الله؟!إن شهداءَ أمتي إذاً لقليل! إن الطعنَ لشهادةٌ، والبطنَ شهادةٌ، والطاعونَ شهادةٌ، والنفساءَ بجمع شهادةٌ، والحَرَقَ شهادةٌ، والغَرَقَ

---

١٨٦ أخرجه أحمد وغيره، صحيح الجامع الصغير: ٣٩٤٨.

١٨٧ رواه الطبراني في الكبير، صحيح الترغيب: ١٤٠٧.

١٨٨ أخرجه أحمد، والطبراني، وغيرهما، صحيح الجامع: ٣٩٥٠.

١٨٩ صحيح الجامع الصغير: ٣٩٥٣. وذات الجنْب: قال في النهاية: هي الدملة الكبيرة التي تظهر في باطن الجنب ـ فوق الأضلاع ـ وتنفجر إلى داخل، وقلما يسلم صاحبها "ا– هـ. قلت: ونحوها التورمات السرطانية التي تنتشر داخل الجسد، وتؤدي إلى وفاة صاحبها .. فأرجو أن يكون هذا المرض داخلاً في معنى " ذات الجنب "، والله تعالى أعلم.

١٩٠ رواه أحمد والطبراني، صحيح الترغيب: ١٣٩٤. وقوله " فأَرَمَّ القومُ "؛ أي سكتوا، وقيل سكوت مع خوف. وقوله " يقتُلُها ولدها جُمْعاً "؛ أي تموت وولدها في بطنها، فيموتا معاً.

شهادةٌ، وذات الجنْبِ شهادة "[١٩١].

وعن راشد بن حبيش ﷺ: أن رسولَ الله ﷺ دخل على عبادة بن الصامت يعودُه في مرضه، فقال رسولُ الله ﷺ:" أتعلمون من الشهيد من أمتي؟" فأرَمَّ القومُ، فقال عبادة: ساندوني. فأسندوه، فقال: يا رسولَ الله! الصابرُ المحتسبُ. فقال رسول الله ﷺ:" إن شهداء أمتي إذاً لقليلٌ، القتلُ في سبيل الله ﷻ شهادةٌ، والطاعون شهادة، والغَرَق شهادة، والبطنُ شهادة، والنفساء يجرها ولدُها بسَرَرِه إلى الجنة ـ قال: وزاد أبو العوام سادِنُ بيتِ المقدس ـ والحرق، والسِّلُّ "[١٩٢].

وقال ﷺ:" الشهادةُ سبعٌ سوى القتل في سبيل الله: المَبطونُ شهيدٌ، والغَريقُ شهيدٌ، وصاحبُ ذات الجَنْب شهيدٌ، والمطعونُ شهيدٌ، وصاحبُ الحريقِ شهيدٌ، والذي يموت تحت الهدم شهيدٌ، والمرأة تموت بجمْعٍ شهيدٌ "[١٩٣].

وقال ﷺ:" مَن قُتِل في سبيلِ الله فهو شهيد، ومن ماتَ في سبيلِ الله فهو شهيد .. "[١٩٤] مسلم.

وقال ﷺ:" مَن طلبَ الشَّهادةَ صادِقاً، أُعْطيَها، ولو لم تُصِبْهُ " مسلم.

وقال ﷺ:" من سألَ اللهَ الشَّهادةَ بِصِدقٍ، بلَّغَهُ الله منازِلَ الشُّهداءِ، وإن ماتَ على فراشِه " مسلم.

وقال ﷺ:" مَنْ سألَ اللهَ القتْلَ في سبيلِهِ صادِقاً مِنْ قلْبِهِ أعطاهُ اللهُ أجرَ الشَّهيدِ "[١٩٥]. وذلك لأنَّ الأعمالَ بالنيَّات، وأنَّ لكلّ امرئٍ ما نوى، فمن نوى القيام بطاعة، وكان صادِقاً في نيته، ثم حال بينه وبين فعل الطاعة حائل قاهر .. ناله أجر الطاعة كاملاً وإن لم يفعلها .. فالحمد لله على كرمه، وجوده، وجزيل عطائه، ورحمته.

كما في الحديث، فقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال:" لقد تركتُم بالمدينة أقواماً ما سِرتم مَسيراً، ولا أنفقتم من نفقةٍ، ولا قطعتم من وادٍ، إلا وهم معكم فيه "، قالوا: يا رسولَ وكيف يكونون معنا، وهم بالمدينة؟ فقال:" حبسَهم العذرُ " البخاري. هم معهم في الأجر سواء؛ لصدقهم

---

[١٩١] رواه الطبراني، صحيح الترغيب: ١٣٩٥.

[١٩٢] رواه أحمد، صحيح الترغيب: ١٣٩٦. وقوله " الصابر المحتسب "؛ أي الذي يُقتل في سبيل الله صابراً محتسباً.

[١٩٣] رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، صحيح الترغيب: ١٣٩٨.

[١٩٤] قوله " ومن ماتَ في سبيلِ الله "؛ أي من خرج للجهاد في سبيل الله .. فمات في الطريق .. أو مات بغير سبب القتال، فهو شهيد.

[١٩٥] صحيح سنن الترمذي: ١٣٥٠.

في الخروج معهم للجهاد في سبيل الله، لكن حبسهم ومنعهم العذر.

لكن أفضل الشهداء ممن تقدم ذكرهم قتيل المعركة؛ الذي يُقتلُ في سبيل الله، مقبلاً غير مُدْبِر، كما في الحديث:" أفضلُ الشهداءِ مَن سُفِكَ دَمُه، وعُقِرَ جَوادُه "[١٩٦].

وفي رواية: أن النبيَّ ﷺ قد سُئِلَ أيُّ القَتْلِ أشرف؟ قال ﷺ:" مَن أُهرِيقَ دَمُهُ، وعُقِرَ جَوادُه "[١٩٧].

وعن نعيم بن هَمَّار ﷺ: أن رجلاً سأل رسولَ الله ﷺ أي الشُّهداء أفضل؟ قال: الذين إن يُلْقَوا في الصَّفِّ لا يَلْفِتون وجوهَهُم حتى يُقتَلوا؛ أولئك ينطلقون في الغُرَف العُلا من الجنة، ويضحك إليهم ربهم، وإذا ضحك ربك إلى عبدٍ في الدنيا فلا حسابَ عليه "[١٩٨].

ومن سادة الشهداء كذلك، رجل قام إلى إمام جائر، فأمره ونهاه، فقتله، كما في الحديث، فقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال:" سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجلٌ قامَ إلى إمام جائر، فأمره ونهاهُ، فقتلَهُ "[١٩٩]. فرب كلمة حقٍّ يصدع بها المسلم في وجوه الطغاة الآثمين، تزيد من حيث الأثر والنفع تلاحم السيوف، وهدير الرصاص.

أحكام تتعلق بالشهيد الذي يُقتَل في سبيلِ الله: للشهيد الذي يُقتَل في سبيل الله أحكام خاصة به، لا يُشركه فيها غيره من أموات المسلمين، منها: أنه لا يُغسَّل، وإنما يُدفن مضرجاً بدمائه، لقوله ﷺ:" ادفنوهم في دمائهم ـ يعني يوم أحد ـ ولم يُغَسِّلْهم " البخاري.

ومنها: أنه يُدفن في أرضه، أرض المعركة إن أمكن، ولا يُحملن إلى مسقط رأسه، كما جرت العادة في هذا الزمان، ويُكَفَّن بثيابه التي قُتل وهي عليه، كما في الحديث عن ابن عباس قال: أمَرَ رسولُ الله ﷺ يومَ أحد بالشُّهداء أن يُنزَعَ عنهم الحديد والجلود، وقال:" ادفنوهم بدمائهم وثيابهم "[٢٠٠].

وقال ﷺ:" زَمِّلوهم بثيابهم "[٢٠١].

وفي رواية عند النسائي:" زَمِّلُوهم بدمائهم؛ فإنه ليس كَلْمٌ يُكْلَمُ في الله، إلا أتَى يومَ القيامةِ جُرحُه يَدمي، لونُهُ لونُ دَمٍ، وريحُهُ ريحُ المِسْكِ "[٢٠٢].

---

[١٩٦] أخرجه أحمد وغيره، السلسلة الصحيحة: ١٥٠٤.

[١٩٧] صحيح سنن أبي داود: ١٢٨٦.

[١٩٨] أخرجه أحمد، وأبو يعلى، صحيح الترغيب: ١٣٧١.

[١٩٩] أخرجه الحاكم وغيره، صحيح الجامع: ٣٦٧٥.

[٢٠٠] أخرجه أحمد في المسند، وقال أحمد شاكر في التخريج ٤٧/٤: إسناده حسن.

[٢٠١] أخرجه أحمد، أحكام الجنائز، للشيخ ناصر، ص٦٠.

وعن جابر بن عبد الله، أن النبيَّ ﷺ أمرَ بقتلى أحد، أن يُرَدوا إلى مصارعهم، وكانوا قد نُقِلوا إلى المدينة. وقال ﷺ:" ادفنوا القتْلَى في مَصارِعهم "[٢٠٣].

ومنها: أن الصلاة عليه غير واجبة، ولو صُلي عليه فلا حرج، لثبوت الفعلين عن النبي ﷺ: الفعل والترك؛ فقد ثبت أن النبي ﷺ قد صلى على بعض الشهداء، وترك الصلاة على بعضهم الآخر، كما في الحديث الذي أخرجه البخاري وغيره، أن النبيَّ ﷺ أمرَ بدفن شهداء أحد في دمائهم، ولم يُصلِّ عليهم، ولم يُغسَّلوا.

وقد روي أنه ﷺ قد صلى على عمه حمزة ﷺ، ولم يصلِّ على غيره من شهداء أحد، كما في الحديث الذي يرويه أنس بن مالك:" أن النبي ﷺ مرَّ بحمزة وقد مُثِّل به، ولم يُصل على أحدٍ من الشهداء غيره "[٢٠٤]؛ يعني شهداء أحد.

ويُقال كذلك: أن شهداء المسلمين في حروب الردة، وغزوة مؤتة، والقادسية، واليرموك، وغيرها من الغزوات كانوا بالآلاف .. ومع ذلك لم يُنقل لنا عن الصحابة ـ أو بعضهم ـ أنهم كانوا يصلون على الشهداء، مما دلَّ أن ترك الصلاة على الشهيد هو الأقرب للسنة، وفعل السلف، وأن صلاة النبي ﷺ على بعض الشهداء، كانت خاصة بالنبي ﷺ لفضل صلاته ودعائه .. ولحاجة الميت ـ وإن كان شهيداً ـ لدعائه وصلاته ﷺ، فدعاء النبي ﷺ ليس كدعاء غيره من المسلمين، وصلاته على المؤمنين ليس كصلاة غيره، كما قال تعالى:﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾النور:٦٣. وقال تعالى:﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾التوبة:١٠٣. والله تعالى أعلم.

تنبيه: ما تقدم من أحكام دنيوية تُحمَل على قتيل المعركة فقط؛ أما من طُعِن في المعركة ثم حُمل إلى خارج ساحتها، وقُدِّر له أن يعيش زمناً أو أياماً .. ثم بعد ذلك أدركته المنية خارج ساحة المعركة .. فهذا شهيد الآخرة .. لكن لا تُحمل عليه الأحكام الدنيوية الخاصة بالشهيد؛ الآنفة الذكر

---

٢٠٢ صحيح سنن النسائي: ٢٩٥٠.

٢٠٣ صحيح سنن النسائي: ١٨٩٣– ١٨٩٤. قلت: سنة دفن الميت حيثما يموت، وفي البلدة التي يموت فيها تشمل الشهيد وغيره، للحديث الذي يرويه عبد الله بن عمرو، قال: ماتَ رجلٌ بالمدينة، ممن ولِدَ بها، فصلى عليه رسولُ الله ﷺ ثم قال:" يا ليتَهُ ماتَ بغيرِ مولِدِه "، قالوا: ولِمَ ذاكَ يا رسولَ الله؟ قال:" إنَّ الرجلَ إذا ماتَ بغير مولده، قِيسَ له من مولِدِه إلى مُنقَطَعِ أثَرِه في الجنة " صحيح سنن النسائي: ١٧٢٨. وفي ذلك ترغيب على الهجرة والجهاد .. وهذا بخلاف ما جرت عليه عادة الناس في هذا الزمان .. حيث تراهم يتكلفون الأموال الطائلة من أجل نقل موتاهم إلى بلادهم ومسقط رأسهم ليدفنوا فيها .. هذا غير الأذى الذي يسببونه للميت بسبب تأخير دفنه .. ووضعه في الثلاجات لأيام .. وربما لأسابيع .. ثم يحسبون أنهم يُحسنون صنعاً!

٢٠٤ صحيح سنن أبي داود: ٢٦٩٠.

.. وكذلك الشهداء الآخرين: المبطون، والمطعون، والذي يموت بالهدم أو الحرق وغيرهم ممن تقدم ذكرهم .. فهؤلاء أيضاً لا تُحمل عليهم الأحكام الدنيوية المتعلقة بشهيد المعركة .. وإنما يُكفَّنون، ويُغسَّلون، ويُصلى عليهم، حالهم في ذلك حال غيرهم من أموات المسلمين.

شروط الشهادة: للشهادة في سبيل الله شروط، إن اختل منها شرط رُدَّت الشهادة، وخرج صاحبها من قائمة وصفة شهداء الآخرة .. الذين يستحقون مقام ودرجة الشهداء عند الله ﷻ، وهي:

أولاً: أن يكون الشهيدُ مسلماً موحداً: فلو كان مشركاً، أو كافراً مرتداً ثم انطلق للجهاد فقُتِل .. لا يكون شهيداً، ولا ينتفع بشيء من جهاده؛ لأن الشرك يحبط مطلق العمل ويُبطله، كما قال تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾النساء:٤٨. ولقوله تعالى:﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾الأنعام:٨٨. وقال تعالى:﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً ﴾الفرقان:٢٣.

ولقوله ﷺ:" لا يقبلُ اللهُ من مُشركٍ أشرَكَ بعد إسلامه عملاً "[٢٠٥].

ولقوله ﷺ:" ليأخُذنَّ الرجلُ بيدِ أبيه يومَ القيامةِ يريد أن يُدخله الجنة، فيُنادَى: إنَّ الجنَّة لا يدخلها مشرك، إن اللهَ قد حرَّمَ الجنَّةَ على كل مشركٍ، فيقول: أي رب! أي رب! أبي؟ قال: فيتحوَّل ـ أي أبوه ـ إلى صورةٍ قبيحةٍ، وريحٍ مُنتنةٍ فيتركه "[٢٠٦].

ولقوله ﷺ:" إن السيفَ لا يمحو النفاقَ "[٢٠٧].

ولقوله ﷺ للرجل المشرك الذي أراد أن يغزو معه ـ وكان يُذكر بالجرأة والنجدة ـ:" تؤمن بالله ورسولِه؟"، قال: لا. قال ﷺ:" فارجع؛ فلن أستعين بمشرك " مسلم.

وقال رجلٌ مُقنَّعٌ بالحديد: يا رسولَ الله، أُقاتلُ أو أُسْلِم؟ قال:" أسْلِمْ ثم قاتِلْ ". فأسلمَ فقاتلَ فقُتِلَ، فقال رسولُ الله ﷺ:" عَمِلَ قليلاً وأُجِرَ كثيراً " متفق عليه.

ولا يلزم من هذا الشرط انتفاء الذنوب والخطايا التي هي دون الكفر والشرك عن الشهيد .. لا .. فهذا لا نقوله .. ولا يقول به أحدٌ من أهل العلم .. فالمسلم الموحد مهما عظمت ذنوبه .. ما لم ترق إلى درجة الكفر والشرك .. فإنه ينتفع من جهاده واستشهاده .. وحسناته، وذنوبه ومعاصيه لا تمنع عنه صفة وحكم وفضل الشهيد لو ختم الله له بالشهادة في سبيله .. كما في

---

٢٠٥ أخرجه البغوي في شرح السنة ١٥/١٥٠، وقال: حديث حسن.

٢٠٦ صحيح موارد الظمآن: ٦١.

٢٠٧ رواه أحمد، والطبراني، وابن حبان، صحيح الترغيب: ١٣٧٠. والحديث له تتمة عظيمة سنأتي على ذكرها إن شاء الله.

الحديث:" ورجلٌ فَرِقَ على نفسه من الذنوبِ والخطايا، جاهدَ بنفسه ومالِه في سبيلِ الله، حتى إذا لقي العدوَّ قاتل حتى يُقتل، فتلك مُمَصْمِصَةٌ محَت ذنوبَه وخطاياه، إن السيفَ محَّاءٌ للخطايا، وأُدخِلَ من أي أبواب الجنة شاء "[٢٠٨].

وفي ذلك رد على الذين يشترطون في المجاهدين أن يكونوا على درجة عالية من الالتزام والصلاح والتقوى .. خالية حياتهم وأعمالهم من الذنوب والخطايا .. أو أن يكونوا كالرعيل الأول من الصحابة في الالتزام والتقوى والعمل .. ليقبل جهادهم .. وأنهم لن يُجاهدوا إلا مع أناس هكذا ينبغي أن تكون صفاتهم .. فهذا الشرط إضافة إلى بطلانه ومخالفته للنص .. فإن مؤداه إلى تعطيل الجهاد .. وصدِّ الناس عن الجهاد في سبيل الله .. وتمكين العدو من بلاد المسلمين .. لأن شرطهم هذا تعجيزي يستحيل تحقيقه؛ فالرعيل الأول من السلف الصالح جيل فريد لن يكرره التاريخ ثانية وإلى يوم القيامة .. فمن أين للأمة أن تأتي أو تلد مثل هذا الجيل الذي شهد له النص بأنه خير الأجيال، وخير القرون على الإطلاق، وإلى يوم القيامة؟!

ما تقدم لا يعني ولا يُفهم منه الاستهانة بجانب التقوى والالتزام والصلاح .. وبالجانب التربوي .. وضرورة أن يعمل الشباب المجاهد على الارتقاء بأنفسهم إلى مستوى أخلاق وتعاليم وقيم الإسلام .. فهذا جانب هام جداً .. لا يجوز الزهد به أو إهماله .. وهو من الإعداد المطلوب شرعاً .. وهو عامل هام من عوامل النصر والتمكين .. لكن لا نجعله شرطاً للجهاد .. كما لا نجعله شرطاً لقبول شهادة المجاهد .. لدلالة النص على خلافه، والله تعالى أعلم.

ثانياً: الإخلاص: أن تكون الشهادة في سبيل الله؛ خالصة لوجهه الكريم، ابتغاء مرضاته، والفوز بالأجر العظيم، لا يُراد منها سمعة ولا رياءً .. فالإخلاص شرط لكل عملٍ تعبدي، كما قال تعالى:﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾الكهف: ١١٠.

وقد تقدَّم معنا الحديث، عن أبي أُمَامةَ الباهِلي قال: جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: أرأيتَ رجلاً غزَا يَلتمسُ الأجرَ والذِّكرَ ما لَه؟ فقال رسولُ الله ﷺ:" لا شَيءَ لَهُ "، فأعادَها ثلاثَ مرَّاتٍ، يقولُ له رسولُ الله:" لا شيءَ له "، ثم قال:" إنَّ الله لا يقبَلُ مِن العمَلِ إلا ما كانَ له خالِصاً وابتُغِيَ به وَجْهُهُ "[٢٠٩].

---

٢٠٨ التخريج السابق أعلاه. وقوله ﷺ:" إن السيفَ محَّاءٌ للخطايا " صيغة مبالغة؛ أي شديد وكثير وسريع المحاء للخطايا.

٢٠٩ صحيح سنن النسائي: ٢٩٤٣. وقوله " يَلتمسُ الأجرَ والذِّكر "؛ أي خلَط الإخلاص؛ وهو طلب الأجر

وعن أبي هريرة ﷺ، أن رجلاً قال: يا رسولَ الله، رجلٌ يريدُ الجهادَ، وهو يريدُ عَرَضاً من الدنيا؟ فقال رسولُ الله ﷺ:" لا أجْرَ له ". فأعظمَ ذلك الناسُ، فقالوا للرجل: عُدْ لرسولِ الله ﷺ فلعلَّكَ لم تُفْهِمْهُ. فقال الرجلُ: يا رسولَ الله رجلٌ يريدُ الجهادَ في سبيلِ الله، وهو يبتغي عرَضاً من الدنيا؟ فقال رسولُ الله ﷺ:" لا أجْرَ له ". فأعظمَ ذلك الناسُ، وقالوا: عُدْ لرسولِ الله ﷺ، فقالَ له الثالثةَ: رجلٌ يريدُ الجهادَ في سبيلِ الله، وهو يبتغي عرَضاً من الدنيا؟ فقال ﷺ:" لا أجْرَ له "[٢١٠].

وعن أبي موسى الأشعري، قال: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ: عن الرجلِ يُقاتلُ شَجاعةً، ويُقاتلُ حميَّةً، ويُقاتِلُ رياءً، أي ذلك في سبيلِ الله؟ فقال رسولُ الله ﷺ:" مَن قاتلَ لتكونَ كلِمَةُ اللهِ هي العليا، فهو في سبيلِ الله "[٢١١]مسلم.

وقال ﷺ:" إنَّ أولَ الناس يُقضى عليه يومَ القيامة رجلٌ استُشهِدَ، فأُتي به، فعرَّفَه نِعَمَهُ، فعرَفَها، قال: فما عمِلْتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيكَ حتى استُشهدتُ. قال: كذَبْتَ، ولكن قاتلتَ لأن يُقال: هو جريء، فقد قيلَ، ثم أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه حتى أُلقيَ في النَّار .. " مسلم.

وفي رواية:" فيقولُ: أي ربِّ أُمِرتُ بالجهادِ في سبيلك، فقاتلتُ حتى قُتِلتُ. فيقول اللهُ له: كذبتَ، وتقولُ له الملائكةُ: كذَبتَ، ويقولُ اللهُ له: بل أرَدْتَ أن يُقالَ: فلانٌ جريءٌ، فقيد قيل ذلك "[٢١٢].

والثواب من الله تعالى، مع نية أخرى فيها رياء؛ وهو أن يُذكَر من الناس بالشجاعة والبطولة على جهاده، فهذا أيضاً مما يُفسد العمل؛ لأن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم.

٢١٠ أخرجه أبو داود، وابن حبان، والحاكم، صحيح الترغيب والترهيب: ١٣٢٩. وقوله عَرَضاً؛ أي قليلاً مما يُقتنى من مال ومتاع الدنيا. وقوله " يريدُ الجهادَ في سبيلِ الله، وهو يبتغي عرَضاً من الدنيا "؛ أي انطلاقته صحيحة، وغايته صحيحة؛ وهي في سبيل الله .. لكن شابها قصد آخر؛ وهو إرادة عرض من الدنيا الذي يأتي عن طريق الغنائم .. فالغنائم وإن كانت حلالاً لأمة محمد ﷺ .. إلا أنها لا يجوز أن تكون هي المقصد أو الغرض من وراء الجهاد في سبيل الله .. كما أنها؛ أي الغنيمة ـ لتأثيرها الخفي على الإخلاص، وإن لم تكن هي المقصد من وراء الغزو والجهاد ـ تُنقص الثلثين من أجر المجاهد يوم القيامة، كما في الحديث:" ما من غازيةٍ تغزو في سبيل الله فيُصيبون الغَنِيمةَ إلا تَعَجَّلوا ثُلُثَي أجْرِهم من الآخرةِ، ويبقى لهمُ الثُّلُثُ، وإن لم يُصيبوا غنيمةً تَمَّ أجرُهُم " مسلم. وهذا كله والغنيمة ليست هي القصد أما إن كانت هي القصد أو كان لها حظ في القصد .. فإن الأجر يبطل كلياً، والعياذ بالله.

٢١١ أي ليس شيئاً مما تقدم ذكره ـ الذي يُقاتل شجاعة، أو حمية، أو رياءً ـ في سبيل الله، وصاحبها يستحق صفة المجاهد في سبيل الله، إلا " مَن قاتلَ لتكونَ كلِمَةُ اللهِ هي العليا، فهو في سبيلِ الله ".

٢١٢ أخرجه الترمذي، وابن حبان، وابن خزيمة في صحيحه، صحيح الترغيب: ٢٢.

وقال ﷺ:" والذي نفْسِي بيَدهِ لا يُكْلَمُ أحدٌ في سبيلِ الله، واللهُ أعلمُ بمن يُكلَمُ في سبيلهِ، إلا جاءَ يومَ القيامَةِ، واللونُ لونُ الدَّمِ، والرِّيحُ ريحُ المِسْكِ " متفق عليه.

وقال ﷺ:" فمن عَمِلَ منهم بعملِ الآخرةِ للدنيا، فليس له في الآخرة من نصيبٍ "[٢١٣].

وقال ﷺ:" القتلى ثلاثة ـ منهم ـ: ورجلٌ منافقٌ جاهدَ بنفسه ومالِه، حتى إذا لقي العدوَّ قاتلَ في سبيلِ الله ﷻ حتى يُقتل، فذلك في النار؛ إنَّ السيفَ لا يمحو النفاقَ "[٢١٤].

ثالثاً: أن يكون قتاله واستشهاده على السُّنَّةِ: أي تتحقق فيه صفة المتابعة، فيُغلِّب الانقياد والمتابعة للشريعة، على حب التشفي والانتقام .. والهوى .. فيراعي الحدود والعهود .. فلا يغدر ولا يخون .. أما من يغلِّب الهوى .. وحب التشفي والانتقام على الحكم الشرعي .. فيضع السيف حيث ينبغي شرعاً أن يرفعه .. ويرفعه حيثما ينبغي شرعاً أن يضعه .. فيَقتل من صان الشرع حرماتهم .. ويسلم منه من أذن الشرع في قتالهم .. فمن كان هذا منهجه في القتال ثم قُتل عليه .. يفقد صفة المجاهد في سبيل الله .. كما يفقد صفة وحكم الشهيد في سبيل الله .. وما أعد الله تعالى للشهيد من مقام عظيم.

مثال هذا النوع من القتال .. قتال الخوارج الغلاة .. الذين وضعوا السيف في أهل الإسلام .. وممن صان الشرع حرماتهم .. كما جاء وصفهم في الحديث:" يقتلون أهل الإسلام ويتركون أهل الأوثان، لئن أدركتهم لأقتلنَّهم قَتلَ عاد " متفق عليه.

وقال ﷺ:" سيكون في أمتي اختلاف وفرقة، قومٌ يُحسنون القِيلَ ويُسيئون الفعلَ، يقرأون القرآن لا يُجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرميَّة، لا يرجعون حتى يرتدَّ على فوقِهِ، هم شرُّ الخلقِ والخليقة، طوبى لمن قتلهم وقتلوه، يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه في شيء، مَن قاتلهم كان أولى بالله منهم "[٢١٥].

وعن معاذ بن أنس الجهني، قال: غزوتُ مع نبي الله ﷺ غزوةَ كذا وكذا فضيَّقَ الناسُ المنازلَ، وقطعوا الطريقَ، فبعثَ نبيُّ اللهِ ﷺ منادياً ينادي في الناس أنَّ من ضيَّق منزلاً أو قطَعَ طريقاً

---

[٢١٣] رواه أحمد، وابن حبان، والبيهقي، صحيح الترغيب: ١٣٣٢.

[٢١٤] رواه أحمد، والطبراني، والبيهقي، صحيح الترغيب: ١٣٧٠. قوله " قاتلَ في سبيلِ الله "؛ أي خرج وهو كاره ـ وحتى لا يُعرف نفاقه ـ مع المجاهدين الذين خرجوا للقتال في سبيل الله .. فأدركه القتل وهو معهم .. فظاهره أنه يُقاتل في سبيل الله .. بينما حقيقة باطنه الكذب والكفر والنفاق .. ومثل هذا فإن جهاده لا ينفعه .. ولا يمحو عنه وزر النفاق والكفر .. لأنه غير صادق ولا مخلص في جهاده .. ولأن الحسنات يمحين السيئات إلا الكفر والنفاق الأكبر .. فإنها لا تمحه.

[٢١٥] صحيح سنن أبي داود: ٣٩٨٧.

فلا جِهادَ له "[٢١٦].

هذا فيمن يُضيق على الناس منازلهم، ويقطع عليهم طريقهم . ولو كان ذلك بسبب الغزو والجهاد . فكيف فيمن لا يراعي فيهم عهداً ولا ذمة .. ولا حرمة لمؤمن .. إلا ما لامس هواه .. فهذا لا يُمكن أن يُصنّف من المجاهدين .. ولو قُتل . على هذا المنهج . لا يُمكن أن يُصنَّف من الشهداء، وفي الحديث فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" من آذى مؤمناً فلا جهادَ له "[٢١٧].

ونحوهم المرجئة الغلاة الذين انطلقوا إلى آيات وأحاديث قيلت في المؤمنين الموحدين فحملوها على الطغاة الكافرين المجرمين .. فمنعوا من قتالهم وجهادهم .. وأوجبوا على المسلمين طاعتهم والدخول في موالاتهم ونصرتهم على من خالفهم وعاداهم من المؤمنين الموحدين .. فمن قُتل أو مات على هذا المنهج الباطل الخبيث فهو كذلك ليس بمجاهد .. ولا شهيد .. ولا ممن يُقاتلون في سبيل الله .. وإنما ممن يُقاتلون في سبيل الطاغوت!

قال تعالى:﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾النساء:٧٦.

ومن الاستشهاد على السنَّة .. أن لا يستعجل المرء على الله فيقتل نفسه بنفسه .. وأن لا يستشرف مواطن الهلكة والقتل .. كالمستعجل على الله .. من غير مصلحة راجحة ترتد على الإسلام والمسلمين .. والجهاد والمجاهدين .. ومن يأبى إلا أن يفعل .. فيُقتَل على هذا الوصف .. فهو ليس بشهيد .. بل هو على خطر عظيم، قال تعالى:﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾النساء:٢٩. وقال تعالى:﴿ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾البقرة:١٩٥.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" من ركِبَ البحرَ عندَ ارتجاجه فماتَ؛ فقد بَرِئت منه الذِّمَّة "[٢١٨]. وذلك لأنه قد استشرفَ موطن هلكة وخطر .. فخاطر بنفسه .. وأوردها موارد الهلكة والخطر .. من غير مصلحة راجحة!

وقال ﷺ:" لا يَنبغي للمُؤمنِ أن يُذِلَّ نَفسَهُ " قالوا: وكيف يُذِلُّ نفْسَهُ؟ قال:" يتعَرَّض مِنَ البلاءِ لِمَا لا يُطِيقُ "[٢١٩].

رابعاً: أن يكون الغرض الذي يُستشهد دونه مشروعاً: قد أذن اللهُ تعالى لعباده أن يُجاهدوا، ويُستشهدوا دونه؛ كمن يُقتَل دون دينه أو دون عِرضه، أو دون مالِه، أو دون دمه، أو دون أهله،

---

٢١٦ صحيح سنن أبي داود: ٢٢٨٩.

٢١٧ أخرجه أحمد، وغيره، صحيح الجامع الصغير: ٦٣٧٨.

٢١٨ أخرجه أحمد، السلسلة الصحيحة: ٨٢٨.

٢١٩ صحيح سنن الترمذي: ١٨٣٨.

أو دون حرمات المسلمين، أو دون مظلمته أو مظالم المسلمين .. فمن قُتِل دون أو دفاعاً عن هذه الأشياء ـ أو غيرها مما أذن الله تعالى أن يُقاتَل دونها ـ فهو شهيد، كما في الحديث:" مَن قُتِل دونَ مالِه فهو شهيد " متفق عليه.

وقال ﷺ:" مَن قُتِلَ دون ماله فهو شهيد، ومَن قُتِلَ دون دمِه فهو شهيد، ومن قُتل دون دينِه فهو شهيد، ومن قُتل دون أهله فهو شهيد "[٢٢٠].

وقال ﷺ:" مَن قُتِل دون مالِهِ مظلوماً فله الجنَّةِ "[٢٢١].

وقال ﷺ:" مَن قُتل دون مَظلمته فهو شهيد "[٢٢٢].

أما من يُقاتِل فيُقتَل دون أغراض غير مشروعة، لم يأذن الله تعالى بالقتال دونها؛ كأن يُقتَل المرء دون الطواغيت الظالمين، ودون عروشهم وأنظمتهم، وقوانينهم، ودون الكفر والشرك والظلم .. أو دون أمورٍ يكون فيها ظالماً لا مظلوماً .. أو دون رايات جاهلية .. أو يُقتَل عصبية وحميةً لقومٍ أو قبيلة أو أرض .. فمن يُقتل دون شيءٍ من هذه الأغراض فهو ليس بشهيد .. بل هو في النار.

قال ﷺ:" مَن قاتلَ تحت رايةٍ عُمِّيَّةٍ؛ يَغضبُ لِعصَبَةٍ، أو يدعو إلى عَصَبَةٍ، أو ينصرُ عصَبَةً، فقُتِل، فقِتلةٌ جاهليَّةٌ، ومَن خَرَجَ على أمَّتي يضربُ بَرَّها وفاجِرَها، ولا يتحاشَى من مُؤمِنها، ولا يَفِي لذِي عهدٍ عهدَه، فليس مني ولَستُ منه " مسلم.

وقال ﷺ:" مَن قُتِلَ تحت رايةٍ عُمِّيَّةٍ؛ يَنصرُ العصَبيَّةَ، ويَغضَبُ للعصبيَّةِ، فقِتْلَتُهُ جاهِليَّة "[٢٢٣].

خامساً: أن يُقتَل مُقبلاً غير مُدبرٍ؛ فار من الزَّحف والجهاد: أما من يُقتَل وهو مدبر فار من الزحف ـ حتى لو قتل في ساحات المعركة ـ فهو ليس بشهيد .. بل له وعيد شديد .. لأنه قد مات

---

٢٢٠ أخرجه أحمد وغيره، صحيح الجامع: ٦٤٤٥.

٢٢١ أخرجه النسائي، صحيح الجامع: ٦٤٤٦.

٢٢٢ أخرجه النسائي وغيره، صحيح الجامع: ٦٤٤٧.

٢٢٣ أخرجه مسلم والنسائي، صحيح الجامع الصغير: ٦٤٤٢. الراية العُمِّيَّة: من العمَاء؛ وهي الراية التي لا تُعرَف فيها وجهة الحق من الباطل، ولا تميز بين الحق والباطل، ولا بين ما يجوز وما لا يجوز .. فأصحابها يُقاتلون كالعميان وكحاطب ليل .. لا يميزون ـ في قتالهم ـ بين الحق والباطل .. وهي راية لكل قتال باطل؛ غير مشروع لم يأذن به الله، فكل من قاتل قتالاً باطلاً أو لغرضٍ باطلٍ لم يأذن به الله فهو يُقاتل تحت راية عميَّة جاهلية. والقتال عصبية أو لعصبية؛ هو القتال الذي يكون لذات الشيء ـ من دون الله تعالى ـ في الحق والباطل سواء؛ كمن ينصر قبيلته أو قومَه، أو حزبه أو بلده .. أو حاكمه .. في الحق والباطل سواء؛ لأنها قبيلته أو بلده أو أنهم من بني قومه، وحزبه .. أو لأنه حاكمه .. فهو ينصرهم لذواتهم؛ لأنهم هم هم .. وليس لأنهم على الحق تجب نصرتهم شرعاً!

على كبيرة من كبائر الذنوب، كما قال تعالى:﴿ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾الأنفال:١٦.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" اجتنبوا السبعَ الموبقات "، وعدّ منها:" التولي يوم الزحف " متفق عليه.

وقال ﷺ:" اجتنبوا الكبائر السَّبع " منها " والفرارُ من الزحف "[٢٢٤].

وعن أبي قتادة، أن رجلاً قال: يا رسولَ الله، أرأيتَ إن قُتِلتُ في سبيلِ الله، تُكَفَّرُ عني خطاياي؟ فقال رسولُ الله ﷺ:" نعم؛ إن قُتِلتَ في سبيل الله وأنت صابرٌ مُحتسِبٌ، مُقبِلٌ غيرُ مُدبِرٍ ". ثم قال رسولُ الله ﷺ:" كيف قُلت؟". قال: أرأيتَ إن قُتِلتُ في سبيل الله، أتُكَفَّرُ عني خطاياي؟ فقال رسولُ الله ﷺ:" نعم؛ إن قُتِلتَ وأنتَ صابرٌ مُحتسبٌ، مُقبِلٌ غيرُ مُدبِرٍ، إلا الدَّين، فإن جبريل قال لي ذلك " مسلم.

تأمل في المرتين كيف أن النبيَّ ﷺ يؤكد على قوله وشرطه للانتفاع من الشهادة " مُقبِلٌ غيرُ مُدبِرٍ ".

وقال ﷺ:" الشهداء الذين يُقاتلون في سبيلِ الله في الصفِّ الأول، ولا يَلتفِتُونَ بوجوههم حتى يُقتَلوا؛ فأولئك يُلقونَ في الغُرَف العُلا من الجنَّةِ، يضحكُ إليهم ربُّكَ، إنَّ اللهَ تعالى إذا ضَحِكَ إلى عبدِه المؤمن فلا حسابَ عليه "[٢٢٥]. فتأمل صفتهم " ولا يَلتفِتُونَ بوجوههم حتى يُقتَلوا "؛ كناية على الثبات، وعدم الفرار والإدبار.

وفي الأثر، عن ابن عمر، أنه كان في غزوة مؤتة، فقال:" فالتمسنا جعفر بن أبي طالب، فوجدناه في القتلى، فعددنا به خمسين طعنةً وضربةً، ليس منها شيء في دُبِره " البخاري. أي ليس منها شيء من جهة ظهره .. كناية على شدة ثباته .. وإقباله على العدو بصدره .. وأنه لم يُعطِهم ظهرَه مطلقاً .. أنعم به من بطل مجاهد .. رضي الله عنه، وعن الصحابة أجمعين.

وعن مجاهد، عن يزيد بن شجرة . وكان يزيد بن شجرة ممن يصدق قولَه فعلُه . خَطَبنا .. وكان يقول إذا صفَّ الناسُ للقتال: فُتِّحَت أبوابُ السماءِ، وأبوابُ الجنَّة، وغُلِّقت أبوابُ النَّار، وزُيِّنَ الحورُ العِين واطَّلَعْنَ، فإذا أقبل الرجلُ، قُلْنَ: اللهمَّ انصره، وإذا أدبرَ احتَجَبنَ منه، وقلنَ: اللهم اغفر له، فأهْوَوا وجوهَ القومِ فدىً لكم أبي وأمي، ولا تُخزوا الحورَ العِين ... "[٢٢٦].

---

[٢٢٤] أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، السلسلة الصحيحة: ٢٢٤٤.

[٢٢٥] رواه الطبراني في الأوسط، وأحمد، وأبو يعلى، صحيح الجامع: ٣٧٤٠.

[٢٢٦] رواه الطبراني، وغيره، صحيح الترغيب: ١٣٧٧.

تنبيه: يُستثنى مما تقدم ذكره مَن كان فراره على شكل انسحاب وتكتيك تقتضيه الحاجة والمعركة .. يريد بعده أن يُعاود الكرة والقتال، أو أنه يريد أن ينحاز إلى فئة من المسلمين ليتقوى بهم على جهاده .. فمثل هذا الانسحاب والانحياز لا حرج فيه إن شاء الله .. ولو قُتِل المجاهد في ساعة انسحابه وتحيزه .. أرجو أن يكون شهيداً بإذن الله، لقوله تعالى:﴿ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ ﴾الأنفال:١٦. فاستثنى من الفرار الذي يستحق صاحبه الوعيد الشديد، المتحرّف؛ أي المنعطِف الذي ينعطف ثانية ليعاود الكرة والجهاد، والمتحيز إلى فئة ليتقوى بهم في جهاده ضد العدو .. فمن كان فراره على هذا الوجه والصفة، فلا حرج عليه إن شاء الله.

تعريف الشَّهيد: نستخلص مما تقدم التعريف التالي للشهيد . ونعني من الشهداء؛ شهيد المعركة . فنقول:" هو المسلم الذي يُقتَل في سبيلِ الله، على السُّنَّةِ، مُقبِلاً غير مُدبِر، ولغَرَضٍ مشروع ".

فضل الشهيد، وما له من مكرمة وفضل وأجر: فمن حقق في نفسه شروط الشهادة الخمسة الآنفة الذكر أعلاه، فهذا هو الشهيد الذي يستحق مقام الشهداء يوم القيامة .. وعليه تُصرف نصوص الكتاب والسنة التي تبين فضل الشهداء، وما لهم عند الله تعالى من فضل، ومكرمة، وأجرٍ عظيم.

منها، قوله تعالى:﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ ﴾البقرة:١٥٤.

وقوله تعالى:﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾آل عمران:١٧٠.

وقوله تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾التوبة:١١١.

وفي الحديث، فقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال:" إنَّ في الجنَّة مائة درجة، أعدَّها اللهُ للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض " البخاري.

وقال ﷺ:" ما من عبدٍ يموتُ، له عند الله خيرٌ، يسُرُّه أن يرجع إلى الدنيا، وأن له الدنيا وما فيها، إلا الشَّهيد؛ لما يرى من فضلِ الشهادةِ، فإنه يسُرُّه أن يرجعَ إلى الدنيا فيُقتَل عشرَ مراتٍ، لما يرى من الكرامة " متفق عليه.

وعن ابن عباس ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: لما أُصيب إخوانكم، جعل الله أرواحَهم في جَوفِ طيرٍ خُضرٍ، تَرِد أنهارَ الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديلَ من ذهب، معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومَقِيلهم، قالوا: من يُبلِّغ إخواننا عنا أنا أحياءٌ في الجنَّة نُرزَق؛ لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا يَنْكُلُوا عن الحرب؟ فقال الله تعالى: أنا أُبلغهم عنكم. فقال ﷻ:﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً ﴾ إلى آخر الآية"[٢٢٧].

وعن مسروق قال: سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ فقال: أما إنا قد سألنا عن ذلك ـ أي رسولَ الله ـ فقال:" أرواحُهم في جوفِ طيرٍ خُضْرٍ، لها قناديلُ مُعلَّقةٌ بالعرْشِ، تَسرحُ من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديلِ، فاطَّلَع إليهم ربهم اطِّلاعةً، فقال: هل تَشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيءٍ نشتهي ونحن نسرَحُ من الجنَّةِ حيث شِئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مراتٍ، فلما رأوا أنهم لن يُترَكُوا من أن يُسألُوا قالوا: يا رب! نريد أن تَرُدَّ أرواحَنا في أجسادِنا حتى نُقتَلَ في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجةً تُرِكوا " مسلم.

وقال ﷺ:" رأيتُ الليلةَ رجُلين أتياني، فصَعَدا بي الشَّجرَةَ، فأدخَلاني داراً هي أحسَنُ وأفضَلُ، لم أرَ قطُّ أحسنَ منها، قالا لي: أما هذه الدارُ فدارُ الشُّهَداءِ " متفق عليه.

وقال ﷺ:" للشهيدِ عندَ اللهِ ستُّ خِصَالٍ: يَغْفِرُ له في أَوَّلِ دُفعَةٍ من دَمِه، ويُرَى مَقعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ ويُجَارُ من عذابِ القبرِ، ويأمَنُ من الفَزَعِ الأكبَرِ، ويُحَلَّى حُلَّةَ الإيمانِ، ويُزَوَّجُ مِنَ الحورِ العينِ، ويُشَفَّعُ في سبعين من أقاربِه "[٢٢٨].

وفي رواية، قال ﷺ:" إن للشهيد عندَ الله سبعَ خصالٍ: أن يُغفرَ له في أول دُفعة من دمِه، ويرى مقعدَه من الجنَّة، ويُحلَّى حُلَّة الإيمان، ويُجارُ من عذاب القبر، ويأمن من الفزَعِ الأكبر، ويُوضَع على رأسه تاجُ الوقار؛ الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويُزوَّج اثنتين وسبعين زوجة من الحورِ العِين، ويُشَفَّع في سبعين إنساناً من أقاربه "[٢٢٩].

وقال ﷺ:" الشَّهيدُ يَشفَعُ في سبعين من أهلِ بيته "[٢٣٠].

---

[٢٢٧] رواه أبو داود، والحاكم، صحيح الترغيب: ١٣٧٩. وفي معنى " ينكلوا " قال المنذري: أي يجبنوا ويتأخروا عن الجهاد. وقوله " لما أُصيب إخوانكم "؛ المراد منهم القرَّاء السبعون من الأنصار الذين قُتِلوا غدراً ببئرِ معونة؛ على يد من ذهبوا معهم ليعلموهم القرآن!

[٢٢٨] صحيح سنن ابن ماجه: ٢٢٥٧. والفزع الأكبر؛ يوم بعث الناس من القبور للحساب. وقيل: يوم يُعرض الناس على النار، ويُذبح الموت وينادى يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت.

[٢٢٩] رواه أحمد والطبري، صحيح الترغيب: ١٣٧٤.

وقال ﷺ:" الشَّهيدُ لا يجدُ مَسَّ القتْلِ إلا كما يجدُ أحدُكم القرصَةَ يُقرَصُها "[٢٣١].

وفي رواية:" الشهيدُ لا يجدُ ألمَ القتلِ إلا كما يجدُ أحدُكم مَسَّ القَرصَةِ "[٢٣٢].

وقال ﷺ:" أولُ ما يُهراقُ دمُ الشهيد، يُغفَرُ له ذنبه كله إلا الدَّيْنَ "[٢٣٣].

وقال ﷺ:" القتلُ في سبيلِ الله يُكفِّرُ كُلَّ شيءٍ، إلا الدَّين " مسلم.

وقالَ رجلٌ: يا رسولَ الله! ما بالُ المؤمنين يُفتَنُون في قبورِهم إلا الشَّهيد؟ قال:" كفَى ببارِقة السيوفِ على رأسِه فتنة "[٢٣٤].

وعن أبي هريرة ﷺ، عن النبيِّ ﷺ:" أنه سألَ جبرائيل عن هذه الآية:﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾الزمر:٦٨. مَن الذين لم يَشأ اللهُ أن يُصعِقَهم؟ قال: هم شهداء الله "[٢٣٥].

وقال ﷺ:" القتلى ثلاثةٌ: رجلٌ مؤمنٌ جاهدَ بنفسِه ومالِه في سبيل الله؛ حتى إذا لقي العدوَّ قاتلهم حتى يُقتَل؛ فذلك الشهيدُ الممتَحَنُ في جنةِ الله تحت عَرشِه، لا يفضلُه النَّبيونَ إلا بفضلِ درجةِ النُّبوةِ. ورجلٌ فَرِقَ على نفسه من الذنوبِ والخطايا، جاهدَ بنفسه ومالِه في سبيلِ الله، حتى إذا لقي العدوَّ قاتل حتى يُقتل، قتلك مُمَصْمِصَةٌ محَت ذنوبَه وخطاياه، إن السيفَ محَّاءٌ للخطايا، وأُدخِلَ من أي أبواب الجنة شاء؛ فإن لها ثمانية أبواب، ولجهنم سبعةُ أبواب، وبعضُها أفضلُ من بعض. ورجلٌ منافقٌ جاهدَ بنفسه ومالِه، حتى إذا لقي العدوَّ قاتلَ في سبيلِ الله ﷻ حتى يُقتل، فذلك في النار؛ إن السيفَ لا يمحو النفاقَ "[٢٣٦].

---

٢٣٠ أخرجه ابن حبان، صحيح الجامع: ٣٧٤٧.

٢٣١ أخرجه النسائي وغيره، صحيح الجامع: ٣٧٤٦.

٢٣٢ أخرجه الطبراني في الأوسط، صحيح الجامع: ٣٧٤٥.

٢٣٣ أخرجه الطبراني في الكبير، السلسلة الصحيحة: ١٧٤٢.

٢٣٤ رواه النسائي، صحيح الترغيب: ١٣٨٠.

٢٣٥ رواه الحاكم، وقال صحيح الإسناد، صحيح الترغيب: ١٣٨٧.

٢٣٦ رواه أحمد، والطبراني، وابن حبان، صحيح الترغيب: ١٣٧٠. وقوله " الشهيدُ الممتَحَنُ "؛ أي المُنقَّى والمُصفَّى والمُهذَّب من كلِّ آثار الخطايا. وقوله " فَرِقَ على نفسه "؛ أي خاف على نفسه من ذنوبه وخطاياه. وقوله " قتلك مُمَصْمِصَةٌ "؛ قال المنذري في الترغيب:" هي المحِّصة المكفّرة ". قلت: والحديث فيه فوائد عدة، منها: أن الحسنات ـ وبخاصة منها حسنات الجهاد ـ يذهبن السيئات، وأن لحسنة الجهاد أثر عظيم في زوال الذنوب وآثارها، دلَّ على ذلك قوله ﷺ:" إن السيفَ محَّاءٌ للخطايا ". ومنها: أن من كان من ذوي الجهاد والبلاء في الله ينبغي أن يتوسع له في التأويل عند ورود العثرات والكبوات، والشبهات. ومنها: أن حسنة الجهاد مهما عظمت فإنها لا تنفع صاحبها إن كان قابعاً على النفاق أو الكفر والشرك؛ فالشرك يُحبط العمل كله، ويحرم صاحبه من

. تنبيهات ومسائل هامة:

المسألة الأولى: اعلم أنه لا يجوز أن يُجزَم لمُعيَّنٍ بأنه شهيد، حتى لو كان ظاهره أنه قُتل في سبيل الله، وذلك للمحاذير التالية:

منها: أن الحكم على شخصٍ مُعيَّنٍ بالشهادة، وأنه شهيد عند الله يعني الحكم له بالجنة، وهذا خوض في الغيب بغير علم، فالشهادة على شخصٍ معين بأنه شهيد، وأنه في الجنة فهي ليست لأحدٍ بعد النبي ﷺ؛ لأن النبيَّ لا يتكلم ولا يشهد على أحدٍ بأنه شهيد أو من أهل الجنة إلا بوحي، كما قال تعالى:﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾النجم:٣-٤. وهذه ليست لأحدٍ بعد النبي ﷺ.

فلو جاز لأي أحدٍ أن يقول: فلان شهيد، وهو من أهل الجنة .. لما وجد حينئذٍ فرق بينه وبين النبي ﷺ في هذه الخاصية .. ولكان حكمه كحكم النبي ﷺ لبعض أصحابه بأنهم شهداء، وأنهم من أهل الجنة .. ولما حصلت حينئذٍ ميزة لمن شهد لهم النبي ﷺ بأنهم من أهل الجنة .. وهذا قول باطل نقلاً وعقلاً لا يتجرأ عليه إلا من هان عليه دينه!

ومنها: لاحتمال أن يكون هذا المُعيَّن قد أخلَّ بشرط من شروط قبول الشهادة، لا يعلم ذلك عنه إلا الله تعالى، وبخاصة أن من شروط الشهادة ما هو متعلق بالقلب؛ كشرط الإخلاص .. وما في القلوب لا يعلمه إلا علام الغيوب، لذا جاء في الحديث:" مَثَلُ المجاهدِ في سبيلِ اللهِ، والله أعلمُ بمن يُجاهِدُ في سبيلِه، كمثل الصائم القائم ... " متفق عليه. فردَّ النبيُّ ﷺ علم من يُجاهد في سبيل الله على صفة الصدق والإخلاص لله ﷻ وحدَه؛ لأن الإخلاص . وموطنه القلب . لا يعلمه إلا الله تعالى.

ونحوه قوله ﷺ:" والذي نفْسِي بيَدِهِ لا يُكْلَمُ أحدٌ في سبيلِ الله، واللهُ أعلمُ بمن يُكلَمُ في سبيلِهِ، إلا جاءَ يومَ القيامَةِ، واللونُ لونُ الدَّمِ، والرِّيحُ ريحُ المِسْكِ " متفق عليه.

الانتفاع بشيء من حسناته يوم القيامة، بما في ذلك حسنة الجهاد، كما قال تعالى:﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾الأنعام:٨٨. وقال تعالى:﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾الزمر:٦٥. وقال تعالى:﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً ﴾الفرقان:٢٣. وفي ذلك عِظة لأولئك الذين ينطلقون للجهاد ولم يحققوا التوحيد في أنفسهم .. ولم ينخلعوا ويتبرأوا من الشرك وعبادة الأوثان والطواغيت بعد!

وأخرج البخاري في صحيحه تحت باب بعنوان " لا يقولُ: فلانٌ شهيد "، عن سهل بن سعد الساعِدي ﷺ، أن رسولَ الله ﷺ التقى والمشركون فاقتتلوا، فلما مالَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى عسكَرِه، ومالَ الآخرون إلى عسكرِهم، وفي أصحاب رسولِ الله ﷺ رجلٌ لا يَدَعُ لهم شاذَّةً ولا فاذَّةً إلا اتَّبَعَها يضربُها بسيفِه، فقالوا: ما أجزأَ مِنَّا اليومَ أحدٌ كما أجزأ فلانٌ، فقال رسولُ الله ﷺ: " أما إنَّهُ من أَهلِ النار ". فقالوا: أيّنا من أهل الجنة إن كان هذا من أهل النار؟ فقال رجل من القوم: أنا صاحِبُهُ، قال فخرجَ معه كُلَّما وقف وقَفَ معه، وإذا أسرعَ أسرَع معهُ، قال: فجُرِحَ الرجل جرحاً شديداً، فاستَعجَلَ الموتَ، فَوَضَعَ نَصلَ سَيفِهِ بالأرضِ، وذُبابهُ بَينَ ثَدييهِ، ثُمَّ تَحامَلَ عَلى سَيفِهِ فَقَتَلَ نَفسَهُ، فَخَرَج الرَّجُلُ إلى رَسولِ الله ﷺ فقال: أشهَدُ أَنَّكَ رَسولُ الله، قال:" وما ذاكَ ". قال الرَّجُلُ: الذي ذكرتَ آنفاً أنَّه مِن أهل النار، فأعظمَ الناسُ ذلك، فقلتُ: أَنا لكم به، فخرجت في طلبه، ثُمَّ جُرِح جُرحاً شديداً، فاستعجل الموت فَوَضَعَ نصل سَيفِه في الأرض، وذبابهُ بينَ ثَدييَه، ثُم تحامَل عَليه فَقَتل نفسه، فقال رسولُ الله ﷺ عند ذلك: " إنَّ الرجُلَ لَيعمَلُ عَمَلَ أهل الجنة، فيما يَبدو للناس، وهو من أهل النَّار، وإن الرجل لَيَعملُ عَمَل أهل النَّار، فيما يَبدو للناس، وهو من أهل الجنة "[٢٣٧] متفق عليه.

فهذا رغم جهاده وشدة بأسه في الجهاد .. ورغم ثناء الصحابة عليه بالخير، وأنه من أهل الجنة لما رأوا من ظاهره .. إلا أنه لما أخلّ بشرط من شروط الشهادة؛ فاستعجل الموت، فقتل نفسه بنفسه .. حكم عليه النبي ﷺ بأنه من أهل النار.

وعن أبي هريرة قال: خَرَجنا مع النبي ﷺ إلى خَيبر، ففَتَحَ اللهُ عَلَينا، فَلَم نَغنَم ذَهَباً ولا وَرِقاً؛ غَنِمنا المتاع والطعام والثياب، ثُمَّ انطَلَقنا إلى الوادي، ومع رسولِ الله ﷺ عَبدٌ له، وَهَبَهُ لَهُ رَجُلٌ مِن جُذَامٍ، يُدعى رِفاعة بنَ زيدٍ مِن بني الضُّبَيْبِ، فَلَمَّا نَزَلنا الوادي قَامَ عبدُ رَسولِ الله ﷺ يَحُلُّ رَحلَهُ فَرُمِيَ بسهمٍ، فكان فيهِ حَتفُهُ، فَقُلنا: هَنيئاً له الشهادةُ يا رَسولَ الله! فقال رسول الله ﷺ:" كَلاَّ، والذي نفس محمد بيدِه! إن الشَّملَةَ لَتَلتَهِبُ عَلَيه نَاراً أخّذها من الغنائم يوم خَيبر لَم تُصِبها المقاسِمُ " مسلم.

فهذا رجل قد أفسد على نفسه الشهادة بشَملة غلَّها من الغنائم .. ولم يكن الصحابة يعرفون عنه ذلك، إلى أن أخبرهم النبي ﷺ بذلك.

---

[٢٣٧] قوله " شاذَّةً ولا فاذَّةً "، قال ابن حجر في الفتح ٧/٥٤٠: الشاذَّة ما انفرد عن الجماعة، وبالفاء مثله ما لم يختلط بهم، والمعنى أنه لا يلقى شيئاً إلا قتله، وقيل المراد بالشاذ والفاذ ما كبر وصغر، وقيل الشاذ الخارج والفاذ المنفرد ا– هـ.

وفي الحديثين الآنفي الذكر أعلاه أن الحكم على المعين بأنه شهيد كالحكم عليه بأنه في الجنة، ومن أهل الجنة، لذا جاء جواب النبي ﷺ بأنه في النار، وأن الشَّملَة التي غلَّها تلتهب عليه ناراً، ولم يقل لهم: لا؛ ليس شهيداً .. لأنه ليس كل من لم يكن شهيداً يلزم أن يكون في النار أو من أهل النار، لكن كل من هو في النار يلزم منه أن لا يكون شهيداً .. فالجواب أنه في النار، أو أنه يُعذَّب بالنار .. يلزم منه نفي الاثنين معاً: الشهادة، وأن يكون في الجنة أو من أهل الجنة، وهذا النفي لا يُحمَل مطلقاً على التأبيد .. من دون النظر إلى القرائن الشرعية الأخرى التي توضح المراد منه.

وكذلك فقد تقدم معنا الحديث الدال على أن من الناس من يُجاهد نفاقاً. ومن ينضم إلى قوافل المجاهدين ليتجسس عليهم وعلى عوراتهم لصالح العدو. وأن السيف لا يمحو النفاق، والنفاق مقره القلب لا يعلمه إلا الله.

ومنها: أن الحكم على معين بأنه شهيد ومن أهل الجنة فيه تزكية على الله، والله تعالى يقول:﴿ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾النجم:٣٢.

فهذه الأوجه مجتمعة هي التي تمنع من أن يحكم على معين بأنه شهيد .. فإن قيل: بما نحكم على قتلانا إذاً .. وما هو التعبير الصحيح بحقهم؟

أقول: فإن كان لا بد من أن نشير إلى شخص معينٍ بالشهادة .. فنقول: نحسبه شهيداً ولا نزكيه على الله .. نرجو أن يكون شهيداً .. نسأل الله تعالى أن يجعله من الشهداء .. ومع الشهداء .. ولا نجزم، وفي الحديث فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" من كان منكم مادحاً أخاه لا محالةَ، فليقلْ: أحسبُ فلاناً، والله حَسيبُه، ولا أزكي على الله أحداً؛ أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك منه " متفق عليه.

أما إن كان الحكم عاماً مجملاً لا على التعيين؛ لا حرج حينئذٍ من أن يطلق حكم الشهادة على مجموع قتلى المسلمين؛ فيُقال: قتلى المسلمين الذين قاتلوا في سبيل الله في فلسطين .. أو أفغانستان .. أو الشيشان .. أو العراق .. أو الصومال .. هم شهداء .. أو يُقال شهداء معركة كذا وكذا .. أو قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار .. فهذا الإطلاق العام المجمل .. لا حرج فيه لورود النص الدال عليه، ولغياب المحاذير الآنفة الذكر أعلاه الخاصة في الشخص المعين عندما يُحكمُ عليه بأنه شهيد.

قال ابن حجر في الفتح ١٠٦/٦: وعلى هذا فالمراد النهي عن تعيين وصف واحدٍ بعينه بأنه شهيد، بل يجوز أن يُقال ذلك على طريق الإجمال ا– هـ.

ثم اعلم أن الحكم لله الواحد الأحد، كما قال تعالى:﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾يوسف: ٤٠. ليس لأحدٍ سواه؛ فمن حكم الله عليه بأنه شهيد فهو الشهيد .. ولو أطبق أهل الأرض كلهم على وصفه بخلاف ذلك لما تغير من الحقيقة شيئاً .. ومن يحكم الله تعالى عليه بأنه ليس بشهيد أو أنه في النار .. فهو في النار .. ولو أطبق أهل الأرض كلهم على وصفه بأنه شهيد .. وأنه بطل .. وأضفوا عليه الأوسمة والألقاب .. لما تغير من الحقيقة شيئاً.

وبالتالي فلا يحزنْكَ وصف الطواغيت الآثمين وأبواقهم وسحرتهم .. وعملائهم .. لقتلى الطاغوت بأنهم شهداء .. وأنهم في الجنة .. وأنهم أبطال ونشامَى .. وقتلى المجاهدين الذين قُتلوا في سبيل الله بأنهم ضالون .. وفي النار .. وإرهابيون .. وتكفيريون .. وغير ذلك من الألقاب التي ابتدعوها من عند أنفسهم الأمارة بالسوء .. فحكمهم هذا مردود عليهم .. لا قيمة ولا أثر له، وهو لا يغير من الحقيقة شيئاً.

تأمل قصة حبيب النجار الذي ورد ذكره في سورة ياسين .. فبعد أن صدع بالحق في وجوه الملأ من قومه الكافرين .. ودعاهم إلى الإيمان بالله تعالى .. واتباع المرسلين .. قاموا عليه قَومَة رجل واحد .. فضربوه، ورجموه، وحرَّقوه .. ووطئوه بأقدامهم .. وتفنَّنوا في تعذيبه وقتله .. حتى قيل أن أمعاءه قد خرجت من دبره ... وهم في غيهم وحقدهم وفرحهم هذا .. وبعد أن خرجت الروح من جسدها إلى بارئها .. قال تعالى ـ مباشرة، وفي الحال ـ:﴿ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾؛ أي أنت شهيد .. لا عليك .. قد فزت بالشهادة ونعيمها وكراماتها .. ولا يضرنَّك ما يفعله المجرمون بجثتك .. ولا استهزائهم بك .. ولا شتمهم لك .. قال حبيب النجار ـ بعد أن دخل الجنة، وبعد ما رأى من الخيرات والمسرات والكرامات، وقومه لا يزالون يلهون بجثته، ويمثلون بها، وينفثون أحقادهم فيها ـ:﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾؛ فيقلعوا عن غيهم وضلالهم وكفرهم ويؤمنوا بما آمنت به!

المسألة الثانية: يوجد فرق بين تمني الشهادة، وأن يُحدّث المرء نفسه بالشهادة، وأن يسأل الله تعالى أن يختم حياته بشهادة في سبيله خالصة لوجهه الكريم، وبين استشراف مظان الموت والهلكة ـ من غير مصلحة راجحة ـ لنيل الشهادة .. واستعجالاً في طلب الشهادة. فالأول جائز والآخر لا يجوز .. وكثير هم الذين يخلطون بين الأمرين!

تمني الشهادة .. وأن يُقتل المرء في سبيل الله .. وارد ومشروع، ينبغي لكل مؤمن أن يحرص عليها، ويحدث نفسه بها، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال:" والذي نفسي بيده، ودَدتُ أنِّي أقاتلُ في سبيلِ الله فأقتَل، ثم أحيا ثم أقتَلُ، ثم أحيا ثم أقتَلُ، ثم أحيا ثم أقتَل، ثم أحيا " فكان أبو هريرة يقولُهُنَّ ثلاثاً، أشهدُ بالله. متفق عليه.

وفي رواية لمسلم:" والذي نفس محمد بيده! لوددتُ أن أغزوَ في سبيل الله فأُقتَل، ثم أغزو فأُقتَل، ثم أغزو فأُقتل ".

وقال ﷺ:" ولأنْ أُقتَلَ في سبيلِ الله، أحبُّ إليَّ من أن يكون لي أهل الوبَرِ والمَدَر "[٢٣٨].

بينما استشراف مظان الموت والهلكة .. من غير مصلحة راجحة .. استعجالاً في طلب الشهادة .. فهذا قولاً واحداً لا يجوز؛ ومثاله: من يستهين بأمنياته .. وبالأسباب .. فيكشف نفسه وصدره .. لسهام وذخائر العدو ليقتلوه. وهو لا يزال في أول عطائه. فيصبح صيداً سهلاً للعدو .. وما أفرحهم بمثل هذا النوع من الصيد السهل .. أو أن يقتحم مواقع وطرق الهلكة .. من غير ضرورة .. ولا مصلحة راجحة .. وإنما حمله على فعل ذلك قلة الصبر، والاستعجال في طلب الشهادة .. أو أن يفجر نفسه بنفسه. كما في العمليات المسماة خطأ بالاستشهادية!. من غير نكاية تُذكر في العدو .. استعجالاً في طلب الشهادة .. وكأقصر طريق. كما يزعمون. إلى الجنة .. فهذه الصور ومثيلاتها كلها لا تجوز، وهي منافية للنصوص التي تُلزم بالأخذ بالأسباب والإعداد على قدر الطاقة والاستطاعة، كما قال تعالى:﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾الأنفال:٦٠. وقال تعالى:﴿ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾البقرة:١٩٥. وقال تعالى:﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾النساء:٢٩.

وقال تعالى:﴿ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾النساء:١٠٢. هذا التشديد في أخذ الحذر .. وتكرار الأمر بأخذ الحذر .. كل ذلك حتى لا يُصبح المسلم المجاهد صيداً سهلاً للعدو ﴿ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ﴾.

ثم أن عقيدة التوكل على الله .. وعقيدة أن الله تعالى ناصر من ينصره .. لا تمنع من الأخذ بأسباب النصر والظفر .. أو أن يأخذ المؤمنون حذرهم عند مواجهة أعدائهم.

فإن أهمل المرء هذا التوجيه الرباني .. فلم يأخذ بالحذر .. استعجالاً على الله تعالى في طلب الشهادة .. فهو آثم .. وممن ألقوا بأيديهم .. وأنفسَهم بأنفسهم إلى التهلكة!

وقد تقدم معنا قوله ﷺ:" بادرني عبدي بنفسه، حرَّمتُ عليه الجنَّة " البخاري. وقد ذكرنا أن الحديث وإن كان له سبب إلا أن العبرة بعموم اللفظ .. فكل من استعجل على الله .. فتسبب لنفسه بالموت عن إهمال أو تقصير أو لسبب كان يمكن له دفعه لو شاء .. لكنه لم يفعل استعجالاً على الله تعالى .. فله نصيب من الحديث أعلاه " بادرني عبدي بنفسه ".

---

[٢٣٨] صحيح سنن النسائي: ٢٩٠٠.

وقال ﷺ:" لا يتمنينَّ أحدُكم الموتَ؛ إما محسناً فلعلَّه يزدادَ خيراً، وإما مسيئاً فلعلَّه أن يَسْتَعْتِب " متفق عليه. أي يتوب فيرجع.

وقال ﷺ:" لا يتمنينَّ أحدُكم الموتَ من ضُرٍّ أصابَه " متفق عليه.

حتى العدو قد نُهينا عن تمني لقائِه .. وقتاله .. فإن حصل اللقاء .. سألنا الله تعالى النصر والثبات، وما ذلك إلا لأن المسلم له رسالة عظيمة في هذه الحياة هي أكبر من أن تُحصَر في استشراف مظان الموت وحسب، كما في الحديث، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" أيها الناس لا تتمنوا لقاءَ العدو، وسَلُوا الله العافيةَ، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحتَ ظلالِ السيوف " متفق عليه.

فإن قيل: أين أدلة الانغماس ...؟

أقول: أدلة الانغماس حق؛ لكن كلها مقيدة بقيد وشرط أن يرتد انغماس المنغمس في العدو على الإسلام والمسلمين، والجهاد والمجاهدين بمصلحة راجحة .. وكل من قال من أهل العلم بأدلة الانغماس اشترط في انغماس المنغمس أن يرتد انغماسه بالمصلحة الراجحة على الإسلام والمسلمين .. أما القول بالانغماس لمجرد الانغماس .. ولمجرد أن يُقتل المنغمس على يد عدوه من دون مصلحة راجحة .. فهذا لا يقول به دليل صحيح .. ولا عالم معتبر .. والنقل والعقل قد دلا على خلافه.

ثم اعلم أن نفاد الصبر نوعان: نفاد الصبر على الضراء، وما ينزل بالمرء من بلاء .. فيجزع .. فيستعجل على الله تعالى بقتل نفسه .. ونفاد صبر على فراق المحبوب، وما أعده الله تعالى للشهيد من نعيم عظيم ومقيم .. وتحمل ألم الشوق والحنين والفراق .. فيحمل صاحبه على الاستعجال على الله .. فيطلب الموت من غير طرقه الشرعية .. أملاً بأن يحظى بالمحبوب .. وهذا من الجزع والاستعجال على الله تعالى .. وقلَّ من يتنبه له!

كلا الفريقين اشتركا في صفة نفاد الصبر الباعث على قتل النفس .. والاستعجال .. على اختلاف بينهما في السبب الباعث على نفاد الصبر: فالأول نفد صبره على الضراء .. والآخر نفد صبره على فراق المحبوب .. وتحمل مشاق وتبعات طول الانتظار .. لكن كلاهما قد اشتركا في صفة قتل النفس بسبب نفاد الصبر!

وكان أنس ﷺ يقول:لولا أني سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول:" لا تتمنوا الموتَ "، لتمنيت. البخاري. وهو من كبار أصحاب النبي ﷺ .. فكيف بنا في هذا الزمان .. الذي أصبح الناس لما هم فيه من بلاء وضنك في العيش يتمنون الموت ولا يجدونه، كما في الحديث:" لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه " متفق عليه.

وفي رواية لمسلم:" والذي نفسي بيده لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على قبر الرجل فيتمرَّغ عليه، ويقول: يا ليتني كنت مكان صاحب هذا القبر، وليس به الدِّين إلا البلاء ".

وهذا مدعاة لمن يتصدرون الفتاوى في هذا الزمان الذي اشتد فيه البلاء . والناس في ضنكٍ من العيش .. والقهر والذل .. لا يُطاق .. وقلَّ الصبر، إن لم يكن قد نفد . أن يتقوا الله في العباد، وأن لا يجرئوهم على قتل أنفسهم بأنفسهم . في عمليات انتحارية محدودة الأثر، غير مأمونة النتائج والضحايا . تحت مسميات الاستشهاد .. وما هي من الاستشهاد في شيء، والله تعالى أعلم.

* * * * *

١٠- الولاء والبراء، أو الموالاة والمعاداة.

من المفاهيم الشرعية التي طالتها أيادي التحريف، والتعطيل .. مفهوم " الولاء والبراء ": فريق من الناس وجدوا في عقيدة الولاء والبراء كما هي في الإسلام .. سداً منيعاً أمام أطماعهم وغزواتهم الفكرية والعسكرية سواء .. لا سبيل للتمدد بين المسلمين وفي أوطانهم .. والسطو على حرماتهم وخيراتهم .. وثوابتهم الفكرية والثقافية .. وهم في نفس الوقت يتسلحون بعقيدة الولاء والبراء في الله .. فعملوا ـ ولا يزالون يعملون ـ على إلغاء وتغييب عقيدة الولاء والبراء في الله من نفوس الناس وواقع حياتهم .. واستبدالها بعقائد وروابط أرضية وضعية يُعقد فيها الولاء والبراء من دون الله .. ما أنزلَ الله بها من سلطان .. لا تُسمن ولا تُغني من جوع .. ضررها يغلب نفعها .. لا تَعلوا جميعها قدراً عن أن تُسمى أوثاناً اتُّخذت من دون الله ـ أو مع الله ـ أنداداً يُحبونها كحب الله وأشد .. يصرفون لها من التقديس والتعظيم والحب ما لا يصرفونه لله .. والذين آمنوا أشدّ حباً وتعظيماً لله.

تلك الأوثان ـ على اختلاف مسمياتها ـ لا يُمكن أن تُملَى على الناس كآلهة تُعبد من دون الله .. من جهة الولاء والبراء .. والحب والبغض .. والناس ـ في نفس الوقت ـ يتسلّحون بعقيدة الولاء والبراء في الله؛ يوالون ويُعادون في الله .. يحبون ويكرهون في الله .. لذا كان لا بد ـ في نظر أولئك الذين يُقاتلون في سبيل تلك الأوثان على اختلاف مسمياتها ـ أن ينزعوا من الناس عقيدة الموالاة والمعاداة في الله .. وأن يشوهوا في نفوسهم صفاء وحقيقة معنى مفهوم الولاء والبراء في الله .. ويستبدلوهم بعقائد وضعية أخرى .. تقرر ـ على اختلاف مشاربها ومذاهبها ومسمياتها ـ عقد الموالاة والمعاداة والحب والكره في غير الله؛ هذا الغير قد يكون وطَناً .. أو قوماً .. أو جنسية .. أو عشيرة .. أو حاكماً .. أو مشرّعاً .. أو زعيماً .. أو دستوراً وقانوناً وضعياً .. أو حزباً وتكتلاً .. أو شِعاراً ورايةً .. أو صليباً .. أو صنَماً .. أو بَقَراً .. أو شيطاناً .. أو قبراً .. أو قصراً .. أو مصلحة .. أو الهوى .. والتي كلها تأخذ اسماً واحداً .. ووصفاً واحداً في شرع الله؛ ألا وهو اسم وصفة " الطاغوت "؛ وذلك عندما تُعبَد تلك الأشياء من دون الله ـ أو مع الله ـ من جهة المحبة والكره، أو الولاء والبراء .. أو غيرها من الجهات مما يدخل في معنى ومسمى العبادة.

هذا الفريق من الناس .. أشد ما ينقمون من الإسلام والمسلمين .. عقيدة الولاء والبراء في الله .. ومن ثم عقيدة الجهاد في سبيل الله .. وهم عندما يتكلمون عن التطرف .. والتشدد .. والتكفير .. والتفجير .. وعن السلام .. والتعايش .. والإندماج .. وحوار وتقارب الأديان .. فإنما يعنون ويستهدفون تحديداً عقيدة الموالاة والمعاداة في الله .. ويعنون ويستهدفون بالدرجة الأولى تنفير الناس .. وإخراجهم من ذلك الاعتقاد .. إلى اعتقاد آخر .. أيَّاً كان هذا الآخر .. المهم أن يرتدوا عن عقيدة الولاء والبراء في الله .. وإلى أي اعتقادٍ أو رابط آخر يشاؤونه .. فهذا ليس مهماً

بالنسبة لهم .. ما دام قد تحقق لهم إبعاد الناس عن عقد الولاء والبراء في الله، كما قال تعالى:﴿ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾البقرة:٢١٧. وقال تعالى:﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ الوطنية، والإنسانية، والقومية، والإقليمية، والطائفية، والدساتير الوضعية، وطواغيت الحكم .. وغيرها من الأوثان التي يعقدون فيها الولاء والبراء من دون الله ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾الزمر:٤٥. يتفاءلون ويفرحون .. بميلك إلى اعتقادهم، وأوثانهم من دون الله!

وفريق آخر من المثقفين والمتزلفين للظالمين الذين أدمنوا كتمان العلم .. ويقتاتون ويعتاشون بكتمانهم للعلم .. جنحوا إلى التفريط والتمييع .. طلباً لمرضاة الطواغيت الظالمين .. فهوّنوا على الناس من شأن عقيدة الولاء والبراء في الله .. وأظهروها على أنها من الفروع .. والمسائل الفرعية التي يجوز فيها الاجتهاد .. والاختلاف .. ويُحتمل فيها الخطأ .. وأن المخالف فيها مهما اشتدت مخالفته .. لا يُشنّع عليه .. ولا تعلو مخالفته سوى أن تكون موالاة دون موالاة .. وكفراً دون كفر .. وأرادوا من وراء هذا التحريف كله أن يُهونوا من شأن موالاة طواغيت الحكم في بلادنا لأعداء الأمة على الإسلام والمسلمين .. وعلى بلدانهم وخيراتهم .. ومن موالاة الشعوب المسلمة لهؤلاء الطواغيت الظالمين!

وإمعاناً منهم في التفريط .. والتلبيس على الناس .. حملوا المَواطن التي أوجب فيها الإسلام على المسلمين أن يُعاملوا من يدخل في سلم وأمان وعهد الإسلام والمسلمين بالبر والقِسط، والإحسان .. وأن يحترموا لهم حقوقهم التي صانها لهم الشرع .. والنصوص التي قيلت في ذلك .. وفي تلك المواطن .. على العدو المحارب .. وعلى مَواطن ومعنى الموالاة المحصورة بين المؤمنين الموحدين .. فخلطوا بينهما وجعلوهما في الحكم والحقوق سواء .. فضلوا وأضلوا .. وصعب على كثير من الناس ـ بسببهم ـ التفريق بين ما يجوز صرفه لغير المسلمين ممن دخل في أمانهم وعهدهم .. وذمتهم .. وبين ما لا يجوز صرفه إلا للمسلمين!

وفريق آخر ـ في المقابل ـ جنح إلى التشدد والإفراط في البراء والمعاداة .. فألغى من قاموسه وأدبياته وأخلاقياته .. مطلق القِسط، والبر، والإحسان في التعامل مع غير المسلمين .. فلم يُفرقوا بين من يدخل في ذمة وأمان وعهد المسلمين، وما يجب له من الحقوق .. وما قيل فيه من النصوص الشرعية .. وبين العدو المحارب، وما يستحق من مجاهدة ومدافعة .. وإغلاظ .. وما قيل فيه من نصوص شرعية .. فجعلوهما في الحكم والحقوق سواء .. وحملوا النصوص الشرعية التي قيلت في

الكافر المحارب على من يدخل من الكفار في سلم وجوار وأمان وعهد المسلمين .. فوقعوا في الظلم والعدوان بغير حق .. والله تعالى لا يحب الظلم ولا الظالمين.

ومن إفراط وغلو هذا الفريق أن منهم من حمل ما يجوز صرفه شرعاً لغير المسلمين ممن دخل في ذمتهم وأمانهم ـ أو ممن كان له حق جوار أو رحم كالوالدين المشركين ونحوهما ـ من برٍّ، وقِسط وإحسان .. على الموالاة المحظورة، والموالاة الكبرى التي تُخرج صاحبها من الملة .. فضيقوا بذلك واسعاً .. وكفَّروا وفسّقوا الناس بغير موجبٍ شرعي!

ومنهم من غالى في البراء؛ فعامل العصاةَ من أهل القِبلة .. معاملة المشركين المحادين لله ولرسوله ﷺ، وجعل الموقف منهما سواء!

لذا كان لا بد من تناول هذا المفهوم العظيم؛ مفهوم " الولاء والبراء " بالشرح والبيان كما هو في الإسلام .. من غير جنوح إلى إفراطٍ أو تفريط .. والذي يُعد من أهم وأعظم أركان وشروط التوحيد .. والذي لا يصحّ للمرء دين ولا إيمان إلا به .. عسى الله تعالى أن يُعيد من ضل سواء السبيل إلى الرشد والصواب .. والله المستعان.

ـ المحبوب لذاته هو الله تعالى وحده: اعلم أن ما من امرئٍ ـ أيّاً كان اتجاهه وانتماؤه ـ إلا وله محبوب يوالي فيه ويُعادي فيه، يُحب ويكره فيه ولأجله .. يُحارب ويُسالم فيه ولأجله .. بل ما من عمل يقوم به الإنسان إلا ويكون بدافع المحبة؛ إما المحبة في تحصيل شيء أو المحبة في دفع شيء .. فإن لم يكن هذا المحبوب الذي يُعقد فيه الولاء والبراء .. وتُصرف له الأعمال هو الله ﷻ .. فسيكون غير الله تعالى، هذا الغير على اختلاف مسمياته، وماهيته، وأشكاله، وأنواعه ـ قد تقدم ذكر بعضها أعلاه ـ فهو يشترك في صفة واحدة ألا وهي صفة كونه مخلوقاً لغيره؛ ألا وهو الله الخالق ﷻ.

فإن لم توالِ وتعادِ، وتحب وتكره في الخالق المالك المتصرف بك وبهذا الكون وفق مشيئته وإرادته .. فأنت توالي، وتعادي، وتحب وتكره في المخلوق الضعيف الذي لا يملك لنفسه ـ فضلاً عن أن يملك لغيره ـ نفعاً ولا ضراً .. إلا ما شاء الله.

فأنت بين خيارين لا ثالث لهما .. ولا مفرَّ لك من أحدهما ـ مهما زعمت الاستقلالية أو التجرد أو أنك بلا ولاء، ولا دين، ولا انتماء ـ: إما أن توالي وتعادي وتحب وتكره في الله، ولله .. وأنت حينئذٍ على حق .. وأنت حينئذٍ عبد الله .. وإما أن توالي وتُعادي، وتحب وتكره في المخلوق، وللمخلوق .. وأنت حينئذٍ على باطل، وضلالٍ عظيم .. وأنت حينئذٍ عبد الطاغوت .. وإن زعمت بلسانك ـ زوراً ـ أنك من المسلمين!

لماذا .. وكيف؟!

قد تقدم أن المعبود بحق هو الله تعالى وحده .. لأنه هو الخالق، المالك لهذا الكون وما فيه ومن فيه، المتفضّل على ملكه وخلقه بالنعم التي لا تُحصى، والتي منها أن لا عيش للمخلوق ولا حياة، ولا حركة إلا به، وبفضله ﷻ .. وهو ﷻ مقابل ذلك له حق على عباده؛ أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئاً؛ والعبادة تتضمن كمال الخضوع، مع كمال المحبة؛ إذ لا يُقبل خضوع من غير محبة، وزعم المحبة من غير خضوع زندقة وهرطقة .. ومن كمال المحبة وشرطها؛ أن يكون الله ﷻ محبوباً لذاته؛ لأنه الله، ولأنه هو هو ﷻ .. له الأسماء الحسنى والصفات العليا .. أفضاله ونعمه على عباده لا تُعد ولا تُحصى .. وما سواه فهو عبد مخلوق مربوب، محبوب له ﷻ؛ أي لا يجوز أن يُحب لذاته، أو يُعقد فيه الولاء والبراء؛ لأنه عبد مخلوق ومربوب، لا يملك لنفسه ـ فضلاً عن أن يملك لغيره ـ نفعاً ولا ضراً .. وثانياً لأن ذلك من التألّه الذي لا يجوز أن يُصرف إلا لله تعالى .. فالمألوه المحبوب بحق لذاته ـ الذي يُعقد فيه الولاء والبراء ـ هو الله تعالى وحده، وما سواه يُحب لله .. ويُعادى ويُجافى لله، وفي الله .. وفق مشيئة ومحبة الله.

وعليه فعندما يُعلِن الإنسان ـ أي إنسان ـ أنه يوالي ويُعادي .. يحب ويكره .. في الإنسان أو المخلوق ـ أياً كان هذا الإنسان أو المخلوق ـ فيحب ما يُحب ويكره ما يكره .. ويُوالي من يواليه، ويُعادي من يُعاديه .. يُحارب ويُسالم فيه وله .. وفي الحق والباطل سواء .. فهو يُعلن حينئذٍ بكل صراحة ووضوح أنه عبد لهذا الإنسان والمخلوق من دون الله ﷻ .. ويرتضي لنفسه بكل وضوح أن يكون عبداً ذليلاً لهذا الإنسان أو المخلوق .. وإن لم يُصرّح بفيه ما ينم عن تلك العبودية .. وإن لم يُتبع ذلك الاعتراف بخضوع وركوع وسجود الأعضاء والجوارح الظاهرة .. فخضوع وركوع وسجود قلبه لذلك الإنسان أو المخلوق .. ومطاوعته له في الحق والباطل سواء .. أكبر شاهد على دمغه بتهمة وجرم العبودية للعبد المخلوق .. كما تدمغه بحكم ووصف " عبد الطاغوت " .. وجرم الوقوع في الظلم الأكبر لا محالة، كما قال تعالى:﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾لقمان:١٣. وعليه وعلى أمثاله يُحمَل قوله تعالى:﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾البقرة:١٦٥. وقوله تعالى عن المجرمين ـ العبيد مع طواغيتهم وأسيادهم ـ وهم يتجادلون ويختصمون ويتعاتبون في نار سَقَر:﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ . تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾الشعراء :٩٦-٩٨. أي إذ كنا نسويكم مع الله تعالى من جهة المحبة والطاعة، فنحبكم كما نحب الله، ونطيعكم كما نطيع الله .. وربما أكثر .. فأشركناكم مع الله تعالى في ذلك!

كذلك عندما يُعلِن أي إنسان أو مخلوق ـ أيّاً كان هذا الإنسان أو المخلوق ـ أنه هو المحبوب لذاته .. الذي يجب أن تُعقَد الموالاة والمعاداة فيه وله .. يُوالى ويُعادى فيه وله .. يُحَب ما

يُحِب، ويُكرَه ما يَكرَه .. يُعادَى من يُعادِي ويُجافَى من يُجافِي .. فهو حينئذٍ ـ بكل صراحة ووقاحة ـ يتشبّع بما لم يُعط، وبما ليس فيه .. ويُعلن عن نفسه للبشرية بأنه هو الرب، وهو الإله .. وهو المألوه المعبود من دون الله .. وهو حينئذٍ يقول كما قال الطاغوت فرعون عن نفسه من قبل:﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾النازعات:٢٤. ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾القصص:٣٨. أي ما علمت لكم من محبوب ومُطاع لذاته غيري .. فأنا المحبوب لذاته، الذي يُعقد فيه الولاء والبراء، والحب والكره .. وأنا المُطاع .. لا مُطاعَ لكم ترجعون وتحتكمون إليه في جميع شؤون حياتكم .. غيري!

وأيما إنسان يعترف لهذا الإنسان أو المخلوق بهذا الحق .. أو الزعم .. فهو من جهة يعترف بربوبيته وألوهيته .. ومن جهة أخرى يدمغ نفسه بالشرك والعبودية له من دون الله!

فإن قيل: هو يوالي ويُعادي في الله من جانب .. وفي مجال من المجالات .. ويوالي ويُعادي في غير الله من جانب آخر .. وفي مجال من المجالات الأخرى .. هل يصح ذلك؟

أقول: هذا عين الشرك؛ شرك المحبة .. وهو كمن يقول: نعبد الله تعالى في جانب، وفي مجال من مجالات الحياة .. ونعبد غير الله تعالى في جانب آخر، ومجال آخر من مجالات الحياة .. فهذان معنَيان مختلفان ومتضادان ومتنافيان لا يجتمعان في قلب مؤمن موحد .. فكما لا يجتمع في قلب امرئٍ كفر وإيمان، كما في الحديث:" لا يجتمعُ الإيمانُ والكفر في قلب امرئٍ "[٢٣٩]. كذلك لا يجتمع في قلب امرئٍ ولاءان وحبان: ولاء وحب في الله، وولاء وحب في غير الله .. حب وكره في الله، وحب وكره في غير الله .. هذا لله، وهذا لغير الله .. فهذا من الشرك المحبط للعمل .. والله تعالى أغنى الأغنياء عن الشرك، لا يقبل من عبد عملاً أشرك فيه أحداً مع الله، كما قال تعالى:﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾الكهف:١١٠.

وفي الحديث فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتُغي به وجهه "[٢٤٠]. وفي الحديث القدسي:" قال الله ﷻ: أنا أغنى الشركاء عن الشرك؛ فمن عمل لي عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء، وهو للذي أشرَك "[٢٤١].

هكذا ينبغي أن يُفهم الموضوع .. وهكذا ينبغي أن نتناوله .. بكل وضوح وصراحة من دون مواربة ولا لجلجة ولا مداراة .. إما أن تَعقد الولاء والبراء، والحب والكره في الله، ولله .. وفي جميع شؤون ومجالات حياتك .. فأنت حينئذٍ عبد الله .. ومن عباد الله الموحدين المخلصين

---

[٢٣٩] السلسلة الصحيحة: ١٠٥٠.

[٢٤٠] صحيح سنن النسائي: ٢٩٤٣.

[٢٤١] أخرجه ابن ماجه وغيره، صحيح الترغيب: ٣١.

المسلمين .. وإما أن تَعقد الولاء والبراء، والحب والكره في غير الله .. ولو في بعض يسيرٍ من شؤون ومجالات حياتك .. فأنت حينئذٍ عبد لهذا الغير .. عبد للطاغوت .. قد عبدته من دون الله من جهة المحبة وعقد الموالاة والمعاداة .. وأشركته مع الله تعالى في الألوهية والربوبية.

ومعنى الموالاة في الله، والمعاداة في الله؛ أن تحب وتوالي ما يحبه الله تعالى، وأن تبغض وتعادي ما يبغضه الله تعالى .. وإن كان في ذلك مخالفة لما تهوى وتميل إليه نفسك .. ومع ذلك يكون حبك وبغضك خالصاً لوجه الله تعالى .. لا تبتغي منه مغنماً .. ولا سمعة ولا رياءً؛ أي لكي يكون ولاؤك وعداؤك مشروعاً ومحموداً لا بد له من شرطين: أن يكون صائباً موافقاً لما يحبه الله تعالى، وما يبغضه؛ فتحب ما يُحب، وتبغض ما يبغض، وتوالي من يوالي، وتُعادي من يُعادي. ثانياً: أن يكون حبك وبغضك خالصاً لوجه الله تعالى تبتغي مرضاته ومحبّته، إذ أحياناً قد تتحقق الموافقة، فتحب المؤمن وتبغض الكافر المشرك، لكن يكون حبك للمؤمن، وبغضك للكافر المشرك من أجل مصلحة .. أو مغنم .. أو لغرض من أغراض الدنيا .. وليس لكون الأول مؤمناً يحبه الله، والآخر كافراً مشركاً يبغضه الله تبتغي من حب الأول وبغض الآخر مرضاة الله تعالى .. ومن كان كذلك ـ لا شك أنه ـ يخرج من صفة كونه يوالي ويعُادي في الله .. وإن زعم بلسانه أنه ممن يُوالون ويُعادون في الله.

هذا المعنى هو المراد من قوله ﷺ:" أوثق عُرى الإيمان: الموالاةُ في الله، والمعاداةُ في الله، والحبُّ في الله، والبغضُ في الله "[٢٤٢]. وهذا لا يتحقق إلا بشرطيه: الموافقة، والإخلاص.

ونحوه قوله ﷺ:" مَنْ أحبَّ لله، وأبغضَ لله، وأعطى لله، ومنَعَ لله؛ فقد استكمَلَ الإيمانَ "[٢٤٣]. ولا يكون ذلك كذلك إلا بشرطي الموافقة، والإخلاص .. وما أكثر أولئك الذين يُعطون ويمنعون لهوى في أنفسهم .. أو لميلٍ إلى حزب أو عصبية .. ولمآرب أخرى .. ثم بعد ذلك يزعمون زوراً أنهم ممن يُعطون لله، ويمنعون لله!

قال تعالى:﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾آل عمران:٢٨.

قوله تعالى:﴿ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾؛ قال ابن جرير الطبري في التفسير: يعني بذلك فقد برئ من الله وبرئ الله منه بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر ا– هـ. ونحو قوله قال عدد من المفسرين.

لماذا استحق هذا الوعيد الشديد ..؟!

---

[٢٤٢] أخرجه الطبراني وغيره، صحيح الجامع الصغير: ٢٥٣٩.

[٢٤٣] رواه أبو داود، صحيح الترغيب والترهيب: ٣٠٢٩.

لأنه لم يوافق محبة الله، وإنما وافق محبة أعدائه من الكافرين .. فعقد فيهم الولاء والبراء من دون الله .. فأطاعهم ووالاهم في معصية الله .. وأشركهم في المحبة والموالاة مع الله .. وهذا ظلم عظيم بحق الله عليه.

ولأنه اتخذ الكافرين من دون المؤمنين أولياء .. فناصرهم وظاهرهم وكثّر سوادهم على المسلمين .. وهذا بخلاف ما يجب عليه ويتعيّن .. وهذا ظلم عظيم بحق المؤمنين عليه.

فهو بموالاته للكافرين يرتكب ظلمين عظيمين: ظلم له علاقة بحق الله عليه، وظلم آخر يتعلق بحق عباد الله المؤمنين عليه .. أي أنه ـ بموالاته للكافرين من دون المؤمنين ـ يكون من ذوي الظلم المركب والمغلّظ الذي به استحق ذلك الوعيد العظيم والمخيف.

ونحوه قوله تعالى:﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ ﴾؛ فيواليهم من دون الله ـ مع إعلان عداوتهم لله وللمؤمنين ـ على المؤمنين .. فيُظاهرهم ويناصرهم على المؤمنين ﴿ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾المائدة:٥١. أي منهم في الموالاة، والتجمع، والكفر .. وهو بذلك كافر مثلهم.

قال ابن حزم في المحلى ٣٣/١٢: وصح أن قول الله تعالى:﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ إنما هو على ظاهره بأنه كافر من جملة الكفار فقط، وهذا حق لا يختلف فيه اثنان من المسلمين ا– هـ.

وقال تعالى:﴿ تَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ . وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾المائدة:٨٠–٨١. فلمّا أبوا إلا أن يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين كان ذلك دليلاً كافياً على انتفاء إيمانهم بالله تعالى، والنبي ﷺ وما أنزل إليه من ربه ﷻ .. كما أنه دليل على بيان كذب ادعائهم الإيمان بالله ولنبي ﷺ .. فاتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين يدمغهم بالكفر، كما يدمغهم بالكذب في دعواهم الإيمان وأنهم من المؤمنين!

قال ابن تيمية رحمه الله: فبين سبحانه الإيمان بالله والنبي، وما أنزل إليه ملتزم بعدم ولايتهم، فثبوت ولايتهم يوجب عدم الإيمان لأن عدم اللازم يقتضي عدم الملزوم[٢٤٤].

وقال في الفتاوى١٧/٧: فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده، ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب. ودل ذلك على أن من اتخذهم أولياء ما فعل الإيمان الواجب من الإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه. ومثله قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ

---

٢٤٤ مجموعة التوحيد، ص٢٥٩.

الظَّالِمِينَ ﴾المائدة:٥١. فإنه أخبر في تلك الآية أن متوليهم لا يكون مؤمناً وأخبر هنا أن متوليهم هو منهم، فالقرآن يصدق بعضه بعضاً ا– هـ.

وقال تعالى:﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاء إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً ﴾الكهف:١٠٢.

وهذا سؤال تقريعي توبيخي تعجيزي يفيد الاستنكار والتعجب؛ أي أيظن الكفار أنهم يقدرون على أن يتخذوا عباد الله المؤمنين أولياء لهم .. فينفردوا بولايتهم من دون الله .. فهذا لا يمكن أن يحصل .. ولو حصل شيء منه وتحققت الولاية من الطرفين نحو بعضهما البعض .. لزم خروج من اتخذوهم أولياء من دائرة عباد الله المؤمنين .. لأن عباد الله المؤمنين ـ بنص كلام الله ـ لا يمكن أن يتخذوهم أولياء من دون الله؛ لأن المؤمن موافق لله تعالى في حبه وبغضه، وموالاته ومعاداته، فيوالي في الله ويُعادي في الله .. ومتى يخرج عن هذا الاعتقاد أو المنهج يخرج مباشرة من دائرة الإيمان .. ومن صفة وجماعة عباد الله المؤمنين.

والقول بإمكانية أن يجمع العبد بين الإيمان وبين اتخاذ الكافرين أولياء .. من لوازمه القول باجتماع المضادين .. والقول بتكذيب القرآن الكريم، ورد هذا النص الصريح الذي يفيد أن الكافر لا يمكن أن يتخذ المؤمن ولياً .. كما أن المؤمن لا يمكن أن يتخذ الكافر ولياً .. ولو استطاع وتمكن من ذلك فهو في حقيقته يتخذ ولياً كافراً مثله.

يوضح هذا المعنى أكثر قوله تعالى:﴿ وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ ﴾؛ أي إلا تفعلوا ذلك أيها المؤمنون .. فتحرصوا على أن تحصروا موالاة الكافرين بعضهم لبعض من دونكم .. فتعتزلوهم ولا تُخالطوهم بأي نوع من أنواع الموالاة والمظاهرة والتناصر .. فإن حصل خلاف ذلك .. وخالطتموهم في الموالاة والمظاهرة والمناصرة والعون والتأييد .. واتخذتم منهم أولياء ﴿ تَكُن فِتْنَةٌ ﴾؛ أي شرك ﴿ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾الأنفال:٧٣. فيختلط الحق مع الباطل .. وتختلط الحقوق والواجبات .. وما يجب للمؤمن مما يجب للكافر .. فلا يُعرف حينئذٍ ما لكل واحد منهما من حق .. وما عليه من واجب .. فيترتب عن ذلك فساد عريض واسع الانتشار .. والمرافق!

قال ابن كثير في التفسير: لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، قطع الموالاة بينهم وبين الكفار ... أي إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين وإلا وقعت فتنة في الناس وهو التباس الأمر واختلاط المؤمنين بالكافرين فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل ا– هـ.

وهو كقوله تعالى:﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ ﴾التوبة:٧١. فالموالاة والتناصر والتعاضد والتحابب محصورة ومقصورة فيما بين المؤمنين بعضهم مع بعض لا يجوز أن

تتعدى إلى غيرهم .. كذلك الطرف الآخر فموالاتهم وتناصرهم وتعاضددهم محصورة ومقصورة فيما بينهم من دون المؤمنين .. لا يجوز أن تتعدى إلا غيرهم كما قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ ﴾المائدة:٥١. وقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾آل عمران:١٨. وقال تعالى عن المنافقين:﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾التوبة:٦٧. وهم إخوان للكافرين في التآمر على الإسلام والمسلمين.

هذا أمر الله .. وهذا حكمه .. وهذا قضاؤه .. وليس لمؤمن أن يتعدى أمر الله .. أو أن يكون له الخيرة من أمر الله تعالى وقضائه .. أو أن يُشاقِق الله في الموالاة والمعاداة؛ فيوالي أعداءه ويُعادي أولياءه .. مهما بدت له المصلحة من وراء ذلك .. فهي على الحقيقة مفسدة وليست مصلحة .. ولو وجدت فهي أوهن من بيت العنكبوت، كما قال تعالى:﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾العنكبوت:٤١. وقال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً ﴾الأحزاب:٣٦.

ورحم الله الشيخ محمد بن عبد الوهاب إذ يقول:" فالله الله يا إخواني تمسّكوا بأصل دينكم، وأوله وآخره وأسه ورأسه، شهادة أن لا إله إلا الله، واعرفوا معناها، وأحبوها وأحبوا أهلها واجعلوهم إخوانكم ولو كانوا بعيدين، واكفروا بالطواغيت وعادوهم وابغضوهم، وابغضوا من أحبهم أو جادل عنهم أو لم يكفرهم أو قال: ما عليَّ منهم، أو قال: ما كلفني الله بهم، فقد كذب هذا على الله وافترى، فقد كلفه الله بهم وافترض عليه الكفر بهم والبراءة منهم ولو كانوا إخوانهم وأولادهم، فالله الله، تمسكوا بذلك لعلكم تلقون ربكم لا تشركون به شيئاً، اللهم توفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين "[٢٤٥].

. عقيدة الولاء والبراء وشهادة التوحيد: عقيدة الولاء والبراء هي الترجمان العملي واللغوي لمعنى شهادة التوحيد " لا إله إلا الله " التي لا يستقيم للمرء دين ولا إيمان إلا بها .. كما لا تُقبل ولا تصح منه شهادة التوحيد، إلا بعد الامتثال الصادق لعقيدة الولاء والبراء كما هي في الإسلام.

---

٢٤٥ مجموعة التوحيد، ص ١١١.

الشطر الأول من شهادة التوحيد، يتضمن جانب النفي " لا إله "؛ الذي يعني البراء والتخلي والانخلاع من الشرك والمشركين .. والكفر بالطواغيت كل الطواغيت الذين يزعمون زوراً الألوهية والربوبية لأنفسهم من دون الله ﷻ .. كما يعني تكفيرهم وبغضهم واعتزالهم .. وما هم عليه من كفر وشرك .. وبغض وتكفير كل من دخل ويدخل في موالاتهم وعبادتهم من دون ـ أو مع ـ الله ﷻ!

" إلا الله "؛ وهو الشطر الثاني من شهادة التوحيد؛ والذي يُفيد استثناء الخالق ﷻ من ذلك النفي الوارد في الشطر الأول من الشهادة؛ أي " إلا الله " فلا نتبرأ منه .. ولا نعتزله ولا نعتزل عبادته .. ولا نكفر به ولا بعبادته، بل نخصه تعالى وحده بالموالاة، والمحبة، والعبادة .. فلا نوالي ولا نعبد، ولا نطيع معه أحداً.

هذا التفسير لشهادة التوحيد قد دلت عليه أدلة الكتاب والسنة، منها قوله تعالى:﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ ﴾؛ هو جانب النفي من شهادة التوحيد " لا إله " المتضمن البراء، والكفر بالطاغوت، وجنده وعبيده .. وما يعبدون ﴿ وَيُؤْمِن بِاللّهِ ﴾؛ وهو جانب الإثبات من شهادة التوحيد " إلا الله "؛ المتضمن الإقرار بأن الله تعالى وحده هو المعبود بحق؛ من جهة الموالاة والمحبة، والطاعة، وصرف النسك والنذر، وكل ما يدخل في معنى ومسمى العبادة .. فمن فعل ذلك ظاهراً وباطناً ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ ﴾البقرة:٢٥٦. وهي شهادة التوحيد " لا إله إلا الله "، مفهوم المخالفة يقتضي أن من لم يفعل ذلك .. أو أتى بركن الإثبات دون ركن وجانب النفي والبراء .. لا يكون قد استمسك بالعروة الوثقى؛ التي تعني شهادة التوحيد.

ونحوه قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً ﴾؛ ماذا كانت مهمتهم التي بُعثوا لتقريرها في الأرض .. وأطر الشعوب إليها ﴿ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ ﴾؛ وهو جانب الإثبات من شهادة التوحيد ﴿ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ ﴾النحل:٣٦. وهو جانب النفي والبراء والاعتزال والاجتناب والكفر بالطاغوت وشركه، ومن يدخل في عبادته.

وقال تعالى:﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا ﴾؛ وهذا جانب النفي والاجتناب والكفر والاعتزال والبراء من الطاغوت ومن عبادته ﴿ وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ ﴾؛ يتضمن جانب الإثبات بأن المعبود المألوه بحق هو الله تعالى .. هؤلاء الذين يحققون التوحيد بركنيه الآنفي الذكر: النفي والإثبات ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾الزمر:١٧.

هذه دعوة الأنبياء والرسل على مدار التاريخ؛ حيث ما من نبي إلا وكان يُؤمر أن يقول لقومه الذين بُعث فيهم وإليهم:﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ ﴾؛ يتضمن جانب الإثبات ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ ﴾؛ براء وانخلاع وكفر بالآلهة والطواغيت ﴿ غَيْرُهُ ﴾الأعراف:٥٩. استثناء يتضمن توكيد الإثبات

بأن المعبود بحق .. وأن الإله الحق .. هو الله تعالى وحده .. إذ لا يجوز أن يأتي الكفر والنفي مطلقاً من دون أن يعقبه استثناء يستثني الخالق ﷻ من ذلك النفي والكفر والبراء .. كما لا يجوز أن يأتي الأمر بالإثبات من دون أن يعقبه أو يسبقه نفي وبراء من كل مألوه ومعبود غير الله.

فمن قال " لا إله " فقط .. فقد قال بقول الملاحدة الملاعين .. ومن قال:" اعبدوا الله " فقط .. فلا يلزم من قوله وأمره اعتزال عبادة غير الله .. لذا كان من العدل والتوحيد الخالص أن يأتي النفي والإثبات معاً .. وتكون الدعوة إلى الله تتضمن النفي والإثبات معاً كما في شهادة التوحيد:" لا إله إلا الله ".

وقال تعالى:﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءاؤا مِنكُمْ ﴾؛ أي من أشخاصكم وذواتكم؛ إذ لا يستقيم البراء من الشرك من دون البراء من المشركين الذين يُقارفون الشرك ﴿ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ ﴾؛ أي من شرككم وعبادتكم ومن تُشركونه مع الله تعالى في العبادة .. وإلى هنا يتضمن جانب النفي والبراء من الشرك والمشركين والطواغيت المعبودين ﴿ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾؛ ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً ﴾؛ تأكيد لحالة المفاصلة والتمايز والبراء من ذوات المشركين وأشخاصهم .. لأهمية هذا المعنى .. إذ لا يستقيم البراء من الشرك من دون البراء من ذوات وأشخاص المشركين والطواغيت بأعيانهم وأسمائهم الذين يُعبدون من دون الله .. فالبراء من المشركين وطواغيتهم ليس مجرد نظرية فكرية أو أفكار فضائية لا تُلامس واقع وحياة الناس ـ كما يصور ذلك أهل الإرجاء والتجهم لهم من الله ما يستحقون! ـ فكما أن الولاء يكون للإيمان والمؤمنين كذلك البراء يكون من الشرك والمشركين، والكفر والكافرين.

ما غاية هذا الكفر والبراء والتمايز والمفاصلة .. وما الغرض منه .. هل هو مجرد استعلاء الإنسان على الإنسان .. أو استعباد الإنسان للإنسان .. أو لغرض من أغراض الدنيا .. لا؛ ليس لشيء من ذلك .. وإنما لغرض واحد فقط؛ وهو ﴿ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾المتحنة:٤.وهو جانب الإثبات؛ أي حتى تخصوا الله تعالى وحده بالعبادة والمحبة والطاعة والموالاة .. وكل ما يدخل في معنى ومسمى العبادة .. ولا تُشركوا به شيئاً.

وقال تعالى:﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ ﴾؛ جانب النفي والبراء والاعتزال والتمايز والمفاصلة للمشركين وما يعبدون من آلهة ﴿ إِلَّا اللَّهَ ﴾؛ فلم يعتزلوا عبادته .. لأنه الإله الحق الذي يستحق أن يُعبَد .. أي هذا البراء والاعتزال للمشركين وما يعبدون .. لا يجري ولا يمضي عليه ﷻ .. لأن المشركين كانوا يعبدون الله مع جملة ما يعبدون من الآلهة والطواغيت .. فكان لا بد من هذا الاستثناء من ذلك الاعتزال والبراء العام ﴿ إِلَّا اللَّهَ ﴾؛ فلا نعتزل ولا نتبرأ من عبادته .. بل نخصه

تعالى وحده بالعبادة والمحبة والطاعة والموالاة .. من دون تلك الآلهة المُزيّفة .. وهو الجانب المتضمن للإثبات من شهادة التوحيد .. بعد ذلك ﴿ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ ﴾الكهف:١٦.

وفي الحديث فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" من قال لا إله إلا الله، وكفَر بما يُعبد من دون الله، حَرُمَ مالُه ودمه، وحسابُه على الله " مسلم. فشهادة التوحيد تتضمن البراء والكفر بما يُعبد من دون الله، ومع ذلك تضمّن الحديث تكرار هذا الشرط لتوكيده وبيان أهميته .. وبيان أن شهادة التوحيد لا تنفع صاحبها إلا بعد أن يتبرأ ويكفر ـ ظاهراً وباطناً ـ بما يُعبد من دون الله.

وعن معاوية بن حيدة، قال: قلت يا نبي الله بما بعثك ربُّكَ إلينا؟ قال:" بالإسلام ". قلت: وما آياتُ الإسلام؟ قال:" أن تقولَ: أسلمتُ وجهي إلى اللهِ، وتَخَلَّيْتُ، وتُقيمَ الصلاةَ وتُؤتِي الزَّكاةَ "[٢٤٦]. قوله " وتَخَلَّيْتُ "؛ أي اجتنبت واعتزلتُ وتبرأت من الشرك والمشركين .. وقدَّم ﷺ هذا البراء والتخلّي والاعتزال على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة .. وذلك لبيان أهميته.

وقوله ﷺ:" أسلمتُ وجهي إلى اللهِ "؛ يمثل جانب الإثبات والإقرار من شهادة التوحيد " إلا الله "، وقوله ﷺ:" وتَخَلَّيْتُ "؛ يمثل الجانب الآخر، والركن الآخر المتضمن لجانب النفي والكفر والبراء من الآلهة التي تُعبد من دون الله " لا إله ".

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: اجتمع أشراف قريشٍ يوماً في الحِجر، فذكروا رسولَ الله ﷺ، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط؛ سفَّه أحلامَنا، وشتمَ آباءنا، وعابَ ديننا، وفرَّق جماعتنا، وسبَّ آلهتنا، لقد صبرنا منه على عظيم. فبينما هم على ذلك إذ طلع عليهم رسولُ الله ﷺ فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مرّ بهم طائفاً بالبيت، فلما مرَّ بهم غمزوه ببعض ما يقول. قال: فعرفتُ ذلك في وجهه، ثم مضى، فلما مرّ بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضى فمر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فقال:" تسمعون معشرَ قريش أما والذي نفس محمدٍ بيده لقد جئتكم بالذَّبْح ".

فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ... فانصرف رسولُ الله ﷺ حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغَ منكم وما بلغكم عنه، حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه!. فبينما هم على ذلك طلع رسولُ الله ﷺ فوثبوا إليه وثبةَ رجل واحد فأحاطوا به يقولون له: أنت الذي تقول كذا وكذا؟ لما كان يبلغهم عنه من عيب آلهتهم ودينهم، قال: فيقول رسولُ الله ﷺ:" نعم أنا الذي قلتُ ذلك ".

---

[٢٤٦] صحيح سنن النسائي: ٢٢٨٥.

عن الزهري قال: دعا رسولُ الله إلى الإسلام سراً وجهراً، فاستجاب لله من شاء من أحداث الرجال وضعفاء الناس، حتى كثر من آمن به، وكفار قريش غير منكرين لما يقول، فكان إذا مرّ عليهم في مجالسهم يُشيرون إليه: إن غلامَ بني عبد المطلب ليُكلَّم من السماء.

فكان كذلك حتى عاب آلهتهم التي كانوا يعبدونها، وذكرَ هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر، فشاقَقُوا رسولَ الله ﷺ وعادوه[٢٤٧].

قلت: المشكلة هي ذاتها لا تزال قائمة .. وستظل قائمة إلى أن يرث الله الأرضَ ومن عليها .. فإذا اقتصر الدعاة في دعوتهم على معنى " اعبدوا الله " وحسب .. فلا توجد حينئذٍ مشكلة بينهم وبين طواغيت الأرض .. بل التسهيلات والخدمات كلها ممدودة إليهم .. أما إن تعدوا ذلك إلى الشطر الثاني من الدعوة ـ ولا بد لهم من ذلك ـ فقالوا:" ما لكم من إلهٍ غيره " .. وعابوا دين الطواغيت .. وكفَّروهم .. وتبرأوا من الشرك والمشركين ومن الآلهة المزيفة التي يعبدونها من دون الله .. هنا يحتدم الصراع .. والخلاف .. وتتأزم المشكلة .. ويُزج بالدعاة في غياهب السجون .. وتُعرَض أجسادهم على المناشير وأعواد المشانق .. ولا يثبت على ذلك إلا من كان حقاً من ورثة الأنبياء .. وكان يستحق أن يكون من أهل هذا الإرث العظيم!

ـ موالاة دون موالاة:

اعلم أن الموالاة التي تُخرِج صاحبها من الملة نوعان: عندما يُعقَد الولاء والبراء في ذات المخلوق؛ لأنه هو هو .. وفي الحق والباطل سواء .. وسواء أخطأ أم أصاب .. فيدور الموالي معه في الحب والبغض، وفي السخط والرضى حيثما دار .. فحينئذٍ يكون هذا المخلوق المُوالَى مألوهاً معبوداً من دون الله .. ومن يصرف إليه مثل هذا النوع من الموالاة يدخل في عبادته وتأليهه من دون الله .. ويخرج بذلك من ملة الإسلام كما تقدم ذكر الدليل على ذلك.

ثانياً: عندما يُظاهِر ويُناصر المشركين والكافرين على الإسلام والمسلمين .. فهذا النوع من الموالاة أيضاً يُخرِج صاحبه من الملة .. باتفاق أهل العلم .. كما تقدم ذكر الدليل على ذلك .. ولا يدخل في هذا النوع من الموالاة إنصاف الكافر المظلوم من المسلم الظالم .. كما يظن البعض؛ لأن إنصاف الحق .. والمظلوم ـ أيّاً كان دينه أو انتماؤه ـ من أنفسنا ومن ظالمه وإن كان مسلماً .. مطلب شرعي محمود قد حض عليه الشّارع، كما في قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ

---

[٢٤٧] الوفا بأحوال المصطفى، لابن الجوزي، ص١٤٥-١٥٠.

اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾المائدة:٨. وقوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾النساء:١٣٥.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً "، فقال رجلٌ: يا رسولَ الله أنصره مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟ قال:" تمنعه من الظلمِ؛ فذاك نصرُك إيَّاه " متفق عليه.

ما سوى هذين النوعين من الموالاة يدخل في الموالاة الصغرى، موالاة دون موالاة؛ أي عند حصولها توقع صاحبها في الإثم والمخالفة الشرعية، لكنها لا تخرجه من الملة، مثالها: أن يحصل عن هوى نوع غضب ـ في الباطل ـ للقبيلة أو البلدة أو العشيرة التي ينتمي إليها .. وكذلك الذي يظهر منه نوع تعصب ـ في الباطل ـ لحزبه أو شيخه، أو طريقته، وجماعته .. أو مذهبه .. ونحوه الذي ينصر ظالماً على ظلمه لهوى أو ضعف في نفسه .. أو الذي يحمله حب المال على البغي والظلم .. فهذا لا شك أنه يدخل في الموالاة الباطلة الخاطئة لكن لا ترقى بصاحبها إلى درجة الكفر البواح أو الموالاة الكبرى التي تُخرجه من الملة .. حيث يوجد فرق ـ مثلاً ـ بين من يُظهر نوع عصبية لوطنه أو موطنه في الباطل .. تحت عنوان الحنين والحب .. وبين من يجعل من الانتماء الوطني الجغرافي عقيدة يُعقد فيها الولاء والبراء، وتُقسّم على أساسها ـ دون غيرها ـ الحقوق والواجبات .. ويجعل من ذلك قانوناً أو دستوراً يُحتكم إليه .. فالأول موالاة صغرى لا ترقى إلى درجة الكفر الأكبر .. والحالة الثانية موالاة كبرى ترقى بصاحبها درجة الكفر الأكبر المخرج من الملة.

أخرج البخاري بسنده ـ من قصة حادثة الإفك ـ عن النبي ﷺ قال:" من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي ؟!". يقصد بذلك عبد الله بن أبي ـ رأس النفاق ـ وقوله الخبيث في أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأرضاها!

ثم قال ﷺ:" والله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً ". فقام سعد بن معاذ فقال: أنا أعذرك منه، إن كان من إخواننا الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك ؟ فأخذت سعد بن عبادة غيرة.

قالت عائشة رضي الله عنها: وكان قبل ذلك امرأً صالحاً، ولكن أخذته حمية؛ لأن ابن أبي كان كبير قومه!

فقال سعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على قتله!

فقام أسيد بن حضير فقال: كذبت لعمر الله فإنك منافق تجادل عن المنافقين .. وثار الحيان حتى نزل رسول الله ﷺ، فجعل يسكنهم.

فهذه الحمية التي أخذت سعد بن عبادة نحو رأس النفاق ابن أبي لكونه من قبيلته .. هي من الموالاة؛ لكنها من الموالاة الصغرى .. موالاة دون موالاة .. لا ترقى إلى درجة الكفر التي تخرج صاحبها من الملة كالموالاة الكبرى، بدليل أن النبي ﷺ لم يحكم على سعد بن عبادة بالكفر أو الردة .. ولم يحمله على التوبة من ذلك .. فعلمنا بالضرورة أن مثل هذا النوع من الموالاة قد يقع من المسلم .. لكنه لا يرقى به إلى درجة الكفر الأكبر المخرج من الملة.

وفي الصحيحين عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال:" كنا غزاة فكسَعَ رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين!

فقال رسول الله ﷺ:" ما بال دعوى الجاهلية ؟" قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال:" دعوها فإنها نتنة ".

قال لهم ﷺ:" دعوها فإنها نتنة " ولم يقل لهم هذا كفر وردة .. علماً أن الذي فعلوه يدخل في الموالاة الباطلة .. والعصبية للقبيلة في الباطل .. إلا أنه من الموالاة الصغرى لا الكبرى.

ونحو ذلك ما أخرجه الحاكم من حديث عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة قال: قدم بالأسارى حين قدم بهم المدينة، وسودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ عند آل عفراء في مناحتهم على عوف ومعوذ ابني عفراء، وذلك قبل أن يضرب الحجاب.

قالت سودة: فوالله إني لعندهم إذ أتينا، فقيل هؤلاء الأسارى قد أتى بهم، فرجعت إلى بيتي ورسول الله ﷺ فيه، فإذا أبو يزيد سهيل بن عمرو في ناحية الحجرة ويداه مجموعتان إلى عنقه بحبل، فوالله ما ملكت حين رأيت أبا يزيد كذلك أن قلت: أبا يزيد أعطيتم بأيديكم ألا متم كراماً؟!

فما انتبهت إلا بقول رسول الله ﷺ من البيت:" يا سودة على الله وعلى رسولِه ؟!" فقلت: يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما ملكت حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه بالحبل أن قلت ما قلت[٢٤٨].

فقول سودة رضي الله عنها:" أبا يزيد أعطيتم بأيديكم ألا متم كراماً " كبوة وزلة .. وهي من الموالاة إلا أنها تدخل في الموالاة دون موالاة .. بدليل أن النبي ﷺ لم يزد عن قوله لها:" يا سودة على الله وعلى رسوله؟!".

قال ابن تيمية في الفتاوى ٥٢٣/٧: قد تحصل للرجل موادتهم لرحم أو حاجة فتكون ذنباً ينقص به إيمانه، ولا يكون به كافراً ا– هـ.

---

٢٤٨ أخرجه الحاكم في المستدرك ٢٢/٣، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

وقال ٢٨/٢٠١: فمن كان من هذه الأمة موالياً للكفار من المشركين أو أهل الكتاب ببعض أنواع الموالاة، ونحوها: مثل إتيان أهل الباطل واتباعهم في شيء من مقالهم وفعالهم الباطل، كان له من الذم والعقاب والنفاق بحسب ذلك .. ا– هـ.

تأمل قوله " بحسب ذلك " أي بحسب ولائه ونوعه يكون له من الذم والعقاب، والنفاق .. أي ليس كل أنواع الموالاة سواء من حيث الحكم، ومن حيث الوعيد.

ـ موالاةُ العُصاة من المؤمنين:

الإيمان يزيد وينقص؛ يزيد بالطاعات وينقص بالذنوب والمعاصي .. فإن زاد الإيمان زادت موالاة المؤمنين لصاحب هذا الإيمان .. وعلى قدر زيادته .. وإن نقص إيمانه وضعف .. نقص مباشرة ولاء المؤمنين له .. وصرفوا له من الجفاء على قدر نقصان إيمانه .. وشروده عن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ .. فلا يستوي ـ في الموالاة ولا الدرجات ـ المؤمن الصالح التقي .. مع المؤمن الظالم الذي يجترح السيئات .. كما لا يستوي السابقون الأولون مع من خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً .. لا يستوون مثلاً.

قال تعالى:﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾فاطر:٣٢. فلا يستوي الظالم لنفسه مع المقتصد .. ولا الظالم لنفسه والمقتصد مع السابق بالخيرات.

وقال تعالى:﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ ﴾الجاثية:٢١.

أي أن المسلم العاصي الذي يجترح السيئات لا يستوي درجة مع من آمن وعمل الصالحات .. وبالتالي لا يوالَى على الإطلاق كما يُوالى المؤمن التقي الذي يعمل الصالحات ويجتنب الموبقات .. كذلك لا يجوز أن يُجافى أو يُعادَى على الإطلاق كما يُجافى ويُعادَى المشرك الذي يُحاد الله ورسولَه ﷺ .. وإنما بين بين بحسب ما يُظهر من طاعة أو عصيان، ومن غير زيادة أو نقصان .. وهذا أمر لا يُلقّاه إلا كل ذو حظ عظيم من العلم والإيمان .. قد تجرد من هواه لله تعالى .. وهو المراد من قوله ﷺ:" مَنْ أحبَّ لله، وأبغضَ لله، وأعطى لله، ومنَعَ لله؛ فقد استكمَلَ الإيمانَ "[٢٤٩].

قال ابن تيمية في الفتاوى ٢٨/٢٠٩: وإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر، وفجور وطاعة، ومعصية وسنة وبدعة، استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة بحسب ما فيه من الشر؛ فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة، فيجتمع له

---

[٢٤٩] رواه أبو داود، صحيح الترغيب والترهيب: ٣٠٢٩.

من هذا وهذا؛ كاللص الفقير تُقطع يده لسرقته، ويُعطى من بيت المالِ ما يكفيه لحاجته .. هذا هو الأصل الذي اتفق عليه اهل السنة والجماعة ا– هـ.

قلت: موالاته من وجه على قدر ما فيه من طاعة وسنة .. لا ينبغي أن نعارضه مع الوجه الآخر الذي يقضي بمجافاته والبراء منه على قدر ما فيه من معصية وبدعة .. وكأن وجود أحدهما يلزم انتفاء الآخر .. لا؛ وإنما يُعمل بهما معاً بحيث يُعطى كل جانب حقه من غير إفراط ولا تفريط.

أما الذي يقع في الخطأ اجتهاداً .. وكانت أصوله سنيّة صحيحة .. فالجفاء والرد حينئذٍ يقتصران على ذات الخطأ من دون صاحبه .. أما صاحبه فنتأول له .. ونحسّن به الظن .. ونحفظ له حقه من الموالاة .. ونرجو أن يكون من ذوي الأجر الواحد، كما في الحديث:" إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر " متفق عليه.

وكذلك موقف النبي ﷺ من خالد بن الوليد ﷺ .. لما استعجل قتل أولئك النفر من بني جذيمة الذين قالوا: صبأنا، صبأنا .. ولم يُحسنوا أن يقولوا: أسلمنا .. ظناً منهم أن كلمة صبأنا تُجزئهم .. فأُخبر النبي ﷺ بما صنع خالد، فرفع النبي ﷺ يديه، فقال:" اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد، مرتين " البخاري. فتبرأ ﷺ من صنيع خالد ولم يتبرأ من شخص خالد ﷺ.

ـ استثناء ينبغي له الانتباه:

اعلم أن من يدخل من الكافرين مسالماً في ذمة وعهد وأمان وجوار المسلمين في ديارهم، يجب أن يُحسَن إليه، ويُرفَق به، لكي يُحسِن الاستماع إلى كلام الله إن قدَّر الله له الاستماع .. وأن تُصان حرماته من أي نوع من أنواع الاعتداء والأذى .. ويُعامَل معاملة حسنة ترقى إلى مستوى أخلاق وحسن الجوار الذي أمر به الإسلام .. وكذلك من يدخل من المسلمين في جوارهم وأمانهم وعهدهم في ديارهم .. يجب عليه نحوهم أن يُحسن جوارهم وأمانهم .. وأن يفي لهم بعهدهم؛ فلا يعتدي عليهم ولا على شيء من حرماتهم .. ولا يغدر بهم في شيء .. كما يجب عليه أن يُعاملهم برفق وإحسان وقِسط وبما تقضي به أخلاق الإسلام العظيمة .. وأن يُقابل المعروف بمعروف .. والجميل بما هو أجمل .. ويشكر عليه .. وأن يُحسن جوار ومعاملة من يُجاورهم .. وهذا كله لا يجوز أن نُعارضه مع عقيدة ونصوص الولاء والبراء الآنفة الذكر أعلاه .. وكأن أحدهما يلزم من وجوده انتفاء الآخر .. كما يفعل البعض .. ويظن البعض!

واعلم أن لساحات وميادين الحرب أحكامها وأخلاقها وفقهها .. ونصوصها .. وساحات وميادين العهد والأمان أحكامها وأخلاقها وفقهها .. ونصوصها .. المختلفة .. لا يخلط بينهما إلا جاهل .. أو مغرِض .. وبالتالي لا يجوز أن نعمم الأحكام والنصوص ذات العلاقة بساحات وميادين الحرب .. وأهل الحرب .. على ساحات وميادين العهد والأمان .. وأهلها .. كما لا يجوز

العكس كذلك .. وهذا فقه ـ أشرنا إليه مراراً ـ إن لم يتنبه له العاملون من أجل الإسلام يقعون في البغي والظلم .. والغدر .. أو الجفاء .. ويجنحون إما إلى إفراط .. وإما إلى تفريط .. وكلاهما خلقان مذمومان في دين الله .. ومآلهما إلى الخسران والفشل .. والنّدم .. ولات حين مَنْدَم[٢٥٠].

* * * * *

٢٥٠ إذا أردت الوقوف على أدلة هذه المسائل .. وغيرها من المسائل ذات العلاقة بالموضوع فراجع كتابنا " الاستحلال "، فستجد فيه ـ إن شاء الله ـ مبتغاك .. وما يُغني عن الإعادة هنا.

١١- التَّقيَّةُ وفِقْهُ الاستِضعَافِ.

التقية ـ بضوابطها وشروطها الشرعية ـ حق .. وكذلك لمرحلة الاستضعاف فقهها وأحكامها المختلفة عن فقه وأحكام مرحلة القوة والتمكين .. لكن مفهوم التقية والاستضعاف ـ كغيره من المفاهيم والمصطلحات الشرعية ـ قد طالته أيادي التحريف والتشويه والتأويل من قبل أهل الأهواء، ومرضى القلوب .. ففريق توسع في فهم وشرح وممارسة التقية ـ من غير ضوابط ولا قيود ـ حتى وقعوا وأوقعوا غيرهم في النفاق؛ فأدخلوا في التقية من المعاني والأفهام السقيمة والممارسات الخاطئة ما هو الصق بالنفاق منه إلى التقية الشرعية!

فكان لذلك النهج أسوأ الأثر على الأمة وأبنائها؛ فلا الأمة قامت برسالتها ووظيفتها الموكولة بها كما ينبغي .. ولا الشعوب تكاد تنكر على الطواغيت الظالمين طغيانهم وظلمهم .. وكفرهم .. أو ينتصفون منهم لحقوقهم وحرماتهم المهدورة .. حتى أن كثيراً ممن يُصنّفون على أنهم من الدعاة والشيوخ .. نراهم قد داهنوا .. وركنوا إلى الظالمين .. ودخلوا في موالاة من يجب البراء منه .. وكتموا كثيراً من الحق مما يجب عليهم أن يصدعوا به .. فساد بسبب ذلك الجهل والظلم والخوف والفقر .. حتى أصبح واقعاً مفروضاً على الناس لا فكاك لهم منه .. مواجهته ومحاولة تصحيحه .. ضرب من الجنون والتهور .. والتهلكة .. ويتم ذلك كله تحت مسمى " التقية "، وفقه الاستضعاف كما يزعمون!

وفريق آخر مقابل .. كردة فعل على الفريق الأول ـ الآنف الذكر أعلاه ـ أراد أن يلغي استثناء التقية، وفقه الاستضعاف من الشريعة، وواقع الناس .. فضيقوا واسعاً .. وتشددوا على أنفسهم وعلى الناس فيما لا ينبغي ولا يجوز .. فوقعوا في الغلو والإفراط من حيث يدرون أو لا يدرون .. وأساؤوا الظنَّ والحكمَ على كل من يَترخَّص لنفسه برخصة التقيّة في ظروف الاستضعاف والإكراه!

فالمسألة ـ كغيرها من المسائل ـ بين إفراط وتفريط .. وغلو وجفاء .. مما حملنا على أن نعني هذا المفهوم اهتمامنا ودراستنا فنميط عنه ـ بإذن الله ـ غلو الغالي، وجفاء الجفاة من أهل التفريط والإرجاء، والله تعالى وليُّ التوفيق، فأقول:

التقيّة لغة: الخوف الذي يحمل على الحذَر، والاحتماء، والاتّقاء.

وهي اصطلاحاً تعني: إظهار الموالاة والمداراة للمشركين والظالمين باللسان لخوف محقق منهم على النفس، والعِرض، والمال، بالقَدْرِ الذي يدفع الضرر، مع إضمار العداوة والبغضاء لهم في القلب.

والتقية تقوم على ركنين: الاستضعاف، والخوف من ضررٍ محقق في حال لم يُؤخذ بالتقية .. إن انتفى واحد منهما انتفت التقية بانتفائه .. كما ينتفي العمل برخصة التقية؛ أي أن التقية لا تُذكَر ولا يُلجأ إليها مع القوة .. ووجود الشوكة والمنعة .. ولا مع وجود وتوفر دار وأجواء الأمن والأمان.

قال تعالى:﴿ لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ ﴾آل عمران:٢٨.

قوله تعالى:﴿ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ استثناء من النهي؛ أي لا توالوهم ولا يجوز لكم أن تُوالوهم إلا أن تكونوا في سلطانهم، ولا تستطيعون الهجرة أو الخروج من سلطانهم، فخفتم على أنفسكم وحرماتكم منهم خوفاً محققاً أو راجحاً، وكان هذا الخوف لا يندفع إلا بعد أن تُظهروا لهم نوع موالاة في اللسان .. فحينئذٍ يجوز لكم أن توالوهم باللسان بالقدر الذي يدفع عنكم الضرر من غير زيادة ولا نقصان، بشرطين: على أن لا تُعينوهم على المسلمين .. وأن تُضمروا لهم العداوة في القلب .. وهذا ما قال به أهل العلم والتفسير:

قال ابن جرير الطبري في التفسير ٢٢٧/٣:﴿ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾؛ إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم، فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم، وتضمروا لهم العداوة، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر، ولا تُعينوهم على مسلم بفعل.

وعن السدي قال: إلا أن يتقي تقاةً؛ فهو يُظهر الولاية لهم في دينهم، والبراءة من المؤمنين.

وعن ابن عباس قال: التقاة التكلم باللسان، وقلبه مطمئن بالإيمان.

وعنه قال: فالتقية باللسان؛ من حُمل على أمر يتكلم به وهو لله معصيةٌ، فتكلم مخافةً على نفسه، وقلبه مطمئن بالإيمان، فلا إثم عليه، إنما التقية باللسان.

وعن عكرمة في قوله:﴿ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ قال:ما لم يُهرِق دم مسلم، وما لم يستحل ماله ا– هـ.

وقال ابن كثير في التفسير:﴿ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾؛ أي من خاف في بعض البلدان والأوقات من شرهم فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته، كما قال البخاري عن أبي الدرداء أنه قال: إنا لنكشر في وجوه أقوامٍ وقلوبنا تلعنهم.

وقال الثوري: قال ابن عباس: ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان، وكذا رواه العوفي عن ابن عباس إنما التقية باللسان، وكذا قال أبو العالية وأبو الشعثاء، والضحاك، والربيع ابن أنس. وقال البخاري: قال الحسن التقية إلى يوم القيامة ا– هـ.

وقال الشوكاني في التفسير: وفي ذلك دليل على جواز الموالاة لهم مع الخوف منهم، ولكنها تكون ظاهراً لا باطناً ا– هـ.

وكذلك قوله تعالى:﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾غافر:٢٨.

فهذا الرجل المؤمن للاستضعاف والخوف كان يكتم إيمانه عن فرعون وقومه .. علماً أنه كان من قومِ فرعون " الأقباط "، ومن المقربين إليه وإلى قصره .. وقيل أنه كان من أقربائه .. يعيش مع فرعون وطغيانه بالتقية .. لكن لما هم الطاغية بقتل موسى عليه السلام .. وأراد أن يقتله .. :﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى ﴾غافر:٢٦. هنا أخذت هذا الرجل المؤمن الذي يكتم إيمانه غضبة لله .. وآثر أن يصدع بالحق .. وإن عُرِف إيمانه .. وتعرض بسبب ذلك للأذى أو القتل .. ليقينه أن حياة موسى عليه السلام أهم من حياته .. وهي تستحق منه التضحية والفداء .. فقال صارخاً بوجه الطاغية:﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾؟!

وفي الحديث، فقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال:" لا ينبغي للمؤمنِ أن يُذِلَّ نفْسَهُ "، قالوا: وكيف يُذلُّ نفْسَه؟ قال:" يَتعرَّضُ من البلاءِ لما لا يُطِيقُ "[٢٥١].

ومن تعريص النفسِ للذل، تعريضها للأخذ بالشدة والعزيمة في موضع الرخصة، مع علمه أنه ليس أهلاً للأخذ بالعزيمة .. وأنه لو فعلَ لفُتِن وفشِل .. وعرَّض نفسه للحرج والذل .. وكان ـ شرعاً ـ في مندوحة عن ذلك![٢٥٢].

وعن عائشة رضي الله عنها، أنَّ رجلاً استأذَنَ على النبيّ ﷺ فلمَّا رآهُ قال:" بئسَ أخو العشيرةِ، وبئسَ ابنُ العشيرةِ ". فلما جلسَ تَطَلَّقَ النبيُّ ﷺ في وجههِ وانبسَطَ إليه، فلما انطلقَ الرجلُ قالت له عائشةُ يا رسولَ الله، حين رأيتَ الرجلَ قلت له كذا وكذا، ثم تطلَّقتَ في وجهه وانبسَطتَ إليه؟ فقال رسول الله ﷺ:" يا عائشَةُ، متى عهدتِني فحَّاشاً، إنَّ شرَّ الناس عند الله منزلةً يومَ القيامةِ من تركَه الناسُ اتِّقاءَ شَرِّهِ، واتِّقاء فُحْشِه " متفق عليه.

وفي الأثر عن أبي الدرداء، قال:" إنَّا لنكشِّرُ في وجوه أقوامٍ ونضحكُ إليهم، وإنَّ قلوبَنا

---

٢٥١ رواه الترمذي وابن ماجه، صحيح سنن الترمذي: ١٨٣٨.

٢٥٢ الأدلة الشرعية التي تبين أن الأخذ بالعزيمة في مواطن الإكراه والتقية أولى من الأخذ بالرخصة .. محمولة على من يأخذ بالعزيمة ويوفي شرطها وحقها .. أما من عرف في نفسه ضعفاً .. وأنه لن يستطيع أن يوفي العزيمة شرطها وحقها ـ ومنه الثبات من غير انتكاس ـ الأولى بحقه حينئذٍ أن يأخذ بالرخصة .. فإن لم يَفعل .. ثم انتكس .. يكون كمن أذلَّ نفسه بنفسه، وعرَّض نفسه لما لا طاقة لها به .. وحُمِل عليه الحديث أعلاه " ليس بمؤمن .... ". وغيره من النصوص التي تبين أن الله تعالى لا يُكلف نفساً إلا وسعها!

لتلعنهم ".

وعن محمدٍ بن الحنفيّة، قال:" ليس بحكيمٍ من لا يُعاشِر بالمعروف مَن لا يجدُ من معاشرته بُدَّاً، حتى يجعل اللهُ له فرجاً أو مخرجاً "[٢٥٣].

. دار التقية وبيئتها: هي دار الاستضعاف والخوف؛ التي يكون فيها المؤمن ضعيفاً خائفاً .. وضعفه وخوفه يمنعانه من أن يصدع بالحق كاملاً .. وربما يحملانه على أن يقول كلاماً بخلاف الحق .. ولا يُشترط في الدار أن يكون دار كفر، أو دار إسلام .. فقد يكون دار إسلام فيه ظلم .. والسلطان فيه ينصر الظلم والظالمين .. ويمتحن الناس على الظلم والباطل .. كما كان في عهد الحجاج .. وعهد بعض الحكام العباسيين الذين حملوا الناس بالقوة على أن يقولوا أن القرآن مخلوق .. وقد ثبت أن من العلماء الكبار من آثر الصمت وقال تقية . خوفاً على النفس من القتل أو السجن . أن القرآن مخلوق .. ومما يُروى في ذلك أن أصحاب بِشر بن الحارث قالوا له حين ضُرِب الإمام أحمد في المحنة: يا أبا نصر، لو أنك خرجت فقلت إني على قول أحمد بن حنبل! قال بشر: أتريدون أن أقوم مقام الأنبياء .. حفظ الله أحمد من بين يديه ومن خلفه. أي أن الإمام أحمد قد قام مقام الأنبياء عندما أخذ بالعزيمة وصدع بالحق، وتحمل تبعاته .. وأنا لا أقدر على هذا الموقف ..!

كما لا يلزم من دار الكفر أن يكون دار تقية على الاطلاق؛ إذ أن من ديار الكفر ما ينتفي فيها عن المؤمن صفتي الاستضعاف والخوف .. أو إحداهما .. كما كان في الحبشة زمن النجاشي .. حيث كان الصحابة الذين هاجروا إلى الحبشة آمنين على أنفسهم وحرماتهم .. قد استطاعوا أن يُظهروا دينهم أكثر مما كانوا عليه في دارهم الأصلي .. الذي كان وقتئذٍ دار كفر أيضاً .. لكن كان كفره مغلظاً ومركباً .. يمنع المؤمنين من مجرد التعريف عن أنفسهم كمؤمنين وإظهار إيمانهم!

وفي زماننا . للإنصاف . المسلم في بعض البلاد الغربية .. يستطيع أن يُظهر دينه بصورة أفضل بكثير مما لو كان في بلده الأصلي المسمى زوراً بالإسلامي .. ومن كان كذلك لا يجوز له أن يعمل بالتقية لمجرد أنه يُقيم في دولة غير إسلامية.

وعليه فإن مجرد وجود المسلم في دار الكفر لا يستلزم بالضرورة أن يأخذ بالتقية من دون النظر إلى عنصري الاستضعاف والخوف، ومدى عجزه وضعفه عن رد الظلم والأذى عن نفسه إذا ما نزل بساحته بسبب إظهاره لدينه .. كذلك النظر إلى حجم هذا الظلم أو الأذى ونوعه .. ومدى قدرته على تحمله.

---

[٢٥٣] صحيح الأدب المفرد: ٦٨٢.

. شروط وضوابط العمل برخصة التَّقية:

للعمل بالتقية شروط وضوابط نجملها في النقاط التالية:

١- للعمل بالتقية . إضافة إلى عنصري الاستضعاف والخوف . ينبغي أن يتحقق العجز عن التحول من دار التقية إلى دار الأمن والأمان الذي يستطيع أن يُظهر فيه دينه على الوجه الأكمل والأحسن مما هو عليه في دار التقية .. أما إن كان قادراً على أن يتحول من دار التقية إلى دار الأمن والأمان .. ثم لا يَفعل .. لا يُعذر حينئذٍ لو عمل بمقتضى التقية، كما قال تعالى:﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾العنكبوت:٥٦. فمن غايات توسعة الله تعالى للأرض .. تحقيق سلامة العبادة والدين من دون خوف .. ولا تقية.

وقال تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً النساء:٩٧. فهؤلاء لم يُعذروا بالاستضعاف؛ لأنهم كانوا يستطيعون أن يُهاجروا من دار التقية والاستضعاف إلى دار الأمن والإيمان .. لكنهم لم يفعلوا شحاً بالدنيا والأوطان .. أما المستضعفون حقّاً الذين لا يستطيعون الهجرة .. ولا يجدون سبيلاً آمناً للخروج من دار التقية والاستضعاف إلى دار الأمن والأمان .. فهؤلاء معذورون ومستثنون من الوعيد الوارد في الآية أعلاه، كما قال تعالى:﴿ إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ﴾النساء:٩٨. فهؤلاء لا حرج عليهم لو لم يُهاجروا .. كما لا حرج عليهم لو لجؤوا للعمل بالتقية إن وجدت الضرورة لاستخدامها.

٢- الاستضعاف أمر نسبي، كذلك الخوف فهو أمر نسبي يختلف من شخص لآخر .. ومن مكان لآخر .. حيث كلما ازداد الاستضعاف، وازداد الخوف، وتحققت دواعيه، كلما أمكن استخدام رخصة التقية بصورة أوسع .. والعكس كذلك؛ كلما ضاقت مساحة الاستضعاف والخوف، وانتفت دواعيه، كلما قلت وضاقت فرص استخدام التقية .. وبالتالي في المجتمع الواحد .. والمكان الواحد الذي يسود فيه الظلم .. قد يجوز لشخص ما لا يجوز للآخر .. بحسب قوة كل واحد منهما .. وما لكل منهما من ركن يأوي إليه .. فمن كان لا ركن له يأوي إليه أو كان ركنه الذي يأوي إليه ضعيفاً .. يجوز له استعمال التقية ما لا يجوز لمن كان له ركن شديد يأوي إليه .. والدليل على هذا كله، إضافة لما تقدم من أدلة، قوله تعالى:﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾التغابن:١٦. وقوله تعالى:﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾البقرة:٢٨٦.

٣- التقية تكون باللسان .. دون القلب أو العمل بالجوارح .. لأن القلب أمر باطني لا سلطان لمخلوق عليه .. وبالتالي لا مبرر لممارسة التقية في القلب تحت أي ظرف من الظروف ..

ومن يتوسع .. فيمارس التقية في القلب .. يقع في الزندقة والنفاق ولا بد .. ويكون ممن شرح بالكفر صدراً.

وقولنا " دون العمل "؛ أي لا يوالي ـ في أجواء وظروف التقية ـ المشركين والظالمين بالعمل .. كأن يُعينهم على المسلمين بقتال أو نحوه .. ولا يُعنى بالعمل هنا نفي مطلق العمل .. كأن تضطره ظروف التقية أن لا يلتزم بالهدي الظاهر من لباس أو تقصير لحية أو حلقها .. أو أن يُصلي جالساً أو إيماءً برأسه .. أو أن يُكشر بوجوه الظالمين ويَضحك لهم .. أو يحتفي باستقبالهم .. ونحو ذلك .. فهذا عمل .. وهو مباح في ظروف وأجواء التقية .. ونفي العمل ـ الذي أطلقه بعض السلف ـ لا يشمل ولا يعني هذا النوع من العمل .. وإنما يعني نفي موالاة المشركين والظالمين على الإسلام والمسلمين بالعمل.

كذلك قولنا:" التقية تكون باللسان "؛ أي الموالاة تكون باللسان .. ولا يعني ذلك مطلق الموالاة باللسان .. بما في ذلك موالاتهم باللسان على المسلمين .. كأن يدلهم على عورات المسلمين .. أو يعينهم باللسان على قتل مسلم .. ونحو ذلك .. فهذا لا يجوز وإن سُمي موالاة باللسان .. لمساواتهما في الحرمة .. إذ لا يجوز للمستضعَف الذي يعمل بالتقية أن يفدي نفسه من ضرر المشركين بقتل أخيه أو إنزال الضرر به .. لمساواتهما في الحقوق والحرمة.

قال الشيباني في السِّيَر ٤/٢٤٥: ولو قالوا لأسير مسلم: اقتل لنا هذا الأسير المسلم أو لنقتلنك، لم يسعه أن يقتله لما جاء في الأثر ليس في القتل تقية، وكذلك لو أمروه بربط يديه أو رجليه، ولو كانت يد الذي يضرب بالسيف ضعيفة، فقيل له: أمسك بيدك على يديه، حتى نضربه وإلا قتلناك، لم يسعه أن يفعل هذا .. ولو هرب منهم أسير فقالوا لأسير آخر يعرف مكانه: دلنا عليه لنقتله وإلا قتلناك، لم يسعه أن يدلهم عليه. انتهى.

وقال القرطبي في التفسير ٥/٥٢٩: أجمع العلماء على أن من أُكره على قتل غيره أنه لا يجوز له الإقدام على قتله، ولا انتهاك حرماته بجلدٍ أو غيره، ويصبر على البلاء الذي نزل به، ولا يحلُّ له أن يفدي نفسَه بغيره، ويسأل الله العافية في الدنيا والآخرة ا– هـ.

قلت: وفي ذلك تحذير لمن يقع من المسلمين أسيراً عند العدو .. الذي يتهاون بتدليلهم على عورات المسلمين والمجاهدين .. تحت عنوان التقية .. وذريعة دفع الضرر والأذى عن نفسه .. لا تقيَّة في أذى العباد!

٤– تُمارَس التقية بالقدْر الذي يدفع الضرر أو الاذى عن المُستَضعَف .. إذ لا يجوز له أن يتوسع في استخدام التقية أكثر مما هو مطلوب منه؛ فإذا كان مثلاً ـ الضرر ـ يُزال ويندفع عنه بخمس

كلمات .. لا يجوز حينئذٍ أن يتطوع فيُعطيهم عشر كلمات؛ فحينئذٍ يُحاسب على الكلمات الزائدة التي أعطاها لهم من غير حاجة ولا ضرورة.

مثال آخر: إن كانت التقية ـ مثلاً ـ تبرر للمرء أن يمدح طنوساً .. كما طُلب منه .. والضرر يُرفع ويُزال عنه بمجرد أن يمدح طنوساً وحسب .. فيقوم هو فيزيد فيمدح طنوساً .. وحنَّا .. وبطرس .. وجورج .. فهو حينئذٍ يُلام على الزيادة التي أعطاها من تلقاء نفسه ومن غير ضرورة.

كذلك يُقال: إن كان يستطيع أن يستخدم المعاريض فيما طُلب منه .. وكان في استخدام المعاريض كفاية ومندوحة عن استخدام التصريح أو العبارات الصريحة .. فحينئذٍ يتعين عليه أن يستخدم المعاريض .. فإن لم يفعل أثم .. أما إن كان لا يُحسن استخدام المعاريض .. أو لا يستطيع أن يستعمل المعاريض فيما طُلب منه .. أو فيما يدفع عنه الضرر والأذى .. فحينئذٍ لا يُلزَم ولا يُطالَب باستخدام المعاريض .. ومدار أدلة المسألة على قوله تعالى:﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾التغابن:١٦.

قال القرطبي في التفسير ٥/٥٣٣: قال المحققون من العلماء: إذا تلفظ المكره بالكفر فلا يجوز له أن يجريه على لسانه إلا مجرى المعاريض، فإن في المعاريض لمندوحة عن الكذب، ومتى لم يكن كذلك كان كافراً، لأن المعاريض لا سلطان للإكراه عليها، مثاله: أن يُقال له: اكفر بالله، فيقول: باللاهي؛ فيزيد الياء. وكذلك إذا قيل له: اكفر بالنبي، فيقول: هو كافر بالنبيّ؛ مشدداً وهو المكان المرتفع من الأرض .. ا– هـ.

قلت: يُصار إلى ما قال به القرطبي عندما يكون المُكره أو المبتلى خبيراً بالمعاريض .. وقادراً على استخدام المعاريض فيما يُسأل عنه .. أما إن كان لا يُحسن ولا يستطيع أن يستعمل المعاريض .. أو لم تحضره المعاريض لحظة الإكراه .. فلا حرج عليه حينئذٍ من استخدام التصريح .. وبخاصة أننا نعيش في زمانٍ غلبت فيه العجمة على الناس .. فالناس لم يعد يُحسنون التحدث بالعربية الفصحى .. فضلاً عن كونهم يُحسنون استخدام المعاريض .. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٥– التقية رخصة .. يجوز العمل بها بشروطها وضوابطها الآنفة الذكر .. لكن أيهما أولى وأحب: العمل بها .. أم تركها والأخذ بالعزيمة؟

أقول: بحسب المصالح والمفاسد المتوخاة من العمل بالتقية أو تركها .. فإن كانت مصالح العمل بالتقية ترجح على مصالح تركها .. وكان في تركها فتنة على المرء لا يُطيقها .. فحينئذٍ يكون العمل برخصة التقية وترك العزيمة هو الأولى شرعاً وعقلاً .. قال النبي ﷺ في عمار ﷺ الذي اختار العمل برخصة الإكراه:" ما خُير عمَّار بين أمرين إلا اختار أرشدَهما "[٢٥٤].

---

٢٥٤ أخرجه الترمذي، وابن ماجه، السلسلة الصحيحة: ٨٣٥.

وإن كان العكس؛ أي المصلحة ترجح وتكمن في ترك العمل بالتقية والأخذ بالعزيمة .. وكان الأخذ بالعزيمة ممكناً ومقدوراً عليه .. ولا يترتب عليه فتنة لا طاقة للمعتزِم بها .. فحينئذٍ يكون الأخذ بالعزيمة هو الأولى شرعاً وعقلاً .. ومن الأدلة الدالة على أن العزيمة هي الأولى في هذا الموضع، قوله ﷺ:" ثلاثة من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان "، منها: " أن يَكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذَفَ في النار " متفق عليه.

وعن أبي الدرداء قال: أوصاني رسول الله ﷺ بتسعٍ، منها:" لا تُشرك بالله شيئاً وإن قُطِّعتَ أو حُرِّقتَ "[٢٥٥].

وعليه فإن القول على الإطلاق ـ كما يفعل البعض ـ بأن الأخذ بالعزيمة هو الأولى وهو الأحسن .. بغض النظر عن النتائج .. والمضاعفات .. والنظر إلى المصالح والمفاسد المترتبة عن الأخذ أو الترك .. هو قول خاطئ، مردود بالنقل والعقل.

٦– العالِم قد يأخذ بالتقية .. فهو غير مستثنى من المسلمين .. فالرخصة تشمله ـ بشروطها ـ كما تشمل غيره .. لكن لا يجتمع العلماء ـ ولا يجوز لهم أن يجتمعوا ـ على التقية .. إذ لا بد لبعضهم من أن يشذ .. ويستشرف العزيمة .. وتبعاتها .. ويُظهر اللهُ الحق على يديه .. فأمة الإسلام كما لا تجتمع على ضلالة .. كذلك لا تجتمع على كتمان علم أو حق ينبغي أن يُقال أو يظهر .. وهذا من معاني ومقتضيات حفظ الله تعالى للتنزيل، كما قال تعالى:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾الحجر:٩.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة "[٢٥٦]. ومن ذلك أنها لا تجتمع على كتمان العلم والحق تحت أي ظرف من الظروف .. فأمة محمدٍ ﷺ محفوظة وممنوعة من ذلك ولله الحمد، كما في قوله ﷺ:" لا تزال طائفةٌ من أمتي قَوَّامةً على أمرِ الله لا يضُرُّها مَن خالَفَها "[٢٥٧].

وقال ﷺ:" لا يزالُ اللهُ يَغرسُ في هذا الدين غرساً يستعملُهم في طاعتِه "[٢٥٨].

ـ مسائل وتنبيهات:

١– مما تقدم أعلاه يُعلم الفارق الضخم والكبير بين التقية في شرع الله .. وبين التقية التي يمارسها الشيعة الروافض .. ويدعون إليها .. ويعتبرونها ركناً من أركان دينهم .. وأن من لا تقية له

---

٢٥٥ صحيح الأدب المفرد: ١٤.

٢٥٦ رواه الترمذي وغيره، وصححه الشيخ ناصر في تخريج المشكاة: ١٧٣.

٢٥٧ صحيح سنن ابن ماجه: ٧.

٢٥٨ صحيح سنن ابن ماجه: ٨.

لا دين له .. والتي تعني عندهم إضمار الكفر .. والبغض .. واللعن .. والتكفير لأخيار الأمة من الصحابة والتابعين .. في القلب .. وإظهار الإسلام باللسان .. وهذا عين النفاق والزندقة .. وبالتالي لا يجوز إدراج التقية التي يتكلم عنها الشيعة الروافض ضمن التقية المشروعة بضوابطها وشروطها الآنفة الذكر.

٢– كذلك يوجد فرق كبير بين النفاق وبين التقية: النفاق هو إضمار الكفر في القلب وإظهار الإسلام على اللسان أو الجوارح. بينما التقية، هي إضمار الإيمان واليقين في القلب .. وإظهار ما يُخالف ما وقر في القلب باللسان .. لضرورة التقية بشروطها الشرعية.

٣– اعلم أن حالات ومراحل الاستضعاف لها أحكامها وفقهها .. ومن أحكامها وفقهها التقية .. وحالات ومراحل القوة والتمكين لها أحكامها وفقهها .. ومن أحكامها وفقهها الأخذ بالعزيمة .. والخلط بين المرحلتين والحالتين وبين أحكامهما .. وحمل أحكام كل مرحلة على الأخرى .. مؤداه إلى الوقوع في أخطاء فادحة لا تُحمد عواقبها .. قد تكلف العمل الإسلامي الشيء الكثير!

٤– التقية ـ بشروطها ـ تبرر بعض الكلمات القليلات .. أو بعض البسمات والضحكات للظالمين .. أو الأعمال القليلة وبقدر الحاجة والضرورة كما تقدم .. لكنها لا تبرر إقامة المناظرات المطوّلة في الجدال عن الطغاة والظالمين .. أو كتابة المراجعات والمخطوطات والتأصيلات المطولة في الجدال عن الطواغيت .. وعن أنظمتهم الفاسدة .. ومناهجهم الباطلة .. فالتقية لا تبرر مثل هذه الأفعال .. ولا يمكن لها ـ مهما وسّعنا بها ـ أن تستوعب مثل هذه الأفعال .. كما أن هذه الأفعال لا يُمكن ولا يُقبل أن تُدرج في خانة التقية!

كذلك فإن الاستضعاف وأجواء التقية لا تبرر التخلي عن العقيدة والتوحيد .. أو الانسلاخ عن المبادئ والثوابت التي جاء بها الإسلام .. كما لا تبرر انتهاج طرق أهل الباطل والبدع والزيغ والأهواء.

إذ أن ممن مروا في ظروف بلاء وجهاد .. تراهم لكي يصرفوا عيون الظالمين عنهم ينخرطون في جماعات، وطرق مُحدثة ما أنزل الله بها من سلطان .. تميل في مجملها إلى التجهم الإرجاء .. أو التصوف .. أو التشيع .. وغير ذلك من التجمعات الديمقراطية المعاصرة .. التي تعمل للإسلام عن طريق الديمقراطية .. والانتخابات النيابية التشريعية .. فهذا لا يجوز .. والتقية لا تبرر لهم أن يفعلوا ذلك!

٥– الاستضعاف حالة مرضية شاذة .. واستثنائية .. لا تجتمع الأمة عليها .. كما لا يجوز الاستسلام لها أو الرضى بها .. وإنما يجب العمل على دفعها وإزالتها .. ما أمكن إلى ذلك سبيلاً ..

وأمرُ الله تعالى عباده المؤمنين بالإعداد، كما في قوله تعالى:﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾الأنفال: ٦٠. هو من قبيل رفع صفة الاستضعاف عن المسلمين .. فالمؤمن القوي خير وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف.

وبالتالي فإن التعايش مع الاستضعاف وأحكامه مع وجود القدرة على دفعه وإزالته .. ذنب ووزر يطال المتعايشين .. وكل من رضي بتعايشهم وواقعهم .. فأحكام الاستضعاف يجوز اللجوء إليها مع العجز والضعف لا مع القدرة والقوة .. وهي رخصة للمستضعفين .. لا للأقوياء المقتدرين.

والسؤال الذي يطرح نفسه، ما الذي يجب على المسلمين في أجواء الاستضعاف والتقية .. هل يجوز لهم الاستسلام للأمر الواقع المريض .. أم يجب عليهم شيء نحو أمتهم ودينهم؟

أقول: تجب عليهم أمور عدة: منها: تشخيص أسباب الاستضعاف بدقة .. والعمل قدر الاستطاعة على دفعها وإزالتها، لاستئناف حياة إسلامية راشدة من جديد .. ومن ذلك بذل الإعداد ببعديه المادي والمعنوي ـ كما تقدم ـ والاستعانة على قضاء حوائجهم بالكتمان.

ومنها: الثبات على التوحيد الخالص، والاعتقاد الصحيح ..

ومنها: القيام بكل ما هو ميسور ومقدور عليه، فالميسور لا يسقط بالمعسور .. كنشر الدعوة بين الناس .. ودعوتهم إلى التوحيد الخالص .. وتربية الأبناء والأجيال على آداب وتعاليم الإسلام ما أمكن لذلك سبيلاً .. وغير ذلك من الأعمال الممكنة.

٦– العالِم ـ كما تقدم ـ كغيره من المسلمين يجوز له أن يأخذ بالتقية بشروطها .. لكن كلما كان العالم في موضع القدوة والأسوة .. كلما كانت العزيمة هي الأولى بحقه .. وكانت المصلحة الشرعية تقتضي منه أن يقدم العزيمة على التقية.

٧– الشخص الذي يعيش ظروف التقية وأجواءها ـ وبخاصة إن كان من المجاهدين وممن لهم سابقة جهاد وبلاء في سبيل الله ـ ثم يُصرح ببعض التصريحات الخاطئة للصحافة أو بعض وسائل الإعلام .. والتي تنم عن نوع موالاة أو مداهنة للطغاة الظالمين .. ينبغي أن يتسع بحقه التأويل .. وأن لا يتعدى الإنكار عليه ـ إن كان ولا بد ـ إلى درجة التكفير!

لا ضير في أن يُخطّأ .. أو يُنصَح .. ويبين له حدود التقية الشرعية التي يجوز استخدامها في مثل هذه المواضع .. لكن لا أرى جواز التسرع إلى تكفيره .. أو تجريمه .. لخطورة التكفير وما يترتب عليه .. ولأن النصوص الشرعية ذاتها تنهى عن التكفير في مواضع الظن والشبهات والاحتمالات .. والتي منها أجواء التقية والإكراه.

بعض قادة العمل الجهادي والإسلامي .. قد يضطرون ـ في ظروف وأجواء الخوف، والقهر، والإرهاب، والمطاردة، والجوع، والحصارات الجائرة ـ أن يستشرفوا العمل السياسي والإعلامي .. فليس كلما كشَّرَ أحدهم بوجه طاغية أو ظالم .. أو ضحك له ـ وفي قلبه يلعنه ـ نبادر إلى رميه بالكفر والنفاق .. والخروج من الإسلام .. ونحمل عليه نصوص وأدلة الموالاة والمعاداة .. كما يفعل البعض .. غفر الله لنا ولهم!

آن الأوان للعاملين في حقل الدعوة إلى الله .. أن يترفعوا عن هذا المستوى .. وهذه السلوكيات التي لا يطرب لها إلا الغُلاة!

٨- لا يجوز أن تُمارس التقية من أجل خوف موهوم مظنون .. أو خشية موهومة .. فيُخيّل للمرء أنه في خطر لا طاقة له به .. فيلتجئ للعمل بالتقية .. وفي الحقيقة أنه ليس كذلك .. وهو بغنى عن استعمال التقية أو اللجوء إليها!

كم من مسلم يعيش في مجتمع آمن نسبياً .. يمكنه أن يُمارس فيه عبادته لربه بصورة صحيحة .. كما يمكنه أن يلتزم بالهدي الظاهر من غير ضرر أو حرج .. ثم هو مع ذلك تراه يهجر الجمعة والجماعات .. ولا يلتزم بالهدي الظاهر .. لخوف موهوم مظنون .. مصدره وساوس الشيطان!

لما دخل يحيى بن معين ـ وكان ممن ترخص لنفسه فعمل بالتقية في فتنة خلق القرآن ـ على الإمام أحمد بن حنبل وهو مريض، فسلَّم عليه فلم يرد السلام، فما زال يعتذر، ويقول: حديث عمار، وقال الله:﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾النحل:١٠٦. فقلب أحمد وجهه إلى الجانب الآخر .. فقال يحيى: لا يقبل عذراً! فلما خرج يحيى قال أحمد: يحتج بحديث عمَّار؛ وحديث عمَّار مررتُ بهم وهم يسبونك، فنهيتهم فضربوني، وأنتم قيل لكم: نريد أن نضربكم .. فقال يحيى: والله ما رأيت تحت أديم السماء أفقه في دين الله منك!

الاستضعاف الناتج عن جُبنٍ غير مبرر .. لا يُبرر اللجوء إلى استعمال التقية .. وإنما يستدعي التحرر من الجبن .. ومن ثم العمل والنهوض .. بما يتعين النهوض به .. قال تعالى:﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾التوبة:١٣.

٩- لا نستطيع أن نشير إلى مجتمع من المجتمعات على أنه دار تقية على الإطلاق، أو أنه العكس .. وبالتالي نلزم جميع من فيه أن يلتزموا بالتقية أو العكس .. لأننا قد ذكرنا من قبل أن القوة وكذلك الضعف أمر نسبي يختلف من شخص لآخر .. ومن جماعة لأخرى .. وبالتالي ما يجوز للضعيف لا يجوز للقوي .. وما يجب على القوي لا يجب على الضعيف .. ومن كان له منعة أو ركناً شديداً يأوي إليه من قبيلة أو عشيرة قوية أو زعيم قوي .. أو مكانة عالية قوية في المجتمع .. يختلف

عمن ليس كذلك .. ولا عنده شيء من ذلك .. ومن كان يعيش في مجتمع من المجتمعات خفية وبإقامة مزورة .. وجواز سفر مزور .. وحيداً طريداً .. يتوقع أن يتخطفه الظالمون في أي وقت .. ليس كمن يكون من أهل البلد .. ولا يعيش شيئاً من تلك الظروف!

١٠- التقية درجات أعلاها إظهار الكفر .. وأدناها التبسّم في وجوه الظالمين والفاجرين اتقاء فجورهم وظلمهم وفحشهم .. وبالتالي لا يجوز استعمال أعلى درجات التقية .. في المواضع التي يُكتَفى فيها باستعمال أدنى درجات التقية .. أو ما يُقاربها من الدرجات .. كالضحك لهم .. مثلاً .. والذي هو أعلى درجة من التبسم!

أي لمن يريد أن يستعمل التقية .. عليه أن يجتهد في تحديد مستوى درجة التقية التي يحتاجها .. وكم يحتاج منها .. في دفع الأذى والضرر عنه .. فيلتزمها ـ نوعاً وكمَّاً ـ من غير جنوحٍ إلى زيادة أو نقصان!

كذلك لا يجوز الالتجاء إلى استعمال أعلى درجات التقية المتمثلة بإظهار الكفر باللسان .. إلا لضرورة ماسّة كبيرة .. أو لدفع ضرر بليغ محقق غير محتمل أو يصعب احتماله .. إذ ليس لأدنى ضررٍ محتمل أو حاجة يجوز أن يُتلفّظ بالكفر .. أو يجوز الالتجاء إلى استعمال أعلى درجات التقية .. والله تعالى أعلم.

* * * * *

١٢- الحُكْم والحاكميّة.

لِمَن الحكم .. ومَن له حقّ التشريع؛ حق التحليل والتحريم، والتحسين والتقبيح .. ومن ثمَّ له حق الطاعة والانقياد فيما يُشرّع ..؟

وشَرعُ مَن يجب أن يمضي في البلاد والعِباد .. وأي شرعٍ هو الأسلَم، والأحكم، والأعدَل .. شرع الخالق سبحانه وتعالى .. أم شرع عبد الله المخلوق .. ولماذا؟

هذا سؤال كبير .. قديم جديد .. يتجدد ويتكرر طرحه .. كما يتجدد الصراع والخلاف عليه ـ بصورٍ شتَّى ـ بين الفينة والأخرى .. وإلى أن يرثَ الله الأرضَ ومن عليها .. للناس في الجواب عنه مشارب .. ومذاهب .. وأهواء شتّى!

في الأنظمة الديكتاتورية الطاغية الفردية .. قالوا: هو حق خالص لشخص الحاكم أو المِلك وحِزبه؛ فله أن يشرّع ما يشاء، ويُحِل ويُحرم ما يشاء، ويُزيل من الشرائع والقوانين ما يشاء .. ويُبقي منها ما يشاء .. وفق ما يبتغي هواه .. والقانون الذي يمضي في البلاد والعباد، لا يكون قانوناً نافذاً إلا بعد موافقة وتوقيع هذا الحاكم الفرد المتسلط على البلاد والعباد .. فهو لا يُريهم ـ ولا يجوز لهم أن يروا ـ إلا ما يرى .. فالحق ما يراه هو حقاً، والباطل ما يراه هو باطلاً!

ثم أن هذا الحاكم أو المِلك الفرد تراه يُشرّع لنفسه التشريع الذي يجعله فوق المساءلة والمحاسبة أو المراجعة .. فهو يَسأل، ولا يُسأَل .. ويُحاسِب ولا يُحاسَب، والويل كل الويل لمن يتجرأ على مساءلته ومُحاسبته!

وهذا مثله في الغابرين فرعون اللعين، كما قال تعالى:﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾القصص:٣٨. أي ما علمت لكم من مشرعٍ ـ يحلل لكم ويحرم ـ ترجعون إليه في جميع شؤون حياتكم غيري .. فأنا المشرّع لكم لا أحداً غيري!

وقال تعالى:﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾غافر:٢٩. أي لا أُريكم، ولا أسمح لأحدٍ أن يُريكم، كما لا أسمح لكم أن تروا إلا ما أرى .. وما أريكم إياه هو الحق الذي ما بعده إلا الغي والضلال .. وما أكثر طغاة العصر الذين يُحاكون أسلوبه وطريقته!

وقال تعالى:﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾النازعات:٢٣-٢٤. أي كما أن التشريع من حقي وحدي، فلا أُريكم إلا ما أرى .. فأنا ربكم الأعلى الذي له الحق في أن يربيكم وينشّئكم على قانونه ونظامه وشرعه .. كما تربو وتنشأ الماشية في مزرعة صاحبها .. وبحسب ما يرمي لها من الأطعمة والأغذية .. وما أكثر فراعنة وطغاة العصر الذين يقولون مقولة فرعون هذه .. ويتخلقون بأخلاقه .. ويفعلون فعله .. وبأساليب شتى؛ بعضها تقل صراحة ووقاحة عما قاله فرعون، وبعضها يزيد!

هذا في الأنظمة الديكتاتورية ـ على اختلاف مسمياتها وصورها ـ بينما في الأنظمة الديمقراطية الليبرالية .. قالوا: المشرَّع هو عبارة عن مجموعة من الأفراد .. يُفرَزون من خلال حصولهم على أغلبية أصوات من يُشاركون في العملية الانتخابية من الشعب .. يُسمون أنفسهم نواباً ومشرعين .. تناط بهم مهمة التشريع، والتحليل والتحريم، والتحسين والتقبيح .. وسن القوانين .. والحكم على الأشياء تحسيناً وتقبيحاً .. والقانون الذي يصدر عنهم أو عن أكثريتهم هو القانون الملزم والنافذ في البلاد والعباد .. الذي لا يجوز العدول عنه.

فالأنظمة الديمقراطية لا تختلف عن الأنظمة الديكتاتورية في هذا الشأن .. سوى أنها ترى التشريع منوط بمجموعة أفراد بدلاً من أن يكون منوطاً بشخص واحد كما في الأنظمة الديكتاتورية .. فهي إذ لا تقبل أن يحتكر شخص واحد لنفسه الألوهية وخاصية التشريع .. فإنها تبارك وتقر بأن هذه الألوهية والربوبية في الأرض ينبغي أن يتمتع بها مجموعة من الأشخاص .. وكل من يرى نفسه أهلاً للتشريع، ثم يحظى بأكثر الأصوات في الانتخابات!

وفريق آخر ينتمون إلى الدّين المُحرَّف والمبدل .. أو إلى التصور الخاطئ عن الدين .. فأناطوا مهمة التشريع والتحليل والتحريم .. والتحسين والتقبيح .. وسن القوانين .. بجمع من الأحبار والرهبان .. فقالوا: هؤلاء الذين لهم الحق في أن يُحلّوا ويحرموا ـ من تلقاء أنفسهم ـ ما يشاؤون .. ولهم الحق في أن يحكموا على الأشياء ذماً ومدحاً .. فالأمر إليهم من دون الناس .. لأنهم يتكلمون باسم الله، ونيابة عن الله .. وهم المعنيين من قوله تعالى:﴿ اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ ﴾التوبة:٣١. يحلون لهم الحرام، ويحرمون عليهم الحلال من غير علم ولا سلطان من الله .. وصورة هؤلاء المشرعين تظهر بوضوح في حكم الكنيسة أو الدول التي تحكمها الكنيسة، وما لباباواتها من سلطة تشريعية ذاتية من دون الله ..!

كذلك حكم الدولة الشيعية الرافضية ـ كما في إيران ـ الذين ابتدعوا من عند أنفسهم نظام ولاية الفقيه .. الذي له ولكلماته وأفعاله قدسية، وعصمة، وصلاحيات إمامهم الغائب المعصوم والمطلقة .. كما هو مقرر في دينهم، وكتبهم!

وفريق رابع مهزوم: يرى أن الدول الحاكمة والمعاصرة تنقسم إلى قسمين: دول عظمى لها صفة السيادة والريادة والاستعمار .. الآمرة الناهية .. لا يجوز أن يُرد لها أمر .. ودول صغرى لها صفة العبودية والتبعية .. وعلى الدول الصغرى التي لها صفة العبودية والتبعية أن تستمد قوانينها وتشريعاتها من الدول الكبرى التي لها صفة السيادة والريادة والتقدم .. وأن لا تخرج عن قانون الأسياد ـ إلا فيم يسمح به الأسياد ـ حتى لا يحل بها غضب الأسياد .. ونقمة دولهم العظمى .. وهذا الفريق من الحكام العبيد هو الذي عليه غالب الأنظمة الحاكمة في بلاد العرب والمسلمين ..

وهم أحط الفرقاء ـ الآنفة الذكر أعلاه ـ قدراً .. ومكانة .. وعبودية للعبيد .. فهم الطغاة العبيد؛ طغاة على شعوبهم، عبيد لأسيادهم في الدول الاستعمارية الكبرى!

وجميع من تقدم ذكرهم ـ على ما بينهم من تباين واختلاف ـ يشتركون في صفة واحدة؛ ألا وهي: حصر وقصر مهمة التشريع بالمخلوق؛ بالإنسان .. سواء كان هذا الإنسان فرداً أم مجموعة أفراد .. أم حزباً واحداً أم مجموعة أحزاب .. فكلهم شركاء في وزر الشّرك .. والظلم .. ووزر تعبيد العبيد للعبيد .. من دون الله عزّ وجل .. وكلهم لهم ـ في دين الله ـ حكم ومسمى " الطاغوت "!

ثم ما إن تُثار قضية الحكم بما أنزل الله .. وأن الحكم ينبغي أن يكون لله تعالى وحده؛ لا لأحدٍ سواه .. إلا وتثور ثائرة طوابير الكفر والشرك، والنفاق والشقاق .. معترضين، ومستنكرين، ومتهكمين، وساخرين .. وما أكثر تلك الطوابير!

أيما دولة تحاول أن تقوم على مبدأ الحكم بما أنزل الله .. ومبدأ التحاكم إلى شرع الله .. سرعان ما تُحاصَر وتُحارَب .. وتُشوَّه صورتها .. وتُرمى بالقنابل المدمرة .. والصواريخ العابرة للقارات!

كل الشعوب .. وكل الملل والنحل ـ كما هو الواقع ـ لها كامل الحق والحرية في أن تقيم دولة وحكومة تمثلها، وتمثل أبناءها .. وتُحكم بالقانون التي تشاء .. إلا الإسلام ـ دين الله تعالى ـ لا يحق له أن يُقيم دولة في الأرض تمثله وتُمثل أبناءه وأتباعه!

صدق الله العظيم:﴿ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾البقرة:٢١٧.

يقبلون منك أن تناقشهم في كل شيء .. أن تمارس أقصى حرية المجون والتحلل من القيم والأخلاق .. لا يُبالون من أجل ذلك؛ بل تراهم يشجعون ويُرغِّبون الشعوب أن تسير في نفق التحلل والمجون والفساد والفجور إلى أقصى حد .. ولكنهم يُمانعون أشد الممانعة من أن تُطرَح عليهم مسألة لمن الحكم .. من المطاع لذاته .. من له حق التشريع، والتحليل والتحريم .. والتحسين والتقبيح .. والحكم على الأشياء .. لله الواحد الأحد أم للطاغوت .. للخالق أم للمخلوق!

فإن جاء الجواب أن الحكم والتشريع لله تعالى وحده، أجابوك من فورهم كما قال تعالى:﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ص:٥.

وقال تعالى:﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ ﴾؛ أن الله تعالى وحده هو المعبود، المألوه، والمطاع لذاته فيما يحكم ويشرّع ﴿ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ الطواغيت؛ والأنداد الذين يُشرعون من دونه ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾الزمر:٤٥.

فالله تعالى بزعمهم له من هذه الحياة الدنيا .. المعابد والمساجد وحسب .. وحصته من عباده وهذه الحياة الدنيا من يدخل تلك المعابد لحظة أو ساعة دخوله وحسب .. أما ما سوى ذلك من شؤون الحياة المختلفة .. ومن شؤون الحكم والسياسة .. فللطاغوت .. والبُعول .. ساء ما يحكمون!

قالوها بكل وقاحة وصراحة:" ما لله، لله. وما لقيصر، لقيصر "!

وقالوا:" الدين لله، والوطن للجميع "!

وهؤلاء يصدق فيهم قوله تعالى في المشركين:﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ ﴾الأنعام: ١٣٦[٢٥٩].

ونحن نقول لهؤلاء الظالمين: إنا لله وإنا إليه راجعون .. فنحن، وقيصر، والأوطان، والأرض كلها .. والكون كله وما فيه، ومن فيه .. لله رب العالمين، لا شريك له.

لا يُمانعون بأن يُعبَد الله في السماء .. وأن يكون له الحكم والأمر في السماء .. ولكنهم يُمانعون أشد الممانعة بأن يُعبَد الله في الأرض .. أو أن يكون له الحكم والأمر في الأرض .. أو أن يُطاع في الأرض من دونهم ..!

ويأبى الله إلا أن يحق الحق بكلماته ولو كره المشركون .. وأن يكون هو الإله المعبود والمطاع في السماء وفي الأرض سواء، كما قال تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ

---

٢٥٩ قال ابن كثير في التفسير:" هذا ذم وتوبيخ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعاً وكفراً وشركاً، وجعلوا لله شركاء وجزءاً من خلقه وهو خالق كل شيء سبحانه وتعالى، ولهذا قال تعالى:[وجعلوا لله مما ذرأ] أي مما خلق وبرأ [من الحرث] أي من الزرع والثمار [والأنعام نصيباً]؛ أي جزءاً وقسماً [فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا] وقوله [فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم]. قال علي بن أبي طلحة والعوفي، عن ابن عباس أنه قال: في تفسير هذه الآية إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً أو كانت لهم ثمرة، جعلوا لله منه جزءاً وللوثن جزءاً ... وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في الآية: كل شيء يجعلونه لله من ذبح يذبحونه لا يأكلونه أبداً حتى يذكروا معه أسماء الآلهة، وما كان للآلهة لم يذكروا اسم الله معه "ا– هـ.

قلت: ونحوهم قول زنادقة العصر العلمانيين: هذا لله، وهذا لقيصر .. فما كان لله . وهو المساجد والمعابد . يصل إلى قيصر، ومن حق قيصر أن يتدخل فيه .. وما كان لقيصر . وهو جميع مرافق الحياة وشؤون الحكم . لا يصل إلى الله .. ولا يحق لله أن يتدخل فيه .. فقد تشابهت قلوبهم، وأقوالهم [سَاء مَا يَحْكُمُونَ].

الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾الزخرف: ٨٤.

هذا هو موقف وقول المشركين بكل أطيافهم ومسمياتهم وصفاتهم .. عبر جميع أزمنتهم السابقة والحاضرة والمستقبلة .. الطواغيت منهم والأتباع .. فما هو موقف الإسلام، وما هو قوله الحاسم في هذه القضية الشائكة الكبيرة .. وكيف ينظر إليها .. ويتعامل معها؟

من خلال ما تقدم ندرك أن المشكلة موجودة وقائمة، وهي كبيرة جداً .. والأمة الإسلامية منذ سقوط الخلافة العثمانية وإلى الساعة هذه تُعاني من فتنة التحاكم إلى الطاغوت وشرائع الطاغوت .. وهي تعيش حالة من الانفصام بين الاعتقاد والشعور من جهة .. وبين الواقع والسلوك من جهة أخرى؛ المغاير كل التغاير عن عالم الاعتقاد والشعور!

من هنا تأتي أهمية هذا البحث، وأهمية الإجابة عن هذا السؤال الكبير: لمن الحكم في الأرض ..؟

ولماذا يجب أن يكون الحكم بما أنزل الله ..؟

وهل قضية الحكم بما أنزل الله قضية ثانوية يُمكن تجاوزها من أجل غيرها من القضايا كما يصور البعض .. أم أنها قضية جوهرية ومركزية ومصيرية لا يُمكن تعديها أو تجاوزها والتغاضي عنها .. قبل أن تُحسَم، ونُعطى عليها الإجابة الكافية الشافية!

نجيب عن هذا السؤال الهام والكبير، من أوجه عدة:

منها: أن الذي قرره الإسلام ـ وألزم به أتباعه، ودعا إليه جميع الناس ـ في جميع الكتب السماوية .. وعلى لسان جميع الأنبياء والرسل؛ من لدن آدم عليه السلام إلى نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه: أن الحكم والتشريع لله تعالى وحده لا شريك له .. فكما أن له ﷻ الخلق فله كذلك الحكم والأمر .. وكما أن هذا الكون ـ كل الكون ـ تنتظم حركاته وسكناته، ويعطي عطاءه العظيم بحكم الله وأمره، وتدبيره ورعايته .. كذلك الحياة الدنيا لا ينتظم أمرها ولا يستقيم حالها ـ وحال الناس فيها ـ على العدل والحق إلا عندما تُحكم بما أنزل الله .. وتسير وفق مشيئته الشرعية الدينية.

والعباد كما أنهم يستسلمون لحكمه القدري الكوني، لا مناص لهم من رده .. كذلك يجب عليهم أن يستسلموا لحكمه الشرعي الديني .. ويدخلوا في سلم الإسلام كافة .. والذي يعترض على حكمه الشرعي الديني كالذي يعترض على حكمه الكوني القدري ..!

وعليه فإن حق التشريع، والتحليل والتحريم، والحظر والإباحة، والتحسين والتقبيح لله تعالى وحده لا شريك له؛ وهو حق خالص له ﷻ دون أحدٍ من خلقه وهو من أخص خصائصه التي تفرّد بها عن سائر خلقه .. فكما أن الله تعالى هو الخالق المالك المتفرد بالخلق والملك، لا شريك له في الخلق والملك .. كذلك فهو سبحانه وتعالى المتفرد في الحكم والتشريع؛ لا شريك له في الحكم

والتشريع .. وكما أنه ﷻ يجب أن يُعبَد ويُطاع في النُّسك والشعائر التعبدية .. كذلك يجب أن يُعبد ويُطاع فيما يشرّع، ويأمر وينهى، ويحلل ويحرم، ويُحسّن ويُقبّح، في جميع نواحي الحياة الأخرى .. وكما أنه ﷻ هو الإله المعبود بحق في السماء، فهو كذلك الإله المعبود بحق في الأرض .. وأيما معارضة لهذا التقرير الحاسم، والإقرار للمخلوق ـ أيَّاً كان هذا المخلوق وكانت صفته ـ بهذا الحق ـ حق التشريع والتحليل والتحريم، من دون أو مع الله ـ يعني الإقرار والاعتراف لهذا المخلوق بالألوهية والربوبية، واتخاذه نداً لله عز وجل في صفاته وخصائصه .. ويعني الشرك .. ويعني بالضرورة الخروج من دائرة الإسلام إلى دائرة الكفر والشرك والعصيان .. ومن دائرة التصديق إلى دائرة التكذيب والنِّفاق .. ويعني بالضرورة مناقضة شهادة التوحيد " لا إله إلا الله " مهما كثر ترددها على اللسان؛ مجرد اللسان، فالإيمان قول، واعتقاد، وعمل .. وهو لا يُقبَل من صاحبه إلا إذا أداه بخصاله وأركانه الثلاثة معاً.

هذا الذي تقرره بجلاء ووضوح أدلة النقل، والعقل، قال تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾الزخرف: ٨٤. فكما أن الله تعالى هو المألوه المعبود المطاع بحق في السماء، كذلك فهو المألوه المعبود المطاع بحق في الأرض.

وقال تعالى:﴿ إِنِ الْحُكْمُ ﴾؛ أي ليس الحكم لأحدٍ ﴿ إِلاَّ ﴾؛ أداة استثناء جاءت بعد نفي تفيد الحصر والقصر ﴿ لِلّهِ ﴾؛ وحده لا شريك له ﴿ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ ﴾؛ أحداً ﴿ إِلاَّ ﴾؛ أداة استثناء جاءت بعد نفي تفيد الحصر والقصر ﴿ إِيَّاهُ ﴾؛ أي إلا الله تعالى وحده .. فهذا التوحيد وهذا الإفراد للخالق ﷻ في الحكم وفي العبادة هو ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾؛ الحق والمستقيم الموصل إلى خيري الدنيا والآخرة ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾يوسف: ٤٠.

ونحو ذلك قوله تعالى:﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾الأنعام: ٥٧. الحكم الكوني القدري، والحكم الشرعي الديني.

وقال تعالى:﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً ﴾الكهف: ١١٠. فالآية السابقة أعلاه دلت أن الخالق ﷻ هو المختص بالحكم والتشريع، وفي هذه الآية ينفي الخالق ﷻ أن يكون له شريك في الحكم والتشريع.

وقال تعالى:﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ ﴾يونس:٥٩. أي كيف تتجرؤون على التحليل والتحريم من تلقاء أنفسكم، ومن دون أن تستأذنوا الخالق ﷻ صاحب الأمر والشأن .. وهو الذي أنزل لعباده الرزق وليس أنتم .. والذي له وحده حق التشريع والتحليل والتحريم فيما أنزل من رزق؟!

فالتحليل والتحريم ليس من اختصاصكم، وإنما هو من اختصاص الخالق الرازق المالك .. الذي ينزل الرزق .. وبالتالي لا بد من الرجوع إليه ﷻ فيما تحلون وتحرمون .. وتحسنون وتقبحون .. فإن لم تفعلوم فأنتم﴿ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ ﴾.

ونحو ذلك قوله تعالى:﴿ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَرَامٌ ﴾؛ من تلقاء أنفسكم، ومن دون أن تستأذنوا الخالق ﷻ فيما تحلون وتحرمون وترجعون إلى حكمه وشرعه .. فهذا عين الافتراء والكذب والتعدي ﴿ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ ﴾النحل:١١٦.

وقال تعالى:﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ الطواغيت والمشرعين من دون الله ﴿ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ﴾ ذي حقٍ وقيمة﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾غافر:٢٠.

وقال تعالى:﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾؛ وهو كل حكم يخالف حكم الله، فله حكم وصفة الجاهلية ﴿ يَبْغُونَ ﴾؛ يطلبون ويرجون منه النفع والفائدة ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾المائدة:٥٠.

وفي الحديث فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" إن الله هو الحكَم وإليه الحُكم ".

وعن الحكَم بن سعيد قال: أتيت النبي ﷺ فقال:" ما اسمك؟" قال: أنا الحكَم، قال ﷺ:" بل أنت عبد الله "، قلت: فأنا عبد الله.

فحتى مجرد التسمي بـ"الحكَم" فكان النبي ﷺ ينكره، ويعمل على تغييره واستبداله باسم آخر؛ لأن " الحكَم " اسماً ومعناً هو مما يختص به الخالق وحده دون أحدٍ من خلقه.

وفي سنن أبي داود، عن هانئ أنه لما وفد على رسول الله ﷺ، مع قومه سمعهم يكنونه بأبي الحكم، فدعاه رسول الله ﷺ فقال:" إن الله هو الحكَم، وإليه الحكم، فلِمَ تُكنَّى أبا الحكم .. فما لك من الولد؟" قال: لي شريح، ومسلم، وعبد الله، قال:" فمن أكبرُهم؟" قلت: شريح، قال ﷺ:" فأنت أبو شريح "[٢٦٠].

ولما قال القائل من بني تميم للنبي ﷺ: إن حمدي زينٌ، وذمّي شين، قال له:" ذاك الله "[٢٦١]. فالحكم على الأشياء بالمدح أو الذم من خصوصيات الله تعالى وحده؛ فالله تعالى وحده هو الذي يكون مدحه زين على الإطلاق، وذمه شين على الإطلاق، وليس أنت ولا أي مخلوق غيرك أياً كان هذا المخلوق .. فما يحكم عليه المخلوق بأنه زين قد يكون في حكم الله شين، وما يحكم عليه بأنه شين، قد يكون في حكم الله تعالى زين.

---

[٢٦٠] صحيح سنن أبي داود:٤١٤٥.

[٢٦١] ذكره ابن تيمية في الفتاوى: ١٦٤/٢٨.

أما من يأبى إلا أن يستشرف خاصية التشريع، والتحليل والتحريم، والحكم على الأشياء بالتحسين والتقبيح من تلقاء نفسه وبغير سلطانٍ ولا إذنٍ من الله تعالى ـ سواء كان فرداً أو مجموعة أفراد ـ فقد جعل من نفسه نداً لله ﷻ في أخص خصائصه .. وزعم الألوهية والربوبية من أوسع أبوابها .. وقال ما قاله فرعون من قبل، كما قال تعالى:﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾القصص:٣٨. أي ما علمت لكم من مشرع ومرجعٍ ترجعون إليه في شؤون الدين والدنيا غيري .. فأنا المألوه المطاع .. فالذي أراه حلالاً فهو الحلال، والذي أراه حراماً فهو الحرام .. وليس لكم سوى اتباعي وطاعتي والدخول في عبوديتي .. ولا رأي لكم إلا الذي أريكم إياه .. ولا رشاد تسلكونه إلا الذي أهديكم وأدلكم عليه، كما قال تعالى:﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾غافر:٢٩.

وقال تعالى:﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾النازعات:٢٣-٢٤. أي أنا الرب الذي أربيكم على ما أشاء من قوانين وشرائع وعقائد .. فلا رب أعلى مني تتربون وتنشأون على دينه وتعاليمه وقانونه غيري ... ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾النازعات:٢٥. فأهلكه الله تعالى بالغرق عقوبة الأولى؛ وهي قوله﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾، والآخرة وهي قوله﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾.

وما أكثر الفراعنة والطغاة في زماننا الذين يزعمون هذا الزعم الكبير الذي زعمه فرعون من قبل .. فيقولون لشعوبهم: نحن المشرعين .. نحن الذين نحلل ونحرم .. فحق التشريع والتحليل والتحريم لنا لا لغيرنا .. فلا مشرع ترجعون إليه غيرنا .. وما علمنا لكم من مشرع تحتكمون إليه في جميع شؤون حياتكم أفضل وأحسن منا .. وغير شرعنا .. نحن الذين نربيكم على ما نريد ونهوى من الشرائع والقوانين .. وليس لكم ـ أيها الشعوب .. أيها العبيد ـ سوى طاعتنا واتباعنا .. والدخول في عبادتنا .. ومن يعصينا منكم فهو خارج على القانون .. وعلى شرعية وقانون فرعون .. والويل كل الويل له!

ومع ذلك ـ وللأسف ـ فكثير من الناس لا يرون حرجاً في الدخول في طاعتهم واتباعهم فيما يشرعون، ويحللون ويحرمون .. ويحسنون ويقبحون .. ويسنون من القوانين المضاهية لشرع الله .. وهؤلاء سواء علموا أم لم يعلموا فقد دخلوا في عبودية هؤلاء الطغاة الآثمين، وأقروا لهم بالربوبية من دون الله ﷻ.

كما قال تعالى:﴿ اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ ﴾التوبة:٣١. وذلك عندما اتبعوهم وأطاعوهم فيما يشرعون، وفيما يحللون ويحرمون بغير سلطان ولا إذن من الله تعالى .. فتلك كانت ربوبية الأحبار والرهبان .. وبذلك اتخذوهم أرباباً من دون الله ﷻ.

وقال تعالى:﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾آل عمران:٦٤.

فقوله تعالى:﴿ وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ ﴾؛ أي لا يتخذ بعضنا بعضاً مشرعين؛ نشرّع لبعضنا البعض، نحلل ونحرم لبعضنا البعض .. نعبّدُ بعضَنا لِبعض بتشريع بعضنا لبعض .. من دون الله وبغير سلطان ولا إذن من الله .. ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾؛ أي أعرضوا وأبوا إلا أن يتخذوا بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله .. ﴿ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾، ونقول لهم كذلك:﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾يوسف:٣٩.

ما أحوج البشرية في هذا العصر إلى هذا الخطاب .. إلى هذا النداء الرباني الخالد ﴿ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ ﴾.

جميع الأنظمة المعاصرة على اختلاف مسمياتها سواء الديمقراطية منها أم الديكتاتورية، الملكية أم الجمهورية .. يتخذون بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله .. ويقررون ربوبية العبيد .. وهي جميعها تقوم على مبدأ تعبيد العبيد للعبيد .. ولو ظهرت هذه العبودية أحياناً بصورة لبقة مكللة بشيء من الحريات .. كما في بعض الأنظمة الديمقراطية .. لكنها في النهاية لا تخرج عن كونها أنظمة تقرر عبودية العبيد للعبيد ..!

ومنها: أن الله تعالى هو الخالق المالك لهذا الكون وما فيه ومن فيه: فهو ﷻ المتفرد بالخلق والملك لا شريك له، وبالتالي لا بد من أن يتفرد في الأمر والحكم فيما يخلق ويملك .. كما أنَّه لا بد لهذا الكون ومن فيه وما فيه من أن يسير وفق مشيئة وحكم خالقه ومالكه ﷻ .. وليس وفق مشيئة وحكم غيره ممن لا يخلق ولا يملك شيئاً .. ولا يملك ـ في هذا الكون ـ نفعاً ولا ضراً .. والذي يُسلّم بأنَّ الله تعالى هو الخالق المالك لهذا الكون وما فيه، ومن فيه، لا بد من أن يُسلّم بأن هذا الكون ومن فيه لا بد من أن يسير وفق شرع الله تعالى وحكمه، وقانونه!

فالله تعالى لم يخلق هذا الكون وما فيه ومن فيه عبثاً من غير شريعة توضح الغايات والوسائل .. والطريق المنجي والموصل إلى ما فيه خيري الدنيا والآخرة!

لم يخلق الله تعالى هذا الكون وما فيه ومن فيه عبثاً ليسير وفق مشيئة وحكم وشرع غيره ممن لا يخلق ولا يملك شيئاً، كما قال تعالى:﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾المؤمنون:١١٥-١١٦.

وقال تعالى:﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾الذاريات:٥٦.

وقال تعالى:﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ . أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ . يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً . أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ . أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ . وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ . وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾البلد: ٤-١٠.

فالذي يخلق ويملك هو الذي له كامل الحق في أن يُشرّع ويقنن لمن يخلق ويملك .. أما من لا يخلق ولا يملك لا يحق له أن يشرع ويقنن لما لا يملك ولا يخلق.

كيف يليق بعقل الإنسان أن يُسلِّم ـ ولا بد له أن يُسلِّم ـ بأن الله تعالى هو خالقنا ومالكنا ورازقنا .. وخالق ومالك هذا الكون وما فيه ومن فيه .. ثم في المقابل الذي يمضي في هذا الكون .. في هذه المملكة الواسعة الشاسعة التي تتسع لجميع المخلوقات .. حكم وشرع غيره، من لا يخلق ولا يملك شيئاً من هذا الكون؟!

كم هو مستهجن ومستقبح أن يأتي جاهل بصنعة السيارات ـ مثلاً ـ ليقول لصانعها تنحى جانباً فأنا الذي أحدد أنظمتها وقوانينها وسرعتها، لا أنت .. فكيف بهذا الجاهل الضعيف لو قال للخالق ﷻ الذي خلق هذا الكون الفسيح وما فيه ومن فيه فأحسن الخلق على أجمل وأكمل صورة .. أنا الذي أشرّع وأقنن لهذا الكون وما فيه ومن فيه، لا أنت، وهذا الكون لا بد من أن يسير وفق شرعي وقانوني ومشيئتي وليس شرعك وقانونك ومشيئتك .. ألا ينبغي أن يكون أكثر استهجاناً .. ومعارضة للنقل الصحيح، والعقل السليم .. وكل منطق سليم!

كيف نستهجن الأول ولا نستهجن الآخر وهو أكثر من الأول معارضة لكل عقل ونقل، ومنطق سليم؟!

ونقول كذلك: أن هذا الإنسان من جملة من خلقهم الله تعالى في هذه الأرض .. وبالتالي لا بد له من أن يعيش وفق أمر وشرع هذا الخالق ﷻ وحده .. يستأذنه في كل شيء .. يستأذنه فيما يفعل وفيما لا يفعل .. وفيما يُحل وفيما يُحرم .. وفيما يأكل ويشرب وفيما يدع من ذلك .. إذ لا يليق بالإنسان أن يكون مربوباً مملوكاً ومخلوقاً لرب واحد .. وهذا الرب له كامل الفضل عليه؛ يتفضل عليه بالنعم التي لا تُحصى .. وهو يعيش في مملكته وعلى مائدته على مدار الوقت لا قدرة له على الاستغناء عنه ثانية واحدة .. ثم هذا الإنسان يكفر الفضل والنعم ويجحدها ليعيش وفق مشيئة وشرع أرباب وآلهة مزيفة ضعيفة جاهلة لا تخلق ولا تملك شيئاً .. لا تملك نفعاً ولا ضراً؟!

فالذي لا يخلق ولا يملك شيئاً، بل ولا يملك لنفسه ـ فضلاً عن أن يملك لغيره ـ نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله .. فالعجز والضعف والنقص يُحيط به من كل جوانبه .. وهو مخلوق مربوب مملوك لله تعالى وحده .. فمن كان كذلك لا يستحق أن يكون رباً ولا مشرعاً .. كما لا يليق به أن

يعلو قدر ومقام العبودية لخالقه ومالكه وسيده .. ليمارس ـ جهلاً وظلماً وعدواناً وطغياناً ـ خصائص الربوبية والألوهية .. ويُخاصم الخالق ﷻ في صفاته وخصائصه!

هذا المعنى قد أشار إليه القرآن الكريم باستفاضة وتوسع، قال تعالى:﴿ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾الأعراف:٥٤. فالذي له الخلق، فله حصراً وقصراً الحكم والأمر ﴿ تَبَارَكَ اللّهُ ﴾؛ أي تعاظم وتعالى شأنه ﷻ عن أن يكون له شريك في الخلق أو شريك في الحكم والأمر .. وهو ﴿ ربُّ العالمين ﴾. فمن سلّم بأن لله الخلق .. لا يُستحسن منه بعد ذلك أن يُجادل فيمن يكون له الأمر!

وقال تعالى:﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾الأعراف:١٩١. وهذا سؤال تقريعي استنكاري موجه لكل مشرك؛ أي كيف تتوجهون بالعبادة والطاعة والتحاكم إلى شرع من لا يخلق شيئاً، وهو مخلوق مربوب شأنه شأن أي مخلوق .. فتشركونه مع الله، وتجعلون منه نداً للخالق سبحانه وتعالى .. فهذا لا ينبغي، ولا يليق بالعقلاء، ولا بمن يحترم نفسه وعقله!

وقال تعالى:﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾النحل:١٧. هل يستويان مثلاً الذي لا يخلق فيُعبَد ويُطاع، ويُرد له الأمر كمن يخلق وله الخلق كله ﷻ ﴿ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾؛ أي تتنبهون فتعلمون أن المتفرّد بالخلق؛ وهو الله تعالى وحده هو الذي يجب أن تفردوه وتخصوه بالعبادة والطاعة والتحاكم إلى شرعه دون أحدٍ سواه؟!

وقال تعالى:﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾الصافات:١٢٥. يا سبحان الله يعبدون بعلاً .. يُطيعون بعلاً .. يتحاكمون إلى بعلٍ .. يدعون ويستغيثون ببعلٍ .. الذي لا يخلق، ولا يقدر على شيء .. ويذرون أحسنَ الخالقين؟!

وبعلٌ هذا صنم كان يُعبَد من دون الله .. وما أكثر البعول في زماننا التي تُعبد من دون الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾الحج: ٧٣.

فقوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ خطاب من الله تعالى إلى كل الناس وإلى يوم القيامة مؤمنهم وكافرهم؛ فالمؤمن يزداد بهذا المثل إيماناً وهدىً، والكافر المعاند يزداد به كفراً وضلالاً إلا من شرح الله صدره للإسلام.

﴿ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾؛ فافهموه، وتأملوه، وتدبروه .. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ فتعبدونهم من دون الله؛ تتوجهون لهم بالدعاء، والطاعة، والتحاكم، وغير ذلك مما يدخل في

معنى ومسمى العبادة .. فهؤلاء ﴿ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ ومن كان بهذا العجز والضعف لا يصلح أن يكون مألوهاً معبوداً من دون الله .. وبالتالي كيف تتخذونه إلهاً ورباً من دون الله تُحلون ما يُحل، وتُحرمون ما يُحرم، وتُحسنون ما يُحسن، وتُقبحون ما يُقبح، وهو أضعف من أن يخلق ذباباً أو أن يستنقذ ما يسلبه الذباب منه .. فهذا لعمر الحق هو عين الضلال المبين، وعين الظلم، والجهل، والجحود!

وقال تعالى:﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾لقمان:١١.

﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ ﴾ فكل هذا الكون الفسيح ومن فيه وما فيه من اتقانٍ وإبداع وجمال وعظمة هو من خلق الله .. وهو دليل على عظمة الخالق ﷻ .. وأنه الإله والرب المستحق للعبادة وحده .. ﴿ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ لا شيء .. وهم أعجز من أن يخلقوا شيئاً .. وبالتالي كيف يُعبَدون من دون الله تعالى .. كيف تتخذونهم آلهة وأرباباً وهم بهذا الوصف من العجز والضعف .. وتذرون أحسن الخالقين؛ الخالق لهذا الكون وما فيه ومن فيه .. المتفضل على عباده بالنعم التي لا تُحصى .. صدق الله العظيم ﴿ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾.

وكذلك قوله تعالى:﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴾ يعبدونهم ويُطيعونهم ويتحاكمون إليهم من دون الله .. رغم أن هذه الآلهة ﴿ لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً ﴾الفرقان:٣. وهذا عين الضلال، والجهل، والجور!

وقال تعالى:﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم]؛ الذين تعبدونهم، وتطيعونهم، وتحتكمون إلى شرائعهم وقوانينهم من دون الله [مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ]؟ لا أحد منهم يقدر على شيءٍ من ذلك .. ولكن [قُلِ اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾. وقوله تعالى ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾؛ أي كيف تُصرَفون عن عبادة وطاعة الله تعالى وحده مع قيام الدليل القاطع على حقه عليكم؛ وهو أنه تعالى هو الذي ﴿ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾، إلى عبادة وطاعة من ليس له حق عليكم، رغم قيام الدليل القاطع على عجزه وبطلان إلاهيته المزعومة، بدليل أنه لا يقدر على أن ﴿ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾.

وقال تعالى:﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾الرعد:١٦.

فقوله تعالى:﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ ﴾ أي بعد هذا الإقرار والتسليم بأن الله هو رب السماوات والأرض والذي يُسلِّم به الجميع ﴿ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ تعبدونهم وتطيعونهم وتتبعونهم فيما يشرعون لكم من دون الله .. وهم في حقيقتهم ﴿ لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعاً ﴾؛ أي جلب نفعٍ، ﴿ وَلاَ ضَرّاً ﴾؛ أي ولا دفع ضرٍّ، فضلاً عن أن يملكوه لغيرهم، ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى ﴾ المشرك الضال الذي ضل طريق التوحيد، وعبد آلهة عاجزة ضعيفة ﴿ لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ﴾ ولا لغيرهم ﴿ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً ﴾، هل يستوون هؤلاء ﴿ وَالْبَصِيرُ ﴾ المؤمن الموحد الذي يعبد الله تعالى . ربه ورب السماوات والأرض . على بصيرة وعلم ﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ ﴾ ظلمات الشرك والكفر؛ والظلمات ذُكرت بالجمع لأن الشرك ليس نوعاً واحداً وصورة واحدة بل هو أنواع وأشكال وصور متعددة تعلو بعضها بعضاً فتزيد الظلمة ظلمات ﴿ وَالنُّورُ ﴾ التوحيد والإيمان؛ فأفرد في الذكر لأن طريق التوحيد واحد، ولأن الحق واحد، والمعبود بحق واحد، والطريق الموصل إليه واحد، ﴿ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء ﴾ أنداداً يُماثلونه في خصائصه وصفاته ﴿ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾؛ أي هل من هؤلاء الأنداد الذين تعبدونهم وتطيعونهم من دون الله قد خلق شيئاً فشارك الله في الخلق فتشابه الخلق على المشركين فلم يحسنوا التمييز بين الذي خلقه الله تعالى وبين الذي خلقه هؤلاء الشركاء .. لو كان الأمر كذلك لوجد لكم عذراً أو تأويلاً .. أما أنه لم يحصل شيء من ذلك، وقد عُلم أن المتفرد بالخلق هو الله تعالى وحده فلا عذر لكم .. وحينئذٍ نقول لكم ما أمرنا الله أن نقوله لكم:﴿ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ صيغة عامة شاملة لكل شيء؛ فلا يخرج شيء في هذا الكون الفسيح عن كونه مخلوق لله ﷻ ﴿ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾.

وكذلك قوله تعالى:﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ ﴾؛ أبعد هذا الإقرار والتسليم بأن الله تعالى هو الخالق، المالك، الرازق المتصرف بهذا الكون وما فيه ومن فيه وفق مشيئته سبحانه وتعالى .. تعدلون عن عبادته وطاعته والتحاكم إلى شرعه، إلى عبادة وطاعة غيره ممن لا يملك شيئاً من خصائص وصفات الخالق المالك الرازق سبحانه وتعالى ﴿ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾يونس:٣١. ﴿ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ أي أفلا ينبغي أن يحملكم ذلك على أن تقلعوا عن الشرك .. وعبادة وطاعة الأنداد والشركاء .. وتدخلوا في توحيد الله تعالى وعبادته وطاعته؟!

وقال تعالى:﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ﴾؛ سيجيبون ويقرون بأنه الله سبحانه وتعالى هو الذي يفعل كل ذلك .. وهم بعد هذا الإقرار والتسليم .. يشركون بالله؛ فيعدلون عن عبادته وطاعته إلى عبادة وطاعة الأنداد .. فيأتي السؤال التقريعي التوبيخي ﴿ أَإِلَهٌ ﴾، أي كيف بعد هذا الإقرار

والتسليم منكم بأن الله تعالى هو الذي ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء ﴾ تتألهوا آلهةً أخرى لا يقدرون على فعل شيء من ذلك، فتعبدونهم، وتطيعونهم، وتحتكمون إلى شرعهم ﴿ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ . أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ . أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾النمل:٦٠-٦٤. وأنَّى لهم أن يأتوا بالبرهان على صحة ما هم عليه من شرك، وجَهل، وباطل وظلم ..!

ومنها: أن الله تعالى له الأسماء الحسنى والصفات العليا: والتي من مقتضاها أن لا يصدر عنه ﷻ إلا الكمال؛ العدل المطلق، والحق المطلق، والخير المطلق، والجمال المطلق، والمصلحة المطلقة .. فالشرائع والقوانين انعكاس عن صفات صاحبها؛ فإن كان صاحبها له صفات الكمال، كانت شرائعه وأحكامه لها صفة الكمال .. وإن كانت صفاته مجبولة على النقص، والجهل، والعجز .. جُبلت شرائعه وقوانينه بما جُبل به من النقص، والجهل، والعجز .. ولا بد!

فالذي له الأسماء الحسنى والصفات العليا هو الذي ينبغي أن يحكم، وحكمه وشرعه هو الذي يجب أن يمضي في البلاد والعباد، وليس حكم غيره؛ ممن لا يملك شيئاً من تلك الأسماء الحسنى، والصفات العليا .. بل تلاصقه صفات النقص والعجز والضعف، والقصور، والجهل .. ومهما ظهر أنه أوتي من العلم .. فهو في النهاية مختوم بخاتم:﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾الإسراء:٨٥. ومن كان كذلك فإن حكمه سيتسم بالنقص والخطأ والجهل والظلم .. والبلاد والعباد التي تخضع لحكمه وشرعه تكون عبارة عن حقل تجارب لقوانينه وتشريعاته الخاطئة الجائرة التي تتغير وتتبدل بين الفينة والأخرى بحسب ما تملي عليه أهواؤه وعقله القاصر .. ومصالحه الذاتية .. وكلما ظهر له خطؤه وقصوره فيم قنّن وشرّع!

فالأنظمة التي تحكمها القوانين الوضعية .. كل الأنظمة؛ الديمقراطية والديكتاتورية منها سواء .. لا تعرف الثبات ولا القرار في التشريعات وسن القوانين .. فهي تعيش عملية تغيير وتبديل مستمرة لقوانينها وشرائعها؛ فما يستحسنونه اليوم يقبحونه ويجرمونه غداً، وما يقبحونه ويجرمونه غداً قد يستحسنونه ويجمّلونه بعد غدٍ . وهكذا إلى مالا نهاية ما داموا يتصدرون موقع الحكم ومَهمة سن القوانين والتشريعات . بحسب ما يظهر لهم، وتتراءى لهم المصالح والأمور .. وبحسب ما تملي عليهم أهواؤهم وعقولهم القاصرة الجاهلة .. والإنسان الذي تحكمه تلك القوانين والشرائع الوضعية

هو وحده الذي يدفع ضريبة جهل وقصور أولئك الأرباب والرهبان، وجهل وقصور وظلم قوانينهم وشرائعهم .. وما أعظمها وأفدحها من ضريبة؛ تكون في كثير من الأحيان في الدين، والنفس، والعِرض، والمال!

عندما يقولون هذا القانون الوضعي خاطئ وظالم، ولا بد من أن نستبدله بقانون آخر .. مثلهم كمثل من يقول: قد تبين أن هذا الدواء قاتل وسام لا بد من أن نستبدله بدواء آخر .. وإلى حين ما يتم اكتشافه، واستبداله .. يكون قد مات وتضرر بسببه كل من جرى عليه هذا الدواء السّام القاتل وجربه .. والقانون الخاطئ الظالم الذي يعم جميع الناس في الدولة والمجتمع لهو أشد فتكاً وضرراً على البلاد والعباد من الدواء الذي يُكتشف فيم بعد بأنه داء وليس دواء!

صدق الله العظيم إذ أمرنا أن نقول لهؤلاء المشركين ﴿ قُلْ أَأَنتُمْ ﴾؛ على قصوركم وجهلكم، وعجزكم، وضعفكم ﴿ أَعْلَمُ ﴾؛ بمصلحة البلاد والعباد وبما ينفعهم ويضرهم ﴿ أَمِ اللّهُ ﴾البقرة:١٤٠. الذي له الأسماء الحسنى والصفات العليا؟!

يأتي الجواب في آية أخرى ليقرر حقيقة دامغة خالدة لا تقبل المراء ولا الجدال:﴿ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾البقرة:٢١٦.

وقال تعالى:﴿ اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾؛ أي لا مألوه ولا معبود ولا مُطاع ولا حاكم بحق إلا الله ﷻ .. لماذا؟ الجواب يأتي مباشرة لأنه ﴿ الْحَيُّ ﴾؛ الذي لا يموت أبداً، وله دائم البقاء أزلاً وأبداً .. ولأنه ﴿الْقَيُّومُ ﴾؛ القائم على شؤون وتدبير ورعاية خلقه .. يرعاهم بلطفه، وفضله، وعدله، ورحمته .. ومن تمام وكمال قيوميته أنه ﷻ ﴿ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ ﴾؛ أي لا يغلبه النعاس، ولا تعتريه غفلة ولا سهو ولا نوم، بل هو القائم على خلقه بالحفظ والرعاية، لا يخفى عليه شيء .. ولا قيام للخلق إلا به ﷻ، وهو مع ذلك كله له ملك ﴿ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾البقرة:٢٥٥.

والسؤال الذي يطرح نفسه: هل لهؤلاء الأرباب والمشرعين الذين يشرعون ويحلون ويحرمون بغير سلطان ولا إذن من الله تعالى .. شيء من تلك الأسماء والصفات والخصائص التي يختص بها الخالق ﷻ .. فإن كان الجواب لا .. ولا بد من أن يكون لا .. يأتي السؤال الآخر: كيف إذاً تُطاع فيم تُشرع وتحلل وتحرم .. ويُترك أحسن الخالقين الذي له الأسماء الحسنى والصفات العليا؟!

ونحو ذلك قوله تعالى:﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لماذا ..؟ لأنه ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ يعلم السر والعلَن، ما خفي وما ظهر، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض ﴿ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾الحشر:٢٢.

وكذلك قوله تعالى:﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لماذا ..؟ لأنه ﴿ الْمَلِكُ ﴾؛ السيد المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة، ﴿ الْقُدُّوسُ ﴾؛ الطاهر المبارك المتنزّه عن

صفات النقص والمخلوقين، ﴿ السَّلَامُ ﴾؛ السالم من جميع العيوب والنقائص؛ لكماله في ذاته وأفعاله، ﴿ الْمُؤْمِنُ ﴾؛ الذي يصدِّق الصادقين بما يُقيم لهم من شواهد صدقهم، والذي يؤمِّن خلقه من أن يظلمهم، ﴿ الْمُهَيْمِنُ ﴾؛ الشاهد على خلقه بأعمالهم، الرقيب عليهم، ﴿ الْعَزِيزُ ﴾؛ القاهر الذي لا يُغلَب ولا يناله ذل، ﴿ الْجَبَّارُ ﴾ الذي جبر خلقه على ما يشاء، المصلح لأمور خلقه المتصرف فيه بما فيه صلاحهم، العظيم إذا أراد أمراً فعله، ﴿ الْمُتَكَبِّرُ ﴾؛ الذي له الكبرياء والعلو، المتعالي عن كل سوء، ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ ﴾؛ تنزه الخالق وتعالى وتعاظم ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾الحشر: ٢٣[٢٦٢]. فيتخذون معه . ومن دونه . أنداداً وشركاء فيعبدونهم ويطيعونهم، ويتحاكمون إلى شرائعهم وقوانينهم .. وهم لا يملكون شيئاً من تلك الصفات والأسماء الحسنى الآنفة الذكر والتي يختص بها الخالق وحده ﷻ .. بل صفات النقص والعجز والجهل تلاحقهم طيلة حياتهم!

وقال تعالى:﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لماذا ..؟ لأن ﴿ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى ﴾طه:٨. ومن أسماء الله الحسنى: العليم، العالِم، الخبير، القدير، الجميل، الحق، الحكيم، الحَكَمُ .. الذي لا يقضي ولا يحكم ولا يأمر إلا بالحق المطلق، والعدل المطلق، والخير المطلق .. والجمال المطلق .. والذين من دونه لا يقضون بشيء؛ لأنهم ليس لهم شيء من تلك الأسماء وتلك الصفات .. بل هم مجبولون على صفات القصور والضعف، والجهل، والعجز!

كما قال تعالى:﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ﴾؛ لأن له الأسماء الحسنى والصفات العليا، ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾؛ فيعبدونهم ويطيعونهم ويتحاكمون على شرائعهم من دون الله .. ﴿ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ﴾؛ معتبر وذي بال .. ولو قضوا وحكموا فقضاؤهم وحكمهم ليس بشيء؛ لأنه صادر عن جهل وعجز وضعف وقصور ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾غافر:٢٠.

وقال تعالى:﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾المائدة:٥٠. فلا أحسن من الله تعالى حكماً ولا قضاء؛ لأن الله تعالى له الأسماء الحسنى والصفات العليا والتي من مقتضياتها أن لا يقضي ولا يحكم إلا بالأحسن والأجمل والأفضل والأنفع .. وكل حكم غير حكم الله، ويكون مغايراً لحكم الله ﷻ فهو من حكم الجهل والجاهلية والهوى الذي يجب اعتزاله والبراء منه؛ لأنه لا يأتي بخير .. وفيه من القصور والنقص كقصور ونقص وعجز صاحبه ولا بد!

وقال تعالى:﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ ﴾؛ حصراً وقصراً ﴿ هُوَ الْهُدَى ﴾؛ الذي ليس بعده إلا الضلال ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم ﴾؛ وهي كل ما يشرعونه ويحسنونه ويقبحونه ويرتأونه من عند

---

٢٦٢ انظر معاني وتفسير أسماء الله الحسنى الواردة في الآية، تفسير ابن كثير.

أنفسهم بغير سلطان من الله، وبعيداً عن هدى الله ﴿ بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾؛ أي من الدين والتوحيد، والشرائع ﴿ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾البقرة:١٢٠.

وكذلك قوله تعالى:﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾الجاثية:١٨.

فدلت الآية الكريمة أن كل صاحب شرعٍ يُخالف بشرعه شرع الله تعالى فهو صاحب هوى، ومن الذين لا يعلمون ..!

ومنها: لأن الحكم بما أنزل الله إيمان وتوحيد، وعدل، وخلافه كفر، وردة، وظلم وفسوق: وجحود وخروج من الدين .. فالمسألة من هذا الجانب لا تقبل عند المسلمين الاستهانة أو التراخي أو التأخير أو أنصاف الحلول .. أو التفاوض .. فإما الحكم بما أنزل الله فحينئذٍ يكون الإيمان والإسلام .. ويكون العباد داخلين في توحيد وعبادة الله تعالى وحده .. وإما الحكم بغير ما أنزل الله والتحاكم إلى الطاغوت وشرائع الطاغوت .. فحينئذٍ يكون الكفر والظلم والفسوق، والشرك، والردة، والخروج من الإسلام .. وتكون العبودية للطواغيت.

كما قال تعالى:﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾النساء:٦٥.

قال ابن القيم رحمه الله:" أقسم سبحانه بنفسه المقدسة قسماً مؤكداً بالنفي قبله عدم إيمان الخلق حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم من الأصول والفروع وأحكام الشرع، وأحكام المعاد وسائر الصفات وغيرها، ولم يثبت لهم الإيمان بمجرد هذا التحكيم حتى ينتفي عنهم الحرج وهو ضيق الصدر، وتنشرح صدورهم لحكمه كل الانشراح وتنفسح له كل الانفساح وتقبله كل القبول، ولم يثبت لهم الإيمان بذلك أيضاً حتى ينضاف إليه مقابلة حكمه بالرضى والتسليم وعدم المنازعة، وانتفاء المعارضة والاعتراض "ا– هـ.

وقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾النساء:٥٩.

أفادت هذه الآية الكريمة معانٍ عدة:

منها: وجوب طاعة الله ﷻ وطاعة رسوله ﷺ طاعة مطلقة؛ لأن النبي ﷺ يبلغ عن الله ﷻ، وهو لا ينطق عن الهوى كما قال تعالى:﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾النجم:٣–٤.

ومنها: وجوب طاعة أولي الأمر من المسلمين طاعة مقيدة بطاعة الله تعالى، وفيما ليس فيه معصية؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ﷻ.

ومنها: في حال حصول النزاع مع أولي الأمر، أو أولي الأمر بعضهم مع بعض .. يجب رد النزاع والتحاكم إلى الله والرسول؛ أي إلى الكتاب والسنة بعد وفاة الرسول ﷺ.

ومنها: أن السنة محفوظة كحفظ الله تعالى لكتابه، وأن السنة من الذكر الوارد في قوله تعالى:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾الحجر:٩. إذ يستحيل أن يأمر الخالق ﷻ عباده بأن يردوا نزاعاتهم إلى شيء غير محفوظ .. ولا موجود.

ومنها: أن الكتاب والسنة فيهما حل لكل نزاع أو تنازع يقع فيه البشر .. إذ يستحيل أن يأمر الخالق ﷻ عباده بأن يردوا نزاعاتهم إلى شيء ثم لا يجدوا في هذا الشيء حلاً لما قد تنازعوا فيه.

ومنها: أن من لوازم وشروط صحة الإيمان رد التنازع إلى الكتاب والسنة، فإذا انتفى الرد، انتفى معه الإيمان مباشرة، وهو المستفاد من قوله تعالى:﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾. فمن علامات صدق الإيمان بالله واليوم الآخر رد التنازع إلى الكتاب والسنة .. وليس إلى شيء سواهما.

وقال تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً ﴾النساء:٦٠. فاعتبر القرآن إيمانهم زعماً لا حقيقة له في الصدور .. وذلك بسبب عدولهم عن حكم الله ﷻ وعن التحاكم إلى شرعه .. إلى التحاكم إلى الطاغوت؛ وكل حاكم لا يحكم بما أنزل الله .. أو شرعٍ غير شرع الله ﷻ فهو طاغوت .. يجب الكفر به، واجتنابه، والبراء منه كما قال تعالى﴿ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ ﴾. وقال تعالى:﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ ﴾النحل:٣٦. ومن اجتناب الطاغوت اجتناب التحاكم إليه، وإلى شرعه، وقانونه. ونحوه قوله تعالى:﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا ﴾الزمر:١٧. أن يعبدوها في النسك، والنذر، والتحاكم .. وكل ما يدخل في معنى ومسمى العبادة.

وكذلك قوله تعالى:﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ .. فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .. فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾المائدة:٤٤-٤٥-٤٧. والمراد من الكفر، والظلم، والفسق الوارد في الآيات، الكفر الأكبر، والظلم الأكبر، والفسق الأكبر؛ لأن هذه الآيات نزلت في كفار ومشركي أهل الكتاب من اليهود، كما قال ابن عباس ﷺ:"﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾، إلى قوله:﴿ الْفَاسِقُونَ ﴾، هؤلاء الآيات الثلاث نزلت في اليهود؛ خاصة في قريظة

والنضير[٢٦٣]. وما نزل في اليهود وطريقتهم في الحكم بغير ما أنزل الله، يُستبعد أن يُراد منه الكفر الأصغر، والظلم الأصغر، والفسق الأصغر؛ كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق.

وقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾الحجرات:٢. أي خشية أن تحبط أعمالكم ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾، فإذا كان مجرد رفع الصوت فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم مدعاة لحبوط العمل، ولا يحبط العمل إلا الكفر والشرك، كما قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾الزمر:٦٥. وقال تعالى:﴿ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾الأنعام:٨٨. فمن باب أولى أن يحبط عمل من يرفع حكمه وقانونه وشرعه، على حكم، وقانون، وشرع النبي ﷺ.

لذا كان قول المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا من غير ممانعة ولا معارضة، ولا حرج في أنفسهم، ويسلموا تسليماً، كما قال تعالى:﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾النور:٥١. والتحاكم إلى الله ورسوله؛ يكون بالتحاكم إلى الكتاب والسنة بعد وفاة النبي ﷺ.

هذا قول وحال المؤمنين .. بينما قول وحال المنافقين الذين في قلوبهم مرض، مع قضية التحاكم إلى الله ورسوله ﷺ تتسم بالإعراض، والمعارضة، والصد .. كما قال تعالى:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً ﴾النساء:٦١. وقال تعالى:﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾النور:٤٨.

ومنها: لأن الحكم بما أنزل الله فيه حياة: حياة حقيقية للروح والمادة معاً .. حياة آمنة سعيدة مطمئنة تحقق التوازن المطلوب بين الروح والجسد معاً .. حياة للفرد، والجماعة، والشعوب، والأمم .. حياة للبلاد والعباد.

الحكم بما أنزل الله .. يعني تحرير العباد من عبادة العباد .. وأطرهم إلى مكمن عزتهم وسعادتهم وكرامتهم، ونجاتهم؛ إلى عبادة رب العباد؛ الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

---

[٢٦٣] صحيح سنن أبي داود:٣٠٥٣. مرجئة العصر يخفون هذا الأثر عن ابن عباس، ويعرضون عنه .. ويكثرون من الإشارة إلى قوله الآخر في الأثر:"كفر دون كفر "؛ رغبة منهم في الجدال عن طواغيت الحكم والظلم!
ومن أراد أن ينصف ابن عباس رضي الله عنه، ويعرف مذهبه في المسألة لا بد من أن يأخذ الأثرين الواردين عنه معاً، ويعمل على التوفيق فيم بينهما.

الحكم بما أنزل الله تعالى .. يعني إخراج الناس من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد والإيمان .. ومن ظلم الأديان وجورها إلى عدل الإسلام ورحمته.

الحكم بما أنزل الله .. يعني العدل المطلق في الأرض .. يعني إنصاف المظلوم من الظالم مهما كان الظالم شريفاً ورفيعاً وكان المظلوم وضيعاً وضعيفاً .. وأيّاً كان انتماء الظالم والمظلوم.

الحكم بما أنزل الله .. يعني تحقيق السلام الحق في الأرض .. السلام الذي يقوده .. ويرعاه .. ويفرضه الحق وأهله .. أما الباطل ومعه أهله لا يملكون السلام الحقيقي والعادل .. ولا مقوماته .. وفاقد الشيء لا يمكن أن يعطيه .. وواقعنا المعايش خير شاهد على ذلك.

الحكم بما أنزل الله .. يعني إيقاف هذا الدمار، والخراب، والفساد، والظلم، والعدوان الذي يضرب في الأرض؛ في جميع أطرافها وأقطارها.

الحكم بما أنزل الله .. ضرورة ملحة لا منجاة للأرض ومن عليها إلا به .. فإما الحكم بما أنزل الله وإما الدمار والغرق والهلاك.

مُعْوَل الخراب والفساد والإجرام والتدمير يعمل عمله في الأرض والمجتمعات .. ومنذ زمن بعيد .. ولا بد من إيقافه .. ولن يقف إلا بالحكم بما أنزل الله .. والسهر على تطبيق شرع الله تعالى في الأرض، وقد ضرب النبي ﷺ لذلك مثلاً فقال ﷺ:" مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقال الذين في أعلاها: لا ندعكم تصعدون فتؤذوننا، فقال الذين في أسفلها: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذِ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً " البخاري.

لا بد من أن يؤخذ على أيدي المجرمين المفسدين المخربين ـ أيّاً كانوا وكان موقعهم السيادي ـ بالمنع والزجر، والقصاص الشرعي .. وإلا غرقت السفينة، وهلكوا جميعاً .. وهلكت معهم البلاد والعباد!

وقال تعالى:﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾البقرة:١٧٩. فالقِصاص الشرعي وإن بدت منه نوع قصاوة وشدة ـ لا بد منها ـ على فرد أو مجموعة أفراد آثروا إلا أن يسيروا في طريق الخطأ والجريمة .. والشر .. إلا أن فيه منجاة وحياة حقيقية للمجتمعات والجماعات، ولملايين الناس.

تأملوا النتيجة المفزعة التي آلت إليها المجتمعات بسبب غياب العمل بالقصاص الشرعي .. تأملوا كم هي جرائم القتل، والسطو والنهب، والاغتصاب .. التي تحصل في اليوم الواحد، بل في الساعة الواحدة، بل في الدقيقة الواحدة .. وبصورة لم تعرفها البشرية من قبل!

تأملوا حجم الفساد والخراب والمجون المنتشر في الأرض كل الأرض .. وفي البر والبحر والجو سواء!

تأملوا حجم الظلم المنتشر على الرجال والنساء سواء .. تأملوا السجون وحجم الانتهاكات لحرمات وحقوق الإنسان!

تأملوا كم طفل يموت في العالم في الدقيقة الواحدة بسبب الجوع أو المرض أو عدوان المعتدين الظالمين .. بسبب سطو القوي على الضعيف .. بينما فريق آخر من المسرفين قِططهم وكلابهم تموت بسبب التخمة والإسراف والتبذير!

تأملوا كيف أن شرائع الطاغوت تنتصف وتنتصر للقوي الظالم المعتدي .. لأنه قوي .. وتهمل وتخذل الضعيف المظلوم .. لأنه ضعيف .. إذ لا حياة للضعفاء في أرض تحكمها شريعة الغاب .. تحكمها شريعة الطاغوت!

هذا كله وغيره يحصل .. بسبب غياب القصاص الشرعي .. وغياب الحكم بما أنزل الله على جميع الميادين والمستويات.

قال تعالى:﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾الشورى:٥٢. فالعمل بالقرآن والحكم به .. فيه روح وحياة للبشرية .. وإذا كان الأمر كذلك فإن مفهوم المخالفة يقتضي أن عدم الحكم بالقرآن وبالشريعة التي نزل بها القرآن الكريم .. يعني الموت والخراب والدمار والهلاك .. وكل ما هو مضاد للحياة الحقيقية.

وقال تعالى:﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء ﴾؛ من كل داء وبخاصة منها الأدواء المعنوية الروحية، الأخلاقية ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾؛ لأنهم قابلوا التنزيل بالتصديق والإيمان فانتفعوا به ، ﴿ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَاراً ﴾الإسراء:٨٢. لأنهم قابلوا التنزيل بالجحود والإعراض فلم يستفيدوا منه، بل زادهم ـ تكذيبهم بالتنزيل وإعراضهم عنه ـ خسارة إلى خسارتهم بكونهم ظالمين.

وفي الحديث فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" إقامة حدٍّ من حدود الله خيرٌ من مطرِ أربعين ليلة في بلاد الله ﷻ "[٢٦٤].

وقال ﷺ:" حدٌّ يُعمل به في الأرض، خيرٌ لأهل الأرض من أن يُمطَروا أربعين صباحاً "[٢٦٥]. فرغم أن الماء والمطر فيه حياة للأرض وأهل الأرض .. وأن الله تعالى جعل من الماء كل شيء حي .. إلا أن العمل بحد من حدود الله خير لأهل الأرض من أن يُمطروا أربعين يوماً .. وإذا كان الأمر كذلك مع حدٍّ واحد من حدود الله .. فما يكون القول لو تم العمل بمجموع حدود

---

[٢٦٤] صحيح سنن ابن ماجه:٢٠٥٦.

[٢٦٥] صحيح سنن ابن ماجه:٢٠٥٧.

وأحكام الله .. لا شك أن الخير حينئذٍ يتضاعف، لا يمكن أن يُقدَّر ولا أن يُحصى، كما قال تعالى:﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً ﴾الجن:١٦.

وقال تعالى:﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴾هود:٥٢.

وقال تعالى:﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً . يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً . وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً ﴾نوح:١٠-١٢.

وقال تعالى:﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾الطلاق:٢-٣.

ومن التقوى ـ التي يعقبها الفرج والمخرج من كل كرب وضيق ـ الحكم بما أنزل الله.

ومع ذلك يوجد من المنافقين من بني جلدتنا مَن يخوف الناس الحكمَ بما أنزل الله .. ومن قيام دولة تحكم بما أنزل الله .. يخوفونهم عواقب الحكم بما أنزل الله .. وأنه سيجلب عليهم العداوات .. والفقر .. والخراب .. وهؤلاء هم العدو .. هم الشيطان ينطق بلسانهم، كما قال تعالى:﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾آل عمران:١٧٥. ﴿ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾التوبة:٣٠.

ـ تنبيه: لكي نستفيد من الحكم بما أنزل الله .. من شرع الله تعالى .. لا بد من أن نؤمن به .. ونخضع لسلطانه وحكمه .. ونسلم له تسليماً .. أما من كفر به، وقابله بالصد والإعراض .. والكيد والمؤامرات .. فأنّى يستفيد منه لو التمس منه الدواء والحلول لأمراضه ومشاكله .. فهو مثله ـ في هذه الحالة ـ كمن يضع الدواء على غير موضع الداء .. وكمن يأتي الشيء وضده في آنٍ معاً![٢٦٦].

قال تعالى:﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾؛ لأنهم آمنوا به .. وارتضوه حكماً لأنفسهم في جميع شؤون حياتهم الخاصة والعامة سواء ﴿ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَاراً ﴾الإسراء:٨٢. لأنهم كفروا به، وأعرضوا، وصدوا عنه .. فأنى يستفيدون منه؟!

وقال تعالى:﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى ﴾؛ هدى لكل حق، وخير، وعدل .. لكن لمن؟ يأتيك الجواب:﴿ لِّلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾البقرة :٢-٣. أما الظالمون الذين لا يؤمنون بالغيب، ولا يقيمون الصلاة، ولا ينفقون مما رزقهم الله .. فأنى أن ينتفعوا من هذا الكتاب المنزّل العظيم؟!

---

[٢٦٦] يوجد فريق من الناس، يُطالبون الإسلام بأن يعالج مشاكل مجتمعات، وأنظمة .. لا تؤمن به .. بل تعاديه وتحاربه .. وتحارب أهله .. على اعتبار أن الإسلام فيه حل وعلاج لكل مشكل .. وهؤلاء بطلبهم هذا يُخالفون النقل، والعقل!

ونحوه قوله تعالى:﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾التوبة:١٢٤-١٢٥. فقوله:﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾؛ أي كفراً إلى كفرهم، وباطلاً وظلماً إلى باطلهم وظلمهم؛ لأنهم قابلوا ما يتنزّل من الآيات والسور بالكفر والجحود والإعراض .. فأضافوا إلى تكذيبهم السابق لما قد تنزل من الكتاب تكذيباً جديداً آخر لما قد تنزل من السور والآيات .. وإلى إعراضهم السابق إعراضاً جديداً آخر لجديد التنزيل .. فازدادوا بذلك كفراً وضلالاً، وعذاباً.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللهُ به من الهُدَى والعِلْمِ، كمَثَلِ الغيثِ الكثيرِ أصاب أرضًا، فكان منها نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فأَنْبَتَتِ الكَلَأَ والعُشْبَ الكثيرَ، وكانت منها أجادِبُ، أَمْسَكَتِ الماءَ، فنفع اللهُ بها الناسَ، فشَرِبُوا وسَقَوْا وزرعوا، وأصابت منها طائفةً أخرى، إنما هي قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلَأً، فذلك مَثَلُ مَن فَقُهَ في دِينِ اللهِ، ونفعه ما بعثني اللهُ به فعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ من لم يَرْفَعْ بذلك رأسًا، ولم يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الذي أُرْسِلْتُ به " متفق عليه.

فمثل النقيّة التي قبلت الماء، فأَنْبَتَتِ الكَلَأَ والعُشْبَ الكثيرَ .. مثل المؤمن الذي قبل الإيمان والعلم فانتفع به لنفسه، ونفع به الآخرين .. وهذا أحسن الناس.

ومثل الأجادب ـ الأرض الصلبة التي لا ينضب منها ماء، ولا تُنبت كلأً ـ فأوعت وجمعت الماء من غير كلأ .. مثل من يجمع العلم لينتفع به الآخرون، من دون أن ينتفع به لنفسه .. وهذا ممن يُقال فيه:﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾الصف:٣. وقوله تعالى:﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾الجمعة:٥.

ومثل القيعان التي لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأ .. مثل المنافقين والكافرين .. الذين لا يقبلون من الهدى والعلم شيئاً .. فلا هم انتفعوا، ولا هم أفادوا ونفعوا غيرهم .. وهؤلاء أسوأ الناس!

وبعد، لأجل جميع الأوجه الآنفة الذكر أعلاه ـ وواحد منها يكفي ـ قلنا ونقول: بوجوب الحكم بما أنزل الله في جميع شؤون الحياة الخاصة منها والعامة .. وأن قضية الحكم بما أنزل الله، قضية عقدية كليّة أساسية لا يمكن تجاوزها، أو التغاضي عنها، من أجل مكاسب ومصالح أخرى ..!

فإما الحكم بما أنزل الله؛ فحينئذٍ تكون النجاة .. وتكون الحياة المفعمة بالعزة والكرامة، والحرية، والعدل، والأمن والأمان .. وإما الحكم بغير ما أنزل الله؛ فحينئذٍ يكون الكفر، والظلم، والفسوق .. وتكون العبودية للعبيد .. ويكون الدمار والهلاك!

قضية الحكم بما أنزل الله لا تقبل أنصاف الحلول .. ولا الوقوف وسطاً ـ كما يحلو للبعض ـ في منتصف الطريق؛ لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء .. كما لا تقبل القسمة بين الخالق والمخلوق .. هذا لله، وهذا لغيره .. هذا لله، وهذا لشركائهم .. لله ولشرعه المساجد والمعابد، والأحوال الشخصية .. وما سوى ذلك من شؤون الحكم والحياة لغير الله .. فحينئذٍ من يفعل ذلك، أو يرضى لنفسه هذا المنهج الضال .. نصيبه من كتاب الله تعالى، قوله تعالى:﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾البقرة:٨٥. وقوله تعالى:﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاء وَلاَ إِلَى هَؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾النساء:١٤٣.

ـ مسألة: صفة الحكم بما أنزل الله كيف تتم، ومن المسؤول عنها ..؟

أقول: الجميع ـ وكل بحسبه ـ يجب أن يحكم بما أنزل الله في نفسه، وماله، وفيم يرعى من الأشياء والأمور .. والجميع مسؤول عن إقامة شرع الله تعالى، والحكم بما أنزل الله .. بحسب موقعه ومكانته .. فالمرأة تحكم بما أنزل الله تعالى في نفسها، ومالها، وبيتها، وفيم استرعاها الله إياه، والرجل يحكم بما أنزل الله في نفسه، وماله، وأهله، وعمله، وفيم استرعاه الله إياه، والخادم يحكم بما أنزل الله في نفسه، وفي مال سيده، وما استُرعي عليه .. والحاكم أو الخليفة يحكم بما أنزل الله في نفسه، وحاشيته، ورعيته .. وما استؤمن عليه من شؤون البلاد والعباد .. كما أن على الجميع أن يُطالبوا بالحكم بما أنزل الله .. وأن يحرسوا الحكم بما أنزل الله من أي انتقاص، أو تهميش .. أو تجاوزات من قبل أي طرف أو فريق من الناس!

فقضية الحكم بما أنزل الله ليست مسؤولية الحاكم أو الخليفة وحسب .. ثم على البقية من الناس أن يناموا، وكأن الأمر لا يعنيهم في شيء .. فهذا الفهم الخاطئ مردود بقوله تعالى:﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾التغابن:١٦. فالتكاليف ـ كل التكاليف ـ بما في ذلك الحكم بما أنزل الله .. يجب أن تُؤتى، ويُعمل بها كل بحسب استطاعته وموقعه، فمن استطاع أن يُقيم حكم وشرع الله تعالى في نفسه، وأسرته .. أو عمله ومتجره، أو مزرعته، أو شركته، ومصنعه .. أو مدرسته ومعهده .. لا يُعذر لو تخلف أو قصّر فيم يستطيعه .. بحجة أن الحاكم أو الرئيس الحاكم للبلاد لم يحكم بما أنزل الله أو أنه مقصر في الحكم بما أنزل الله .. قال تعالى:﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾المدّثر:٣٨. وقال تعالى:﴿ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾الأنعام:١٦٤. وقال تعالى:﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾البقرة:٢٨٦.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" كلُّكم راعٍ ومسؤولٌ عن رعيتِه، فالإمامُ راعٍ وهو مسؤولٌ عن رعيتِه، والرجلُ في أهلِه راعٍ وهو مسؤولٌ عن رعيتِه، والمرأةُ في بيتِ زوجِها راعيةٌ،

وهي مسؤولةٌ عن رعيتِها، والخادمُ في مالِ سيدِه راعٍ وهو مسؤولٌ عن رعيتِه، فكلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِه " البخاري.

لا يوجد شخص يستطيع أن يقول عن نفسه أنه ليس مسؤولاً، ولا راعياً، ولا حاكماً على الاطلاق .. إذ لا بد من أن يكون حاكماً وراعياً بحسب موقعه، وصفته .. " فكلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِه ".

ثم عندما الجميع يلتزم الحكم بما أنزل الله في نفسه، وبيته، وفيم يملك، ويستطيع .. حينئذٍ سيسهل الحكم بما أنزل الله على مستوى الحكومات والدول .. كما سيصعب على الحاكم، أو الإمام العام أن يتنكب عن الحكم بما أنزل الله .. وقد صدق من قال: أقيموا دولة الإسلام في أنفسكم وبيوتكم .. تقم في أرضكم، ودولكم.

* * * * *

١٣- الوسَطيَّة.

الوسطيّة كلمة جميلة .. تستهويها النفوس وترتضيها .. في كثير من الأحيان تُطلَق ويراد بها معنىً باطلاً .. يُراد منها التعطيل، أو الإفراط أو التفريط!

فريق يُطلقها ويُريد منها التوسّط بين الحق والباطل .. واختيار الموقف الوسط بين الحق والباطل؛ حيث كل من الحق والباطل يتنازل عن بعض حظوظه ليلتقي مع الطرف الآخر في النقطة الوسط بينهما .. وكحل وسط بينهما .. فهذه هي الوسطية عند هذا الفريق من الناس . وما أكثرهم! . وهذا فهم خاطئ للوسطية الشرعية الحقّة!

قال تعالى:﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾القلم:٩.

وقال تعالى:﴿ وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ ﴾هود:١١٣.

قال ابن كثير في التفسير: قال ابن جرير عن ابن عباس: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا. وهذا القول حسن؛ أي لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بأعمالهم ا- هـ.

وقال تعالى:﴿ وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً . إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ﴾الإسراء:٧٤-٧٥. أي لأذقناك ضعف عذاب الحياة، وضعف عذاب الممات، يوم الآخرة.

وفريق آخر يُطلق الوسطيّة .. ويدعو إليها .. ويريد منها التفلّت من القيود والحدود الشرعية .. وتعطيل الشريعة .. على اعتبار أن الدين يدعو إلى التوسط والوسطية المنافية للتشدد .. وهذا أيضاً فهم باطل وخاطئ للوسطية الشرعية!

وفريق آخر تراه يجنح في جميع . أو غالب . شؤون دينه إما إلى الغلو والإفراط .. وإما إلى التفريط والجفاء .. ثم يحسب كل منهما أنه على حق، وأنه ينتهج الوسطية والتوسط في الدين!

وفريق آخر . كردة فعل خاطئة عن المذاهب الوارد ذكرها أعلاه . تراه يرفض الوسطية .. ويستهجن الدعوة إليها .. ويعتبرها سُبّة ونقصاً في الدين .. وهذا أيضاً فهمه خاطئ عن " الوسطية " الشرعية!

لذا يتعين علينا أن نبين الوسطية الحقّة، كما هي في دين الله تعالى .. فنقول: الوسَط، والوسطية تعني العدل، والخير، والفضل .. فوسَط الشيئ، خيره، وأعدله، وأفضله، وأحسنه .. ووسَطاً؛ أي خياراً وعدولاً .. والأوسَط؛ أي الأخير، والأفضل، والأعدل.

قال تعالى:﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾القلم:٢٨. قال أهل العلم والتفسير:﴿ أَوْسَطُهُمْ ﴾؛ أي أعدلهم، وأعقلهم، وأفضلهم، وخيرهم.

ومن لوازم ومعاني الخيرية والعدل .. أن تُطلق الوسطية، ويُراد منها التوسط بين طرفين باطلين؛ إفراط وتفريط .. غلو وجفاء .. فيكون الحق والعدل والخير وسط بينهما من غير جنوح إلى إفراط ولا إلى تفريط .. ولا إلى غلو ولا إلى جفاء .. كما يكون من مهمة الوسطية وأهل التوسط والاعتدال أطر طرفي الإفراط والتفريط إلى الحق، والاعتدال.

فالحق ليس مع غلو الخوارج الغلاة، ولا مع إرجاء المرجئة الجفاة .. وإنما هو وسط بينهما .. وهو ليس على قول الجبرية في القضاء والقدر، كما أنه ليس على قول القدرية الناكرين للقدر، وإنما وسط بينهما .. وهو كذلك وسط بين الأمن والإياس .. ووسط في الصفات بين المشبهة والمعطلة .. ووسط بين الرهبانية والانغماس في الشهوات .. ووسط بين الإسراف والتقطير .. وسط في جميع شؤون الدين التي ذهب الناس فيها مذاهب الإفراط والتفريط، مذاهب الزيادة والنقصان!

قال الطحاوي في متن العقيدة الطحاوية: قال تعالى:﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾المائدة:٣. وهو بين الغلو والتقصير، وبين التشبيه والتعطيل، وبين الجَبْر والقدَر، وبين الأمن والإياس ا– هـ.

وقال ابن القيم في مدارج السالكين ١٠٢/٢: قال بعض السلف: ما أمر الله بأمرٍ إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط وإما إلى مجاوزة؛ وهي الإفراط، ولا يبالي بأيهما ظفر، زيادة أو نقصان ا– هـ.

قال تعالى:﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ أي خياراً وعدولاً، وما كانوا ليكونوا كذلك إلا لأنهم لم يجنحوا في الدين إلى الغلو والإفراط، ولا إلى الجفاء والتفريط ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ ﴾البقرة:١٤٣. ومن يجنح في الدين إلى الإفراط أو التفريط المنافي للعدل والوسطية لا يصلح أن يكون شهيداً وحكماً على الآخرين.

قال رسول الله ﷺ:" يُدعَى نوحٌ يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلّغت؟ فيقول: نعم، فيُقال لأمته: هل بلَّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير! فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلَّغ، ويكون الرسولُ عليكم شهيداً؛ فذلك قوله:﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾. والوسط: العدل " البخاري. والعدل والعدالة من لوازم الشهادة .. إذ لا شهادة لظالم أو فاسق مجروح العدالة.

قال الطبري في التفسير: وأنا أرى أن الوسط في هذا الموضع هو الوسط الذي بمعنى الجزء الذي هو بين الطرفين، مثل وسط الدار. وأرى أن الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنهم وسط لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلوّ فيه كغلوّ النصارى الذين غلوا بالترهب وقولهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله وقتلوا أنبياءهم وكذبوا على ربهم وكفروا

به ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحبّ الأمور إلى الله أوسطها ا– هـ.

وقال عبد الرحمن السَّعدِي في التفسير:﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ أي: عدلاً خياراً، وما عدا الوسط فأطراف داخلة تحت الخطر. فجعل الله هذه الأمة وسطاً في كل أمور الدين؛ وسطاً في الأنبياء بين من غلا فيهم كالنصارى وبين من جفاهم كاليهود، بأن آمنوا بهم كلهم على الوجه اللائق بذلك. ووسطا في الشريعة لا تشديدات اليهود وآصارهم ولا تهاون النصارى. وفي باب الطهارة والمطاعم لا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاة إلا في بيعهم وكنائسهم ولا يطهرهم الماء من النجاسات، وقد حرمت عليهم الطيبات عقوبة لهم، ولا كالنصارى الذين لا ينجسون شيئاً، ولا يحرمون شيئاً، بل أباحوا ما دب ودرج. بل طهارتهم أكمل طهارة وأتمها، وأباح الله لهم الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح وحرم عليهم الخبائث من ذلك، فلهذه الأمة من الدين أكمله ومن الأخلاق أجلها، ومن الأعمال أفضلها، ووهبهم الله من العلم والحلم والعدل والإحسان ما لم يهبه لأمة سواهم، فلذلك كانوا ﴿ أُمَّةً وَسَطاً ﴾، كاملين معتدلين، ليكونوا ﴿ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ ﴾، بسبب عدالتهم وحكمهم بالقسط، يحكمون على الناس من سائر أهل الأديان ولا يحكم عليهم غيرهم ا– هـ.

وقال تعالى:﴿ وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً ﴾ حقاً وسطاً ﴿ فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ ﴾ الباطلة الضالة التي تجنح إلى الإفراط أو التفريط، إلى الغلو أو الجفاء، والمتشعبة على جنبات الطريق الوسط المستقيم يمنة أو يسرة ﴿ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾؛ أي عن السبيل الوسط الحق ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾الأنعام:١٥٣.

وفي الحديث عن جابر بن عبد الله قال:" كنا عند النبي ﷺ فخط خطاً، وخط خطين عن يمينه، وخط خطين عن يساره، ثم وضع يده في الخط الأوسَط، فقال: هذا سبيل الله، ثم تلا هذه الآية:﴿ وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾الأنعام:١٥٣.[٢٦٧].

وفي رواية: قال:" ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله، وقال: هذه سُبُل؛ على كل سبيلٍ منها شيطان يدعو إليه "، ثم قرأ الآية.

وقال تعالى:﴿ اهدِنَـا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ ﴾؛ وهو الصراط الحق الوسط .. وهو ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ ﴾؛ من الأنبياء والصديقين والشهداء ﴿ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ ﴾؛ وهم اليهود

---

[٢٦٧] صحيح سنن ابن ماجه: ١١.

الذين جنحوا في دينهم إلى التشدد، والتنطع والغلو ﴿ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾الفاتحة:٦-٧. وهم النصارى الذين جنحوا في دينهم إلى التفريط والجفاء.

وفي الحديث فقد صحّ عن النبيّ ﷺ أنه قال:" إيَّاكُم والغُلُو في الدين، فإنما هلَكَ من كان قبلكُم بالغلوّ في الدين "[٢٦٨].

وقال ﷺ:" عليكُم هَدياً قاصِداً[٢٦٩]، فإنَّهُ من يُغالِب هذا الدينَ يغلُبُه "[٢٧٠].

وعن أنس بن مالك، قال: جاء ثلاثُ رهطٍ إلى بُيوتِ أزواجِ النبيّ ﷺ، يَسأَلونَ عن عبادةِ النبيّ ﷺ، فلما أُخبِروا كأنهم تَقالُّوها ـ أي اعتبروها قليلة ـ فقالوا: أين نحن منَ النبيّ ﷺ؟ قد غفَر اللهُ له ما تقدَّم من ذَنْبِه وما تأخَّر، قال أحدُهم: أما أنا فإني أُصلّي الليلَ أبدًا، وقال آخَرُ: أنا أصومُ الدهرَ ولا أُفطِرُ، وقال آخَرُ: أنا أعتزِلُ النساءَ فلا أتزوَّجُ أبدًا، فجاء رسولُ اللهِ ﷺ فقال:" أنتمُ الذين قلتُم كذا وكذا؟ أما واللهِ إني لأخشاكم للهِ وأتقاكم له، لكني أصومُ وأُفطِرُ، وأُصلّي وأرقُدُ، وأتزوَّجُ النساءَ، فمَن رغِب عن سُنَّتي فليس مني " البخاري.

وعن سعد بن أبي وقاص، قال: لما كان من أمر عثمان بن مظعون الذي كان من ترك النساء، بعث إليه رسول الله ﷺ، فقال:" يا عثمان إني لم أومر بالرهبانية، أرغبت عن سنتي؟! قال: لا يا رسول الله، قال: إن من سنتي أن أصلي وأنام، و أصوم وأطعَم، وأنكح وأطلق، فمن رغب عن سنتي فليس مني، يا عثمان إن لأهلك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً "[٢٧١].

قال تعالى:﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ﴾؛ فاعتزَلوا النساء، والتزموا الصوامع للتعبد ﴿ ابْتَدَعُوهَا ﴾؛ من تلقاء أنفسهم ﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾؛ فلم يأمرهم الله بها، ولم يوجبها عليهم .. ﴿ إِلَّا ﴾؛ ولكن أبوا إلا أن يفعلوا ويترهبنوا ﴿ ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾؛ أي ابتغاء مرضاة الله بزعمهم .. لكنهم، ومع ذلك ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ الحديد:٢٧. أي لم يحفظوا ولم يراعوا ما قطعوه على أنفسهم من رهبانية، وانقطاع للتعبد .. فنقضوا ما تعاهدوا عليه .. وهم لا يزالوان في توسع في النقض لما قطعوا على أنفسهم من الرهبانية .. حتى وصل بهم الحال إلى أن يبيحوا لأنفسهم الزواج المثلي ـ اللواطة ـ وأن يعقدوا لقساوستهم عقود النكاح والتزواج المثلي في كنائسهم .. وما قصص اعتداء كبار

---

[٢٦٨] رواه أحمد، والنسائي، وابن ماجه، وغيرهم، السلسلة الصحيحة: ١٢٨٣. والغلو في الدين؛ هو كل ما زاد حده عن المنصوص عليه في الكتاب والسنة.

[٢٦٩] أي طريقاً معتدلاً وسطاً من غير جنوح إلى إفراط ولا تفريط.

[٢٧٠] رواه ابن أبي عاصم في السنة، وصححه الشيخ ناصر في التخريج: ٩٥. وقوله " يُغالب "؛ أي يجنح للتشدد .. ويعتزل الرفق والاعتدال .. فلا يأخذ بالرخص الشرعية حيث ينبغي الأخذ بها.

[٢٧١] رواه الدارمي، السلسلة الصحيحة: ٣٩٤.

قساوستهم ورهبانهم الجنسي على الأطفال في كنائسهم ومعابدهم .. عن مسامع الناس ببعيد .. وهو تصديق لقوله تعالى:﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾، وهذا كله بسبب الشذوذ، والرهبانية المبتدعة، والعدول عن الفطرة، والتوسط في الدين الذي أمر الله به عباده.

* * * * *

١٤- المصلحة.

الإسلام جاء لجلب المصالح وحمايتها، ودفع المفاسد ومحاربتها .. وأعلى المصالح وأجلها مصلحة تحقيق التوحيد .. وأشد المفاسد ضرراً وخطراً مفسدة الشرك والتنديد .. فالمصلحة مفهوم شرعي عظيم .. عليه مدار كثير من مسائل الفقه والدين .. ومع ذلك لم يسلم من التشويه، والتحريف، والأفهام السقيمة .. فأخضعوا " المصلحة "، لأفهامهم القاصرة، ولأهوائهم ورغباتهم ومصالحهم الخاصة .. بعيداً عن هدي الوحي وتوجيهاته .. فضلوا وأضلوا!

ففريق تحت عنوان المصلحة، وتحصيل المصلحة يقرر مصالح باطلة ملغاة شرعاً ..!

وفريق آخر يلغي مصالح معتبرة شرعاً .. ليقرر ما يضادها من المفاسد .. بزعم المصلحة، وتحصيل المصالح!

ومنهم من يعطل الشريعة، والعمل بها .. وتراه يهيم في كل واد حرامٍ ومتشابه .. تحت مزاعم تحصيل وتحقيق المصلحة!

ومنهم من يقدم المصلحة الصغرى على المصلحة الكبرى .. والمصالح القليلة الخاصة، على المصالح الكثيرة العامة .. فيستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير .. باسم المصلحة، وتحقيق المصلحة!

وفريق آخر وقف في الشِّق المقابل والمعاكس .. كردة فعل على جميع من تقدم ذكرهم .. فألغى المصلحة، والحديث عن المصلحة من قاموسه، ولغته، وتفكيره .. واستهجن الحديث ـ وكل من يتحدث ـ عن المصلحة، وجلب المصالح .. وعد المصلحة والحديث عنها ثلماً في الدين، وخنوثة فكرية، ووثناً لا يجوز للدعاة العاملين من أجل الإسلام ـ وهم في انطلاقتهم نحو أهدافهم ـ أن يعتبروه أو يلتفتوا إليه ..!

وهذا فريق قد جنح إلى الإفراط، والذي تقدمه جنح إلى التفريط والتسيب .. وكلا المذهبين على خطأ وباطل .. والحق وسط بينهما .. نستعين بالله تعالى على بيانه.

فنقول: المصلحة هي " المنفعة "، فكل ما يرتد من نفع وفائدة، على الفرد والمجتمع في الدين، والنفس، والعقل، والنسل أو العِرض، والمال .. فهو مصلحة، ومن المصلحة.

وهي تُدرَك بالنَّقل والعقل .. ونعني بالنقل، قال الله، قال رسول الله ﷺ .. والمصالح التي تُدرك بالنقل الصحيح لا تتعارض مع المصالح التي تُدرك بالعقل السليم .. وفي حال التعارض يكون العقل حينئذٍ ليس عقلاً، وإنما هو هوى وغيٌّ وضلال، كما قال تعالى:﴿ فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ ﴾النساء:١٣٥. وقال تعالى:﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾النازعات:٤١.

وقال تعالى:﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾البقرة:١٤٥. وقال تعالى:﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾القصص:٥٠. وقال تعالى:﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾المؤمنون:٧١.

والمصلحة " والمصالح " منها المعتبرة شرعاً، ومنها الملغاة، ومنها المرسَلَة.

. أولاً: مصالح معتبرة شرعاً: وهي كل ما أمر الله به نصاً من دينٍ، وتوحيد، وجهاد، وطاعة .. وعدلٍ وإحسانٍ .. فما من أمرٍ أمر الله به أو رسوله ﷺ .. إلا لمصلحة راجحة ترتد على الناس بالخير في دينهم ودنياهم، عَلِم ذلك من علم، وجهل من جهل.

قال تعالى:﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾؛ لما يترتب عليه من قتل، وآلام، وجراحات، وفقد للمحبوب ﴿ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً ﴾؛ للأسباب المتقدم ذكرها ﴿ وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾؛ لما يترتب عليه من مصالح، ومنافع ترجح تلك الأضرار بكثير ﴿ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً ﴾؛ كالتنكب عن الجهاد لما يتحقق بذلك من راحة ومتاع ولذة مستعجلة .. ﴿ وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾؛ لما يترتب عليه من ذل، وضرر في الدين والنفس، والمال يزيد بكثير عن ذاك المتاع أو النفع المستعجل والقليل الذي تحصل بسبب ترك الجهاد .. فإن كنتم في شك من ذلك .. فاستسلموا وارضوا بما كتب الله عليكم من القتال .. لماذا؟ ﴿ وَاللّهُ يَعْلَمُ ﴾؛ أين تكمن مصلحتكم، وأين يكمن الخير لكم من غيره ﴿ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾البقرة:٢١٦.

وقال تعالى:﴿ وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ ﴾؛ أي في طلبهم وقصدهم وقتالهم ﴿ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ ﴾؛ لما يصيبكم من جراحات وآلام ومشقة ﴿ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ ﴾، ولكن ﴿ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ ﴾؛ من النصر والتمكين، والعزة، والثواب يوم القيامة ﴿ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾النساء:١٠٤.

وقال تعالى:﴿ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾النساء:١٣. وقال تعالى:﴿ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً ﴾النساء:٦٩.

. ثانياً: مصالح مُلغاة شرعاً: وهي كل ما نهى الله ورسوله ﷺ عنه نصاً من شركٍ، وفحشاء، وفساد، ومنكر .. وبغي وظلم .. وتركٍ للجهاد .. وركونٍ إلى الطغاة الظالمين، وغير ذلك .. فما من أمرٍ نهى الله ورسوله عنه إلا لمفسدة راجحة، وضررٍ راجح .. حتى لو بدت في بعض جوانبه بعض المصالح والمنافع، كالخمر، والميسر، والربا .. ومظاهرة المشركين، والركون إلى الظالمين .. والدخول في موالاتهم من دون المؤمنين .. وغيرها من المنكرات والمحرمات، قال تعالى:﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ

وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾البقرة:٢١٩. فيهما منافع ومصالح .. ولكن لما كان إثمهما وضررهما أكبر وأغلظ من نفعهما .. أصبحت المصلحة المترتبة عليهما ملغاة، وغير معتبرة.

وكذلك قوله تعالى:﴿ وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾الأنعام:١٠٨. فنهى الله تعالى عن سب أصنامهم، وطواغيتهم ـ على ما في ذلك من مصلحة ـ إذا كان ذلك سيؤدي إلى مفسدة كبرى، وهي أن يسبوا الله عدواً وجهلاً بغير علم.

وقال تعالى:﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ المنافقون ﴿ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ﴾ في موالاة ومظاهرة المشركين الظالمين، يرجون المنفعة منهم ﴿ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾؛ بغلبة للمشركين على المؤمنين .. أو جدب وقحط يُصيبنا .. فيفوتنا خير وفائدة موادة المشركين وموالاتهم لو أظهرنا لهم العداء والبراء .. وبالتالي لا نريد أن نقطع ما بيننا وبينهم من حلف وموالاة .. قد نستفيد منها في تلك الظروف والدوائر ﴿ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾المائدة:٥٢.

وقال تعالى:﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء ﴾؛ شركاء يبتغون عندهم المصلحة، والمنَعة، والمنفعة .. هؤلاء مثلهم في الضعف، والوهم ﴿ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾العنكبوت:٤١.

والمصالح المعتبرة، والملغاة شرعاً المنصوص عليها في الكتاب والسنة .. لا مجال للنظر فيها والاختيار، أو القبول والرد بحسب ما تهوى الأنفس وتريد .. إذ يجب التسليم لها، والعمل بمقتضاها أمراً ونهياً؛ فنلتزم بما أُمِرنا به ظاهراً وباطناً، وننتهي عما نُهينا عنه ظاهراً وباطناً، من دون أدنى معارضة، أو تعقيب، أو رد، قال تعالى:﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾النساء:٦٥.

وقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾الحجرات:١.

وقال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً ﴾الأحزاب:٣٦.

ـ ثالثاً: المصالح المرسلَة: وهي المصالح المتركة التي لم يشهد لها النص من الكتاب أو السنة ـ على وجه التحديد والتعيين ـ بإلغاء أو اعتبار[٢٧٢].

---

[٢٧٢] المصالح المرسلة وإن لم يَشهد لها منطوق النص الشرعي على وجه التعيين والتحديد بإلغاء أو اعتبار .. لكن مفهوم الأدلة الشرعية الجامعة المانعة .. وإيحاءاتها .. وإيماءاتها .. وإشاراتها تشهد لها، فهي من هذا الوجه لم تعد

مصالح مرسلة على الإطلاق، كقوله تعالى:﴿ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾النحل:٩٠. فكل ما يدخل في العدل والإحسان من مسميات وأشياء فقد أمر الله به .. وكل ما يدخل في الفحشاء والمنكر من مسميات وأشياء فقد نهى الله عنه.

وقال تعالى:﴿ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾النحل:٩٠. العدل في كل شيء .. والإحسان في كل شيء .. ما ذُكر منه بنصٍ، وما لم يُذكر.

وقال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾المائدة:٢. فهذه آية عامّة، جامعة مانعة، وشاملة لكل ما فيه تعاون على البر والتقوى، والخير .. ما ورد فيه نص، وما لم يرد .. فالشرع قد أمر به .. وكل ما فيه تعاون على الإثم والعدوان .. ما ورد فيه نص، وما لم يرد، فالشرع قد نهى عنه.

وقال تعالى:﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾الأعراف:١٩٩. والعرف كل معروف حسن يتعارف عليه الناس، وترتضيه ذوي العقول والنهى .. فيم لا يتعارض مع نص، ولا مقصد من مقاصد الشريعة .. قال القرطبي في التفسير: قوله تعالى:﴿ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾؛ أي بالمعروف. والعرف والمعروف والعارفة: كل خصلة حسنة ترتضيها العقول، وتطمئن إليها النفوس ا– هـ.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" لا ضرر، ولا ضرار "[صحيح الجامع:٧٥١٧]. فكل ما فيه ضرر في الدين، أو النفس، أو العقل، أو العِرض، أو المال .. فهو حرام .. فالحديث شامل للنهي عن جميع أنواع الضرر، ما ورد فيه نص معين .. وما لم يرد.

وكذلك قوله ﷺ:" إن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يُتقنه "[صحيح الجامع:١٨٨٠]. فقوله " عملاً "؛ صيغة نكرة تفيد العموم؛ أي أي عمل ؛ كان عملاً شعائرياً تعبدياً، أم عملاً صناعياً .. أم زراعياً .. أم تجارياً .. أي عمل مشروع .. ينبغي أن يُؤتى على وجه الاتقان والدقة .. فالله تعالى يحب من عباده ذلك.

وكذلك قوله ﷺ:" المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف " مسلم. فالحديث عام وشامل لجميع ما يدخل من مفردات ومعاني القوة؛ أي القوي في دينه، وإيمانه، والقوي في علمه، والقوي، في جسده، والقوي في ماله .. القوي في كل شيء نافع .. فكل هذه الأنواع من القوة الحديث يشملها ويحض عليها .. والمؤمن ينبغي أن يحرص على تحصيلها وتحقيقها .. على المستوى الفردي .. والجماعات .. والدول.

ونحو ذلك قوله تعالى:﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾الأنفال:٦٠. فكل ما يدخل في معنى القوة .. أو يؤدي إلى القوة ـ ما حدد منها بنص وما لم يُحدد ـ بكل أنواعها؛ القوة العلمية والمعنوية، والمادية منها سواء .. فقد أمرنا الله تعالى بإعدادها، والسعي لتحقيقها.

وكذلك قوله تعالى في الحديث القدسي:" يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا " مسلم. فالحديث عام وشامل لجميع أنواع الظلم .. وجميع جزئياته ومسبباته مهما دقت .. ما ورد فيه نص على وجه التعيين .. وما لم يرد فيه نص .. فهو جميعه محرم على الناس .. يجب عليهم الانتهاء عنه.

وغيرها كثير من النصوص العامة الجامعة المانعة التي تحض على تحصيل المصالح ـ كل المصالح ـ سواء ما حدد منها بنص .. أو ما أرسل وأطلق منها من غير تحديد بنص .. وبالتالي عند التدقيق والتأمل لا توجد مصالح مرسلة على الاطلاق .. لم يُشر إليها النص الشرعي مطلقاً لا من جهة المنطوق، ولا من جهة المفهوم، أو التلميح

مثالها، المصالح الناتجة عن الأعمال الإدارية والتنظيمية .. كتنظيم إدارة شؤون الجيش والعسكر، وشؤون الدواوين والوظائف الحكومية .. والتطور العمراني، والصناعي، والزراعي .. ونحوها من المصالح التي لم يرد النص الشرعي في اعتبارها أو إلغائها على وجه التحديد والتعيين.

فهذا النوع من المصالح المرسلة للإنسان الاجتهاد والنظر في قبول ما ينفعه منها، ورد ما يضره منها أو ما لا نفع فيه .. وذلك وفق الضوابط والشروط التالية:

١– أن لا يؤدي العمل بالمصالح المرسلة إلى مخالفة ومعارضة ما نص الشارع على اعتباره أو إلغائه من المصالح بنص؛ كأن يكون تحسين المصالح المرسلة يتعارض مع ما قبحه وحرمه الشارع من مصالح بنص، أو فيه تقبيح ورد لما حسنه الشارع من مصالح بنص؛ من كتاب أو سنة أو إجماع، أو قياس.

مثال ذلك: استحسان مصلحة البيع وقت صلاة الجمعة .. أو أن يسن قانون إداري يلزم الموظفين والعمال بالعمل خلال صلاة الجمعة، على اعتبار أن هذا الأمر من الأمور الإدارية، والمصالح المرسلة .. فهذا لا يجوز؛ لمعارضته لنصٍ ينهى عن البيع وقت صلاة الجمعة، كما قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾الجمعة:٩.

٢– أن لا يتعارض العمل بالمصالح المرسلة مع روح الشريعة، أو شيء من المقاصد العامة التي جاء الإسلام لتقريرها، وحمايتها، وهي: الدين، والنفس، والعقل، والنسل أو العِرض، والمال .. بل يكون متوافقاً ومنسجماً معها.

والإشارة، فهذا غير ممكن، قال تعالى:﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾النحل:٨٩. فقوله ﴿ لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾؛ صيغة نكرة تفيد العموم؛ أي فيه تبيان كل شيء من أمور الشريعة مما يحتاجه الناس في معاشهم، ومعادهم .. علم ذلك من علم، وجهل ذلك من جهل.

قال الشيخ ابن العثيمين رحمه الله: فما من شيءٍ يحتاج الناس إليه في معادهم ومعاشهم إلا بينه الله تعالى في كتابه إما نصاً أو إيماءً، وإما منطوقاً، وإما مفهوماً ا– هـ.

وفي الحديث، فقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال:" إنه ليس شيءٌ يقربكم إلى الجنَّة إلا قد أمرتكم به، وليس شيء يقربكم إلى النار إلا قد نهيتكم عنه "[السلسلة الصحيحة: ٢٨٦٦]. وفي رواية:" ما تركتُ شيئاً يقربكم إلى الله تعالى إلا وأمرتكم به ".

وعن أبي ذرٍ رضي الله عنه قال:" تركَنا رسولُ الله ﷺ وما في السَّماء طائر يطيرُ بجناحيه إلا عندنا منه عِلْم "[صحيح موارد الظمآن: ٦٢]. وهذا من قبيل التمثيل والتقريب؛ فإذا كان ما من طائر يطير بجناحيه إلا وقد بين لنا النبيُّ ﷺ منه عِلماً، فكيف بما هو أجل وأعلى من ذلك من أمور الدين والدنيا؛ فهو ﷺ أشد لها تبياناً وإيضاحاً .. علم من علم، وجهل من جهل، والحمد لله الذي بفضله تتم الطيبات الصالحات.

مثال المصالح المرسلة غير المعتبرة، والتي تتعارض مع مقاصد الشريعة: سن عقوبات تعذيرية بالسجن لأشهر أو سنوات طوال، أو تعريض المتهم للتعذيب والضرب عند التحقيق معه من أجل الاعتراف بما اتهم به .. فمثل هذه الإجراءات والممارسات .. حتى لو جاءت تحت عنوان المصلحة المرسلة .. وتحصيل المصلحة العامة .. فهي مرفوضة ومردودة .. لمعارضتها لمقصد الشرع في الحفاظ على النفس البشرية عزيزة كريمة، سليمة من التعذيب النفسي والبدني بغير حق .. ولما في هذه الممارسات من ظلم وعدوان .. وتعدٍّ على كرامة وحقوق الإنسان .. التي صانها له الشرع الحنيف.

وكذلك التعليم المختلط بين الجنسين .. وما يترتب على ذلك من مصالح موهومة ومزعومة يبتغيها القوم .. فهي مصالح مردودة لمعارضتها للمقصد العام للشريعة الذي ينص على المحافظة على النسل، والعِرض.

أما المصالح المرسلة المعتبرة؛ فمثالها ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ تدوين العلوم النافعة في كتب ومؤلفات .. وتعلم اللغات والخطوط .. وتدوين الدواوين .. وإحصاء الجند، وتنظيم العسكر في كتائب وفرق وألوية .. وضبط عدد النفوس والمواليد، وإخراج بطاقات شخصية تعرف بهم وبجنسيتهم .. كذلك تنظيم الوظائف وساعات دوام العمل .. وتقنين الأحكام الشرعية في قوانين وأحكام مبوبة ومرقمة تعين القاضي على الرجوع إليها بسهولة عند ممارسته للقضاء .. وكذلك إنشاء جمعيات، ونقابات ومؤسسات مدنية ومهنية .. تتابع الحقوق والواجبات، وتُسائل المسؤولين على تقصيرهم وتفريطهم .. وإقامة منشآت وأندية رياضية .. وغيرها كثير من المصالح المرسلة النافعة .. التي تتوافق مع روح وتعاليم ومقاصد الشريعة العامة.

٣- أن لا يؤدي العمل بالمصلحة المرسلة إلى تفويت مصلحة مرسلة أعظم منها .. لأن الإسلام جاء بتحصيل أعظم المصالح الممكنة .. وليس بمجرد تحصيل المصالح وحسب.

مثال ذلك: كمن ينشغل بعلوم مباحة نافعة، على حساب علوم أكثر فائدة ونفعاً وإلحاحاً .. كأن ينشغل بعلوم الشعر والأدب، على حساب علوم القرآن، والعقيدة والفقه.

مثال آخر: عندما تتوفر إمكانية إنشاء مستشفى أو نادٍ رياضي .. ولا بد من اختيار أحدهما، إذ لا يمكن الجمع بينهما؛ فلو اخترت إنشاء نادٍ رياضي فوَّتَّ إنشاء المستشفى .. ولو اخترت إنشاء المستشفى فوَّت إنشاء النادي الرياضي .. فالمصلحة الأعظم التي ينبغي تقديمها هنا، والأقرب إلى مقاصد الشريعة العامة هي إنشاء المستشفى .. ولو أقمت النادي الرياضي على حساب المستشفى .. لوقعت في الحرج والإثم.

ـ مسائل متفرقة:

. المسألة الأولى: أحياناً الأمر الواحد يتضمن مصالح ومفاسد .. فكيف التوفيق، وكيف يكون العمل؟

أقول: ننظر في هذا الأمر فإن رجحت المصالح فيه على المفاسد، فُعِل، وإن رجحت المفاسد على المصالح، تُرِك .. فهذا الذي دل عليه النقل، والعقل، ومما لا خلاف فيه.

أما في حال تساوت في الأمر أو الشيء الواحد المصالح والمفاسد من كل وجه، وصعب الترجيح بينها .. فالراجح في هذه الحالة الترك .. لأن فعله لا يغير من واقع الأمر شيئاً، وهو كمن يزيل مقداراً معيناً من موضع ثم يضع مثله .. يزيل منكراً ثم يضع مثله .. يبني قدراً من العمارة ثم يهدمه .. فلا الخير زاد على الشر، ولا الشر قد زاد على الخير .. وهذا من العبث، والمضيعة للأوقات والطاقات من غير فائدة تُذكر، ونحن أمة محمدٍ صلى الله عليه وسلم نُهينا عن العبَث، وتضييع الأوقات!

وللقاعدة الفقهية المتفق عليها، والتي تنص على أن " درء المفاسد، مقدّم على جلب المصالح ". فهذه القاعدة الفقهية يُعمل بها في هذا الموضع .. وفي الموضع الذي ترجح فيه السيئات على الحسنات، أو المفسدة على المصلحة.

. المسألة الثانية: أحياناً تَرِد مصلحتان معتبرتان شرعاً في آنٍ واحد، لا بد من اختيار إحداهما .. فكيف يكون الاختيار، والعمل؟

أقول: عندما ترد مصلحتان معتبرتان شرعاً، لا يمكن التوفيق أو الجمع بينهما .. إذ لا بد من اختيار إحداهما أو خسارتهما معاً .. فهنا تقدم المصلحة الراجحة على المصلحة المرجوحة، والمصلحة الكبرى على المصلحة الصغرى.

وتقدير المصالح الراجحة من المصالح المرجوحة ينبغي أن يتم وفق مراعاة المقاصد الكلية والعامة للشريعة، وبحسب التسلسل، وهي: الدين، ثم النفس، ثم العقل، ثم النسل أو العِرض، ثم المال .. فلو تعارضت مصلحة النفس مع مصلحة الدين والتوحيد، قُدمت مصلحة الدين والتوحيد على مصلحة النفس، وعلى ما سواها من المصالح، كما في شأن الجهاد وغيره .. ولو تعارضت مصلحة المال مع مصلحة النفس أو العقل أو العِرض .. قُدمت مصلحة النفس، والعقل، والعِرض .. فهذا الضابط لا بد من مراعاته عند النظر والتمييز بين أعظم وأكبر المصالح من أصغرها وأقلها، وإلا خضعت الأمور للأهواء، والرغبات الشخصية!

فإن تساوت المصلحتان من كل وجه .. فكيف يكون الاختيار؟

أقول: في هذه الحالة يُنظر إلى أكثر المصلحتين قرباً وانسجاماً مع روح الشريعة ومقاصدها .. فتقدم على الأخرى .. فإن تساوتا في هذا الجانب أيضاً، يُنظر حينئذٍ إلى أقرب المصلحتين إلى

التيسير، والرفق، فتقدم على الأخرى .. فالنظر إلى جانب التيسير والرفق في أي أمر من أمور الدين والشريعة عامل من عوامل الترجيح عند مورد الاختيار، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قل:" إنَّ اللهَ رفيقٌ يُحبُّ الرِّفقَ في الأمرِ كُلِّه " البخاري.

وقال ﷺ:" إنَّ الرِّفقَ لا يكونُ في شيءٍ إلا زانَهُ، ولا يُنزَعُ من شيءٍ إلا شانَه " مسلم.

وقال ﷺ:" عَلِّموا، ويَسِّرُوا ولا تُعَسِّروا، وبَشِّرُوا ولا تُنَفِّروا "[٢٧٣].

وعن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت:" ما خُيِّرَ رسولُ الله ﷺ بين أمرين إلا أخذَ أيسرَهُما، ما لم يكُن إثماً كان أبعدَ الناسِ منه " متفق عليه.

. المسألة الثالثة: أحياناً ترد مفسدتان في آنٍ واحد، دل الشارع على فسادهما وبطلانهما .. لا بد من اختيار إحداهما .. فكيف يكون الاختيار، والعمل؟

أقول: عندما ترد مفسدتان معلوم من الدين فسادهما وبطلانها، وفي آنٍ واحد .. وقد تعسر دفعهما معاً، وتعين الاختيار، فيُختار حينئذٍ الأقل مفسدة وضرراً .. فيُدفَع الضرر الأكبر بالضرر الأصغر، والمفسدة الكبرى بالمفسدة الصغرى، ولا بد.

كما في قصة خرق السفينة من قبل الخضر عليه السلام؛ كما في قوله تعالى:﴿ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾؛ فأحدث الخضر عليه السلام في السفينة خرقاً وعيباً فنزع لوحاً من ألواحها يعيقها عن المضي .. وهذه مفسدة، حملت موسى عليه السلام على أن يقول للخضر ﴿ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً ﴾الكهف:٧١. أي منكراً عظيماً .. لكن لما كانت هذه المفسدة اضطرارية من أجل دفع مفسدة أكبر وأعظم . وهي أن ملكاً ظالماً يسطو على كل سفينة يجدها سليمة في البحر من أي عيب، فيأخذها لنفسه بالقوة ومن دون مقابل .كان فعلها جائز من قبيل دفع الضرر الأكبر بالضرر الأصغر، لذا جاء جواب الخضر عليه السلام لموسى عليه السلام:﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾الكهف:٧٩. وبعد أن يمضي الملك .. ويترك السفينة .. يعود الخضر عليه السلام فيصلح السفينة ثانية .. لتبقى لأصحابها المساكين.

ومن الأمثلة الدالة على صحة ما تقدم ذكره، موضوع التترس كما هو في الفقه الإسلامي؛ وذلك عندما يضطر المجاهدون أن يردوا عدوان العدو عن البلاد والعباد، فيصيبوا بذلك بعض من تترس بهم العدو ممن صان الشارع حرماتهم ودماءهم .. وهذا ضرر .. ولكنه لما كان ذلك من أجل دفع ضررٍ أكبر، وشرٍّ أكبر عن البلاد والعباد لا يمكن دفعه ورده إلا من خلال ارتكاب ذلك الضرر الأصغر، جاز.

---

[٢٧٣] رواه أحمد، صحيح الجامع:٤٠٢٧.

كذلك عندما يُخير المرء بين أن يموت جوعاً أو عطشاً .. أو يأكل من لحم الخنزير، أو يشرب من الخمر .. ما يبقيه على قيد الحياة .. فأكل لحم الخنزير، وشرب الخمر مفسدة عظيمة .. ولكن لما كانت هذه المفسدة لضرورة دفع مفسدة أعظم وأشد منها؛ وهي هلاك النفس .. جازت من قبيل دفع الضرر الأكبر بالضرر الأصغر، والمفسدة الكبرى بالمفسدة الصغرى، وعلى مثل هذه الحالات تحمل القاعدة الفقهية المتفق عليها:" الضرورات تبيح المحظورات ". قال تعالى:﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾البقرة:١٧٣. وقال تعالى:﴿ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾الأنعام:١١٩.

وما قلناه من قبل من أن تقدير المصالح، ومعرفة الراجح من المرجوح منها ينبغي أن يتم وفق مراعاة المقاصد الكلية والعامة للشريعة، وبحسب التسلسل، وهي: الدين، ثم النفس، ثم العقل، ثم النسل أو العِرض، ثم المال .. كذلك نقوله عند تقدير المفاسد، ومعرفة الأشد ضرراً ومفسدة، فالضرر والمفسدة في الدين والتوحيد، أشد ضرراً ومفسدة من الضرر في النفس، والضرر والمفسدة في النفس أشد ضرراً من الضرر في العقل، والضرر والمفسدة في العقل أشد ضرراً ومفسدة من الضرر في النسل أو العِرض، والضرر والمفسدة في العِرض أشد ضرراً ومفسدة من الضرر في المال .. فهذا التسلسل لا بد من مراعاته عند تقدير المفاسد، والعمل على دفع الأعلى من المفاسد بالتي هي أدنى منها.

فإن قيل: في حال تساوت المفسدتان في الضرر والإفساد .. وتعسّر دفعهما معاً .. فكيف السبيل، وما العمل، وأيتهما التي تُقدَّم، وأيتهما التي تُؤخّر؟

أقول: في هذه الحالة تُزال المفسدة التي تكون إزالتها أكثر قرباً وتحقيقاً لمقاصد الشريعة وروحها من الأخرى .. فإن تعسّر الترجيح في هذا الجانب .. حينئذٍ فبأيهما بدأت وقدمت، وأيهما أخرت .. فلا حرج عليك بإذن الله، لقوله تعالى:﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾التغابن:١٦. ولقوله تعالى:﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾البقرة:٢٨٦.

. المسألة الرابعة: مراعاة المآلات عند فعل المصالح المعتبرة شرعاً ..؟

من المصالح المعتبرة شرعاً لا يجوز الاقتصار على فعلها من دون النظر إلى مآلات الفعل، وما قد يترتب عليه لاحقاً من مصالح ومفاسد، على اعتبار أنها مصالح مشروعة، ويجوز القيام بها!

أحياناً المصلحة المعتبرة الجائزة شرعاً، يكون لها حكم المفسدة . من حيث الحظر والمنع . على اعتبار مآلاتها، وما ينتج عن فعلها من آثار، لا على اعتبار أن الفعل ذاته لا يجوز فعله .. وهذا جانب هام جداً، لا بد من مراعاته، والانتباه إليه عند تقدير المصالح والمفاسد؛ إذ لا يجوز للمرء أن

يقتصر نظره على الثمار والمصالح الآنية لفعله، من دون أن ينظر إلى مآلات فعله البعيدة، وما يترتب عليه من مصالح ومفاسد محققة.

وسنة الحبيب ﷺ قد دلت على هذا الفقه العظيم، وأرشدتنا إليه .. فرغم أذية رأس النفاق ابن سلول للحبيب ﷺ والمسلمين .. وما يترتب على قتله الجائز من مصالح معتبرة ومشروعة . وقد أشار بعض الصحابة على النبي ﷺ بقتله . إلا أن النبي ﷺ امتنع عن قتله، معتبراً المفاسد التي سيؤول إليها الفعل، والفتنة التي قد تحصل بين المسلمين بسبب قتله، وما يمكن أن يقوله الكفار والمشركون عن النبي ﷺ ودعوته، فعلل منعه ﷺ من قتله بقوله:" والله لو قتلته يومئذ . أي يوم أن طالب بعض الصحابة بقتله . لأرغمت أنوف رجال .. فيتحدث الناس أني قد وقعت على أصحابي فأقتلهم صبراً "!

فإذا كان قتل منافق معلوم النفاق .. سيؤدي إلى مثل هذه الفتنة؛ إلى تفرق وتقاتل الأصحاب والإخوان .. وأن يتحدث الناس أن المسلمين يقتلون بعضهم بعضاً، وفي ذلك من التنفير والضرر ما فيه .. فالأولى حينئذٍ الإمساك عن قتل هذا المنافق الذي يُظهر نفاقه .. وإن كان قتله في الأصل جائزاً .. فليس كل جائزٍ يجب القيام به، بغض النظر عن المصالح والمفاسد التي سيؤدي إليها فعل هذا الجائز لاحقاً.

ونحو ذلك قول النبي ﷺ لأم كبشة وقد استأذنته أن تغزو معه، وأنها تداوي الجريح، وتقوم على المريض؟ فقال رسول الله ﷺ:" اجلسي؛ لا يتحدثُ الناسُ أن محمداً يغزو بامرأةٍ "[٢٧٤]. فعلل منعها من الغزو معه حتى لا يتحدث الناس أن محمداً ﷺ ومن معه من المؤمنين من الضعف ما حمله على أن يغزو العدو بامرأة، وما لحديثهم حينئذٍ من أثر معتبر على معنويات جند الإسلام .. ورفعة لمعنويات جند العدو .. فغزو أم كبشة مع النبي ﷺ من أجل مداواة الجرحى جائز، ومصالحه لا تخفى .. ولكن لما كانت هذه المصالح المعتبرة شرعاً ستؤدي إلى مفاسد راجحة أعظم منها .. امتنع النبي ﷺ عن أخذها، وأمرها بالجلوس.

وكذلك الحديث الذي يرويه أبو هريرة ﷺ، أنَّ رجلاً سأل النبي ﷺ عن المباشرَةِ للصائِمِ، فرَخَّصَ له، وأتاهُ آخرُ فنهاهُ؛ فإذا الذي رخَّص له شيخٌ، والذي نهاهُ شابٌّ[٢٧٥]. رخص للشيخ لكونه تُؤمَن عليه الفتنة، بينما لم يرخص للشاب لكونه لا تؤمن عليه الفتنة، ولاحتمال أن توقعه المباشرة في المحظور .. فنظر النبي ﷺ إلى المآلات، وما قد ينتج عن الرخصة من آثار، علماً أن المسألة واحدة والأصل فيها الجواز.

---

[٢٧٤] أخرجه ابن سعد وغيره، السلسلة الصحيحة: ٢٨٨٧.

[٢٧٥] صحيح سنن أبي داود: ٢٠٩٠.

كذلك يُروى عن ابن عباس ﷺ أن رجلاً سأله: هل للقاتل توبة؟ فقال ابن عباس: لا؛ ليس للقاتل توبة! ولما رُوجِع ابن عباس في جوابه، على اعتبار أن التوبة تجب ما قبلها ولو كان كفراً وشركاً، وهو أشد من القتل، فأجاب:" رأيت في عينيه رغبةً في القتل، فأردت منعه ". فاعتبر ﷺ المآلات .. وهذا فقه عظيم لا بد من الانتباه إليه عند الحديث عن المصالح والمفاسد، وعند تقدير المصالح والمفاسد، والمراجحة فيم بينها، والله تعالى أعلم.

ومن لوازم العمل بهذا الفقه العظيم، إن جالس الداعية إلى الله تعالى فريقاً من الغلاة المتشددين الذين يجنحون في سلوكهم وأفكارهم إلى الغلو والتشدد .. أن لا يتكلم معهم عن آيات الوعيد .. وما أعد الله للمخالفين المفرطين من عذابٍ أليم .. فيزيدهم بذلك طغياناً وغلواً .. وإنما يتكلم معهم عن آيات الوعد .. وعن سعة رحمة الله تعالى .. وعن حبه للعذر .. وما أعد الله للمؤمنين والتائبين من جنانٍ ونعيم مقيم .. فيأطرهم بذلك إلى التوسط والاعتدال.

كذلك لو جالس فريقاً من أهل التجهم والإرجاء والتفريط .. لا يتكلم معهم عن آيات الوعد والرحمة، وعن سعة رحمة الله تعالى .. وسعة توبته .. وعن حبه ﷻ للعذر . وإن كان ذلك حقاً . فهذا يزيدهم طغياناً وتفريطاً وتواكلاً .. وإنما يتكلم معهم عن أهمية العمل في الإسلام .. وعن الوعيد الشديد لمن يفرط بالأعمال الشرعية .. ليأطرهم إلى الحق، إلى التوسط والاعتدال.

كذلك لو جالس قوماً قد غرهم الأمل والرجاء، والأمن .. أو قوماً قد وقعوا في اليأس والقنوط من رحمة الله .. فيعطي كل فريق منهما ما يناسبه، وعكس ما يعطي الفريق الآخر .. ليأطرهما إلى التوسط والاعتدال فيما قد خالفوا فيه .. فإن لم يتنبه لهذا الفقه .. زاد الطين بلة .. والخرق اتساعاً .. والانحراف انحرافاً!

هذا الفقه؛ فقه اعتبار المآلات، فقه عظيم، مجالاته العملية واسعة جداً .. لو تنبهنا إليه، وأحسنا التعامل معه بعلم وتقوى، وإخلاص .. والحمد لله رب العالمين.

* * * * *

١٥- ... يتبع إن شاء الله.

. تنبيه: هذا البحث قابل للتحديث والإضافة إلى أن ننتهي . بإذن الله تعالى . من شرح المفاهيم والمصطلحات الواردة والمقرر بحثها .. والذي حملنا على نشر هذا الكتاب قبل إنجازه وإتمامه .. هي الرغبة في تسريع إيصال الخير وما تم إنجازه إلى يد القارئ .. رجاء تحصيل الفائدة والنفع في أقرب وقت ممكن .. ولأن كل مفهوم له بحثه الخاص به؛ فنشره غير مرتبط بغيره من المفاهيم والمصطلحات، كما أن فهمه غير مرتبط ارتباطاً مباشراً بغيره من المفاهيم والمصطلحات.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٢
لا إله إلا الله	٤
محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم	١٤
العبادة	٢٠
الدين	٤٢
الإيمان	٥٢
الأسماء والصفات	٧٧
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٩١
الجهاد	١٢٢
الشهادة	١٥٢
الولاء والبراء	١٧٥
التقية وفقه الاستضعاف	١٩٣
الحكم والحاكمية	٢٠٥
الوسطية	٢٢٩
المصلحة	٢٣٤